الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة الجيلالي اليابس سيدي بلعباس
كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية
قسم العلوم الإنسانية

أبو القاسم سعد الله حياته و أعماله

أطـــروحة مقدمة لنيل شـــهادة الدكتـــوراه ل.م.د الحلقة الثالثة

تخصص: تاريخ الحركة الوطنية و الثورة الجزائرية

إعداد الطالبة الباحثة:
مريم خالدي

إشراف الأستاذ الدكتور:
إبراهيم لونيسي

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	الإسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
01	مجاود محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	رئيسا
02	لونيسي إبراهيم	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	مشرفا ومقررا
03	بوشنافي محمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	مناقشا
04	عسال نور الدين	أستاذ محاضر (أ)	جامعة تلمسان	مناقشا
05	عابد سلطانة	أستاذ محاضر (أ)	جامعة معسكر	مناقشا
06	قبايلي هواري	أستاذ محاضر(أ)	جامعة معسكر	مناقشا

السنة الجامعية 2018/2017م



قلمي لا يهدأ له بال، ولا يستقر له بلبال ... فالكتابة عندي هي دوائي وهي دائي، هي غذائي و هي هوائي. فإذا كتبت رضيت عن نفسي وإذا لم أكتب سخطت عنها ومر اليوم كأنه سرق من عمري.

أبو القاسم سعد الله - حبر على ورق- ص 5

الاهداء

إلى روح الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله

إلى الوالدين الكريمين اللذين دفعاني إلى معترك الحياة بكل ثقة وإعتزاز

إلى العائلة الكريمة

إلى كل الاصدقاء

إلى هؤلاء جميعا أهدي ثمرة هذا العمل

شكر وعرفان

يسعدني وأنا أضع اللمسات الأخيرة لهذا العمل أن أتقدم بالشكر الجزيل الى الأستاذ المشرف الدكتور لونيسي ابراهيم على ما قدمه لي من توجيهات ونصائح طيلة مسيرة هذا البحث، كما لا يفوتني فرصة تقديم خالص الشكر و الامتنان لكل من ساعدني في إنجاز هذا البحث وأخص بالذكر الأستاذ محمد مبخوتي و الأستاذ عبد المجيد الفضة

كما أسدي جزيل شكري إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة على جهودهم المضنية في تقدير وتقيم هذا البحث، وعلى ملاحظاتهم وتوجيهاتهم القيمة لاثراء هذا العمل.

مقدمة

درجت الأمم و الشعوب على الإحتفاء برجالاتها و عظمائها، سواء من حيث النبوغ العلمي و الثقافي أو من حيث الإسهام الفعال في الحياة السياسية و الوطنية، و الجزائر إحدى البلدان التي تملك من التراث التاريخي و الفكري ما يبوئها مترلة مرموقة بين الأمم، الأمر الذي يفرض عليها البحث و التنقيب عن ذاكرتها الجماعية بكل الوسائل المتاحة، و يأتي هذا العمل في ذات السياق بهدف الكشف عن آثار شخصيات كان لها عظيم الأثر في بعث نهضتها الثقافية و الفكرية، في حقل الإبداع و الفكر و الأدب و التاريخ، و لعل في طليعة هؤلاء المؤرخ **أبو القاسم سعد الله** أحد أبرز المثقفين الذين سجلوا آلاف من الصفحات الخاصة بالحياة الفكرية و الثقافية للجزائر.

واكب سعد الله حركية النهضة الفكرية إبّان الإستعمار على يد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فما كان منه إلا أن اقتفى أثرهم و ترسم خطاهم، و منح للإستمرارية العلمية روحاً متجددة خاصة بعد انضمامه للأسرة الجامعية ، حيث أرسى قواعد المنهج الأكاديمي من خلال مؤلفاته الكثيرة في التاريخ و الأدب و الرحلة و الترجمة و التحقيق.. فالأستاذ سعد الله خدم المجتمع الجزائري خدمة تاريخية، و ثقافية و أدبية ولغوية و تربوية، و نقدية قلما نجدها عند غيره من أعلام الفكر الجزائري قديما و حديثاً و آثاره الخالدة التي تربوا على الخمسين مجلداً شاهدة على سيرته العلمية و على مكانة المرموقة في عوالم الفكر التي إرتقى إليها، فكتاباته في شتى المجالات أبانت عن رسوخ قدمه و عمق إطلاعه و ثقافته الموسوعية، لأن الجمع بين هذه الإختصاصات عند التأليف و الدراسة عز وجوده في زمن الإختصاص العلمي، و هذا ما يؤكد على نوعية الشخصية العلمية للأستاذ أبي القاسم سعد الله الذي ينفرد عن معاصره بهذه الميزة التي أهلته لأن يكون مرجعية فكرية للباحثين داخل و خارج الوطن.

و يقف أبو القاسم سعد الله في الطليعة النخبوية التي ساهمت في وضع اللبنات الأولى لبناء مدرسة تاريخية جزائرية و أحد أهم أعمدتها من خلال تدريسه و إشرافه على العديد من الرسائل الجامعية، و كذلك بكتاباته و أبحاثه و آرائه حول مختلف القضايا التاريخية ، مما جعله يترك بصمات واضحة على هذه المدرسة. فرصيد هذه المؤرخ جعله من المثقفين الجزائريين الأوائل الذين استطاعوا إثبات وجودهم في الساحة الثقافية الجزائرية، و حتى الدولية، و هذا ما دفع بالبعض من الذين لهم باع كبير في ميدان الثقافة أن يقولوا فيه كلمة حق فهو مؤرخ الأجيال، شيخ المؤرخين الجزائريين...إلخ. فالأستاذ سعد الله يعتبر بحق أحد لبنات التاريخ الوطني الجزائري و أحد مرجعياته العلمية، فمن خلال الرصيد الفكري و الثقافي الذي تركه، إرتسمت لنا المكانة التي إحتلها و تبين حجم التأثير الذي تركه في ميادين الفكر و الثقافة والتاريخ خاصة، من خلال مواقف

ورؤى تستحق الدراسة؛ ومن هنا جاءت فكرة البحث حول هاته الشخصية بموضوع موسوم بـــ أبو القاسم سعد الله حياته و أعماله (1930-2013م).

1- دوافع إختيار الموضوع:

هناك أسباب عديدة دفعتني لإختيار هذا الموضوع من أهمها:

أولا: تأثرنا بهاته القامة السامقة في سماء الجزائر علماً و أخلاقاً و تضحية...لعل بداية التأثر كانت عند قراءة عابرة في كل ما كتب عنه و دون بعد وفاته، و من ثم دفعني فضولي إلى معرفة المزيد حول هاته الشخصية .

ثانيا: غياب دراسة أكاديمية خاصة بشخصية، و أعمال أبو القاسم سعد الله، كرائد من رواد الثقافة الجزائرية و مؤرخ له فضل السبق في بعث تراثها الثقافي بالخصوص بعد أن كان يقرن تاريخها فقط بالبطولات الحربية، و الثورات العسكرية عبر قرون.

ثالثا: أردنا من خلال تقديم دراسة حول الاستاذ أبي القاسم سعد الله التنويه بأعماله و إسهاماته في حقول الأدب و التاريخ و الترجمة و التحقيق، و الإبداع، فقد عكف مترجمنا لسنوات طوال في التأريخ لهذا الوطن و تأصيل جذوره الحضارية بعد التشويه الذي طال تاريخينا من طرف مؤرخي المدرسة الإستعمارية، كما أن في دراسة السيرة العلمية للأستاذ سعد الله النموذج و قدوة لكل باحث في التقصي و في أخلاقيات البحث العلمي، لأن سيرته الأكاديمية ثرية بالأعمال و المواقف التي تزيده مكانة علمية و إنسانية و تجعل منه موسوعة قائمة بذاتها تستحق الدراسة لنستوفيها حقها، و في سعد الله النموذج لكل طالب علم لا تغريه ماديات الحياة لأن المثابرة و العمل و التواضع كانتا الركيزة التي عاش بها ولها الأستاذ سعد الله، و هاته الدراسة تأتي للكشف عن هذه الجوانب و أخرى في شخصية مؤرخنا القدير.

2- إشكـــالية البحـــــــث:

تتمحور إشكالية البحث في نقطة جوهرية تتمثل في إبراز شخصية أبي القاسم سعد الله كنموذج من المثقفين الجزائريين عن طريق إستعراض أهم جوانب سيرة و مآثر هذه الشخصية و تحديد المعالم الكبرى لجهوده و أعماله، و من خلال هذا تتمحور إشكالية هذا البحث فيما يلـــــــي:

من هو أبو القاسم سعد الله ؟ و ما هي أهم جهوده و إسهاماته العلمية ؟ و سنحاول الإجابة عن هذه الإشكالية من خلال مجموعة من التساؤلات الفرعية و التي نجملها فيما يلي.

- ما هي العوامل الإجتماعية و الثقافية و السياسية التي ساهمت في تكوين شخصية أبو القاسم سعد الله ؟
- ما هو دوره في الثورة و في أوساط الحركة الطلابية ؟
- كيف كانت تجربته الأدبية ؟ و إلى أي مدى ساهم في إثراء الأدب الجزائري الحديث ؟
- ما هي أهم الملامح العلمية للكتابة التاريخية عند أبي القاسم سعد الله ؟ و كيف كان منهجه فيها؟ و إلى أي مدى ساهمت في التأسيس لمدرسة تاريخية وطنية جزائرية ؟
- ما هي قراءات المدرسة الإستعمارية لتاريخ الجزائر و موقف سعد الله منها ؟ وهل كانت كتابات سعد الله التاريخية عبارة عن ردود فعل لما انتجته المدرسة التاريخية الاستعمارية؟
- ما هي أهم جهوده وأعماله في حقلي الترجمة والتحقيق؟ وكيف كان منهجه فيهما ؟
- ما مدى حضور القضايا الوطنية و قضايا الأمة العربية في فكر سعد الله ؟

3- حدود الدراسة:

نعتقد أن الإطار التاريخي للموضوع يمتد منطقيا من ميلاد أبي القاسم سعد الله سنة 1930م إلى غاية وفاته سنة 2013م، و قد جمعت هاته المرحلة من حياته بين مرحلتي الإستعمار و الإستقلال، وضمّت في نفس الوقت إسهاماته و جهوده العلمية في شتى المجالات، بالإضافة إلى أن المرحلة حافلة بلا شك بالأحداث التاريخية و التحولات الإجتماعية و الثقافية و السياسية نستطيع من خلالها ملامسة تأثيراتها المختلفة على شخصية مؤرخنا.

4- منهج الدراسة:

من أجل الإجابة عن التساؤلات المطروحة و التحكم في الموضوع استلزمت الدراسة إتباع المناهج التالية:

أ- المنهج التاريخي الوصفي: إعتمدته في عرض الوقائع و تتبع الأحداث التاريخية ووصفها مرتبة حسب التسلسل الزمني في تتبع حياة أبو القاسم سعد الله.

ب- المنهج التحليلي، وقد إتبعته عندما قمت بعرض و تحليل ثم تصنيف المادة العلمية حسب كل مرحلة من مراحل البحث و في تحليل آثار و إسهامات أبو القاسم سعد الله و إسقاط الأحكام و النتائج بكل موضوعية قدر الإمكان.

5- صعوبات الدراسة:

مثل كل باحث فقد واجهتني بعض الصعوبات يمكن حصرها فيما يلي:

1- الصعوبة التي واجهتني في بداية هذا البحث هي تشعب و تعدد المجالات التي خاض فيها المؤرخ أبو القاسم سعد الله ، فثقافته الموسوعية جعلته يطرق مواضيع و حقول معرفية عديدة، بداية بتخصصه في حقل الدراسات الأدبية، ثم التاريخية و تنقله بين مواضيع تراثية و ترجمة العديد من الدراسات، و هو ما كلفنا قراءة و إستيعاب و إستنتاج كل ذلك لفترة غير قصيرة.

2- صعوبة الإتصال بعائلة الفقيد أبو القاسم سعد الله و خصوصاً، زوجته أم أحمد و التي تلقينا إعتذارها من طرف إبنها أحمد سعد الله عن إجراء أي إتصال لتأثرها حد الساعة بوفاة زوجها أبو القاسم سعد الله، و بالتالي حرمنا من مؤنس قريب من مؤرخنا قد يفيدنا في تجلية العديد من الحقائق حول شخصيته.

3- ضيق الوقت المخصص للبحث بالنظر الى الكم المعرفي الهائل، و الثقافة الموسوعية لشّخصية محل الدراسة و إنجازها في مدة 03 سنوات.

6 -الدراسات السابقة للموضوع:

نعتقد أن هذه الشخصية لم تأخذ نصيبها من الدراسة التاريخية فلم أعثر على- الأقل في حدود ما بحثنا- على دراسة أكاديمية مستقلة عن حياة و أعمال الأستاذ أبو القاسم سعد الله، وما وجدناه هو بعض الدراسات الأكاديمية التي تناولت الجانب الأدبي في أعماله مثل أطروحة دكتوراه بعنوان "الكتابة الأدبية عند أبي القاسم سعد الله" لعبد السلام ضيف بجامعة باتنة، وأخرى بعنوان " النقد الأدبي عند أبي القاسم سعد الله" لزين حفيظة بجامعة قسنطينة (1)، و بعض رسائل الماجستير كلها تخص هذا الجانب، كما افرد له الشاعر حسن فتح الباب دراسة خاصة بشعره بعنوان " أبو القاسم سعد الله شاعر"، و نجد بعض الأعمال و النداوت التكريمية التي أقيمت سواء قبل أو بعد وفاته مثل الندوة التكريمية التي قام بها مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية لجامعة منتوري بقسنطينة، و أعمال الملتقى الدولي "أبو القاسم سعد الله مؤرخاً ومفكراً" بجامعة حمه الأخضر بوادي

سوف، ضمت هاته الأعمال بعض الشهادات و الدراسات التي تخص جوانب من سيرته و أعماله بينما وجود دراسة نقدية لأعماله و أهم جوانب سيرته عموما فحسب علمنا لا توجد.

7- وصف أهم مصادر البحث و مراجعته:

لقد اعتمدنا في هذه الرسالة على كم وفير من المصادر و المراجع المتنوعة تمايزت في أهمتها حسب علاقتها بالموضوع من أهمها :

أولا : المصادر :

أ- مؤلفات المترجم له:

بالنسبة للمصادر المعتمدة في هذه الرسالة شكلت الكتب التي ألّفها أبو القاسم سعد الله مصدر ثراء البحث، وقد استعنت بالمجموعة الكاملة التي صدرت عن دار عالم المعرفة، و التي تربوا عن الخمسين مجلداً، وقد أفدت منها بالدرجة الأولى في جمع المادة العلمية للموضوع و يمكن تصنيفها حسب إفادتي منها فيما يلي:

- يوميات و مذكرات المترجم له: فيما يخص يومياته وهي في حوالي 7 أجزاء غطت المرحلة ما بين (1955-2002م)، تحدث فيها الشيخ عن يومياته بالقاهرة و أمريكا و الأدرن، و مذكراته التي صدرت بعد وفاته، تحدث فيها عن مسيرة حياته من مولده إلى غاية التحاقه بجامعة الجزائر سنة 1967 ولعله كان في نية الشيخ إخراج الجزء الثاني منه، إلا أن القدر سبقه فلم يصدر إلا جزء واحد منها، أفادتني يومياته و مذكراته كثيراً فيما يتعلق بالفصول الثلاثة الأولى و يتعلق الأمر بمسيرة حياته أو نشأته الأولى و مسيرته العلمية و أهم نشاطاته الطلابية أيام الدراسة، و كذا مهامه التعليمية أو التربوية طوال مسيرته المهنية.

- مؤلفاته التاريخية: خاصة التاريخ الثقافي، و كتابه أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، و الحركة الوطنية، و التي أفدت منهم كثيراً في التعرف على ملامح و منهج الكتابة التاريخية عند أبي القاسم سعد الله وأهم أبعادها.

- مؤلفاته في التحقيق و الترجمة: فيما يخص جميع مؤلفاته في هاذين الحقلين فقد أفدت منها كثير في التعرف على منهجية و خصائص مؤرخنا في الترجمة و التحقيق، كما إستعنت بهم لمعرفة أهم جهوده و إسهاماته في هذين الحقلين.

– مؤلفاته الإبداعية التأملية: و خاصة فيما يتعلق بمؤلفه قضايا شائكة وهموم حضارية ومنطلقات فكرية و أفكار جامحة و في الجدل الثقافي و غيرها، فكانت هاته المؤلفات نافذة للإطلاع على أهم الموافق و الرؤى التي تبناها أبو القاسم سعد الله حول مختلف القضايا السياسية و الثقافية و التاريخية.

ب– الصحف و المجالات:

و تعتبر أهم المصادر التي تعكس حقيقة المواقف في وقتها و قد كتب الأستاذ سعد الله في العشرات منها و كانت أكثر بصماته فـــــي:

– جريدة البصائر: لسان حال جمعية العلماء المسلمين سعى سعد الله بأن يكون له مكان خاص به على صفحاتها، عندما كان طالباً بجامع الزيتونة، و كان مؤرخنا يراسلاها بقطع شعرية و مقالات وقصص نشرت له جريدة البصائر بعضاً منها استطعنا الوقوف على بعضها، كما كان يراسها باعتباره مسؤولا عن جمعية البعثة الزيتونية، حول نشاطات البعثة، و بعد إنتقاله إلى القاهرة و قبل توقف الجريدة بشكل نهائي كانت تخصص له ركن سمي بـــ (رسالة القاهرة)، تمثل بمراسلتها عن نشاط الشيخ الإبراهيمي و النشاط الثقافي عموماً في القاهرة.

– مجلة الآداب البيروتية: هي مجلة تصدر في بيروت عن دار الآداب اللبنانية، تأسست في سنة 1953، حيث تعتبر سجلاً بارزاً لحركة الأدب و الثقافة في العالم العربي، وقد راسلها أبو القاسم سعد الله منذ أيام الطلب بتونس و حتى بعد ذهابه للقاهرة، إذ حوت المجلة على مساهمات أدبية كبيرة لمؤرخنا، أفدنا منها كثيرا في التعرف عل إسهاماته الأدبية، و أشعاره الثورية الحماسية التي كانت المجلة تنشرها له.

– مجـــــلة الثقافـــة: التي كانت تصدر عن وزارة الثقافة و الإعلام و هي مجلة غنية بالموضوعات ضمت أقلاماً جزائرية و عربية هامة، وقد أثرى مؤرخنا بعض أعدادها بدراسات تاريخية متنوعة بعد الإستقلال.

–جريدة الشعب: و هي جريدة يومية وطنية كتب فيها سعد الله العديد من المقالات التي كانت تعبر عن مواقفه من بعض القضايا العامة السياسية و الثقافية و الإجتماعية و غيره

جـــ– الكتـــب و الرسائـــــل: صدرت بعض الدراسات لكُتَّابْ ومؤرخين جزائريين قمنا بتصنيفها في خانة المصادر نظرا لما احتوت عليه من معلومات ضرورية للبحث في شخصية أبو القاسم سعد الله و خاصة كتاب الأستاذ مراد وزناجي بعنوان: ' حديث صريح مع أ.د أبو القاسم سعد الله في الفكر واللغة و التاريخ '

ضم في ثناياه حوارات أجراها الكاتب مع الأستاذ سعدالله شملت مسيرة حياته العلمية و النضالية و جملة من آرائه و مواقفه من بعض القضايا و الذي جعلنا نصف مؤلف وزناجي في قائمة المؤلفات المصدرية ، هو و كما صرح به لنا أن أجوبة الحوارات التي تمت بينه و بين سعد الله كانت بخط يده ووقوف سعد الله نفسه على مراجعة الكتاب كاملا.

أما الرسائل فقد كانت هناك مراسلات لأبي القاسم سعد الله مع طلابه، يمكن إستخلاص منها معلومات قيمة تخص شخصيته، وقد نشر بعض طلبته بعضاً منها. وقد وقفنا على بعضها و يتعلق الأمر بالرسائل التي نشرها الأستاذ سعيدوني وقد ضمنها في كتابه أبي القاسم سعد الله كلمة وفاءاً، و الأستاذ لونيسي ابراهيم و الأستاذ لحسن بن علجية التي نشرها في كتابه (رسائل في التراث و التاريخ) وغيرها.

د- المقابلات و الشهادات:

أدلى العديد من رفقاء و طلاب و محبي أبو القاسم سعد الله شهاداتهم حول فقيدهم و هي مجموعة في عدد من الإصدارات التي آثر بعض طلابه جمعها تقديراً لروح الأستاذ أبو القاسم سعد الله نذكر منها كتاب محمد الأمين بلغيث (رحيل الشيخ المؤرخين الجزائريين)، و كتاب نجيب بن خيرة (أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة)، و الإصدار الذي خصصته المكتبة الرئيسية للمطالعة العمومية بوادي سوف بمناسبة أربعينية أبو القاسم سعد الله بعنوان (من وحي الذكرى)، وقد ضمت هاته الإصدارات مجموعة من الشهدات استطعنا من خلالها الكشف عن جوانب خفية من سيرة مؤرخنا خصوصاً ما تصل منها من صفات و مناقب.

أما المقابلات الشخصية فمن حسن حظي أنني تحت إشراف طالب من طلاب الأستاذ أبو القاسم سعد الله و يتعلق الأمر بالمشرف الأستاذ لونيسي ابراهيم فقد أدلي لي الكثير من المعلومات و قام بتصحيح العديد من الأحكام المسبقة ، كما أجريت عدداً منها مع طلبتة أيضا و يتعلق الأمر بالأساتذة "ناصر الدين سعيدوني، محمد العربي معريش محمد الأمين، بلغيت، محمد بلقاسم، مراد وزناجي، مولود عويمر"، و قد أدلى الأساتذة بشهاداتهم حول أستاذهم خصوصاً فيما يتعلق بمهمته كأستاذ أو من خلال معاملاته في الحياة العامة. و إستطعت أيضا إجراء لقاء مع ابنه أحمد سعد الله الذي كشف العديد من المعلومات و الحقائق حول أبيه، إستفدت منها في معرفة شخصيته وأهم سماتها.

ثانيا: المراجـــــــع:

إعتمدنا في إنجاز هذه الرسالة على العديد من المراجع الهامة نذكر منها:

- ناصر الدين سعيدوني "دراسات و شهادات مهداة إلى الدكتور أبو القاسم سعد الله ' ضم الكتاب بعض الدراسات و بعض الشهادات حول أبو القاسم سعد الله ، أدلى بها أصدقاؤه وطلابه، والكتاب تحت إشراف و مراجعة الاستاذ سعيدوني. وكذلك كتابه ' كلمة وفاء ' وضم أيضا دراسات وشهدات حول أبو القاسم سعد الله.

- كتاب أحمد بن النعمان "أبو القاسم سعد الله حياة و آثار وشهادات و مواقف" ضم الكتاب شهادات حول أبو القاسم سعد الله وبعض مواقفه من قضايا مختلفة. وهو تكرار في مجمله لما سبق ذكره من الشهادات.

- كتاب أرزقي فراد " أبو القاسم سعد الله و الأمازيغية" تحدث فيه الكاتب عن موقف أبو القاسم سعد الله من الأمازيغية. أفدت منه كثيرا في معرفة موقف مؤرخنا من القضية الأمازيغية.

- كتاب عمار هلال نشاط الطلبة الجزائريين إبان حرب التحرير 1954م و قد ضم الكتاب إشارات إلى نشاط أبو القاسم سعد الله الطلابي إبان الثورة خصوصا في القاهرة.

كما اعتمدنا أيضا على أعمال ملتقيات علمية و ندوات تكريمية أجريت بعد وفاة مؤرخنا منها " أعمال الملتقى الدولي " أبو القاسم سعد الله مؤرخا و مفكراً" أجري في جامعة حمة لخضر بوادي سوف، و أيضاً بعض المجالات التي خصصت أعداد لدراسات حول أعمال مؤرخنا منها "المجلة العالمية الترجمية " و "مجلة عصور" و غيرها .

8- خطـــة البحـــــث:

سمحت لنا المادة العلمية التي جمعناها حول الموضوع بتقسيمه إلى مقدمة وستة فصول و خاتمة و ملاحق و فهرس للأعلام و الأماكن، و آخر للمنظمات و الأحزاب و المؤسسات.

تناولنا في المقدمة التعريف بالموضوع، دوافع اختياره، و الإشكالية المراد مناقشتها، ثم وصفاً لأهم المناهج المتبعة في معالجة الموضوع، و تطرقنا فيها أيضا لأهم الصعوبات التي إعترضنا خلال إنجاز البحث و في الأخير قدمنا وصفاً لأهم المصادر و المراجع المعتمدة في البحث.

خصصنا الفصل الأول للحديث عن نشأة و تكوين أبو القاسم سعد الله، قمنا بتقسيمه إلى ثلاثة عناصر، أول عنصر تحدثنا فيه عن مولده و نسبه و ظروف نشأته في مسقط رأسه البدوع، ثم العنصر الثاني تناولت فيه تعليمة أين حفظ القرآن بمسقط رأسه، ثم إنتقاله لزيتونة بتونس أين تحصل من هناك على شهادة الأهلية و التحصيل، ثم إنتقل إلى القاهرة فتحصل هناك على شهادة ليسانس في اللغة العربية و آدابها، ثم أنتقل بمنحه من جبهة التحرير لأمريكا حيث إستطاع الحصول من هناك على شهادتي الماجستير و الدكتوراه. ثم تطرقنا في العنصر الثالث إلى شخصية أبو القاسم سعد الله تناولنا فيه أهم المؤثرات التي أثرت في تكوين شخصيته، ثم عرجنا للحديث عن شمائله و خصاله من خلال شهادة معاصريه و من إهتم بتراثه.

أما الفصل الثاني فقد خصصناه لأبي القاسم سعد الله الطالب تحدثنا فيه عن دوره في الثورة و في أوساط الحركة الطلابية و ذلك في الزيتونة و الجزائر و القاهرة و أمريكا.

أما الفصل الثالث فتحدثنا فيه عن أبي القاسم سعد الله الأستاذ و ذلك بالحديث عن نشاطه التدريسي و التربوي، موزع وقف ثلاثة عناصر تمثلت في تدريسه في جامعات أمريكا و خاصة جامعة أوكلير، و جامعة مينيسوتا و ميشغان، و العنصر الثاني بجامعة الجزائر، و العنصر الثالث بجامعة الأردن.

الفصل الرابع؛ خصصناه لأبي القاسم سعد الله المؤرخ، تحدثنا فيه عن جهوده العلمية في التاريخ قسمناه إلى ثلاثة عناصر تناولنا في العنصر الأول رحلة أبي القاسم سعد الله من الأدب إلى التاريخ تطرقنا فيه إلى إعطاء نظرة عامة حول تجربتة الأدبية ثم أسباب إنتقالية من دراسة الأدب إلى التاريخ. أما العنصر الثاني فتحدثنا فيه عن منهج الكتابة التاريخية عند أبي القاسم سعد الله ، تطرقت فيه إلى الحديث عن الكتابة التاريخية ومنهجه فيها و البعد الثقافي في كتاباته. و العنصر الثالث عرجنا فيه إلى الحديث عن موقف أبي القاسم سعد الله من بعض القضايا التاريخية، أين تطرقنا الى موقفه من أربعة قضايا تاريخية.

أما الفصل الخامس؛ فتحدثنا فيه عن أبي القاسم سعد الله محققاً و مترجماً، قسمته إلى عنصرين تحدث في العنصر الأول عن أبي القاسم سعد الله المحقق، عرجنا فيه إلى الحديث عن تحقيق المخطوط المصطلح و المفهوم، ثم عن أهم جهوده في الكشف و التعريف بالتراث المخطوط، ثم جهوده في تحقيقها، ثم منهجيته في

تحقيقه للمخطوطات. أما العنصر الثاني: فتحدثنا فيه عن أبي القاسم سعد الله المترجم، تطرقنا فيه إلى الترجمة المصطلح و المفهوم ، ثم أهم جهوده في الترجمة، ثم منهجية و خصائص الترجمة عند أبي القاسم سعد الله.

أما الفصل السادس؛ فتحدثنا فيه عن مواقف و آراء سعد الله من بعض القضايا العامة، قسمناه إلى عنصرين عرّجنا فيه للحديث عن القضايا السياسة الوطنية و العربية، ثم القضايا الثقافية.

وينتهي البحث بخاتمة تتضمن أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذه الدراسة، كما دعمت الدراسة بمجموعة من الملاحق التي تخدم الموضوع، و في الأخير سهلنا من مهمة القارئ بوضع قائمة ببيلوغرافية و مجموعة من الفهارس التوضيحية و فهرس عام للمواضيع.

في الأخير من الصعب الإحاطة بفكر و أعمال الأستاذ أبو القاسم سعد الله و تقيمها من طرف باحثة مبتدئة مثلي في طريق البحث، و هذا ليس قصوراً مني و لكن لقلة حيلتي و نقص خبرتي في ميدان البحث و التنقيب ، و أن رسالة بهذا الحجم المتواضع قاصرة عن الإحاطة به و بأعماله و قبل أن أطوي صفحات هاته المقدمة لا يسعني إلا تقديم جزيل الشكر لأستاذي المشرف ابراهيم لونيسي على جهوده و صبره معي في إخراج هذا العمل، كما أشكر كل من ساعدني في إنجاز هذا البحث.

الفصل الأول

أبو القاسم سعد الله

النشأة و التكوين

أولا: مولده ونشأته

ثانيا: تعليمه

رابعا: شخصيته

أولا– مولده ونشأته:

قبل تسليط الضوء على شخصية أبي القاسم سعد الله؛ حري بنا تتبع مساره الحياتي، و نشأته منذ الصغر، و معرفة خصائص الوسط العائلي الذي تربى فيه، و البيئة الإجتماعية التي ترعرع فيها و مدى تأثير هذه الأخيرة على تكوينه. و رصد أهم المنعطفات التي ساهمت في صياغة فكره و طموحاته بدءا من الصبا إلى بداية مشواره العلمي.

1–: إسمه ونسبه:

هو بلقاسم سعد الله[1] بن أحمد بن محمد بن سعد بن مبارك بن علي جحيدر(شحيدر)[2]، فإسمه الحقيقي هو 'بلقاسم' كما هو في أوراقه الرسمية و متعارف عليه في العائلة و ليس ' أبو القاسم' التي أشتهر بها في الساحة العلمية، إذ يصحح ذلك قائلا: " أما اسمي فهو بلقاسم أو بلقاسم (إضافة نقطة فوق القاف). أما أبو القاسم فكنت انا من استعملته مع الأدبيات و أحيانا ظهرت مع مؤلفاتي أو مقالاتي القديمة تسمية " القماري"[3]. و يضيف " يبدو أنني إخترت هذه التسمية تأثُراً بأعلام الفكر و التصوف و الطب و العلوم و الأدب العربي الإسلامي، كما أن كتب السيرة النبوية تشير إلى (أبو القاسم) مضافا إلى كنية الرسول صلى الله عليه وسلم فحبذته و أخذت انشر به اسمي"[4].

أما عن تاريخ مولده؛ فتذكر جل المراجع التي ترجمة للأستاذ سعد الله بأنه ولد حوالي سنة 1930م، و أقول هنا "حوالي" لأن المعني بالأمر نفسه لا يحدده بين سنتي 1930 أو 1931م فيقول : " ولد في (البدوع) بجوار مدينة قمار بوادي سوف و لا يذكر أهله سوى أنه ولد في صيف شديد الحرارة عام ترميم الجامع الكبير

---

[1]– يذكر أبو القاسم سعد الله أن لقبه ' سعد الله ' من مستحدثات العهد الإستعماري، فقد فرض الفرنسيون على الجزائريين تغير الحالة المدنية، و طلبوا من كل عائلة أن تختار لقبا جديدا خاصا بها تعرف به بين الناس، فإختار عمه (عبد الله) الذي كان أكبر اعمامه سنا لقب 'سعد الله ' على أساس إسم جده الثالث (سعد) مضاف إلى إسم الجلاله (الله) و كان ذلك سنة 1934م سنة ظهور الحالة المدنية على يد الفرنسيين في وادي سوف .

[2]– أبو القاسم سعد الله، حياتي، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2015م، ص 15.

[3]– مراد وزناجي، حديث صريح مع أ.د. أبو القاسم سعد الله في الفكر و اللغة و الثقافة،ط1، الجزائر: منشورات الحبر، 2008، ص 68.

[4]– أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص ص (172–173).

و مدرسته عام 1930أو 1931م"[1]. و يذكر سعد الله أنه أنذاك لم يكن هناك ما يعرف حاليا بالنقمة أو (النكوة) لذلك قدروا عمره تقديراً بسنة ترميم الجامع و الذي من الأرجح أنه كان سنة 1930م، أما الإدارة الفرنسية فقد سجلت مولده بتاريخ 1927م، كما هو مدون في أوراقه الرسمية، و لكن السنة المسجلة في دفتر تسجيله بجامع الزيتونة، تشير إلى أن مولده كان في سنة 1932م[2].

و لم يتطرق أبو القاسم سعد الله في مذكراته (حياتي) إلى ذكر تاريخ مولده بالظبط، لذلك فحسب ما ذكر في كتابه أفكار جامحة أنه كان حوالي سنة 1930أو 1931م ، و حسب ما صرح به لمراد وزناجي في حديثه أنه كان حوالي سنة 1930م، فنرجح أن يكون تاريخ مولده في هاته السنة ' 1930م'.

ولد أبو القاسم سعد الله ببلدة قمار[3] بوادي سوف، و بالضبط في ضاحية تسمى البدوع[4]، التي تعود تسميتها إلى الإبداع – حسب رأي سعد الله- و أصلها عربي من البدع أو الإبتداع، و هو إنشاء الشئ من لاشئ. و يصفها أبو القاسم سعد الله قائلا " منطقة سوف التي ولدت بها ذات هواء طلق، و هي أكثر من صحراوية، إنها واحات مفتوحة للرمال و الرياح. تربتها قاحلة بعيدة الماء غالبا قليلة الإنتاج، معظم إنتاجها غرسات نخيل و شجيرات دخان، و هي تسمى واحات سوف أو وادي سوف... أشتهرت سوف بالحفاظ على اللغة العربية و حب العلم و الصبر على شظف العيش. أما العربية فهي من اللسان الدارج القريب جدا من الفصيح. و أما العلم فيتمثل في إحترام أهله و الرحلة في طلبه و خصوصا إلى تونس، و أما شظف العيش فلا سبيل لأهل سوف إلا الصبر على المعاناة و الجوع و التعرض للخطر"[5].

ولقد ولد سعد الله في أجواء الطرق الصوفية، التي ملأت الفراغ الروحي الذي كان يسود المنطقة، بعد التدهور الذي أصاب الدين و الأخلاق. و كذا في أجواء بدايات الحركة الإصلاحية، التي بذر فيها فكر الشيخ عمار بن الأزعر بعد مشاركته في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، و لما شرع في نشاطها رحب أهل سوف بزعمائها و مدارسها و فلسفتها، كما رحبوا أيضا بحزب الشعب ودعوته الوطنية

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص 177.

[2]- خير الدين شترة، معجم أعلام الجزائر،ج1، الجزائر: منشورات وزارة الأوقاف، 2015، ص 286.

[3]- قمار : تبعد حوالي 15كلم عن مدينة وادي سوف.

[4]- البدوع: تبعد حوالي 4 كلم عن قمار.

[5]- مراد وزناجي، االمصدر السابق، ص ص (17-18).

الإستقلالية، كما كانت لهم مساهمة بعد ذلك في الثورة بتهريب السلاح و التطوع في جيش التحرير، و خوض المعارك ضد القوات الاستعمارية[1].

1-2: عائلته:

ينتسب أبو القاسم سعد الله إلى عرشين كبيرين، هما ' أولاد عبد القادر' من جهة الأب و 'أولاد بوعافية ' من جهة الأم، فوالده هو أحمد سعد الله الذي يقول عنه أن ولد حوالي سنة 1894م [2]، و والدته هي العبيدية هالي إبنة الأخضر بن مبارك بن سالم. و كانت نشأته في أسرة فقيرة تمتهن الزراعة، و أهله من أوائل الفلاحين الذين عمَروا قرية البدوع بغراسة النخيل. بالاضافة إلى استنبات بعض الخضروات، و زرع مساحات من التبغ الذي كان يدر على العائلة مردودا في تجارته. و قد عاش الأب أحمد و أبناؤه الفقر الشديد تحت السياسة الإستعمارية و ثلاثيها الأسود (الجهل ،الفقر، المرض). يقول أبو القاسم سعد الله عن نفسه التي تكلم عنها بضمير الغائب مقتا للأنانية " يذكرون أيضا أنهم عند ميلاده- يقصد نفسه- كانوا لا يفترشون سوى الرمال و لا تظلهم غير سقائف من جريد النخل فكان هو كذلك عند خروجه إلى الدنيا: وطاؤه الأرض و غطاؤه السماء"[3].

و من شدة الفقر هاته يذكر سعد الله أنه في أتُون الحرب العالمية الثانية كان و إخوته يقتاتون على خمس ثمرات للفرد الواحد يوميا، في هذا يقول " أتذكر مثلا أن الناس عندنا كانوا يتناولون أوراقا من النباتات الجافة عوض نبتة الشاي و كأني بهم يتخيلونها شايا، و كنا نأكل في اليوم ثمرات معدودات لكل واحد منا خمس حبات حتى لا نموت جوعا، و الوالد (رحمه الله) هو من كان يقنِّن هذا الأمر". أما اللباس فلا يذكر سعد الله أنه لبس ثوبا جديدا قط في صغره، فالثوب كان يبْلى و يقْصر و يتركه الأخ لأخيه و الأخت لأختها يقول: " و كنا لا نلبس جديدا الكبير منا يترك لباسه لأصغر منه و هكذا أي أن الألبسة الواحدة كان يتداولها الأولاد، أذكر أيضا أن أول قميص إرتديته لم يكن جديدا لأنه كان لباسا عسكريا بلون كاكي من مخلفات الحرب العالمية الثانية، اشتراه لي والدي مكافأة على ختم القرآن الكريم"[4]. و بالرغم من شدة الفقر التي كانت

---

[1]- مراد وزناجي، االمصدر السابق، ص 19.

[2]- توفي والد أبو القاسم سعد الله في 7 نوفمبر 1957م وكان سعد الله وقتها يدرس بالقاهرة حين وفاته فلم يتمكن من حضور جنازته.

[3]- مصطفى عبيد، " النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله "، مجلة عصور الجديدة، العدد13، أبريل 2014، ص 227.

[4]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 17.

تعيشها العائلة و حاجة الوالد لإبنه في مساعدته في أشغال الفلاحة و الزراعة، إلا أن والده لم يكن يلزم إبنه بلقاسم الإشتغال بالأعمال الفلاحية أكثر من إشتغاله بالعلم و قراءة القرآن فكان يقول رحمة الله عليه " إن بلقاسم قد سبلته للعلم فأنا أكفيه هم الحياة"[1].

عاش أبو القاسم سعد الله في أسرة كثيرة العدد متكونة من 12 فرداً، فوالده أحمد سعد الله قد تزوج ثلاثة نساء: الأولى هي خالة أبو القاسم سعد الله (وريدة هالي) أنجب منها ثلاثة أولاد و بنتا، هم البشير و الطاهر و محمد و خيرة. و قد توفيت جراء نزلة صدرية حادة. فتزوج إمرأة أخرى أنجب منها ولد واحد إسمه الصادق، و لكن هذا الزواج لم يكن موفق فطلّقها، و تزوج العبيدية هالي والدة أبو القاسم فأنجب منها علي و إبراهيم و عمر(اسماعيل) و أبوبكر(خالد) و مباركة[2]. و بلقاسم هو بكري والدته(أي إبنها الأكبر)[3].

و عن أسرته الصغيرة؛ فبعد عودته من رحلته العلمية و إستقراره بالجزائر أتم أبو القاسم نصف دينه وتزوج من السيدة 'حفصة ابنة عمر بن سالم' من أسرة محافظة من ولاية المسيلة، كانت طالبة لديه بقسم التاريخ بجامعة الجزائر، و حينها كان مترجمنا قد تجاوز سن الأربعين حين تقدم لخطبتها رفقة رفيقيه عبد الله ركيبي[4] و محمد مهري، و قد أجاد في وصفها في سيرته قائلا " أشعر أني صاهرت أسرة جديرة بكل إحترام و قد توفر في البنت ما كنت أبغي: الجمال، و الثقافة، و الجزائرية، و الصحراوية و العربية، ثم التاريخ ". و كان

---

[1]- محمد الحسن فضلاء، من أعلام الإصلاح في الجزائرّ،ج3، الجزائر: دار هومة لطباعة والنشر، ص 12.

[2]- يذكر سعد الله أن إخوته الكبار الغير أشِقّاء لم يتعلموا بل كانوا يمارسون الفلاحة، أو بالأحرى لم يسمح لهم والده بالتعلم لأنه كان بحاجة ماسة اليهم لمساعدته في أشغال الفلاحة، أما إخوته الأشقّاء من الذكور كلهم تعلموا، و الآن هم دكاترة جامعيون في تخصصات مختلفة: علي في الفلسفة بجامعة ورقلة، و إبراهيم في الفزياء النووية بجامعة باب الزوار، و عمر(إسماعيل) في الحقوق بن عكنون، و خالد في الرياضيات بالمدرسة العليا للأساتذة بالقبة.

[3]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المرجع السابق، ص 20.

[4]- **عبد الله ركيبي (1928- 2011م)**: هو عبد الله خليفة ركيبي، أديب و ناقد جزائري، من مواليد جمورة ولاية بسكرة، زاول تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه و المتوسط و الثانوي بالزيتونة، و تعليمه الجامعي و العالي بكلية الآداب جامعة القاهرة تخصص أدب عربي، بدأ التدريس سنة 1967م بجامعة الجزائر بكلية الآداب ' قسم اللغة العربية'، كان عضو المجلس العلمي في القسم المذكور، حيث أشرف على العديد من الرسائل و الاطروحات العلمية و تخرج على يديه العديد من الطلبة. كما عين الركيبي في وظائف متعددة في الدولة ، منها سفير في سوريا سنة 1995 ، ثم عُين مستشارا في المجلس الأعلى للقضاء، ثم نائبا في مجلس الأمة سنة 1998. للمزيد انظر: كتابه الفرانكفونية مشرقا و مغربا، الجزائر: دار الكتاب العربي، 2009.

زواجه منها يوم 24 جويلية 1969م. و قد حضر حفل الزفاف كل من رفقائه عبد الله الركيبي و عبد الله عثمانية و خاله فيصل هالي و أمه و إخوأنه إبراهيم و خالد[1].

و في سيرته تحدث عن دعم زوجته له في أكثر من موضع من خلال تفهمها لطبيعة عمله، بتوفير شروط العمل أولا رغم الصعوبات التي عايشاها معا، و ثانيا إعانته بشتى الوسائل و إبداء الرأي أحيانا فيما يكتب فهي صاحبة رأي حصيف و ثقافة واسعة على حد قوله. و يذكر أيضا ".... و هي التي واستني حين ضاعت محفظتي الثمينة و كدت أصاب باليأس و الإحباط و هي التي شدت من أزري كلما واجهتني عراقيل و تحملت معي الغربة و شظف العيش و الحرمان[2] ". و يضيف "... و كان تفرغي لأبحاثي و كثرة أسفاري يحرمانها أحيانا من بعض حقوقها و مع ذلك كانت تقبل ذلك بكل رضى و طيب خاطر و تشجعني على مواجهة الصعاب في سبيل هدفي النبيل[3] ". و قد رزق مترجمنا فيما بعد بإبنه الوحيد ' أحمد سعد الله' و كانت فرحة الوالد بإبنه كبيرة عند ولادته و قد سمي بأحمد على إسم والد أبي القاسم سعد الله.

1-3: وفـــــــاته:

توفي أبو القاسم سعد الله صباح يوم السبت الموافق لـــ 14 ديسمبر 2013م، عن عمر ناهز 83 سنة بالمستشفى العسكري بعين النعجة بعد صراع مع المرض[4]، و قد رفض نقله إلى الخارج للعلاج و فضّل البقاء في الجزائر، و كان قبل أن يشتد به المرض مباشرة بعد عيد الفطر رفض أبو القاسم سعد الله التنازل عن صيام شهر رمضان، رغم تحذيرات طبيبه الخاص بخطورة ذلك على صحته، حيث أتم صيام الشهر الفضيل إلى غاية 26 منه، أين أصابته وعكة صحية لينتقل على إثْر ذلك إلى المستشفى العسكري بعين النعجة و هناك لفظ أنفاسه الأخيرة. و قد أوصى أن يدفن بمسقط رأسه بقمار و أن ألا تقام له جنازة رسمية.

من خلا ما سبق يمكن القول أن البيئة التي ولد و ترعر فيها مؤرخنا قد إتسمت بظروف سياسية و إجتماعية و إقتصادية صعبة، يشترك فيها مع باقي أفراد الشعب الجزائري الذي ظل يعاني ردحا من الزمن من

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج3، المرجع السابق، ص ص (184-185).

[2]- حمادي بشير، "جيل الثورة سلم الراية لمن لا يستحقها "، مجلة الحقائق، العدد 19،ماي 2007، ص 7.

[3]- أبو القاسم سعد الله، حوارات، الجزائر:دار العالم المعرفة، 2011، ص 222.

[4]- كان أبو القاسم سعد الله يعاني من إلتهاب الكبد الفيروسي(بوصفير) أصابه منذ سنة 1947م، إلا أن الفيروس دخل في سبات إلى أن تطور معه الأمر في السنوات القليلة قبيل وفاته، شهادة لونيسي ابراهيم، جامعة سيدي بلعباس، 2014/4/13م.

ويلات الإستعمار و آثاره الوخيمة على الفرد و المجتمع في مختلف مناحي الحياة، و عائلة أبو القاسم سعد الله أيضا في هذا الخصوص لا تختلف عن بقية العائلات الجزائرية التي عاشت شظف العيش و الخصاصة في المرحلة الإستعمارية، و قد عايش مؤرخنا عن كثب معاناة أسرته، و جرب بنفسه حياة القفر و العوز، و هذه الوضعية كفيلة بأن تكشف لنا عن مجمل الخيارات الضيقة أمام المرء في حياته، إلا أن هذه الظروف نفسها قد صنعت شخصيته و جعلت منه الطفل القوي العزيمة الذي لا تثنه الشدائد و الصعاب التي ستعترضه في حياته – و ستكون لنا وقفة معها– و التي لا يتغلب عليها إلا من جرب ظروف الحياة قاسية .

ثانيا: تعليمه:

1–: الكتاتيب القرآنية

كانت بداية عهده بالتعليم و هو طفل في سن الخامسة من عمره، و أول محطة تعليمية له كانت بالمدرسة القرآنية بقريته على شاكلة أقرانه في تلك الفترة، و هو تقليد قديم عند أهل قمار و عموم البلاد العربية و الإسلامية يقتضي بدخول الولد الجامع حتى يحفظ شيء من القرآن الكريم و يتمكن من ممارسة شعائره الدينية و التسلح بمبادئ الدين الإسلامي[1].

دخل الطفل بلقاسم الجامع القبلي بالبدوع، حوالي سنة 1936م، و كانت والدته فيما يذكر حريصة على تحفيظه و تعليمه القرآن، إقتداء بأخيها الشيخ الحفناوي هالي الذي حفظ القرآن من قبل و تخرج من جامع الزيتونة فأكتسب بذلك حظاً كبيراً من الإحترام و التقدير، فكانت أمنيتها أن يصبح مثله من حفظة القرآن و حملة العلم[2].

و تجدر الإشارة إلى أنه في تلك الفترة و مع وجود المدرسة الفرنسية[3] بقمار، ظل أهله و هم فلاحون بالمهنة في غنى عنها، مكتفين بإرسال أبنائهم إلى المساجد و الكتاتيب لحفظ القرآن الكريم و معرفة بعض العلوم الدينية و اللغوية، كما أن التعليم بالمدرسة لم يكن إجباريا فمن شاء أدخل أبناءه المدرسة و من شاء إمتنع، إما خوفا من العواقب على الدين و اللسان و الأخلاق، و إما الحاجة إلى خدمات الأبناء و كان أحد إخوة

[1]– مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص228.

[2]- مراد وزناجي، المصدر السابق ، ص 19.

[3]– تأسست أول مدرسة فرنسية بقمار سنة 1907م.

سعد الله قد أُدخل المدرسة الفرنسية و لكنه أُخْرج منها من طرف أحد أقارب والدته. و حين دخول أبو القاسم سعد الله الكتّاب في سن الخامسة دفع عنه والده أحمد سعد الله مالا حتى لا يغادر الجامع و لا يتم تسجيله بالمدرسة الفرنسية بقمار[1].

حفظ الطفل بلقاسم القرآن الكريم سنة 1944م، على عهد شيخه بلقاسم الزبيري الملقب بالبُرية[2]،

و يعود سبب التَّأخر في حفظ القرآن الكريم إلى سنة 1944م(أي حوالي 8سنوات)، إلى عدم إستقرار معلِمي القرآن بالمنطقة البدوع و انقطاعهم عن الإقْراء أحيانا أخرى. ففي عهده تداول على الجامع القبلي ثلاثة مؤدبين (معلمين) أولهم الشيخ بلقاسم الزبيري و لكن لم يطل بقاؤه و غادر ليخلفه الشيخ على بن ابراهيم بن الساا(البسا)، و مكث بالجامع حوالي 3سنوات (1937-1940) ثم غادر، و جاء بعده الشيخ عمر مني، و قد بقى حوالي سنة و نصف و غادر سنة 1942م، فخلفه الشيخ بلقاسم الزبيري من جديد، و هذا الأخير و على عهده أتمّ سعد الله حفظ القرآن الكريم كاملا، يقول سعد الله عن شيخه (الزبيري):" أما شيخي الزبيري فقد اكتشفني و أحاطني برعايته عندما أظهرت له قابليتي للحفظ و أنني أختلف عن التلاميذ الآخرين ...و قد أدبني فأحسن تأديبي رحمه الله إذ ختمت القرآن على يديه سنة 1944م"[3].

و بمناسبة ختمه القرآن الكريم، أقام والد سعد الله إحتفالا بالمناسبة دُعيت فيه القرية إلى وليمة ذبح لها كبشين، و تسامر فيها الناس على إنشاد القصائد و المدائح الدينية من قبل فرقة مختصة تدعى بفرقة " القصاد"، و بالمناسبة أيضا أقام الوالد لإبنه بلقاسم تكريمين، التكريم الأول معنوي و هو ذبح كبشين و التكريم الثاني كان ماديا، و هو شراء قميص كان لباسا عسكريا من مخلّفات الحرب العالمية الثانية كمكافأة على ختمه القرآن الكريم[4].

و بعد أن حفظ سعد الله القرآن الكريم أخذ في تكراره 3 مرات لترسيخ حفظه في الذاكرة، و في نهاية الدورة الرابعة أصبح ينوب عن شيخه في صلاه التراويح طيلة شهر رمضان سنة 1946م، و كانت الصلاة

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 49.

[2]- **بلقاسم الزبيري (1902- 1975)** : ولد بلقاسم بن محمد الملقب بالبرية بمدينة قمار، شغل مؤدب و معلم للقرآن الكريم بجامع البدوع. للمزيد أنظر: تجاني عقون، أعلام من قمار بوادي سوف، الوادي: مطبعة الصخري 2013 ص ص (97-98).

[3]-أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 64.

[4]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 17.

بالناس تجربة فريدة من نوعها على حد قول أبي القاسم " فقد كنت كثير الحياء و لا أحسن حتى الكلام العادي أمام الكبار فإذا بي أجد نفسي واقفا أمامهم و إمامهم و أقرأ على مسامعهم القرآن و اصلي بهم"[1]. و قد جرت العادة أيضا أن التلميذ المتقدم في الحفظ يقوم بدور المساعد للمؤدب(الشيخ)، و على هذا الأساس كلفه الشيخ الزبيري بالإعتناء بالأولاد الذين دخلوا الجامع حديثا، فكان يحفّظهم و يكّتبهم و يتابع عملهم بينما المؤدب يهتم بمن هم متقدمون في السن و الحفظ[2].

و خلال سنة 1946م، قرر أبو القاسم سعد الله الإلتحاق بتونس لإستكمال دراسته لكن قلة المادة منعه من ذلك، فأجل الأمر إلى فرصة أخرى و بدأ في إستكمال حفظ المتون سنة أخرى، حتى يتمكن من الإلتحاق بالزيتونة، تأثرا بالحركة الإصلاحية عموما، و بأسرته خصوصا، حيث كان ذلك هو طموح والداه و خصوصا الأم كما سيأتي معنا.

[1]- أبو القاسم سعد الله ، حياتي، المصدر السابق، ص 59.

[2]- نفسه، ص 62.

2- أبو القاسم سعد الله في الزيتونة (1947-1954م):

بعد إتمام أبو القاسم سعد الله حفظ القرآن و إستعاب المبادئ الأولية للغّة العربية و قواعد الشرع الحنيف، طاقت نفسه و تعلقت بتلقي مزيدا من العلم و المعرفة، كما أن والداه اللذان وقفا إلى جانبه في حفظ القرآن كانا يتطلعان إلى إستكمال دراسة فوظيفة " الطّالب " أو "المؤدب" على حد قولهم لم تعد مقنعة، بل لابد من الغربة و الذهاب إلى جامع الزيتونة الذي كان أنذاك قبلة لطلاب العلم من الجزائر و حلم كل راغب.

و يذكر سعد الله العوامل التي حفزته للسفر إلى تونس من أجل مواصلة دراسته نذكر منها:

- تشجيع والداه له، خصوصا والدته إذ وقفت وراءه في حفظ القرآن الكريم كاملا، ثم ما فتئت تشجعه على إستكمال دراسته و الإلتحاق بجامع الزيتونة، فحفظ القرآن لم يعد في نظرها كافيا فلابد من الذهاب إلى الزيتونة لإضافة "العلم الشريف" على حد قولها، كما كانت دائما تتطلع إلى أن يصبح إبنها مثل أخيها الشيخ الحفناوي هالي[1] الذي كان قد درس من قبل بجامع الزيتونة ، فأرادت بذلك أن يكون مثله عالما محترما، يقول في ذلك "... ولكن والدتي كانت تتطلع إلى أن يصْبِح إبنها مثل أخيها الحفناوي، و كان الحفناوي قرّة العين و مضرب المثل في عائلة أخوالي لأنه كان الوحيد الذي إكتسب العلوم الدينية و درس في جامع الزيتونة و حصل منه على شهادة(التطويع)، فكانت إخواته يفتخرون به، و منهن والدتي، و إذا دعت والدتي،لأحد من أبنائها بالخير فإنها لا تتمنى له سوى أن يصبح كأخيها الحفناوي"[2].

كما أن والده لم يكن يختلف من هذه الجهة معها أيضا، فالبرغم من حاجته الماسة لإبنه لمساعدته في فلاحة الأرض، إلا أنه لم يجبره على قطع مواصلة دراسته كما فعل مع إخوته، و في شهادة لإبن عمه عبد الرحيم سعد الله يقول فيها: " و عندما تقرر إرساله إلى جامع الزيتونة بعد جدال بين الام و الأب، فالأم مصِّرة

---

[1]- **الحفناوي هالي(1911-1965م)**: أديب وشاعر جزائري من مواليد مدين قمار بوادي سوف، حفظ القرآن الكريم بمسقط رأسه ، ثم رحل إلى تونس و هناك التحق بجامع الزيتونة حيث حصل على شهادة التحصيل، ثم عاد إلى الجزائر أين عمل معلمًا في مدرسة النجاح بقمار، واكب الحركة الإصلاحية و إنخراط بجمعية العلماء و شارك فيها مسؤولا، وبعد الاستقلال تقلد منصب مدير بوزارة الاوقاف. له مجموعة من المقالات و القصائد التي نشرها في جريدة الشهاب و البصائر وغيرها . توفي على إثر حادث سيارة يوم 17 جانفي 1965م. للمزيد انظر: خير الدين شترة، معجم أعلام الاصلاح، المرجع السابق، ص 331.

[2]- أبو القاسم سعد الله، حورات، المصدر السابق، ص 222.

على إرساله لطلب العلم و الأب يرى وجوب معاملته مثل إخوته الأكبر منه، فكلهم يريد أن يتعلم و الظروف المعيشية لا تتحمل غيابهم، و لكن و بتشجيع من الطاهر التليلي عدل عمي عن رأيه"[1].

- الشيخ الطاهر التليلي[2] الذي كان صديق والده و عديله، كان له أيضا دور في تشجيع و سفر أبو القاسم للمضي قدما إلى جامع الزيتونة المعمور، فالتليلي كان أيضا من خريجي الزيتونة و منتمي إلى الحركة الإصلاحية، و لتقارب الرؤى بينه و بين والده و تأثر هذا الأخير بالحركة الإصلاحية أيضا، جعله يواقف على فكرة سفر إبنه بلقاسم دون غيره من إخوته لدِّراسة[3].

- إنتشار أفكار الحركة الإصلاحية التي ظهرت في منطقة سوف آنذاك، خصوصا بعد زيارة وفد من العلماء برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة 1937م، أين تجول في بلدانها و ألقى دروسا في مساجدها، و قد إستقبله أنصار الإصلاح بحفاوة كبيرة، خاصة و أنها لم تكن زيارة لشيخ عادي فهو العلامة الإصلاحي الذي ذاع صيته عبر مدن و قرى و مداشر الجزائر، و قد تأثر سعد الله لذلك و هو صغير السن حيث يقول أنها أذكت روح النهضة بين سكان المنطقة و قريته بالذات، و هذا ما حفز العديد من شباب منطقة قمار لتوجه إلى تونس لدراسة في جامعة الزيتونة[4].

- إتصاله بالطلبة الذين يدرسون بجامع الزيتونة، فكان هؤلاء يعودون في صيف كل عام إلى قمار لقضاء عطلة الصيف، فيأتون بأفكار و جرائد و أحاديث عن تونس و المشرق و عن الدراسة و الذكريات، فكانوا يغرونه

---

[1]- عبد الرحيم سعد الله، ملخص لما سمعته من الدكتور أبو القاسم سعد الله عن معناته من أجل طلب العلم، من وحي الذكرى، مجموع مداخلات أربعينية الراحل أبو القاسم سعد الله، الوادي: مطبعة الرمال، 2014، ص 113.

[2]- **محمد الطاهر التليلي(1910-2003م)**: من أعلام الإصلاح في الجزائر ، ولد بقمار ولاية وادي سوف، حفظ القرآن بمسقط رأسه، ثم التحق بالزيتونة سنة 1927م و تحصل منها على شهادة الاهلية و التحصيل سنة 1934م، بعد عودته الى الجزائر اشتغل فترة بالتدريس بقرية صغيرة بالقرب من بجاية، ثم عاد من حيث اتى بسب مضايقات السلطة الاستعمارية له، ليستقر بمسقط رأسه بمدرسة النجاح الحرة في نشر التعليم العربي إلى غاية الاستقلال ، و بعد الاستقلال واصل عمله في ميدان التعليم إلى غاية تقاعده سنة 1972م، كان التليلي مؤنس قريب من الأستاذ سعد الله في وادي سوف كلما زارها . و قد قام سعد الله بتقديم بعض كتبه منها 'اتحاف القاري بحياة خليفة بن حسن القماري' وديوان شعره ' الدموع السوداء' و غيرها. للمزيد حوله انظر: محمد الطاهر التليلي، الدموع السوداء، تحقيق وتعليق وتقديم: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011. وانظر: أبو القاسم سعد ، خارج السرب، خارج السرب، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م ، ص 258.

[3]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 21.

[4]- أبو القاسم سعد الله، خارج السرب ، المصدر السابق ص 97.

بفكرة الذهاب معهم إلى تونس، فكان هو يتأثر لذلك و يزداد تعلقا وشوقا لإستكمال دراسته يقول " كان هؤلاء الطلبة يلبسون عادة لباسا تونسيا يتمثل في الجبة و الشاشية الحمراء و هو لباس الزيتونيين، و كانوا متميزين أيضا بشئ من الأناقة و الظّرف و الثقافة و نظافة الثياب و زلاقة اللسان و حفظ الأشعار و الأمثال و المسائل الفقهية و النحوية، فأكون أنا من المستمعين لهم في شئ من الإندهاش و الإنبهار، و لكني كنت أسر في نفسي أنه بإمكاني أن أكون مثلهم حفْظاً و لباساً و معرفة "[1].

إستّعد سعد الله للذهاب للزيتونة سنة 1946م، إلا أنه و في تلك السنة لم تتوفر لوالده مصاريف السفر ، فإنتظر السنة المواليه إلى حين توفير مصاريف سفره و إقامته بتونس، كما نصحه الطلبة الذين سبقوه إلى الزيتونة، بحفظ المتون الأساسية و حفظ المصنفات و المتون في النحو والصرف، و الفقه و العقائد، و معرفة بعض الحساب، قبل ذهابه، لأن حفظ القرآن وحده لايؤهل لدخول الزيتونة.

و بعد سنة أتيحت له فرصة الإلتحاق بالزيتونة سنة 1947م، حين أتم حفظ المتون، و إستكمال والده جمع مستحقات السفر إلى تونس، فأرسله رفقة شباب من قمار سبقوه بالدراسة إلى الزيتونة، إلتحق بلقاسم بجامع الزيتونة و هو ذو المستوى البسيط على حد تعبيره، الذي لم يؤهله لأكثر من التسجيل في السنة الأولى يقول: "... وجدت نفسي لا أحسن حتى تحرير رسالة بل لا أعرف كيف أُرتل القرآن، و لا مبادئ الحساب و لا قواعد الفقه لذلك خضعت لإمتحان عسير"[2]. فتمكن من الدخول إلى السنة أولى رغم أنّ هناك طلبة تم تأهيلهم للسنة الثانية و الثالثة.

تتم الدراسة بالزيتونة لمدة 7 سنوات (شهادة الأهلية 4سنوات، و التحصيل 3سنوات)، و كل فرع أو جامع يمثل سنة دراسية، حيث يعرف الطلبة بمستوياتهم الدراسية حسب الجامع الذي هم فيه، حيث ينتظم الطلبة في حلقات حول الشيخ مسنداً ظهره إلى إحدى العرصات، و كانت الحلقة تكبر أو تصغر حسب شعبية الشيخ و مهاراته في التدريس و التفهيم، " فإذا كان واسع العلم جهوري الصوت تحلق حوله العشرات تاركين حلقاتهم الأصلية، و إذا كان ضعيف الصوت خامل الذكر و الفكر فإن حلقته تكون قليلة العدد"[3].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 68.

[2]- نفسه، ص 22.

[3]- نفسه 45.

2-1: شيوخه و إجازاته:

1-1: شهادة الأهلية (1947-1951م):

أ - السنة الأولى في جامع صاحب الطابع (1947-1948م):

أول سنة دراسية قضاها مؤرخنا في جامع صاحب الطابع، و كان مدير الفرع هو الشيخ محمد بلحاج، و عن شيوخه في هاته المرحلة هم: الشيخ عبد الرحمن الخبثاني الذي درس عليه النحو و الصرف و الإنشاء، و الشيخ محمد فارح الذي درس عنه الأخلاق و الآداب العامة، و الشيخ على البطي الذي درسه علم التجويد و قواعد التلاوة و الترتيل، و الشيخ محمد النجار الذي درس عنه الفقه، و الشيخ محمد بوسنينة في مادة الحساب.

و لعل إسم الشيخ الخبثاني هو ما ظل عالقا بذهنه أكثر من غيره من الشيوخ، فقد كان له الفضل في تحسين ملكته الكتابية و تطويرها، فيذكر أنه و بعد عام من ذلك بدأ في كتابة مقلات قصيرة بشكل رسائل أو نحو ذلك، أما مادة الحساب فالبرغم من الجهود التي بذلها الشيخ بوسنينة في تعليمه العمليات الحسابية فإنه لم يستطع أن يحبب إليه مادة الحساب ، فقد بقيت عند مادة "آلية" على حد تعبيره.

و قد كان نجاحة في كل المواد بنجابة، إلا مادة علم التجويد التي لم يحسن التخلص منها لفشله في إمتحانها، فالبرغم من تعلمه قواعد التجويد من قبل في المدرسة القرآنية بقمار، إلا أنه و في حلقات الدرس لم يحسن تطبيقها و الذي يحتاج بالإضافة إلى ذلك الشجاعة الأدبية و علو الصوت، و هذه الأخيرة لم تكن تتوفر لديه، فالحياء و إنخفاض الصوت و إنعدم الجرأة حالت بينه و بين إجتياز الإختبار في مادة التجويد، و هكذا إنتقل إلى السنة الثانية دون علم التجويد الذي لم يتخلص منه إلا بعد سنة من ذلك[1].

ب - السنة الثانية: في الجامع الحفصي (1948-1949م):

إنتقل دفتر تسجيله الرسمي و نتيجة إمتحانه من جامع صاحب الطابع إلى الجامع الحفصي، الذي كان مخصصاً لطلبة السنة الثانية، و كان مدير هذا الأخير هو الشيخ أحمد شلبي، و كان نظام التعليم هو نفسه كما هو في جامع صاحب الطابع، و حتى المواد الدراسية، و لكن بشئ من التوسع و المناقشة، و من شيوخه في هاته

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق ، ص 86.

المرحلة الشيخ محمد الخماسي الذي كان يعطيهم دروسا في الخط، و الشيخ الهادي زمزم في الفقه، أما النحو فتلقّاه عل الشيخ محمد هويسة، و مادة الإنشاء عن الشيخ محمد قايجي، و كان شيخه في مادة الحساب هو محمد المسدي، و الشيخ الصادق بسيس في مادة الجغرافيا، و الشيخ محمود شرشور في مادة علم النبات[1].

ولأول مرة كان تمدرسه بأسلوب حداثي، حيث أُستعملت فيه السبورة بدل حلق الذكر، إذ كانت الدروس في هاته السنة تتم أحيانا في الجامع، و أحيانا أخرى في الأقسام التي كانوا يسمونا عصرية، و إستطاع الإنتقال إلى السنة الموالية بنجابة أيضا، و تجدر الإشارة هنا فقط أن ملاحظة 'بنجابة ' حسب التعبير المتداول بالزيتونة، ظلت ملازمة له في جميع نتائج سنواته الدراسية[2].

جـــ – السنة الثالثة: في الجامع اليوسفي (1949–1950م):

إنتقل ملفه إلى الجامع اليوسفي الذي هو مخصص لطلبة السنة الثالثة، و كان مديره هو الشيخ محمد البيجاوي، و قد درس خلال هذه السنة معظم المواد القديمة و لكن بكتب مختلفة، و من المواد الجديدة في هاته السنة، دراسته للهندسة و الحساب على يد الشيخ عبد الوهاب باكير، و من أبرز أساتذته في هاته المرحلة و الذي ترك أثرًا كبيرًا في حياته هو أستاذه الشيخ على الأصرم، فقد ميزه ذات مرة بصوت عالي و هو يسلِّمه ورقة الإنشاء أمام الطلبة " إنني فخور بك يا سعد"، و هي عبارة كانت لها دفعة قوية لمواصلة المنافسة و التقدم في الكتابة، يقول في ذلك :" كنت أرتاح إلى مادة الأدب بمعناه الواسع، و كان أحب الشيوخ إلى نفسي هم شيوخ هذه المادة، و كان أحدهم و إسمه على الأصرم الذي كان من عائلة غنية و معروفة في تونس، أول من رمى في أذني عبارة ظلت ترن فيها و ينبض بها قلبي، و هي قوله "إنني فخور بك يا سعد"[3].

د– السنة الرابعة: في الجامع المرادي (1950–1951م):

كان مدير الجامع المرادي شيخا من عائلة النيفر و هي من العوائل المتنفذة قي تونس أنذاك، و لا يذكر أبو القاسم سعد الله أساتذته في هاته المرحلة إلا أستاذ الأدب صالح النيفر، الذي كان يدرسه الأدب، و يذكر

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص ص (104-107).

[2]– مصطفى عبييد، المرجع السابق، ص 228.

[3]– مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 31.

سعد الله أن هاته السنة قد مرت بحالة إضطراب، بسبب عدة إضرابات قادتها منظمة 'صوت الطالب الزيتوني'، و التي كانت تطالب بتدريس العلوم العقلية لطلبة الزيتونة، و معادلة الشهادات الزيتونية بمثيلاتها الفرنسية، و التدريس بأسلوب حديث، و فتح مجال التوظيف، أمام المتخرجين من الزيتونة، و توفير المنح الدراسية أُسوة بالطلبة الآخرين في البلاد.

و كانت هاته الفترة أيضا فترة توتر سياسي، و تعبئة حزبية لصالح زعماء الحزب الدستوري الجديد، الذين كانوا يأتون إلى صحن جامع الزيتونة و يخطبون في الطلبة، و يحاولون توظيف غضبهم لصالح الحزب. و كادت هاته السنة تلغى بسبب الإنقطاع المتكرر عن الدراسة و الطويل أحيانا، و كان الشيوخ يأتون إلى حلقاتهم فلا يذهب إليهم الطلبة و إذا ذهب إليهم البعض جاء الآخرون و أجبروهم على الإنسحاب، و كانت تقع أحيانا مشادات كلامية، و أحيانا يدوية، و لذلك فضّل بعض الطلبة البقاء في بيوتهم إلى أن تتضح الأمور[1].

و قد جرى إمتحان شهادة الأهلية في أوائل خريف سنة 1951م، و إجتازه مؤرخنا بنجاح ليحصل على أول شهادة علمية في حياته، و كم كانت فرحة والديه بذلك كبيرة، و بالتالي إستطاعته الإنتقال إلى(الثانوية العامة) للحصول على شهادة التحصيل[2].

1-2 شهادة التحصيل:(1951-1954م):

أ- السنة الخامسة: في مدرسة بن عبد الله (1951-1952م):

قضى أبو القاسم سعد الله هاته السنة في مدرسة بن عبد الله و التي كانت عصرية البناء، مجهزة بطاولات و كراسي و سبورات، و كانت صوت لجنة صوت الطالب الزيتوني قد حصلت عليها على إثر الإضراب الأخير، و من شيوخه في هاته الفترة، عبد الرحمن خليف الذي أخد عنه النحو و الصرف، و الشيخ كمال جعيط الذي درس عنه التوثيق و الفقه، و التاريخ الإسلامي الذي كان يدرسه الشيخ المختار السلامي، و مادة الحروب الصليبية التي كان يدرسها لهم الأستاذ العروسي المطوي، بالإضافة إلى مادتي أصول الفقه و الجبر.

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص ص (137-139).

[2]- نفسه، ص ص (147-148)

إلا أنّ تطور الأحداث السياسة جعل السنة الدراسية الجديدة تضطرب أيضا، فلم يكد يحل يناير 1952م، حتى توترت تونس بالإضرابات و المظاهرات التي كان وراءها الحزب الدستوري، الذي حاول أن تجنيد الطلبة الزيتونين و شيوخهم ليعلنوا ولاءهم له و للإدارة القائمة[1].

ب – السنة السادسة والسابعة: في الجامع الأعظم (1952–1954م):

و في هاتين السنتين رجع أبو القاسم سعد الله إلى الدراسة في جامع الزيتونة نفسه، و رجع للجلوس في الحلقات أو الطريقة كالعادة، عكس ماكان عليه في مدرسة بن عبد الله، و كان مدير الجامع هو محمد قرولو، و من مشايخه في هاته السنتين الشيخ مصطفى المؤدب الذي درس عليه الأدب و الإنشاء، و الشيخ لعروسي المطوي الذي واصل تدرسيه الحروب الصليبية، و الشيخ محمد العربي العنابي الذي درس عنه الأصول، أما البلاغة فقد درسها عند الشيخ محمد بوزنايقية، و الشيخ محمد شكيس في مادة الفرائض، و مادة المنطق على الشيخ محمد الصالح بن مراد.

و خلال هاتين السنتين الأخيرتين أيضا درس بعض العلوم العصرية منها الفيزياء و الكمياء و الحساب و علم التربية و علم النفس، و كانت هذه الدروس تلقى في المدرسة الخلدونية، القريبة من الجامع الأعظم، وكان مدرس مادة الفيزياء هو الشيخ المنيف عبد الرحمن، و الكيمياء أخدها على الشيخ قوجة، و الحساب على الشيخ محمد السويسي، و مادة التربية و علم النفس كان مدرسها الشيخ محمد المختار الوزير.

و لعل من بين الأساتذة الذين تركوا تأثيرا واضحا في نفسه، هو شيخه مصطفى المؤدب الذي درس عنه الأدب و الإنشاء، فكان على حد قوله " يصحح لي إنشاءاتي و يعطيني علامات مرتفعة، و كان يشجعني بالعبارات المستحسنة "[2]. فكان للشيخ تأثير كبير عليه فإذا كان شيخه علي الأصرم قد دفعه بتشجيعه في البداية فمصطفى المؤدب تابعه و شجعه خلال السنتين الأخيرتين، أما الأساتذة الآخرون فلم يتركوا أثر كبير في نفسه يذكر.

و عن الإمتحان النهائي للحصول على شهادة التحصيل، فقد تأجّل عدة مرات، فقد كان من المفترض إجراءه في شهر جوان 1954م، و لكنه تأجل بسبب الظروف السياسية التونسية و الطلابية من إضرابات و أحداث....الخ. مما أدى لتأخرها عن موعدها، و قد أجريت في خريف 1954م، وكان الإمتحان يتضمن

[1]– أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق ، ص (151–153).
[2]– نفسه، ص ص (161–166).

إمتحانين كتابي و شفوي، فالأول يتضمن كتابة مقالة في موضوع أدبي إنشائي أو تحليلي نقدي، و الثاني يأتي سؤاله حسب القرعة يُلقى أمام لجنة من كبار العلماء، يُلقي فيه الطالب درسا في مسألة فقهية أو نحوية، و كان عند مثوله أمام اللجنة بادئ الأمر يشعر بتوتر كبير، إلا أنه سرعان ما إندمج في الموضوع و كانت النتيجة في الإمتحانين جيدة، و حين ظهرت النتائج كان من الناجحين بدرجات عالية، و هكذا أصبح من حملة التحصيل أو الثانوية العامة، بعد سبع سنوات من الغربة في تونس، و بذلك تحقق لوالدته ما تمنته لإبنها من " العلم الشريف"[1].

و تجدر الإشارة أنه خلال دراسته بجامع الزيتونة حاول أبو القاسم سعد الله تعلم اللغة الفرنسية، حيث سجل بذلك في مركز ' للآباء البيض لتعلم اللغة الفرنسية'، في شكل دروس خاصة، كان يدرسه فيها فتى فرنسيا، إلا أنه و بعد عدة لقاءات إنقطع عن مواصلة الدراسة بها، و لا يذكر أبو القاسم سببا لذلك الإنقطاع، سوى أنه لم يشعر بتقدم يذكر، أو حلول الفترة الصيفية و رجوعه بذلك إلى قمار، أو خوفه من تأثير تلك الدروس على دراسته العادية، أو بالأحرى خوفه من تأثير التبشير عليه، بما أنه كان في كنيسة و لها قسيسوها المخولين لذلك[2].

و أثناء فترة الدراسة كان الطالب أبو القاسم سعد الله يقيم بجامع القصر بحي باب منارة مع قيم الجامع الشيخ محمد ماما الياجوري لمدة 6سنوات، بعد أن قضى السنة الأولى منها في مدرسة صاحب الطابع الحلفاوين، و كان الشيخ محمد ماما الياجوري عوض الأب لأبي القاسم سعد الله في أول غربة له، فحسب قوله "أنه لولا رعايته له ماديا طيلة الستة سنوات لما إستطاع مواصلة دراسته في جامع الزيتونة" [3].

و نشير هنا إلى الظروف القاسية التي عايشها مؤرخنا في تلك الفترة لوصول إلى هدفه ، خصوصاً في سنته الأولى، فقد تحمل أعباء دراسته بنفسه، حيث إضطّر أحيانا كثيرة أن يشتغل ليوفر قوت يومه، فكان يقوم في الصباح الباكر ليبيع الحليب، و يوزع زجاجاته على بعض البيوت مقابل بعض الدريهمات ليشتري بها

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص ص (173-177).

[2]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص ص (30-31).

[3]- محمد الأمين بلغيت، رحيل شيخ المؤرخين الجزائرين أبو القاسم سعد الله بأقلام أحبائه، الجزائر: دار البصائر الجديدة، 2014، ص 278.

طعاما لا يسمن و لا يغني من جوع، لسد الرمق فقط، فكان إذا تغدى في النهار لا يتعشى في الليل و العكس صحيح[1].

و رغم تلك الصعوبات فقد تكللت مجهودات مترجمنا بالنجاح، بحصوله على شهادة الأهلية و التحصيل، و لقد كان نجاح أبو القاسم في تونس، أن شجعه لتطّلع لمواصلة تعليمه و تحصيله، خاصة و أنه كان يدرك جيداً أنه لن يجد مستقبلا لثقافته العربية في الجزائر، في ظل ردوحها تحت وطأت الإستعمار ففكّر في الذهاب لدّراسة في إحدى الجامعات العربية بالمشرق، خصوصاً و أن جمعية العلماء ومنذ سنة 1953م، فتحت مجالا لما أسمته 'البعثات' إلى المشرق العربي، و كان ذلك بإشراف الشيخ البشير الإبراهيمي[2]، الذي تولى تسهيل مهمة الحصول على منح من بعض الدول العربية و الإسلامية لصالح الطلبة الجزائريين ليدرسوا ثم يعودوا لتأطير الطلبة في الجزائر[3].

و على هذا الأساس تقدم بطلب إلى جمعية العلماء في قسنطينة لكي يضموه إلى بعثاتهم المتوجه إلى المشرق لمواصلة دراستهم، فكان جوابها أن البعثات خاصة بطلبة معهد إبن باديس، و هو لم يكن قد درس به من قبل، لكونه قد سافر في نفس السنة التي أفتتح بها المعهد سنة 1947م ، و لعل إعتقاده أن خدماته لبعثة الجمعية في تونس و إنتمائه الفكري لجمعية العلماء قد يؤهله لعضوية هذه البعثات، إلا أن هذا الرفض لم يحبط من عزيمته، فرغبته الملحة و تمسكه الشديد بمواصلة دراسته كانت أهم ميزات شخصه، فقرر العودة إلى الجزائر ليتدبر قدراً من المال يخوله السفر إلى المشرق على حسابه الخاص.

---

[1]- بوعزة بوضرساية، المدرسة التاريخية الجزائرية، الجزائر: دار الحكمة، 2007، ص 107.

[2]- **محمد البشير الابراهيمي(1889-1965م)**: رائد الاصلاح في الجزائر، ولد بسطيف، وبها نشأ وتعلم، رحل إلى المشرق عام 1911م، وأقام في المدينة المنورة ودمشق، عاد إلى الجزائر عام 1921م، ولما تأسست جمعية العلماء كان من أبر مؤسسها ، حيث أنتخب نائب للشيخ ابن باديس ، ثم رئيسا لها بعد وفاة الشيخ ، وبسبب نشاطه أُبعد إلى الصحراء عام 1940م، وبقي في المعتقل إلى سنة 1943م، وسجن مرة أخرى عام 1945م، ساهم في نشر العلم عن طريق تأسيس العديد من المدارس منها معهد ابن باديس ، كما تولى مسؤولية جريدة البصائر، 1952 رحل إلى المشرق وجال في أكثر من بلد واستقر بالقاهرة، ساند الثورة بعد اندلاعها، و بعد الاستقلال عاد الى العاصمة واستقر بها الى أن توفي، من آثار : عيون البصائر، الإطراد والشذوذ في اللغة...الخ. للمزيد انظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، لبنان: مؤسسة نويهض الثقافية، 1980م، ص ص (13-14).

[3]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 32.

كانت هذه الرحلة العلمية إلى الخضراء تونس، و التي تراوحت في جد بين أروقة الجامع و حلقات الدرس، و ردهات المكتبات، و صفحات الجرائد، و المنتديات الأدبية، بحق مرحلة شيقة و أساسية في حياة أبي القاسم العلمية فهناك صقل مواهبه و إكتسب شخصية ثقافية فلا غرابة أن تراه بعد سنوات من تخرجه يصرح بأنه مدين لجامع الزيتونة و شيوخها في صقل موهبته الأدبية، و رسم ملاح شخصيتة الطموحة .

3- أبو القاسم سعد الله في القاهرة (1955-1960م):

بعد حصوله على شهادة التحصيل من جامع الزيتونة، عاد أبو القاسم سعد الله إلى الجزائر يوم 19 نوفمبر 1954م، بعد أن رفضت إدارة الجمعية كما أسلفنا طلبه للمنحة لإستكمال دراسته، فما كان على أبي القاسم إلا العودة إلى الجزائر و الحصول على عمل لتوفير مصاريف السفر إلى المشرق على حسابه الخاص، و إستقر بذلك بمدينة الجزائر، بعد حصوله على منصب عمل في إحدى المدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء المسلمين - سيأتي الحديث عنها فيما بعد- و درّس خلالها لعام كامل بين مدرستي الثبات بالحراش و التهذيب بعين الباردة، جمع منها حوالي 100 فرنك - اجرته اشهرية كانت 17 الف فرنك- فإستعد بذلك للذهاب إلى المشرق.

أول مشكله إعترضه في رحلة ذهابه هاته، هو حصوله عل جواز سفر للخروج من الجزائر، فالمدة القصيرة التي قضاها بالجزائر مع تغير سكناه عند الإنتقال من مدرسة الثبات إلى مدرسة التهذيب، لم تكن لتخوله الحصول على إقامة رسمية مدتها ستة أشهر أو أكثر في نفس المكان، لذلك نصحه بعض الأصدقاء بالتوسط بجمعية العلماء لمنحه الشهادة، و فعلا تفضل الشيخ عبد اللطيف سلطاني أمين المال لدى جمعية العلماء المسلمين بمساعدته بمنحه الشهاد المطلوبة، على أساس إقامته بمركز الجمعية، إلا أن سلطات الإحتلال رفضت ملفه للحصول على جواز السفر بدعوى عدم أداء الخدمة العسكرية.

و بعد هذه المحاولة الفاشلة حاول سعد الله الذهاب إلى قسنطينة لإستخراج جواز السفر منها، بإعتبار أن منطقة وادي سوف كانت تقع ضمنيا ضمن المقاطعة الإدارية لقسنطينة، إلا أن محاولته هذه المرة أيضا باءت بالفشل، و نفس الشئ بعد ذهابه إلى قمار مسقط رأسه، فلم ترض سلطات الإحتلال التصريح له إلا بعد أدائه الخدمة العسكرية[1].

[1]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص ص (40-41).

أمام هذا الوضع لم تبق له سوى الحاضرة تونس، كمحاولة أخيرة لإستخرج الجواز، لتواجد بعض الجاليات السوافة هناك، و الذين بإمكانهم مساعدته في هذا الموضوع، و هناك إتصل بأحد أصدقائه المقيمين هناك و هو الشيخ على خلف الذي كان صهرا لشيخ الطاهر جميل 'شيخ الجالية القمارية' القاطنة بتونس، و بتدخل من هذا الأخير تمكن سعد الله من الحصول على شهادة الإقامة بسهولة بإعتباره أقام و درس بتونس، و بهذه الإقامة إستخراج جواز سفر فرنسي، بعد أن سجل في وكالة سياحية " الروضة للحج و السياحة"، لصاحبها نور الدين بن محمود مدير جريدة الأسبوع التونسية، و كان تسجيله فيها على أساس ذهابه للحج[1].

إلى حين إستخراج جواز سفره، كان على أبي القاسم سعد الله الرجوع إلى الجزائر ، للمشاركة في المناظرة، التي نظمتها جمعية العلماء للإلتحاق المعلمين بمدارسها يوم 25 اوت 1955م، و قد أشرف على المسابقة حينئذ الشيخ إبراهيم مزهودي، و قبل ظهور نتائجها وصلته برقية من تونس تخبره بجاهزية جواز سفره ، فالتحق بتونس و منها إلى القاهرة[2]، مع العلم أن نتائج المناظرة التي شارك فيها قد نجح فيها بترتيب جيد- الثاني في المجموع العام- و التي ستخوله التدريس بإحدى مدارس الجمعية، إلا أن الهجرة لمواصلة دراسته بإحدى جامعات المشرق كانت تشغل باله و تفكيره، و لم يكن مستعد البتّة لتدرِيس إلا بعد إستكمال دراسته[3].

سافر أبو القاسم سعد الله إلى مصر مرورا بتونس ثم ليبيا التي بقى فيها 3 أيام بسبب الإجراءات الإدارية المشددة و لعدم تمكنه من الحصول على تأشيرة الدخول إلى مصر، مما إضطّره لإطالة مدة السفر، فوصل القاهرة يوم 24 سبتمبر 1955م، يقول في ذلك "... نزلت بنا الطائرة في مطار ألماظة ليلا، و بعد إستكمال إجراءات التحقيق المطولة... خرجْت من المطار، و كنت لا أدري من أين أذهب لأني لم أكن أعرف أحداً هناك، فكان معي عنوان مكتب جمعية العلماء بالقاهرة الذي أخذته من الشيخ العربي التبسي في الجزائر فغامرت و توجهت إلى حيث المكتب، و طرقت الباب بعد منتصف الليل ففتح لي الشيخ البشير الإبراهيمي بنفسه و استقبليني فيه"[4].

---

[1]- عبد الرحيم سعد الله، المرجع السابق، ص ص (115-116).

[2]- مصطفى عبيد، المرجع السابق ص 234.

[3]- محمد الحسن فضلاء، المرجع السابق، ص 13.

[4]- عبد الرحيم سعد الله، المرجع السابق، ص 117.

نزل أبو القاسم سعد الله ضيفا عند الشيخ الابراهيمي لمدة 15 يوما، إلى حين تمكنه من ترتيب أموره الدراسية، لتأخره عن موعد التسجيلات، التي تمت في شهر جويلية و حضوره كان في شهر سبتمبر 1955م، يقول " ... بدأت المساعي لتسجيل في الدراسة الجامعية و لكنها باءت بالفشل في البداية، و أصبح الشيخ البشير الإبراهيمي محرجا من حضوري، ففرص التسجيل في جامعات القاهرة ضئيلة و المشكلة عويصة، فأخد يفكر هل يبقيني معه؟ أو يرسلني إلى العراق التي جامعاتها ما تزال تقبل تسجيل الطلبة في تلك الأيام و إمكانية الدراسة بها أسهل من مصر؟ "[1].

و بعد عناء شديد لتسجيل بإحدى الجامعات، تم قبوله في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، بعد نجاحه في إجتياز إمتحان القبول في 12 ديسمبر 1955م، و التي أشرف عليها الأستاذ عمر الدسوقي يقول أبو القاسم سعد الله في هذا الشأن: " و بعد إختبار أو المقابلة قبلت في كلية دار العلوم، و فتح لي المجال بعد ذلك للإقامة و الحصول على منحة جامعة الدول العربية، و قد أنقذني أمام اللجنة حفظ القرآن الكريم و قراءة أبيات من قصيدتي "الطين" [2].

و خلال إقامته بمركز الجمعية لم يكن أبو القاسم سعد الله على دراية بالأوضاع و الضغوطات التي كان يعانيها الشيخ البشير الإبراهيمي و ممثلي حزب جبهة التحرير، و الصراع بين السلطات المصرية و حركة الإخوان المسلمين[3] و تداعياتها السياسية و النفسية و الإجتماعية، كل ذلك إنعكس سلبا على علاقة الشيخ بأبي القاسم[4]، فالمصائب و المشاكل التي عاناها بادئ الأمر عندما كان بمركز الجمعية، و التي يقول عنها " أنها كادت تلقي به في مهاوي اليأس" لولا صبره و عزيمته فيما جاء من أجله.

فكانت المشكلة الأولى التي صادفها بالقاهرة مع الشيخ الإبراهيمي، حيث حدث سوء تفاهم بينهما بادئ الأمر بعد ما كان سعد الله مقيما في مكتبه بالقاهرة، حيث أخرجه منه بطريقة مشينة يقول سعد الله عن ذلك:" و كان الشيخ عشية نزولي عنده يعاني من تقدم السن، و مع وضع سياسي متأزم مع ممثلي جبهة

---

[1]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص ص (47-48).

[2]- نفسه، ص 49.

[3]- **حركة الإخوان المسلمين:** من أهم الحركات الإسلامية السياسية في تاريخ المشرق العربي نشأت سنة 1928 بمدينة الإسماعيلية ،و كانت الحركة في بدايتها حركة دينية لكنها تطورت إلى الخوض في غمار قضايا السياسة، من كبار دعاة حركة الإخوان حسن البنا، وحسن الهضيبي و عمر التلمساني...

[4]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، الجزائر: دار عالم المعرفة،2011، ص 85.

التحرير في القاهرة لإختلاف في الرؤى، و مع السلطات المصرية لصلته بالإخوان المسلمين، و من خروج بعض طلبة البعثة عليه و غير ذلك من المشاكل و التي بحكم سني و بعدي لم أكن أعرفها ...إنني أسجل هذا هنا لكي أقول أن ما جاء في(بين يدي اليوميات) هو مجرد إنفعال ناتج عن سوء فهم و قد توضدت علاقتي بالشيخ بعد ذلك فكان يدعوني " سعد السعود" "[1].

و يضيف سعد الله أن هذه المعاناة لم تكن وليدة الظروف فقط بل أن هناك أشخاص كان لهم دخل كبير و مباشر في تضخيم ذلك اليأس، و ذلك بسبب كلمة كتبها في جريدة البصائر عن الشيخ الإبراهيمي و عن أعماله في سبيل الجزائر و الطلبة، و نشاطاته حتى جلبت عليه نقمة ممن كانوا مع وضد الشيخ الإبراهيمي، فمن كانوا مع الشيخ إعتقدوا أن كتاباته ستلغي الحواجز بينه و بين الشيخ و تحرمهم من مكانتهم لديه، و من كانوا ضد الشيخ فقد إعتقدوا أن الشيخ يغدق عليه المال و أنه من أنصاره المخلصين فأضمروا له العداوة، فأصبح كما قال " لست من هؤلاء و لا من هؤلاء ظلما و بهتانا و عدوانا "[2].

و لقد أثرت هذه الفاجعة أيما تأثير على مؤرخنا، فبالإضافة إلى فشله في الدّخول لإحدى الجامعات بالقاهرة في تلك الفترة و التي كادت ترغمه العودة إلى الجزائر التي خرج منها بشق الأنفس، وقع في مشكلة أخرى مع الشيخ، إلا أنه سرعان ما إنحلت المشلكة الناتجة عن سوء الفهم بينه و بين الإبراهيمي و معروف بعد ذلك علاقة سعدالله بجمعية العلماء و وفاؤه الكبير لرجالاتها و شخصياتها، و تمسكه الشديد بمبادئها و أفكارها.

و خلال إقامته بالقاهرة، سكن أبو القاسم سعد الله ضاحية المعادي[3] في عمارة يملكها الخواجة 'نقولا' و هو رجل من أصل أرميني أو يوناني، و شاركه فيها بعض من زملائه الطلبة الذين كانوا يدرسون وقتها بالقاهرة منهم بالقاسم الجبالي و التارزي الشرفي و التركي رابح و محمد بالعيد، بالإضافة إلى أخوان ليبيان عبد السلام حمودة و قريبه عمر الزليطي و أختان شقيقتان من السودان، و لم يكن الوضع مستقرا دائما فكان زملائه يغيرون سكناهم من وقت إلى لآخر ، إلى أن سكن في غرفة مستقلة يقول فيها أنه "لم يكن يزعجه سوى صوت القطار الذي كان يمر تحت نافذتي فيعرقل دراستي أو يوقظني من نومي في أغلب الأحيان " [4].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج1، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص 11.

[2]- نفسه، ص 22.

[3]- تبعد حوالي 15كلم عن القاهرة.

[4]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم ،ج1، المصدر السابق، ص 8.

أما عن جدوله اليومي في القاهرة فكان في أغلب الأحيان له زيارتين إلى القاهرة ، مرة في الصباح للدراسة و يعود بعدها لطبخ الغذاء و القيلولة، و مرة في المساء للمشاركة في النشاط الطلابي و تلبية المواعيد و دخوله السينما، و حضور الدروس الحرة في اللغات الأجنبية، و أما عند إقتراب الإمتحانات فكان غالبا يعتكف في البيت للمذاكرة[1].

و في القاهرة عانى أبو القاسم سعد الله كثيراً من الظروف المادية الصعبة، فالبرغم من أن الحكومة المصرية كانت تضمن منح 5 جنيهات لكل طالب في الجامعة، بالإضافة إلى إعانة السكن التي كانت الجمعية تمنحها لمبتعثيها هناك[2]، إلا أنها لم تكن كافية لتغطية مصاريفه اليومية إذ يذكر أنه كثير ما كان يضطّر إلى الإكتفاء بوجبات خفيفة رخيصة الثمن، أو يلجأ إلى أكل طعام مر عليه ثلاثة أيام أحيانا، دون وجود أي وسيلة لتّبريد أو حفظ الطعام، و يذكر أيضا أنه كان إذا دعاه أحد لإحتساء قهوة فأنه كان يشبعها بالسكر ليولد ذلك عنده طاقة[3].

إلا أنه بالرغم من الحرمان وشظف العيش، و الظروف العسيرة التي التحق بها بكلية دار العلوم ، فقد كان من أنشط الطلبة و أقدرهم على الإبداع و الكتابة، و كان يحرص على تنظيم وقته، و برمجة نشاطاته فكان وقته مسخراً للبحث و الدراسة، و المشاركة في الحركة الطلابية لدعم الثورة يقول في ذلك :" و إن جاز لي أن أتحدث عن نفسي مثلا فإنني كنت أنجح في كل سنة و كانت معدلاتي العامة دائما جيدة " [4].

فالدراسة في دار العلوم لم تكن في مجملها صعبة على الطالب سعد الله، كون معظم المواد الدراسية كان قد درسها بعمق بجامع الزيتونة يقول: " لم تكن الدراسة في دار العلوم في أغلبها صعبة علي، فجميع مواد السنة الأولى قد درستها في الزيتونة، و لعل الذي إختلف علي هو منهج التدريس و البيئة الثقافية و اللهجة

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم ،ج1، المصدر السابق ، ص 9.

[2]- نشير هنا فقط إلى أن أبو القاسم سعد الله لم يكن من "المبتعثين الذيتونين" أي البعثات التي نظمتها جمعية العلماء، بل سافر على حسابه الخاص، و إنما العلاقة الوطيدة التي جمعته بالشيخ الإبراهيمي، جعلت هذا الأخير يقوم بتخصيص مبلغ مالي له مثله مثل الطلاب المبتعثين.

[3]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 80.

[4]- نفسه، ص ص (54-57).

وبعض الإضافات غير الأساسية"[1]. و لذلك كان إهتمامه بالنشاط الخارجي (من مشاركة في الحركة الطلابية وتدوين يومياته، و جمع مادة رسالة القاهرة لجريدة البصائر)، أكثر من إهتمامه بحفظ مواد الدراسة.

و من بين أهم أساتذته في كلية دار العلوم نذكر منهم : الأستاذ تمام حسان و إبراهيم أنيس في مادة اللغة، الأستاذ زكي المهندس و حامد عبد القادر في مادة التربية التطبيقية، الأستاذ محمد قاسم في مادة الفلسفة، الأستاذ احمد هيكل في الأدب الأندلسي الأستاذ عبد الرحمن أيوب في مادة اللسيانيات، و الأستاذ ابراهيم أحمد العدوي في التاريخ، و الأستاذ سيد إبراهيم في مادة الخطـــ، عمر الدسوقي في النقد الأدبي، و المسرحية الأستاذ مبروك نافع، حسن عباس مصطفى السقّا، عبد العزيز برهام، محمد المدني، الدواخلي، محمد على مصطفى،..... الخ[2]. و لعل من بين الأساتذة الذين تركوا أثرا كبيرا في نفسه هو أستاذه عمر الدسوقي لجديته و صرامته و قوة شخصيته، كما كان من أقوى الأساتذة علما و هيبة في كلية دار العلوم على حد قول أبي القاسم سعد الله.

و بالموازاة مع دراسته تحصل عن طريق الدراسة الحرة على دبلوم الصحافة 1957م، كما درس لغات أجنبية كالإنجليزية و الفرنسية، و أنشطة أخرى كأخذه دروس في الرقن على الآلة الكاتبة ...الخ، و قد تمكن في جويلية 1959م، من الحصول على شهادة ليسانس في " الأدب العربي و العلوم الإسلامية "[3].

– دراسته للماجستير:

بعد حصوله على شهادة ليسانس في الأدب العربي و العلوم الإسلامية كما سبق، تقدم إلى وزارة الثقافة في الحكومة لمؤقتة بثلاثة مطالب في نفس الوقت، أحدهما استكمال دراسته في بلد أجنبي و ثانيهما مواصلة دراسته للماجستير بالقاهرة، و ثالثهما التدريس في إحدى البلدان العربية. أما مطلبه الأول فقد رفض من طرف الإتحاد الطلابي بسويسرا ، بحجة أن شهادته الجامعية لا تؤهله للدراسة بالخارج، فقد قدم في طلبه للمنحة ثلاثة بلدان أجنبية منها بريطانيا و سويسرا و ألمانيا، لدراسة الأدب الأجنبي و بلغة البلد الذي أختاره، بينما كانت شهادته في اللغة العربية و العلوم الإسلامية فتم رفضه[4].

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، حياتي، ص ص (234-235)

[2]– لحسن بن علجية، مراسلات في التاريخ والتراث الجزائري، الجزائر: دار قرطبة لنشر والتوزيع، 2015، ص 30.

[3]– مراد وزناجي، المصدر السابق، ص ص (54-57).

[4]– أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م،ص ص(48-49).

أما مطلبه لتدريس بإحدى البلدان العربية ، فإن مصالح جبهة التحرير قد قدمته إلى ثلاثة جهات عربية من بينها الكويت و المغرب الأقصى و كلاهما قبلاه لتدريس بالمدارس الثانوية لديهم، إلا أنه كان يفضل إستكمال مشواره الدراسي خشية ضعف عزيمته لإستئناف الدراسة لو إشتغل بالتدريس، كما أن رفض طلبه للمنحة لم يحبط من عزيمته و بقي ينتظر الفرصة السانحة لذلك و تكرار المطلب[1].

سجل أبو القاسم سعد الله في مكانين مختلفين لمواصلة دراسته في الماجستير، الأولى هي كلية دار العلوم نفسها تخصص أدب فرع النقد الأدبي، و يذكر سعد الله أنه عند تسجيله للماجستير تردد في إختيار التخصص، بين التسجيل في التاريخ أو النقد الأدبي في كلية دار العلوم، إلا أنه إختار التخصص الثاني، و لعل للأستاذ المشرف على التخصص دوراً في إختياره، إذ كان على رأس فرع التاريخ الأستاذ "ضياء الدين الريس"، الذي يقول عنه سعد الله : " هو أستاذ رغم مزاياه و علمه يتركك مسافة بعيدة بينه و بين الطالب "[2]. فلذلك لم يكن من المتحمسين لتسجيل في فرعه.

و كان على رأس الفرع الأدبي الأستاذ عمر الدسوقي و لعل هذا الأخير هو ما دفع بأبي القاسم سعد الله لإختيار شعبة الآدب و التسجيل في فرعه ضمن تخصص النقد الأدبي، إذ كان أحب الأساتذة إلى قلبه في كلية دار العلوم يقول فيه: " هو من أقوى الأساتذة علما و هيبة، يحترمه زملاؤه لعلمه و أقدميته و قوة شخصيته، و يخافه الطلبة لجديته و صرامته، و كان من الأساتذة القلائل الذي إذا نجح الطالب في مادته ضمن النجاح في بقية المواد"[3].

أما عن أطروحته للماجستير فقد إختار سعد الله أحد الأعلام الأدبية البارزة في الجزائر، وهو " الشاعر محمد العيد آل خليفة"، لدراسة شعره و إبراز جهوده و التعريف بآثاره، تحت عنوان 'محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث (1904-1979م)'، تحت إشراف الأستاذ عمر الدسوقي، حيث فصل سعد الله في حياة محمد العيد، و أبرز العوامل التي كوّنت شخصيته و آراءه و تجاربه، كما تحدث بالتفصيل عن شعره من حيث تطوره و أغراضه و منزلته[4].

---

[1]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 58.

[2]- أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة، الجزائر: عالم المعرفة، 2011م، ص ص (130-131).

[3]- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص 211.

[4]- أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، الجزائر : دار عالم المعرفة، 2011م، ص 19.

و قد إستفاد سعد الله كثيرا في جمع المادة العلمية لأطروحته حول محمد العيد من الشيخ البشير الإبراهيمي، إذ كان هذا الأخير معجباً بشعر محمد العيد و كان يعمل على نشر ديوانه يقول في ذلك " مما تناولته في رسالة القاهرة،كون الشيخ على وشك طبع ديوان محمد العيد الذي أرسله إليه الشاعر و سمعت و أنا ما أزال في الجزائر أن الشيخ يعمل على نشره ثم مرت الأيام و لم يصدر الديوان، ثم إكتشفت أن هناك أعداد من مجلة الشهاب بمكتبة القلعة تحتوي على بعض القصائد، فكنت أذهب إلى القلعة في العطلة الصيفية و أنسخ بيدي ما أعثر عليه ثم آتي بها إلى كاتب (سكرتير الشيخ عبد الرحمان ليرقنها ثم يأخد الشيخ في قراءة القصائد و التعليق عليها و قد كنت أستفيد من تعاليقه على شعر محمد العيد"[1] .

و هذا ما جعله يختار دراسة حياة و شعر هذا الشاعر لرسالة الماجستير، فبالإضافة إلى رغبته في التعريف بالأدب و الأدباء الجزائريين، خاصة مع ندرة المراجع المتعلقة بالأدب الجزائري و الثقافة الشاملة عن الجزائر بالمكتبة العربية عموما في تلك الفترة،كانت هذه الرسالة هي أول دراسة أدبية لشخصية جزائرية بالمشرق في العصر الحديث. و كان قد أنهى الدبلوم في صائفة 1960م ، و كان على إستعداد للمناقشة إلا أن القانون لا يسمح بمناقشة الرسالة في السنة الأولى من الدراسة[2]، إلا أنه و بعد حصوله على منحة لدراسة بأمريكا ترك الرسالة مخطوطة عند الشيخ الإبراهيمي ليجد لها ناشر فقام الشيخ بكتابة تصدير لها و طبعها لدى دار المعارف بالقاهرة سنة 1961م[3].

أما الجهة الأخرى التي سجل فيها للماجستير كانت ضمن شعبة الأدب و النقد بمعهد البحوث و الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية[4]، و قد أكمل السنة الأولى أيضا و بينما هو بصدد إجراء الإمتحان وصلته برقية بقبوله في المنحة لدراسة بأمريكا، و ضرورة التوجه إلى تونس لإستكمال إجراءات السفر، فسافر قبل أن يكمل الإمتحان[5].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص 86.

[2]- مراد وزناجي، المرجع السابق، ص 82.

[3]- أبو القاسم سعدالله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص ص (86-87).

[4]- من بين الأساتذة الذين درس عليهم في هذا التخصص نجد كل من: الأساتذة: سهيل ادريس، إسحاق موسى الحسيني، وسامي الدهان، ويحي حقي، و جودة السحار، وغيرهم.

[5]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص ص (82-83).

كانت إقامة مؤرخنا في أرض الكنانة مصر مرحلة زاخرة من حياته تعلم فيها الأدب وخالط جهابذته، فأبدع في النظم الشعري حتى أصبحت النوادي الشعرية تحجز مكانا لشعره، و بالرغم من حرصه على تفعيل النشاطات الطلابية –كما سيأتي معنا- لصالح الثورة إلا أن سعد الله كان من أنجب الطلاب الجزائريين بالقاهرة و أقدرهم على الكتابة و النشر، بالرغم من الظروف التي إلتحق بها بالكلية و الصعوبات المادية، و مفارقة الأهل، إلا أنها لم تكن عوائق في وجه إبداعه الفكري و الثقافي بل أعطته دفعا قويا للإنتاج و التأليف و إكتساح المنابر.

3- أبو القاسم سعد الله في أمريكا (1960-1965م):

بدأ أبو القاسم سعد لتحضير لطلب منحة دراسية بالخارج منذ حصوله على شهاد ليسانس سنة 1959م، و واقع الأمر أن التفكير في مواصلة دراسته في بلاد غير عربية، قد خامره منذ كان يدرس بتونس، ومع حصوله عل المؤهل العلمي وهي الشهادة الجامعية من كلية دار العلوم قوى ذلك الشعور، و ربما كان وراء هذا الطموح هو إتصاله الدائم بالأدب و الفكر الحديث، ذلك أن معظم الكتاب الذين كان يقرأ لهم كانوا قد درسوا بمدارس أدبيه وفكرية أروبية حديثة.

كما أنه لامس تأثير هذه المدارس أيضا على أساتذته في تونس و القاهرة، حيث لاحظ فروق التكوين بين مدرسيه بالزيتونة بمراحلها التقليدية، و بين من أصبحوا يدرسونهم في السنوات الأخيرة من خريجي المدرسة الصادقية المتأثرين بالثقافة الأروبية، أو في معاهد فرنسا نفسها. و في القاهرة أين برز تأثير أساتذته عليه بشكل واضح لأن أغلب الأساتذة الذين درس عليهم بكلية دار العلوم قد تخرجوا من مدارس أروبية، و كل منهم له شخصيته التي يؤثر بها على الطلبة، هذا التأثير الثقافي كان دافعا له لتفكير في إستكمال دراسته بأحدى البلدان الأجنبية[1].

في هذا الإطار تقدم إلى وزارة الثقافة بالحكومة المؤقتة بطلب الحصول على منحة، إلا أن طلبه قوبل بالرفض كما أسلفنا، و قد كان هذا الرفض قد أحدث ردود فعل غاضبة على مستوى الطلبة بالقاهرة و على مستوى المسؤولين في وزارة الثقافة، بسبب الحساسية التي كانت بين رابطة الطلبة بالمشرق و الإتحاد، فالرابطة لم تبارك عمل الإتحاد منذ تأسيسه لكون معظم الطلبة الذين أسسوه كانوا ينتمون إلى جامعات فرنسية، مع الشعور بفكرة التفوق لدى طلبة الجامعة الفرنسية اتجاه زملائهم في الجامعات العربية.كما أن إتحاد الطلبة في

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 245.

توزيعه للمنح كان يحابي أحيانا فئة دون غيرها و هو ما أعتبره الطلبة بالمشرق إحتكاراً للمنح لصالح الطلبة في أوربا، خصوصا و أن هذا الأخير كان مقره لوزان بسويسرا[1].

إضافة إلى ذلك كان الطلبة بالقاهرة يعتبرون سعد الله من أنجب الطلبة على الساحة الثقافية بالقاهرة، و هو ما جعلهم يتخوفون من رد فعل الإتحاد، فلا مجال لهم إذاً في الحصول على منحة في بلاد أجنبية، ما دام أبو القاسم سعد الله لم يحصل عليها!!! [2].

و من حسن الحظ أن الحكومة المؤقتة قد تدخلت لإحتواء الوضع، عن طريق وزارة الإتصالات التي كان يتولاها عبد الحفيظ بوصوف، الذي كان يشرف على جهاز "المالغ" أو ما يسمى بالمخابرات، فقد وصَلهم ما يتداوله الوسط الطلابي بالقاهرة في هذا الخصوص، و لعل ذلك كان من أسباب نقل مقر الإتحاد من سويسرا إلى تونس ليكون تحت نظر الحكومة و مصالحها، الذي كانت تعتبره يقوم بإتصالات دولية و يمارس نشاطا دبلوماسيا يتقاطع مع نشاط الوزارة المعنية "وزارة الخارجية"[3].

لم ييأس أبو القاسم سعد الله في تكرار مطلبه الخاص بالمنحة، حيث و أنه قبل ذهابه للمشاركة في المؤتمر الرابع للاتحاد المنعقد ببئر الباي بتونس أوت 1960م، جدد طلبه إلى الحكومة، خاصة بعد الحراك الذي قام به الطلبة بالقاهرة بخصوص توزيع المنح، و نقل مقر الإتحاد من جنيف إلى تونس، و بالتالي إمكانية إعادة النظر في طلبه بشفافية أكثر، و ذكر هذه المرة ثلاثة بلدان في طلبه "إسبانيا و سويسرا و أمريكا"، و في شهر أكتوبر جاء الرد بقبوله للمنحة و أن عليه الحضور إلى تونس لإستكمال إجراءات السفر[4].

و كانت وزارة الثقافة قد إختارت أمريكا من بين البلدان التي حددها في طلبه، بالرغم من أن هذه الأخيرة كانت هي الثالثة في ترتيب الخيارات، و لولا حسن حظه لكان من المرفوضين هذا العام أيضا، فقد كان عدد المرشحين للمنحة الأمريكية حوالي 14طالبا، إختار منهم الملحق الثقافي الأمريكي 6 طلاب، و كان هو آخر المقبولين لهاته المنحة، و يذكر سعد الله في هذا الصدد أن حصوله على هاته المنحة هذا العام كان

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج9 ، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص 316.

[2]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 59.

[3]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 248.

[4]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 62.

"إستثناء" وذلك لإرضاء تيار الطلبة الذين كانوا يدرسون بالعربية و خوفا من وقوع إنشقاق في الإتحاد على أساس ثقافي[1].

توجه سعد الله إلى تونس في 9 نوفمبر 1960م، لإتمام إجراءات السفر، أين تحصل من هناك على جواز سفر تونسي و ذلك لإنعدام التمثيل الدبلوماسي بين الجزائر و أمريكا حينذاك، لأن أمريكا لم تكن تعترف بالجزائر وقتها، و بعد إنجاز شؤون التأشيرة و تهيوئه للسفر تسلم وثيقة من طرف الوزارة تضمنت تعليمات و توجيهات يسلمونها عادة لكل طالب مسافر إلى الدراسة بالخارج، منها ضرورة إحترام البلد المضيف، و الحفاظ على سمعة الثورة.....الخ.

سافر أبو القاسم سعد الله إلى أمريكا في 28 نوفمبر 1960م، من مطار العوينة بتونس إلى لندن فنيويورك، و هي أول بلد أجنبي يزوره غير البلاد العربية، فبحكم ثقافته و تربيته فقد كان يجهل كل شيئا تقريبا عن هذا البلد يقول:"... كانت هذه أول مرة أتعلم فيها على بلد غير عربي... غير أن أهم مشكله كان علي أن أحلها بسرعة هي اللغة "[2]، فسعد الله كان يدرك صعوبة المهمة في بلد لا يتكلم أهله اللغة العربية بتاتا، و لا يفهمون منها شيئا، و لم يكن ما تعلمه من الإنجليزية ليكفي للإتصال المباشر مع الشعب الأمريكي، كما أن الحياة الإجتماعية و الثقافية في أمريكا تختلف عن سابقتها في المشرق، فلهذا وجد سعد الله صعوبة كبيرة في فهم الحياة بأمريكا.

و يذكر سعد الله أن هناك عاملين دفعاه إلى مواجهة الصعوبات بتحد كبير هما: أن الجزائر كانت في ثورة حياة أو موت و أقل ما يمكنه أن يخدم به الوطن في تلك اللحظات العصيبة هو أن ينجح في مشروعه، و الثاني هو أن مطلبه للمنحة في الخارج كان قد رفض على أساس أنه لا يملك مؤهلات جامعية، لذا كان كل ما يخشاه هو أن يعطي الفشل برهانا للآخرين على فشل جميع طلبة المشرق ذوي الثقافة العربية، فالقضية بإختصار كانت قضية "تحدٍ"[3].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، "الغائب الحاضر الأستاذ مهري" ، الشروق اليومي،2012/04/10 .

[2]- أبو القاسم سعد الله ، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 50

[3]- نفسه، ص 51.

أ- الدراسة قبل إعداد الاطروحة:

كان أبو القاسم سعد الله قبل قدومه إلى الو.م.أ، يعتقد أن نظام التعليم العالي في أمريكا يشبه النظام التعليم العالي في فرنسا، و ذلك بأن كل ما يُلزم به الطالب هو إجادة اللغة المحلية و تحضير الأطروحة تحت إشراف أستاذ، إلا أنه يُفاجئ بدراسة عدة مواد و كتابة عدة أبحاث معمقة، و قبل ذلك يتم تسجيله بمركز لتعلم اللغة الإنجليزية، و بعد تمكنه من إتقان اللغة يتم تسجيله بأحدى الجامعات بأمريكا. و عند نجاحه في المواد المقررة يعطى له الإذن بالشروع في تحضير أطروحته.

على هذا الأساس؛ إلتحق أبو القاسم سعد الله بمركز اللغة الأمريكية (Language Center American) فور وصوله، و هو مركز مخصص للطلبة الأجانب لتعليم الأنجليزية قبل ترسيم إلتحاقهم بالجامعة[1]. و كان برنامج الدراسة فيه يشمل كل من الكتابة و القراءة و الخط و المحادثة و الإستماع، و يشمل أيضا محاضرات يلقيها أساتذة متمرسين بلغة بسيطة و بطيئة يتعود منها الطالب على الإستماع إلى درس نظري و يتدرب على تدوين ملاحظات و متابعة الأفكار، و موضوع هذه المحاضرات هو النظام السياسي و الإداري الأمريكي و الحضارة الأمريكية.

و عن أساتذته بهذا المركز، نذكر منهم الآنسة روبنسون(Robinson)أستاذة الخط و القواعد، الآنسة أنيتا روزيتانو (Anita. Rossitano) أستاذة المحادثة و الإنشاء و يذكر سعد الله أنه لقي صعوبة كبيرة في مادة الإنشاء مع الأستاذ روزيتانو حيث كان كلما كتب لها إنشاء تُعلّق عليه بأنه شعر بسبب تعوده على الثقافة الشعرية العربية التي إعتادها في دراسته بتونس و القاهرة، كما أنه حتى بعد مجيئه إلى أمريكا في الشهور الأولى كان ينظم الشعر يقول "ولا شك أنها – الآنسة روزيتانو- عانت كثيراً لكي تعيدني إلى الأرض و تجعلني أكتب بلغة إنجليزية مقبولة على الأقل"[2]. و ربما بسبب هاته التجربة إبتعد سعد الله عن نظم الشعر، و إشتغل بأعادة تكيف نفسه و حملها على لغة الواقع بدل لغة الخيال.

و كان برنامج الدراسة بالمركز يقتضي البقاء حوالي 6 أشهر على الأقل (أي حتى شهر جوان) لتمكن من التحكم باللغة، إلا أنه و بعد فترة وجيزة قاربت 3 أشهر و نصف، أبْدى سعد الله رغبته ببداية الدراسة

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج3، المصدر السابق، ص 15.

[2]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص ص(275-276).

النظامية بالجامعة، و رغم تحذيرات أساتذته له بعدم جاهزيته، و أن رصيده اللغوي غير كاف حتى الآن للقبول بالجامعات، إلا أنه الحّ في طلبه و أصر على البدء في الدراسة بالجامعة فوافقوا على ذلك[1].

كانت الجامعة المعنية له بالدراسة في حالة بقائه بالمركز إلى شهر جوان هي جامعة كنساس (University of Kansas) التي تسير على النظام الفصلي (السنة الدراسية إلى فصلين رئيسين مع موسم صيفي)، و ما دام أنه أراد البدء قبل ذلك، فكان عليهم البحث له عن جامعة أخرى تعمل بنظام الفصول الأربعة، فكانت جامعة مينيسوتا (University of Minnesota) هي أول جامعة تخبرهم بقبوله لأن الدراسة فيها تستأنف إلى نهاية مارس، و كان قبوله فيها بشكل مؤقت إلى حين التأكد من أهليته بحصوله على علامة جيد أو حرف (B) على الأقل في المواد التي يسجل فيها بالجامعة بالإضافة إلى إختبار اللغة الإنجليزية بالجامعة نفسها، و في حالة نجاحه يتم قبوله بشكل نظامي لدراسة في قسم الدرسات العليا[2].

سجل أبو القاسم سعد الله في مادتين كما قرروا له ، واحدة في" الأدب الأمريكي" و أخرى في "الحياة العقلية في الجنوب الأمريكي"، و كانت هاته المواد تدخل ضمن تخصص 'الدرسات الأمريكية'، وهو موضوع حضاري يشمل الأدب و الفلسفة و التاريخ الإجتماعي، و قد تم توجيهه لهذا التخصص بإعتبار دراسته بكلية دار العلوم تجمع بين الآداب واللغة العربية والدراسات الإسلامية[3]. فبالنسبة إلى المادة الأولى كان الأستاذ يثير خلالها قضايا أدبية من شعر ومواقف لبعض الشعراء و يحللها بإسهاب، و المادة الأخرى فهي مادة فلسفية تاريخية يعالج فيها الأستاذ قضايا فلسفية لكبار المفكرين.

بالإضافة إلى المادتين المقررتين يُلزم الطلاب بمطالعة العديد من الكتب و كتابة الأبحاث والدراسات المتواصلة و الأمتحانات المعمقة....الخ. فكانت المهمة صعبة على مترجمنا فهو بالكاد يتحكم بتركيب معاني الكلمات و الجمل و تركيب الأفكار فيكف ببحوث معمقة !!!

و بعد بضعة أسابيع في الدراسة في التخصص المذكور ظهر له تغير جهة الدراسة لصعوبة المادة و عدم قدرته على إستعاب المحاضرات و الدروس، فكان يجد صعوبة في تركيب المعاني و تركيب الأفكار و الإستنتاج و المقارنة ....الخ. كما أنه لم يجد أي علاقة بين ما درس في السابق و ما يدرسه وقتها[4]. و في تلك الأثناء و

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 288.

[2]- نفسه، ص ص(294-295).

[3]- أبو القاسم سعد الله ، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 28.

[4]- أبو القاسم سعد الله ، حياتي، المصدر السابق، ص ص (299-300).

بالصدفة كان يطالع في أحد المجلات فوجد خبراً لفت نظره و هو " الوجود العربي الإسلامي في جزيرة سردينيا"، و كان من قبل قد قرأ عن الوجود العربي في الأندلس و صقلية و لكنه لم يعرف عن الحكم العربي في سردينيا، فتحركت في نفسه نوازع التاريخ و حب المعرفة و أخبار الأجداد، و ما زاد ذلك التروع أكثر هو أحداث الجزائر و المشرق العربي في تلك الفترة[1].

فطلب بذلك من إدارة شؤون الطلبة الأجانب تغيير التخصص إلى "التاريخ و العلوم الساسية " بدعوى صعوبه التخصص السالف الذكر، كما أن الشهادة في تخصص التاريخ ستتيح له العمل بها من أجل الجزائر مستقبلا، فقبلوا تحويله إلى تخصص "التاريخ و العلوم السياسية". فسجل أيضا في مادتين جديدتين، بالإضافة إلى اللغة و يشترط في ذلك حصوله على علامة " B " لضمان النجاح، و في حالة نجاحه فهما، فسوف تزول عنه صفة المؤقت و يبدأ بالدراسة بشكل نظامي بالجامعة، للحصول على شهادة الماجستير.

فسجل في مادتين ' التاريخ الفكري' و 'الإدارة المحلية '، و قد إستطاع في المادة الأولى إنجاز بحث عن مجريات الإنتخابات البلدية في مدينة مينابوليس، تطلّب منه جهد كبير في متابعة الدعاية الإنتخابية و وسائلها و إجراء مقابلات...الخ، فجاء البحث عملي و فيه جهد واضح، إلا أن الوقت أدركه بالنسبة للمادة الثانية فلم يستطع إنجاز المطلوب منه في الوقت المحدد، و من قواعد النظام أنه يجوز له الإنسحاب من المادة قبل الوقت المحدد دون أن تسجل عليه علامة الإنسحاب في سجله الدراسي، فإذا إنسحب بعد ذلك الوقت فإن علامة الإنسحاب المرموز لها بعلامة " W " تظل مسجلة في سجله إلى حين تخرجه. أو كان بإمكأنه تأجيل الإمتحان و البحث لوقت آخر، إلا أنه و لجهله بهاته القواعد، قرر الإنسحاب من المادة بعد فوات الأوان فحصل على علامة " W "، و بالتالي لم تبقى له سوى مادة الإدارة المحلية و اللغة. و بعد إجراء الامتحان النهائي تمكن من الحصول على علامة " B " في مادة الإدارة المحلية، كما أن إختباره للغة قد أثبت تقدمه فيها بصورة ملحوظة و بالتالي زالت عليه صفة المؤقت و من ثم القبول في الجامعة مينيسوتا و الدراسة فيها بشكل نظامي[2].

سجل سعد الله في عدة مواد بالجامعة للحصول على شهادة الماجستير، و كان من شروط المنحة أن يدرس كل العام بما في ذلك الصيف، و أصبح بذلك يعمل من أجل نيل شهادة الماجستير التي إختار لها فرع " B " و الذي يعني التركيز على دراسة مجموعة من المواد و كتابة ثلاثة أبحاث، و فيما يخص مواد الدراسة يلزم الطالب بإختيار قسمين لدراسته " أساسي" و " فرعي"، ففي القسم الأساسي يدرس الطالب مواد أكثر

[1]- أبو القاسم سعد الله ، حياتي، المصدر السابق، ص 301.

[2]- نفسه، ص ص (302-304).

لأن ذلك القسم سيصبح موضوع تخصصه، و قد إختار سعد الله في هذا القسم تاريخ أروبا الحديث و المعاصر. و داخل هذا القسم يجب على الطالب إختيار ثلاثة فروع يركز عليها تركيزا خاصا، أي تصبح هذه الفروع الثلاثة تخصصاً داخل التخصص العام. و قد إختار سعد الله منها أروبا في القرن العشرين، و الشرق الأدنى، و روسيا الحديثة، كما يقتضي أيضا نظام الدراسات العليا أن يضيف الطالب فرعين آخرين في التاريخ ولكن خارج الحقل الأساسي و لذلك إختار أمريكا في القرن العشرين، و الهند تحت الحكم البريطاني.

أما بخصوص القسم "الفرعي" فالطالب حر في إختيار ما يساعد تخصصه العام، فأضاف سعد الله مادة العلوم السياسة لتكون المادة التكميلية، و يجب إختيار فرعين فقط داخل هذا الحقل، و على هذا الأساس إختار سعد الله الدبلوماسية، تاريخها و تطبيقها. الإستعمار: تاريخه نظرياته، أنواعه. و هكذا تصبح جملة فروع تخصصه سبعة، خمسة في التاريخ و إثنان في العلوم السياسية.

و من بين أساتذته في التاريخ في هاته المرحلة نذكر منهم: الأستاذ ثيوفاني ستافرو الذي درس عليه مادتي روسيا الحديثة و الدولة العثمانية، الأستاذ بيرتون شقاين الذي درس عنه تاريخ الهند، الأستاذ رومني تيلر أخذ عنه تاريخ الصين، والأستاذ اوتو فلانزي الذي درسه عنه تاريخ المانيا الحديثة، والأستاذ جيم منهالند أخذ عليه مادة تاريخ فرنسا الحديث والمعاصر .

أما أساتذته في العلوم السياسية نذكر منهم الأستاذ تشارلز مكلافلن في الدبلوماسية الأمريكية، والأستاذ جون تيرني درس عنه نظم الحكم في الاتحاد السوفياتي، والأستاذ لينوكس ميلز في مادة عالم البحر الأبيض المتوسط و السياسة الدولية ومادة الإستعمار و مشاكل الإدارة الإمبريالية.

ومن الشروط الأساسية أنه قبل السماح بالبدء في كتابة الأطروحة يجرى على الطالب إجراء إمتحان كتابي وشفوي في جميع فروع تخصصه، و بناء على ذلك امتُحن في الفروع السبعة السابقة الذكر، ثم تلاه الإمتحان الشفوي على يد لجنة خماسية من الأساتذة المتخصصين في موادهم، و إستطاع بذلك النجاح في الإمتحانين مع إستكمال بحوثه المطلوبة، و بالتالي تم إعطاءه الحق في متابعة الدكتوراه.

ب- : اعداد الاطروحة:

إتفق سعد الله بداية من سنة 1964م مع الأستاذ هارولد دويتش (*Harold Deutch*) على الإشراف على موضوع أطروحته لدكتوراه، و قد كان الأستاذ هارولد يشرف على عمله العلمي منذ إلتحاقه

بقسم التاريخ، فواصل إشرافه عليه إلى أن حصل على الدكتوراه[1]. و قد إختار أبو القاسم سعد الله التطرق إلى موضوع يتعلق بتاريخ الجزائر، وبعد عدة إقترحات وقع إختياره على موضوع ' الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930م)'، ويذكر سعد الله أسباب إختيار هذا الموضوع في مايلي:

- أولا: ظروف الجزائر وثورتها و بحثها عن الهوية التاريخة و كانت الأفكار في دمي منذ اوائل الخمسينات.

- ثانيا: دراستي للحركات القومية في التاريخ الأروبي الحديث و المعاصر منذ إنتشار الفكرة القومية نفسها مع الثورة الفرنسية التي نقلتها إلى وسط و شرق أروبا، كذلك دراستي للحركات الوطنية في أندونيسيا والهند وتركيا و البلاد العربية.

- ثالثا: جهلي بتاريخ الجزائر الذي لم أدرسه في مدرستي و لم يحدثني عنه إنسان و لم أجد في برنامج، و ما علمته منه لا يعد إلا معلومات مشتقة من كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني وتاريخ الجزائر للميلي وموجز تاريخ الجزائر لكعاك، وبعض التلميحات التي كانت تبحث في البصائر عن دول المغرب و شعرائها و كتابها و فقهائها و بعض أحداثها[2]. يقول في مقدمة كتابه الحركة الوطنية " كلما أخبرت الناس في أمريكا عن موضوع هذا الكتاب نظروا إليّ بتعجب قائلين " جئت إلى هذا البلد لتتعلم عن بلادك ! " أن هذه القصة تذكرني بقصة أخرى فالمثقفون الجزائريون بالفرنسية إعتادوا ، يقولوا للمستمعين العرب في الشرق" إننا ضحايا الإستعمار الذي فرض علينا أن نتعلم لغته و نجهل لغتنا". و مؤلف هذا الكتاب هو 'ضحية' أخرى، و لكن بطريقة مختلفة. فرغم أنه مثقف بالعربية التي كان عليه أن يهاجر لكي يتعلمها، فأنه لم يدرس ولو مادة واحدة في تاريخ الجزائر، فهو، كبقية الجزائريين، لا يعرف عن ماضي الجزائر أكثر مما يعرف رجل الشارع الأمريكي أو الصيني. بل إن الجزائريين المثقفين بالفرنسية لم يدرسوا تاريخ الجزائر، لأن الكتب الفرنسية المقررة اعتادت أن تبدأ بهذه العبارة " إن أجدادنا هم الغاليون..."[3].

و قد حاول سعد الله في دراسته هاته، بداية الحركة الوطنية بداية غير تقليدية "لأن الفرنسيين و عنهم كان ينقل الآخرون"، و الذين يُعزون بداية الحركة الوطنية مع الأمير خالد و نجم شمال أفريقيا، بينما يثبت

---

[1]- أبو القاسم سعد الله ، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص (52-53).

[2] - أبو القاسم سعد الله ، حياتي، المصدر السابق، ص ص (329-330).

[3]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية،ج2، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص 11.

البحث بالدراسة و البراهين عكس ذلك، و أن الشعور الوطني بدأ كرد فعل على الإحتلال، و رغم قمع إدارة الإحتلال له فقد بقى يظهر في أشكال مختلفة إلى أن أصبح يتضح جليا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

و تجدر الإشارة إلى أن أبو القاسم سعد الله، قبل إختياره لموضوع أطروحته قد سبق ذلك عدة إقترحات، تصلح كل منها أن تكون موضوع رسالة دكتوراه، ففكر في حوادث 8 ماي 1945م، و في حكومة الأمير عبد القادر، و حركة الأمير خالد و جمعية العلماء، و حزب الشعب و نحوذلك. و بعد دراسة معمقة لعلاقات الشعب الجزائر بفرنسا، وجد أن الحقبة الواقعة بين سنة 1900م و 1930م تكاد تكون مجهولة،كما أن أضواء مختلفة قد سلطت على الحركة الوطنية بعد الإحتفال المئوي بالإحتلال، ولكن الفترة المشار إليها ظلت مهملة ومجهولة و لذا إختارها لكي تكون موضوع أطروحته.

أما الصعوبات التي واجهة في بداية بحثه هي مشكلة المراجع، فمن المسلم بأن الفرنسين هم الذين كتبوا أكثر من غيرهم عن الجزائر، رغم ما في كتاباتهم من أخطاء واضحة متعمدة أحيانا، إلا أن سعد الله فإلى جانب إعتماده على المراجع الفرنسية ، إعتمد أيضا على المراجع بالإنجليزية و الألمانية و الإيطالية و الإسبانية التي كتبت عن الحركة الوطنية، و قد إستفاد سعد الله كثيرا منها في إعداد الرسالة. و مادامت هذه المراجع لم تبحث من قبل فقد إعتمد على المواد الخام في تناول الحركة الوطنية، و من حسن الحظ أن جامعة مينيسوتا و المكتبات الأمريكية تحتوي عل كثير من المراجع التي يحتاجها، بالإضافة إلى إستجلاب مصادر مهمة من الجزائر و فرنسا[1].

و قد انتهى من كتابة أطروحته في جويلية 1965م، و لم تتم مناقشته إلا في شهر سبتمبر (20 سبتمبر 1965م)، و كانت لجنة المناقشة التي عينت له تضم 5 أساتذة بالإضافة إلى المشرف،كان هناك الأستاذ تشارلز ماكلافلن رئيس قسم العلوم السياسة و العلاقات الخارجية و أستاذ الدبلوماسية والعلاقات الدولية بالجامعة، و الأستاذ ثيوفاني إستافرو أستاذ التاريخ الروسي و الشرق الأدني، و الأستاذ ديفد كوبرمان رئيس قسم الدراسات الإجتماعية و أستاذ الفكر الأروبي، و الأستاذ كيم مانهالند أستاذ التاريخ الفرنسي. و بعد المناقشة التي إستغرقت حوالي ثلاثة ساعات أوصت هذه اللجنة بمنحه شهادة الدكتوراه. يقول أبو القاسم سعد الله عن ذلك " اليوم حصلت على الدكتوراه الحلم الذي كرست من أجله حياتي حتى الأن لم أكد

[1] – أبو القاسم سعد الله ، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص ص(53-54).

أصدق... إستغرق الإمتحان حوالي ساعتين و نصف، بعدها صافحني أعضاء اللجنة(وعددهم خمسة) مهنئين"[1].

مما لا شك فيه أن المكانة العليمة التي وصل إليها مؤرخنا لم تأتي من فراغ، و إنما كانت نتاج تضحيات كبيرة من العمل الجاد للوصول إلى هدفه، و أمريكا ذلك البلد الصناعي و البعيد كل البعد عن الثقافة و الحياة المشرقية التي أعتادها ، كانت الموطن الذي حقق فيه طموحه العلمي الذي كان يناشده بكل عزيمة و صبر، و بالتالي أضاف إلى سيرته العلمية ليس فقط شهادات عليا، بل تجربة علمية غنية في ميدان البحث العلمي، ستكون ركيزة أساسية لإنطلاقته العلمية في مشواره الأكاديمي و التي سيكون لجامعة الجزائر الفتية حظ وافر منها.

ثانيا: شخصيته:

1- العوامل المؤثرة في شخصيته:

إن البناء الفكري لأي مفكر أو عالم لا يبدأ من فراغ فلا بد من المؤثرات الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية أو بعض الأعمال الفكرية التي تسهم في نمو هذا التفكير، أو مواقف قد صادفته في طفولته و شبابه كان لها تأثير عميق في حياته، و هو ما جعلنا نتساءل عن ماهية العوامل الثقافية و الإجتماعية و السياسية التي كان لها أثر في حياة مؤرخنا و ساهمت في تكوين شخصيته؟

1-1:العوامل الإجتماعية

أ- التنشئة الأسرية :

لقد لعبت التربية الأسرية المحافظة دورا كبيرا في صقل الموهبة الفكرية و العلمية لأبي القاسم سعد الله ،فمؤرخنا نشأ في عائلة فقيرة و الفقر و التدين متلازمان في معظم الأحيان، فبلوغة سن الخامسة أدخل الطفل بلقاسم جامع القرية لحفظ القرآن، حيث يعتبر حفظ القرآن الكريم للأطفال في هذا السن من التقاليد القديمة في الثقافة العربية الإسلامية، كما أن طبيعة توجه العائلة و تأثر والده بالحركة الإصلاحية التي ظهرت بالمنطقة،

[1] - أبو القاسم سعد الله ، مسار قلم،ج3، المصدر السابق، ص32.

كل هذا دفع بوالد سعد الله أن يدفع بالطفل بلقاسم إلى سلوك منحى آخر دون إخوانه الأكبر منه سنا، و هو تركه يواصل تعليمه.

فبالرغم من نشأت مؤرخنا في عائلة غير متعلمة، إلا أن والديه كانا يقدسان العلم و يحترمان أهله، و بالرغم من حاجة الوالد لإبنه من أجل الوقوف إلى جانبه في أشغال الفلاحة و الزراعة غير أن الأقدار وجّهته توجيها آخر و أن طموح الوالد كان أكبر من ذلك و هي تركه يواصل تعليمه لهذا ضحى الأب بإبنه وسخي به للعلم يقول الوالد (أحمد سعد الله)في ذلك: " أما بلقاسم فقد سبلته للعلم"[1]، و يضيف أيضا الأستاذ شافوا رضوان في شهادة له من سعد الله يقول له فيها: "رغم معاناة الفقر التي كانت تعيشها أسرتي إلا أن والدي كان دائما يقول لي إقرا و لا تبالي بمصاريف الدراسة و منذ ذلك الوقت عزمت على بذل جهد كبير من أجل تحقيق رغبة والدي و التعويض ماديا عما قدمه لي في صغري "[2].

كما أن سعد الله لقي دعما خاصا من والدته و ذلك منذ السنوات الأولى في التعليم قائلا: " وقفت والدتي ورائي في حفظ القرآن الكريم في جامع البدوع ،إقتداء ببعض إخوتها و منهم خالي الشيخ الحفناوي هالي لأكون مثله عالما محترما معتقدة أن الله قد فتح عليها القدري(ليلة القدر) و أنا طفل فلم تطلب من الله شيئا غير العلم الشريف و هي التي رسخت في هذه الفكرة حتى عشت بها كل حياتي معتقدا في قرارة نفسي أنني رجل قدري و أن الله إختاريني لمهمة و هي خدمة العلم الشريف (الدراسة والبحث) و أنني لم أخلق لغير هذه المهمة وقد طغت علي هذه الفكرة حتى إذا حدثتني نفسي بتغير مساري راودني (القدري) وحضرت أمامي صورة والدتي وصوتها فأعود إلى مساري وقدري"[3].

فالتربية الأبوية لما لها من أبعاد روحية في مسيرته الدراسية كانت من بين أهم العوامل التي نمت موهبته وصقلت فكره، حيث أعطت بعدا مستقبليا في فكر سعد الله، و ذلك بأن المعاناة و الحياة القاسية التي عاشتها أسرته جعلته يبذل قصارى جهده من أجل التعويض عما عاشته الأسرة في صغره.

---

[1]- محمد الحسن فضلاء،ج3، المرجع السابق، ص 12.

[2]- رضوان شافو، "ومضات من شخصية الأستاذ أبو القاسم سعد الله كما عرفته و أنا طالب لديه"، أعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا، كلية العلوم الإجتماعية و الإنسانية، جامعة حمة لخضر الوادي، يوم 13-14 ديسمبر 2015.ص37.

[3]- أبو القاسم سعد الله ، حوارات، المصدر السابق، ص 222.

ب- المحيط الإجتماعي:

"حسب النظرية الإجتماعية لأبن خلدون القائلة "الإنسان ابن بيئته" فالمناخ و البيئة أثر في سلوك الإنسان و تصرفاته، و عليه فإن البيئة الإجتماعية التي نشأ و ترعرع فيها سعد الله ساعدته على المضي قدما لتحقيق عدة رغبات إجتماعية و فكرية، و ذلك من خلال إحتكاكه بالعديد من الأشخاص المقربين من عائلته، و التي نتج عنها التفاعل الإيجابي" و خصوصا خاله الشيخ الحفناوي هالي و زوج خالته الشيخ محمد الطاهر التليلي، و هذان الأخيران كانا من خريجي الزيتونة و من رواد الحركة الإصلاحية في قمار، و قد تأثر أبو القاسم سعد الله بها و بالحركة الإصلاحية عموما فكان يُمنِّي نفسه بأن يصبح عالما مثلهما له شأنه[1].

ولاشك أنه سمع بزيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس[2] و الوفد المرافق له من العلماء إلى سوف، و إلى مدينة قمار بالذات في ديسمبر 1937م. و ما خلفته هذه الأخيرة من أثر طيب في نفوس الناس عامة و نفوس النشء خاصة، و ما بثته من تعطش للعلم والحرية و الوطنية في ذلك الوقت الحالك. و هكذا نمت الفكرة الإصلاحية في نفسه و تجدرت، و زادها الأيام نماء و رسوخا[3].

كما أن سعد الله لم يكن بمعزل عن محيطه الخارجي حيث كان يخالط الناس كثيرا، من أبناء قريته يحادثهم و يستفيد من نقاشاتهم،كما كان يخالط المثقفين من أقرأنه الذين كانوا يدرسون بجامع الزيتونة و الذين يأتون إلى قمار لقضاء عطلة الصيف، فكان يتأثر بحديثهم و لباسهم، و كان البعض منهم يغريه،

---

[1]- رضوان شافو، المرجع السابق، ص 37.

[2]- **عبد الحميد بن باديس (1989- 1940م)**: رائد الاصلاح في الجزائر، ولد بقسنطينة من أسرة مشهورة بالعلم والثراء، تلقى تعليمه الأول في الكتاب بقسنطينة ثم تتلمذ على يد شيخه حمدان لونيسي من عام 1903 إلى عام 1908م، هاجر إلى جامع الزيتونة ليكمل تعليمه في الفترة (1908-1911) وحصل منها على شهادة التطويع عام 1913،كان له الفضل في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 1931م دعا من خلالها إلى نهضة الجزائر عن طريق الإصلاح ،وبقي رئيسا لجمعية العلماء الى غاية وفاته يوم 16 افريل 1940.لإطلاع أكثر ينظر: عمامرة تركي رابح،الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر المعاصرة،ط2، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع،2003 ص27وما بعدها.وينظر أيضا: عمار طالبي،آثار الإمام عبد الحميد بن باديس مج1،ج4.

[3] - ابراهيم مياسي، "ذكريات مع مؤرخ الاجيال أبو القاسم سعد الله"،جريدة البصائر،الجزائر: العدد603،جوان 2012م.

بفكرة الذهاب إلى الزيتونة و مواصلة دراسته ، فتشبث بفكرة السفر رغم صغر سنه بالنسبة لمن سبقوه إلى تونس[1].

ويتبين من خلال المظاهر السالفة الذكر بأن تفاعله مع مجتمعه ترك له أثاراً إيجابيه على أفكاره و تصوراته، و التي كانت منطلقا نحو البروز كمثقف رائد و بارز في مجتمعه، و هذه النتيجة يؤكدها الأستاذ محمد الهليلي " فالتعامل مع البيئة الإجتماعية و تهيئة مناخ أسري سيؤدي إلى شخصية سويه، قياديه، رائدة في المجتمع و العمل مع الأشخاص المحيطين به ليتم التفاعل الإجتماعي و هو التبادل و التجانس و التجاذب و التقارب والاستمرار في العمل الجيد"[2].

جـــ –السياسة الاستعمارية:

لقد تأثر أبو القاسم سعد الله كثير بالإستعمار الفرنسي و ما خلفه من مآسي و آلام على الشعب الجزائري، فما من شك أن السياسة الإستعمارية بوادي سوف منذ إحتلالها سنة 1854م، قد أفرزت جملة من التحولات الإقتصادية و الإجتماعية، و التي كان لها الأثر البالغ على المجتمع السوفي، و منذ السنوات الأولى لطفولته أحس كغالبية أبناء الجزائر بالغبن و الحرمان جراء سياسة الإحتلال الفرنسي الجائرة، و التي إعتمدت على نهب خيرات الجزائريين و سلب ممتلكاتهم مع إثقالهم بالضرائب المفروضة، هذه الأوضاع المزرية زادت من شقاء أغلبية الأسر الجزائرية و منها أسرة أبي القاسم سعد الله التي إمتدت إليها يد الطغيان الفرنسي، حيث أحتجز والده في أحد سجونها لأنه لم يكن باستطاعته تسديد الديون المتراكمة عليه بسبب إعانة أسرته فكان عاجزا عن الإقتطاع من قوت أسرته ليسدد هذه الديون. يقول سعد الله في هذا الشأن "...كنت أمارس الفلاحة مع أهلي في الواحة (قمار) و كانت الشركات الفرنسية تمتص عرق جبين والدي و إخوتي ،لأنها كانت تأخذها بأبخس الأثمان، و قد شاهدت في صغري ما يصنع الجهل و الفقر و المرض بالإنسان"[3].

هذا بالإضافة إلى أن الإدارة الاستعمارية، "مارست نوعا من التميز العنصري بين أبناء الأروبين و الأهالي، و هي سياسة مقصودة الغرض منها القضاء على الهوية الوطنية و الحرص على عدم نشوء نخبة وطنية قد تهدد التواجد الفرنسي بالمنطقة، الأمر الذي دفع سعد الله إلى التفكير في الهجرة سنة 1947م، إلى تونس

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 66.

[2]- محمد الهليلي، "الإنسان ابن بيئته"، صحيفة الشاهد ليوم 25ديسمبر 2013م.

[3]- بوعزة بوضرساية، المرجع السابق، ص ص(102-103).

من أجل استكمال دراسته، هو يحمل في قلبه ضغينة و كره للاستعمار الفرنسي، فبقدر ماكانت معاناة عائلته سببا في هجرته لطلب العلم، إلا أنها من جهة أخرى كانت دافعا قويا من أجل رفع لواء المقاومة الفكرية بقلمه لفضح السياسة الإستعمارية عن طريق الصحافة التي إشتغل بها في المهجر".

1-2:العوامل الثقافية :

أ- رحلاته العلمية لطلب العلم :

" تعتبر الرحلات و التنقلات العلمية من أهم العوامل المساعدة على تطور فكر الإنسان من خلال توسيع مداركه و مواهبه العلمية و بناء شخصية، فمعظم العلماء السابقين تجدهم رحالة من خلال تنقلاتهم عبر المدن و الأمصار، و قد ساهم ذلك في تكوينهم العلمي و الفكري، و في هذا الصدد لا يختلف مؤرخنا عن هؤلاء، إذ نجده من المؤرخين الكبار الذين إكتسبوا خبراتهم من خلال رحلاتهم العلمية عبر مختلف الدول العربية و الغربية"[1]، إنطلاقا من دراسته في بلدان مختلفة منها جامع الزيتونة (1947-1954م)ثم إلتحاقه بالقاهرة (1955م-1960م)، ثم التوجه نحو الغرب و بالتحديد الولايات المتحدة الأمريكية (1960-1967م)، و التي جعلته يطّلع بالعين المجردة على الواقع في البلدان العربية و غير العربية، و كانت دراسته بالزيتونة و القاهرة و البيئة المحافظة التي خرج منها بمثابة الحصانة الدينية لمعتقداته بأمريكا، فلولاها لتزعزعت معتقداته أثناء تكوينه بأمريكا.

و لعل ماعمق شخصيته أكثر هو تخصصه في التاريخ الأوروبي الحديث، و تاريخ الشعوب الأخرى الذي إقتضي منه أن يتقن كلا من الفرنسية و الألمانية فضلا عن الإنجليزية، و بالتالي الإطلاع و معرفة خبايا الحضارة الغربية و مقارنتها بالجزائر، و هو ما ترك أثر في تجربته، في ذلك يقول واصفا تجربته في الغرب: "إن دراستي لتاريخ الشعوب الأخرى ولاسيما تاريخ أوروبا الحديث قد جعلني أقارن بين ما حدث في الجزائر وبين ما حدث في أماكن أخرى فكلما قرأت كتابا عن مشاكل أوروبا السياسية و الإجتماعية و الثقافية و الدبلوماسية أو عن ثورات الأقليات و ظهور القوميات إلا وطار فكري إلي الجزائر و أهلها و نضالها و تراثهم الذي كاد ينساه التاريخ"[2].

---

[1]- رضوان شافو، المرجع السابق، ص 39.

[2]- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 61.

و خلال حياته كانت له عدة رحلات داخل وخارج الوطن، و كان الهدف الأساسي منها في أغلب الأحيان البحث عن المخطوطات الجزائرية و التراث الجزائري منها المغرب، مصر، فرنسا، الو.م.أ، تركيا...الخ، و قد بقي سعد الله مواظبا على تنقلاته و أسفاره العلمية، إلى غاية السنوات الأخيرة من حياته، و التي كان آخرها رحلته إلى أدرار وتندوف و غرداية و الأغواط[1] ، فلم يمنعه التقدم في العمر و لا المرض من الإستزادة من العلم و المعرفة بدل الركون إلى الراحة.

ب- التأثر برجلات الفكر والإصلاح:

شغفه لطلب العلم و المعرفة جعله يتأثر بالكثير من رجال الدين و الإصلاح منذ صغره إنطلاقا من شيخه بلقاسم بن محمد الزبيري الذي حفظ عنه القرآن الكريم بمسقط رأسه، ثم تفتح ذهنه على نشاط خاله الشيخ الحفناوي هالي الإصلاحي و ارتباطه بالشيخ محمد الطاهر التليلي الذي شجعه وحث والده على إرساله لمواصلة الدراسة في جامع الزيتونة المعمور، و كذا أساتذته بالزيتونة الذين كان يتلقى منهم عبارات الإفتخار و التحفيز على رأسهم شيخه علي الأصرم حين قال له " إنني فخور بك يا سعد"[2].

و خلال فترة الطلب بالزيتونة أيضا، تأثر بالكُتاب الذين كان يطالع لهم منهم جبران خليل جبران، إليا أبو ماضي، و المتنبي الذي تأثر كثيرا بشعره حيث يقول عنه : "...حتى كدت أحفظ ديوانه جميعا ". و في القاهرة أين سجل حضوره اللافت في المشهد الثقافي و الفكري عن طريق الصحافة و التنظيمات الطلابية، الأمر الذي جعله ينجذب إلى نخبة من الأدباء و الشعراء منهم الشاعر صلاح عبد الصبور، و الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي، و محمود أمين العالم...الخ. و بإحتكاكه بهؤلاء الشعراء سطع إسمه في الشعر و الأدب و أصبحت مختلف النوادي الأدبية تحجز مكاناً لشعره[3].

كما تجدر الاشارة إلى أن أبا القاسم سعد الله قد تأثر ببعض الشخصيات الوطنية من رجالات جمعية العلماء المسلمين، و منهم الشيخ البشير الإبراهيمي و العربي التبسي وتوفيق المدني .

و مما يذكر سعد الله عن علاقته بالإبراهيمي، أنه عندما كان طالبا في تونس بدأ يراسل جريدة البصائر و يومها كان الشيخ الإبراهيمي رئيسها و مدير تحريرها، فنشر الإبراهيمي قصيدة بائية،عنوانها " سُكت و

---

[1]- عن رحلاته هاته انظر كتاب: أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، الجزائر: دار عالم المعرفة،2011م.

[2]- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المصدر السابق، ص 182.

[3]- رضوان شافو، المرجع السابق، 40.

قلت" تأثر بها الشاب سعد الله، فقلدها و كتب قصيدة على نسجها في مدح الإبراهيمي و نشرها في جريدة " الأسبوع التونسية " يقول سعد الله: " و فيها البيت الذي أمتثل به كل حياتي:

و لي قلم آليتُ ألاّ امُدَّه فتل موار أو بحتْل مُوارب[1].

تلك هي معرفته الأولى بالشيخ الإبراهيمي، و بعد سفره للقاهرة لدراسة توطيد العلاقة بينهما إلى حد "الأبوة الثقافية". أما بخصوص الشيخ العربي التبسي، فقد عرفه عن طريق المراسلة لما كان بتونس، وتكليفه برئاسة لجنة البعثة، و يتحدث سعد الله عن مجالسته للشيخ عندما كان في الجزائر سنة1955م، و كيف كان يبث له أشجانه و شؤونه " كان يدعوني إلى غرفته وكنت محدود التجربة ودون المستوى لما يجري في جمعية العلماء التي كنت أجهل دواخلها....كان الشيخ العربي أحيانا يشكو اليّا شكوى مرة مما يجري من حوله، و أحيانا يبقي في سريره و هو يحكي ،و أنا اكتفي بالسمع، دون أن أؤيد أو أخالف، حتى أن ذكرت لخالي هذه الظاهرة ذات مرة فقال لي أنه يفعل ذلك معي أيضا فاستمع إليه و كفى "[2].

و عن الأستاذ توفيق المدني ، لم يكن يعرفه لما كان بتونس إلا من خلال قلمه في البصائر، ثم من خلال كتبه التي كانت رائجة بين الشباب الجزائري، فكان يراسله من تونس و قد أهداه قصة (سعفة خضراء) فنشرها في البصائر على حلقات ثم نشر له قصيدة 'طريقي' مع صورته و كان يومها رئيسا لتحرير جريدة البصائر بدل الشيخ الإبراهيمي بعد سفره للقاهرة و إستقراره بها .في هذا الشأن يقول سعد الله " و ربما لوكان غيره لما نشر طريقي لعدم مجاراتها روح الجمعية، و لما سافر الأستاذ المدني و استقر بالقاهر ،كان يلتقي بأبي القاسم سعد الله في معظم الأوقات في مركز الجمعية، و هناك توطدة العلاقة بينهما حتى صار المدني ' الأب الروحي' له دون بقية شيوخ الجمعية، و من شدة محبة المدني لسعد الله كان يناديه بعبارة ' إبني ' و كان سعد الله يقدر فيه ذلك الشعور و يبادله تلك المودة [3].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص84.

[2]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص90.

[3]- على غنابزية، "أبو القاسم سعد الله الإبن البار لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1940-2014م)"، أعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد...، المرجع السابق، ص 11.

جـ – الكتابة الصحفية:

إن انطلاقته الإيجابية و جرأته على النشر و المساهمة في الحياة الأدبية كانت من الحوافز التي جعلت طموحات سعد الله في محلها، و كسرت مخاوفه النفسية و فسحت أمامه أبواب العلم و ما فيه من تحديات وعراك فكري، فكانت تجاربه الأولى في الكتابة الصحفية من خلال الجرائد التونسية و في ذلك يقول: "كانت تجاربي في الصحف التونسية و منها النهضة و الزهرة و الأسبوع، و بعض المجالات مثل الندوة و المعارف فقد كنت أراسل هذه بقطع شعرية و قصص و مقالات و تعاليق و لكنها لا تنشرها أو لا تنشر منها إلا جزءا صغيرا تختاره، ربما تشجيعا لي أو ملأ لفراغ فيها، على أن بعضها نشر لي قصيدة كاملة، مثل الأسبوع" ثم مراسلة جريدة البصائر عندما كان مسؤولا و ممثل لبعثة جمعية العلماء هناك، و عند ذهابه إلى القاهرة واصل مراسلتها عن نشاط الشيخ الإبراهيمي و الحياة الثقافية المصرية. كما كتب في الصحف و المجلات المصرية منها "العالم العربي"و المجلات العربية منها مجلة " الآدب البيروتية" و مجلة "الرسالة العراقية"و اللتين نشر فيهما عدة دراسات عن الأدب الجزائري[1].

د– المطالعة و الكتابة و التأليف:

إن غزارة الإنتاج الفكري للأستاذ سعد الله لها دلالة فكرية على أن هذا الأخير كان كثير المطالعة، مما تدفع بالمطالع إلى الكتابة للإجابة على الكثير من الأسئلة التي تختلج صدر المطالع، و لعل سعد الله كان من هذا النوع، فقد كان كثير المطالعة سواء تعلق الأمر بكُتب المقررات الدراسية أو غيرها، فنظمه الشعر بالزيتونة كان مستلهما من كثرة مطالعاته للمجلات و الجرائد و الكتب التي كانت تستهويه، و التي لم تتح له الفرصة في الجزائر لتعرف عليها و قراءتها و بخاصة المجلات و الكتب المشرقية، عن ذلك يقول:" كنت كثير القراءة أجلب كتابا أدبيا صغيرا أو متوسط الحجم، و لا أنام إلا إذا أكملته " يضيف " قرأت لجبران خليل جبران كل كتبه تقريبا، ثم توالت إهتماماتي بالشعر المهجري، و بشعر أبوللو، و خصوصا شعر أحمد زكي أبوشادي، و تابعت معركة القديم و الجديد في مصر على صفحات الرسالة و الثقافة وغيرهما".

و أثناء فترة وجوده بتونس أيضا ،كان ينعزل و يختلي بنفسه نهاية كل أسبوع في جبل الرابطة الذي يطل على مدينة تونس، و معه مجموعة من الكتب و الأوراق، حيث يمكث لساعات طوال جالسا تحت

[1]– عبد الرحمن عزي، "أبو القاسم سعد الله يتحدث عن تجربته في الصحافة"، مركز الأصالة للدراسات،25 /2012/2م.

الأشجار الباسقة، يطالع الأدب و ينظم الشعر، فكان لا يرجع إلى الجامع إلا إذا أكمل تلك الكتب التي كانت تأخذ بمجامع قلبه.

و كان مؤرخنا حريصاً على التنوع فلم يكن يقتصر على مطالعة صنف واحد من المعرفة، حيث كان يرى أن المعرفة متشابكة يأخذ بعضها من بعض، فعند ذهابه لأمريكا طالع إنتاج المدرسة الوجودية ولاسيما إنتاج كير كقارد وسارتر وألبير كامو، وكافكا و غيرهم، و عندما أتقن الإنجليزية طالع بها أيضا إنتاج ايمرسون و كروتشي وبريتو...، و عند تعمقه في الدراسات التاريخية لم يهمل المطالعة في المدرسة الفرويدية يقول " من لم يدرس فانجر و داروين و ماركس و فرويد و رينان و أضرابهم لا يمكنه أن يفهم الحضارة الأوروبية المعاصرة التي تمثل الحضارة الأمريكية امتدادًا لها[1].

و خلال مسيرته البحثية تجده كثير المطالعة، كيف لا وهو الذي لا تطيب نفسه إلا في دور المكتبات و المطالعة، يقول الأستاذ أرزقي فراد: "لاشك أن لمؤرخنا بلقاسم سعد الله خصالا كثيرة، تركت أثرا طيبا في نفسي، منها معارفه الموسوعية التي إستقاها من التعليم و الكتابة، حتى صار يرى الوقت خارجها مضيعة للوقت فلا شيء عنده يضاهي متعة البحث و التنقيب، رغم ما يكتنفها من أتعاب و مشقة، و لاشك أن إعتكافه في محراب الكتابة و التأليف قد تم على حساب علاقاته الإجتماعية مع أقاربه و أحبابه و المعجبين به و هي التضحية التي لا يستطيع الآخرون معها صبرا"[2].

كما أن جانب التأليف و النشر قد شغل حيزا كبير من حياته في هذا الصدد يقول عنه زميل الدرب الأستاذ ناصر الدين سعيدوني[3]: " إستهل سعد الله حياته الثقافية و هو طالب علم ومعرفة بكتابة الشعر

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 107.

[2]- أرزقي فراد، " المؤرخ الذي طلق الراحة من اجل الوطن " ، الشروق اليومي،2014/1/22.

[3]- **ناصر الدين سعيدوني (1940-)**: باحث و مؤرخ جزائري، ولد بمنطقة بئر الشهداء بولاية أم البواقي، تلقى تعليمه الاول بمدينة قسنطينة بمدرسة التربية والتعليم التي كانت تشرف عليها جمعية العلماء، ثم التحق بمعهد بن باديس، ثم انتقل الى العاصمة بعد نجاحة في امتحان دخول الجامعة حيث حاز على شهادة الكفاءة في التاريخ و الجغارفيا من معهد الدراسات العربية العليا بجامعة الجزائر، 1966م، بعدها انتقل الى الدراسة المتخصصة فاختار التاريخ، ليتحصل سنة 1969م، وبعهدها بخمس سنوات توجت دراسته بحصوله على شهادة الدكتوراه الطور الثالث في التاريخ الحديث و المعاصر عام 1974، كما أنه حاصل على دكتوراه دولة من جامعة ايكس أن بروفانس (فرنسا) سنة 1988م في نفس التخصص، و قد درس الاستاذ سعيدوني بجامعة الكويت من 2001 إلى 2011 و درس قبلها بجامعة الجزائر لغاية 2001 و ترأس المجلس العلمي لكلية العلوم الإنسانية. أطر العديد من الرسائل الجامعية و وتخرجت على يده أفواج من الطلبة، اشتغل بالبحث و التأليف وشارك في

وكانت باكورة أعماله اثني عشرة قصيدة كتبها مابين 1954-1956م،تؤلف ديوانه الصغير(ثائر وحب)، أما الخطوة الثانية نحو الكتابة و التأليف فكانت رسائله للماجستير التي حضرها بدار العلوم بالقاهرة في موضوع (محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث) سنة 1962م، بمثابة الإرتباط الحقيقي بدراسة الأدب و معالجة القضايا ، و سبقها بكتابته لعدة مقالات نشرت في جرائد و دوريات لما كان طالبا بالزيتونة"[1]. و كانت النقلة النوعية في حياة مؤرخنا، تحديدا في الكتابة هو إنتقاله إلى الولايات المتحدة الأمريكية و هي محطة مهمة زادت من قوة شخصية الرجل فتحوله من معالجة قضايا الأدب إلى التخصص في التاريخ، و التي كانت بداية جهد مثمر في مجال البحث و التأليف.

1-3: العوامل السياسية:

أ-النزعة القومية والوطنية:

كان حبه لشعبه ووطنه ودينه و عروبته في ظل الاستعمار الفرنسي للجزائر خصوصا، و الوطن العربي عموما، جعله يسخر قلمه و فكره و شعره في خدمة التاريخ الوطني و العربي يقول في ذلك:" إعتنقت أنا الفكرة القومية و الوطنية مند البلوغ الجسمي و النضج السياسي أي مند بداية الخمسينات ، فوقفنا منذ ذلك الحين ضد إستعمار بلادنا و تطلعنا إلى عهد من الحرية و الاستقلال، و كان ذلك في معناه الواسع جزءا من حركة قوامها التحرير الوطني، بل جزءا من حركة عالمية ، ضد التسلط و السيطرة و الإستقلال"[2].

و يذكر سعد الله بأن نزعته الوطنية و الدينية و القومية إستمدها من التربية الدينية و الأخلاقية التي تلقاها بالزيتونة و التي ربطته بالقيم و بثت فيه الإستقامة و الخلق الكريم، و التربية الوطنية التي إكتسبها عن طريق مشاركته في نشاط جمعية الطلبة الجزائريين 1948م، و إحتكاكه بزملائه ،و مشاركته الطلبة الجزائريين تمثيل ، رواية الخليفة العادل سنة 1953م، في العديد من المدن الجزائرية و التربية الأدبية التي حصل عليها بفضل مطالعاته لإنتاج المشرق العربي، و عليه فقد تنوعت كتاباته بين الشعر و النثر، و قصائده الثوريه قد ضمَّنها في دواوينه (النصر للجزائر ، ثائر وحب ،الزمن الأخضر)، أما بخصوص النثر فقد تناولت مقالاته

الكثير من المؤتمرات العلمية وله العديد من الدراسات العلمية الجادة. مقابلة شخصية معه بمنزله بالعاصمة يوم الثلاثاء 2017/1/24م،و انظر كذلك : بوضرساية بوعزة ،رواد المدرسة التاريخية الجزائرية، الجزائر، دار الحكمة، 2007، ص ص (202-259).

[1]- ناصر الدين سعيدوني، أبو القاسم سعد الله كلمة وفاء، الجزائر: البصائر الجديدة، 2014.ص 15.

[2]- أبو القاسم سعد الله، شعوب وقوميات، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص8.

تاريخ الجزائر و إرهاصات حول واقع الأمة و مسيرة الوطن في التقدم نحو الحرية، و ما ذكره في هذا المضمار " لازلت أذكر موضوعا كتبته عنوانه" أمة المجد في الميدان، لا أدري كيف خطر ببالي يومها ، و قد نشر في البصائر بارزاً، وهو يتحدث عن شمال إفريقيا و التوجه نحو الحرية و الإستقلال"[1].

و في القاهرة التي كانت قبلة الثوار المطالبين بالحرية، و قبلة القوميين العرب، تبلورت أفكار سعد الله القومية يقول في هذا الشأن "....أما العاطفة الثانية التي تبلورت في نفس خلال وجودي بالقاهرة هي القومية العربية في الوطن العربي لم يعد في ذهني ذلك الشريط التاريخي من الغزوات و الشيع الدينية، و المدارس الأدبية و غيرها ولكن أصبح يعني تلك المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط التي تسكنها أمة عربية واحدة يربطها تاريخ و مصير مشترك وتقوم على حضارة مجيدة"[2] . و بدافع هذه العاطفة أيضا فقد تطوع مؤرخنا في المقاومة الشعبية زمن الإعتداء على مصر، كما تعرف على أمال و الآم الطلبة الفلسطينيين، و الذي كان له شرف تمثيل الجزائر في مؤتمرهم التأسيسي.

كما يتجلى بعده القومي العربي أيضا من خلال الكلمة التي ألقاها باسم الطلبة الجزائريين ،في الحفل الذي أقيم بنادي طلاب المغرب العربي بالقاهرة يوم 2نوفمبر 1957م،بمناسبة الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية حيث إستهل كلمته " أيها الإخوة .....عندما نحتفل اليوم بذكرى ثورة الجزائر، لا نحتفل بها كجزائريين و لا نحتفل بها كمغاربة و إنما نحتفل بها كعرب يؤمنون بعدو واحد و هدف واحد و وطن واحد..."[3].

ب–الثورة الجزائرية:

لم تُمثل الثورة الجزائرية واقعا وطنيا فحسب، بل كانت و لازالت معينا ينهل منه الجزائريون بمختلف أطيافهم الفنانون و الشعراء و الأدباء و النقاد...الخ، فمثلما إستمد منها المجاهد المحارب القوة و العزيمة ، إستمد منها الشاعر و المبدع الإلهام و التحدي، فكانوا جنبا إلى جنب في ميادين النضال ذاك بالسلاح و ذاك بالكلمة. و في هذا السياق لا يمكن لنا أن نهمل أثر الثورة الجزائرية الكبرى في نفس مؤرخنا، فارتباط أبي القاسم سعد الله بالوطن و الثورة منذ شبابه جعله يحمل الهاجس الوطني و الروح الثورية نتيجة لحبه لوطنه من جهة و كرهه للإستعمار من جهة أخرى يقول في ذلك "و في القاهرة تبلورت في نفسي عاطفتان: أولها الوطنية السياسية فالجزائر لم تعد في نظري هي الأسرة و القرية و الحدود والجغرافية و نحو ذلك، و لكن أصبحت تعني

[1]– رضوان شافو، المرجع السابق، ص ص (38–39).

[2]– أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 48.

[3]– أبو القاسم سعد الله، ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر،ج2، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011، ص ص (223–233).

عندي كل أهل القطر الجزائري، بقطع النظر عن جهاتهم و أحزابهم و إتجاهاتهم و بالتالي بدأت أفهم حقيقة الثورة الجزائرية و أهدافها وعلى هذا الأساس تطوعت في جيش التحرير الوطني كعضو و كمسؤول...و إشتغلت في مصالح جبهة التحرير الوطني ..."[1].

ولعل الثورة هي نفسها التي دفعته لتحول من معالجة قضايا الأدب إلى التخصص في التاريخ وهي نقلة نوعية في حياة الراحل، كان الزخم الثوري أحد أهم أسبابها يقول ناصر الدين سعيدوني في ذلك " سوف يجد سعد الله نفسه بفعل ظروف الدراسة الجامعية بجامعة مينيسوتا الأمريكية و بتأثر المد التحرري و الزخم الثوري الذي أفرزته الثورة الجزائرية، يتحول من معالجة قضايا الأدب إلى بحث مسائل التاريخ..."[2].

3-2: خصاله و مناقبه من خلال شهادة معاصريه:

عاش أبو القاسم سعد الله بيننا دون أن نعرف خصاله، و لكن بعد موته إكتشفنا الكثير منها من خلال مواقف عاشها مع أشخاص كانوا شهود عيان نقلوا ما رأوه و ما لمسوه من ميزات شخصه، و في هذا الخصوص سنحاول الإعتماد على مجموعة من الشهدات التي قيلت في حقه من قبل أصدقائه و طلبته و المقربين إليه ومن إهتم بتراثه عموما.

أول ميزة إتّسم بها رحمة الله عليه و هي **' الصبر'** ، و هذا ما أشار إليه صديقه المقرب الأستاذ عبد الله الركيبي، و يتجلى ذلك مثلا، بعد عودته من أمريكا و تولي مهمة الأستاذية بجامعة الجزائر، تعرض لضغوطات نفسية مثله مثل كل من تخرج من جامعة غير فرنسية، فقد حاول التيار الفرنكوفوني الجارف بالجامعة الحلول دون بقائه بها، علاوة على الصعوبات التي لقيها بخصوص تعديل شهادته، ومع ذلك بقى صامدا يكافح.

و يتجلى صبره أيضا في بقائه حوالي تسعة أشهر دون راتب، و دون سكن لمدة طويلة، و مع ذلك لم يطالب لا بتقديم سلفة و لا بأي حق آخر، في هذا الشأن يقول عنه الركيبي: " لا أنسى أبدا أنني زرته و كان معي الصديق عبد الله عثمانية، فوجدناه ينام في منزل خاله المرحوم الأديب حفناوي الهالي و رأيت المطر يتساقط من على سقف الحجرة التي كان ينام فيها و كان الفصل شتاء... وقد تحمل هذا بِصبر لأنه كان

[1]- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 48.

[2]- ناصر الدين سعيدوني، أبو القاسم سعد الله: كاتباً ومفكراً"، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، جمع وتنسيق: ناصر الدين سعيدوني، ، ط1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2000م، ص 16.

بإمكانه أن يعود من حيث أتى و لا يتعرض لمثل هذا الوضع بَيْد أنه فضل أن يبقى في وطنه و أن يعمل مع زملائه من أجل جامعة جزائرية وطنية متطور[1].

عرف أبو القاسم سعد الله **'بزهده'** فكان عزيز النفس، قانعاً لا يشكو أحداً، و تمثل زهده في عدم جريه وراء المناصب، عن ذلك يقوب الأستاذ جمال يحياوي:" إن ما ميز مسيرته أنه كان زاهدا في المناصب السياسية فقد عرضت عليه وزارتا التعليم العالي و الثقافة، طيلة الثمانينيات فرفضها رفضا قاطعا، و عندما سألته عن السبب كان يجيبني أنا لم أخلق إلا للبحث العلمي"[2].

و يذكر سعد الله في هذا الخصوص" لقد إعتذرت عن قبول مناصب وزارية و سياسية... و هذا راجع لقناعتي أن كل ميسر لما خلق له و أعتقد أن الله يسر لي العلم و البحث و طلب الحقيقة"[3]. و يضيف صديقه عبد الرحمن عثمانية " كان مثال العالم الزاهد كيف لا و هو لم يمتلك بيتا إلا حديثا سمي بيته بـــ "بيت الأردن" لأن الأموال التي بنى بها البيت كانت من الأموال التي تقاضاها من عمله كأستاذ جامعي بالأدرن، و رغم المناصب السامية التي عرضت عليه إلا أنه رفضها لأنه كان يرى مكأنه في الجامعة، كما أنه رفض عروض العلاج في الخارج و بقى في الجزائر"[4].

عرف أيضا رحمة الله عليه " **بالتواضع**"، يشهد له الجميع بأنه كان قمة في التواضع، في كلامه، في نظراته، في حركاته، في مناقشاته، الشئ الذي أكسبه الكثير من الإحترام و الوقار لدي كل من يعرفه و من لا يعرفه، و لأدل على ذلك " إشارته المتكررة في جل مؤلفاته أنه كان يستفيد كثيرا من الإنتقادات التي توجه إليه، و من ذلك قوله كما جاء في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب الحركة الوطنية الجزائرية، بأن ما وجه إليه من إنتقادات بعد صدور الطبعة الأولى، قد إستفاد منها كثيرا فعادت عليه بالإيجاب متجاوزا كل النقائص التي

---

[1] – عبد الله ركيبي، " صديقي الدكتور أبو القاسم سعد الله"، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص ص(486-487).

[2]– أنظر شهادة جمال يحياوي، "رفض الوزارة وإختار أن يكون متعبدا في محراب التاريخ جريدة"، الشروق اليومي، ليوم 2013/12/14.

[3]– عُرضت على أبي القاسم سعد الله عدة مناصب إدراية وسياسية فرفضها نذكر منها : في سنة 1982م عرضت عليه رئاسة جامعة الجزائر. 1989م عرض عليه الوزير قاصدي مرباح أن يكون كاتب دولة لثقافة. 1990م عرض عليه أن يكون عضواً في المجلس الأعلى لثقافة و وزيرا لثقافة في حكومة أحمد غزالي و غيرها، و كان دائم التهرب متحججا بظروفه الصحية.

[4]– أنظر شهادة عبد الرحمن عثامنية، "رفض الوزارة وإختار أن يكون متعبدا في محراب التاريخ جريدة"،جريدة الشروق اليومي، ليوم 2013/12/14

ضمنتها الطبعة الأولى و ذلك بقوله " قد تمكنت من تنقيحه و أبدلت فيه و أعدت، مستفيدا من نقد و إقترحات الأصدقاء"[1]. و مثل هذا القول لا يبوح به إلاّ الرجل العظيم الواثق من نفسه بكل تواضع، و أنه يحاول من خلال ذلك إبراز الأمانة العلمية لطلابه و متتبعي كتاباته، فيغرس فيهم صفة نبيلة تزيد من مصداقية البحث و صاحبه، لإدراكه أن آفة العلم هي الغرور و الشعور بالكمال.

كما عرف " **بإحترامه**" و "**أخلاقه العالية**"، يفرض إحترامه على الجميع بمن فيهم خصومه المختلفين معه، فلم يكن يتعصب لرأيه، يستمع لمنتقديه بصدر رحب يقول زميل التدريس الأستاذ إبراهيم بحاز: " كان عضوا المجلس العلمي لجامعة آل البيت، الأساتذة كلهم يحترمونه و يبجلونه منهم رئيس جامعة آل البيت محمد عدنان البخيت يجل الدكتور أبو القاسم سعد الله أكثر من أي أستاذ آخر ويقول لي: أخجل أن أمشي أمامه و لن أمشي أمامه أبدا"[2].

كان " **متسامحا** " لا يميل إلى المواجهة و المجابهة و الخصومة، كما كان يرفض العداوة و يحافظ على علاقة طيبة مع من يختلف معهم و هذا ما أستغله خصومه و منافسوه فهاجموه، فكان رحمة الله عليه لا يرد عليهم إلا بقوة الحجة. و يذكر الأستاذ عبد الله الركيبي في هذا الشأن أنه خلال ترأسه 'لجمعية البعثة الزيتونية' في تونس، و ما جرى من خصومة و صدام قي تلك الفترة بين أنصار التوجه الباديسى (جمعية البعثة) و أنصار التوجه المصالي (جمعية الطلبة الجزائرين)، لم يمنعه من أن يحافظ على علاقة طيبة مع من كان يختلف معهم من أنصار حزب الشعب، يقول "و ربما كانت صفة التسامح هذه من صفات سعد الله التي عرفتها فيه منذ ذلك الوقت، فهو رجل متسامح مسالم و ما زال حتى الآن"[3].

كان رحمة الله عليه " **صريحا** " إلى أبعد حدود الصراحة، يقول كلمته و لا تأخذه في الحق لومة لائم، فلا يبالي أين وقعت كلمته و لا أين تتوجه سهام قلمه، و لعل المتتبع ليومياته المعنونة بمسار قلم يدرك جيد ما نعني، إذ نجده يطلق أحكاما صريحة في حق بعض الأشخاص و الحكام و الدول، و إن كان في بعض الأحيان يقوم بمراجعة تلك الأحكام، إلا أنه ما كان يمزها هو جرأتها و صراحتها في مجملها، يقول عن ذلك " و لي

---

[1]- محمد شاطو، "ومضات من شخصية الأستاذ أبو القاسم سعد الله كما عرفته وأنا طالب لديه"، أعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكراً، المرجع السابق، .ص 77.

[2]- شهادة ابراهيم بحاز ، إذاعة القران الكريم، الإثنين 2014/12/15م.

[3]- عبد الله ركيبي، " صديقي الدكتور أبو القاسم سعد الله"، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، المرجع السابق، ص 483.

أحكام قد تكون بدوية أو صريحة أو غير دبلوماسية على بعض الناس و الأشياء و سياسة بعض الدول و الحكام"[1].

و يضيف الأستاذ عاشوري قمعون في هذا الشأن: " جاهرنا عام 1989م في المركز الوطني لتكوين إطارات التربية بحيدرة، أنه ألقى محاضرة في باريس، فوصفته الصحافة الصهيونية بأنه (عدو للسامية و أنه بدائي و متخلف و بدوي) ...هكذا بكل صراحة و بكل إعتزاز وثقة في نفسه، و لا يهمه ما تتفوه به أبواق الأجانب و أذناب المستعمر، إذ كان الموقف يقتضي تفادي المجاملة و إرضاء الضمير، كما أنه غير متساهل في كل ماله صلة بالمعتقد أو القضية الوطنية"[2].

كان **'طموحا '** لا يقتنع بما حقق و لكنه يطلب المزيد فنجده عند إكتمال إنجاز كتابه الثقافي، لم يركن للراحة بل وجدناه يعمل بكل نشاط وكِد، حتى أصدر لهذا جزءاً عاشرًا خصصه للفتره ما بين (1954-1962م)، كما أنه بدأ يوسع حلمه ليعرف بتاريخ الثقافة الجزائرية منذ الفتح الإسلامي، في هذا يقول لصديقه الإعلامي مراد وزناجي " و في خطتي أن أرجع بالتاريخ الثقافي للجزائر إلى الفتوحات الإسلامية و أكتب عن هذه الفترة التي تمتد من الفتوحات إلى حوالي 1500م"[3].

و هو فعلا ما قام به خلال سنواته الأخيرة إذ لم يبق على إنهائه إلا روتوشات قليلة ليدخل مرحلة الطبع و لكن تشاء الأقدار أن يرحل دون رؤيته بحلته المطبوعة، و كان هذا الأخير من آخر الإصدارات التي إشتغل عليها الأستاذ سعد الله قُبيل وفاته، و قد صدر الكتاب عن دار عالم المعرفة في 3 أجزاء، ليضاف إلى ما قبله.

عرف كذلك **'بصرامته وجديته و حزمه '**، خاصة في دروسه و توجيهاته، كان معروفا بتشدده العلمي له "مقايس منهجيه ولغوية لا يتساهل فيها مع طلابه و خاصة منهم طلاب الدرسات العليا، و أن صرامته هذه صرامة الصادقين الناصحين". كما كان أيضا صارما مع نفسه على طريقة الكبار، فهو لا يتورع عن مراجعة بعض مواقفه، إزاء بعض القضايا التي يشعر أنه لم ينصفها، مؤكِّدا أنه لا يملك الحقيقة و يسعى

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج7، المرجع السابق، ص 5.

[2]- عاشور قمعون، "العلامة الموسوعي الشهير أبو القاسم سعد الله"، اعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا...، المرجع السابق، ص 5.

[3]- مقابلة شخصية مع مراد وزناجي، المركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، يوم 2017/01/25.

دوما لسماع الرأي الآخر، و من أمثلة ذلك مراجعة موقفه إزاء القضية الأمازيغية، إذ جعل قلمه ينتقل من إجحافها إلا إنصافها[1].

عرف **'بإخلاصه و صدقه و تفانيه '** في عمله، حريص على إكمال مشاريعه و مشاريع غيره في الآجال المحدد، على الرغم من المرض و الوعكات الصحية التي كانت تصيبه بين الفينة و الأخرى. و كان كثير الإشتغال لا ينتهى من عمل أو مسألة إلا ليباشر في أخرى[2].

عاش **'بسيطاً'** في حياته لا يحب البرتوكولات و هو الذي أبى ألا تقام له جنازة رسمية بعد وفاته و أن يدفن في مسقط رأسه بقمار بدل مربع الشهداء بمقبرة العالية، و أن تكون مراسيم الدفن عادية و بسيطة كأي شخص عادي في مقبرة قمار[3]. يقول عنه عبد الرزاق قسوم رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائرين " عظمته في بساطته، و سموه في تواضعه، و قوته في صلابته و شموخه في إعتداله...."[4]. و يقول عنه أيضا السيد بشير خلف "بمجرد وصوله إلى مدينة قمار يتخلص من القميص و القرافته و يلبس لباس المنطقة قشابية و جبّة و يأخذ قفة في يده و يتجه إلى الشيخ التليلي"[5].

عرف عنه **' الوفاء '**، فكان وفّي لرفقاء دربه، و أساتذته، و من قدم له أي مساعدة في حياته، فهو يحاول دوما الإتصال بهم و ذكرهم في مؤلفاته، و هو ما يتجلى في وفائه الكبير لأستاذه عمر الدسوقي، الذي درس عنه بجامعة القاهرة، فحين مجئ هذا الأخير إلى جامعة قسنطينة معاراً إليها من جامعة القاهرة، و كان سعد الله فترة وجود عمر الدسوقي في الجزائر و قبلها دائم اللقاء به، و كان الدسوقي قد ألقى محاضرة في الجزائر العاصمة سنة 1968م، كان موضوعها "الثورة الجزائرية في الشعر العربي"، و ما إن أكمل إلقاءها حتى سلّم الدكتور سعد الله نسخة مرقونة من الحاضرة[6]".

---

[1]- أرزقي فراد، المرجع السابق.

[2]- مقابلة شخصية مع أحمد سعد الله، في الوطني المركز للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، يوم 2017/01/30

[3]- نفسه.

[4]- عبد الرزاق قسومأ اعلام و مواقف في ذاكرة الأمة و إنطباعات جزائرية، الجزائر: الدار العثمانية، 2014، ص 218.

[5]- بشير خلف، حصة ضفاف، القناة الأولى، 2014/12/14، 21:00 مساء .

[6]- سليم سعد حاج، "التجارب الشخصية لدكتور أبو القاسم سعد الله من خلال كتابه أفكار جامحة" ، اعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا...، ص 48.

و بعد سنوات عديدة كان الوفاء من الأستاذ سعد الله فنشرها بعد أن صحح الأخطاء المطبعية الواردة فيها، قائلا : " و لأن الوفاء يقتضي نشرها...."[1]. فكان ذلك في الذكرى العشرين لإستقلال الجزائر.

كان شديد التحفظ من وسائل الإعلام لا يحب الأضواء و الخرجات الإعلامية سواء منها المكتوبة أو المرئية أو المسموعة ، و إذا كان لابد منها يفضل عندئذ الأسئلة المكتوبة و يجيب عنها كتابتا، و ذلك خشية تحريف كلامه أو تأويل قصده، فكان يحتفظ بكل حوار أجري معه، و يعيد نشره في كتبه كما كتبه هو، وهي مجموعة في كتبه مثل كتابه "حوارات"، في هذا الشأن يقول الأستاذ محمد الأمين بلغيث "... رنّ هاتفي المحمول و أنا أتناول قهوة الصباح قال السلام عليكم، عليكم أستاذ بلغيث، قلت: خيرا إن شاء الله قال بدعابته المشهورة عند شيخ المؤرخين، أنت تعرف يا أستاذ أنني من كبار السن و لا سلطان للنوم علينا، و ليس كما هو حال شباب اليوم، ثم قال لي: لخص لي ماذا تعرف عن أحمد باي، ثم ماذا قلت أنا شخصيا؟ فلخصت له عن ظهر قلب ما ذكر بالتفصيل المملة عن أحمد باي، قال إذن أنت من يمثلني لدى قناة المستقلة في هذا الموضوع و تحدث بهذا الكلام على لساني، إذا أحببت...وفي المساء أخبرتني السيدة أن الدكتور سعد الله إعتذر عن التدخل نظراً لظروفه الصحية "[2]. و لكن حقيقة الأمر أنه كان غير ذلك، وهو ما يفسر تجنب شيخ المؤرخين وسائل الإعلام ما استطاع إليها سبيلا.

كما كان **يتحاشى مجالس المديح و الثناء**، إذ يذكر الأستاذ عبد الحميد عثماني أنه إعتذر عن حضور الحفل التكريمي الذي خصه به إتحاد الطلبة لنيل "وسام الإستحقاق السنوي"، كأهم شخصية جزائرية خدمت الثقافة يقول الأستاذ " أبلغت عالمنا الجليل أنه وقع عليه الإختيار من طرف إتحاد الطلبة لنيل وسام الإستحقاق السنوي كأهم شخصية جزائرية خدمت الثقافة، و أن عليه حضور مراسيم الحفل البروتوكولي لإستلام الوسام الذي سيغطيه التلفزيون و تشارك فيه شخصيات حكومية، لَمـــحت التأثر الواضح في نظرات عيونه، شكرني على المبادرة لكنه رفض أن يشاركنا الإحتفالية، مؤكدا أنه لا يستحق التكريم جزاء خدمته لثقافة "[3].

كما كان شديد **التحفظ عن الحديث عن ذاته**، فلا تجده يتباهى بنفسه أو انجازاته يقول الأستاذ عثماني: " جلست إلى جانبه ثلاثة ساعات كاملة... فكنت المتحدث و هو المستمع و أقصى ما يهمس به هو أنه يؤكد معلومة أو يصوب أخرى، و لم يتلفظ طيلة المجلس الذي جمعنا بكلمة واحدة لا بالفرنسة و لا

---

[1]- – أبو القاسم سعد الله ، افكار جامحة، المصدر السابق، ص209.

[2]- مقابلة شخصية مع محمد الأمين بلغيث، بجامعة الجزائر، يوم الأحد 2017/1/22.

[3]- أنظر شهادة عبد الحميد عثماني،" أبو القاسم سعد الله... عالم رفض الاضواء"، الشروق اليومي، 2013/12/14.

بالإنجليزية و لا بالفرنسية و لا الألمانية و هي اللغات التي أتقنها جميعا بهدف التمكن من الغوص في أعماق التاريخ بل كان يحرص على الكلام العربي الفصيح، و إن شذّ عن ذلك، نطق بلهجة محلية من وادي سوف، ما زال يرطب بها لسأنه الذي لم يتبدل بعد 60 عاما من الغربة"[1].

عرف "**بكرمه وسخائه**" فلم يكن يتوانى عن فعل الخيرات و الإحسان، حيث نجده قد تبرع بقطعة أرض ورثها عن والده لبناء" مسجد التوحيد" في حي الشوطاية، كما وهب قطعة أرض مماثلة لتكون مدرسة قرآنية "لمسجد الفرقان" بنفس الحي. وكذا أمر بأن تكون مكتبته حبسا لدار الثقافة بالوادي من أجل أن ينهل منها طلاب العلم[2]. و في سنة 1991م أيضا، تبرع بجائزة إبن باديس النقدية لصالح جامعة الأمير عبد القادر لتنمية مكتبتها بالكتب الضرورية، يقول الأستاذ إبراهيم مياسي في ذلك " نال الأستاذ سعد الله جائزة قيمة و بالعملة الصعبة منحت له على مساهمته في حركة التأليف في الثقافة العربية الإسلامية و حينما سمعت بالخبر تبادر إلى ذهني أنه سيشتري بها سيارة فخمة جديدة، غير أنه قد تبرع بها و علمت عن طريق الصحافة، أنه منحها في حفل تقديم الجائزة الذي أقيم في مدرج الأمير عبد القادر بقسنطينة "[3]. فالبرغم من حاجته لهاته الأموال على الأقل في تمويل مشروعه الثقافي أو بإعانة في شراء مترل الذي لم يحظى به إلا في السنوات الأخيرة من حياته.

و في انطباعته اليومية المدونه في يومياته المعنونة بـــ " مسار قلم " ، يمكن للمرء أن يستشف الكثيير من المواقف، و يقف على مسيرة المعاناة التي كابدها هاته الشخصية في خدمة الوطن و البحث العلمي ، و كيف واجه الحياة سواء قبل الاستقلال أو بعده، بكل عزيمة و تحدي رغم المصاعب و العراقيل التي واجها، ذلك لأن الرجل توفرت لديه الإرادة و تحديد الهدف، و هما مربط الفرس لدى كل العظماء و في كل المجالات.

ما يمكننا قوله من خلال مميزات شخصيتة و خصاله و شمائله التي تحدثنا عنها نجد أن سعد الله من المؤرخين الجزائريين الذين تمتعوا بخصال نادرة قل ما نجدها في غيره، ساهمت في صقلها عدة عوامل ، فهو يبقى إبن بيئته على حد تعبير علماء الإجتماع .فقد عاش أوضاع مجتمعه، و أستوعبها، و تأثر بها، فكانت رافداً قويا

---

[1]- نفسه.

[2]- أنظر جريدة النصر، الذكرى الأولى لرحيل شيخ المؤرخين الجزائريين، بتاريخ 2014/12/15.

[3]- عبد الكريم بوصفصاف، الأعمال التاريخية والأدبية والفكرية لدكتور أبي القاسم سعد الله في ميزان الباحثين الجامعين، أعمال الندوة التكريمية العلمية في مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، قسنطينة: مطبعة بغيجة، 2008، ص ص (231-232).

و موجها لطبيعة كتاباته و إنتماءاته، و كانت لروافدْ الثقافية التي إستقاها من دراساته في بلدان مختلفة أيضا دور في توجيه، كما لا ننسى أحداث الثورة و التي جعلت كل جزائري يكتشف نفسه من جديد على حد تعبيره، كل هذه العوامل مجتمعة ساهمت في تكوين وصقل شخصية مؤرخنا.

الفصل الثاني

أبو القاسم سعد الله

الطالب

أولا: نشاطه الطلابي في الزيتونة

ثانيا: نشاطه الطلابي في الجزائر

ثالثا: نشاطه الطلابي في القاهرة

رابعا: نشاطه الطلابي في أمريكا

قدم أبو القاسم سعد الله إسهاما معتبرا في صفوف الحركة الطلابية إبان الثورة لصالح التعريف بالقضية الوطنية، فقد عايش مرحلة النضال الوطني طالبا بجامع الزيتونة ثم مرحلة الثورة التحريرية بالقاهرة و أمريكا، و كان له دور كبير في تفعيل النشاط الطلابي في تلك الفترة في الأقطار الثلاث، فالطموح العلمي لسعد الله لم يقلل من نشاطه النضالي، ففيما يتمثل الدور الطلابي و النضالي لأبي القاسم سعد الله في الثورة؛ و كيف كانت مساهمتة في صفوف الحركة الطلابيه و الثورة التحريرية؟

أولا: نشاطه في تونس:1947–1954م:

لقد قام الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة بمجهودات حثيثة لخدمة القضية الوطنية، إذ لم يكن دورهم محصورا في تلقي الدروس و حضور حلقات العلم داخل حرم الجامع الأعظم أو في باقي المعاهد العلمية بتونس، بل تعداها لتتجاوز الممارسة السياسية و المساهمة الثقافية و تأسيس الجمعيات و الإنخراط في الجمعيات و النوادي الطلابية العامة، نظرا لعددهم المتزايد و حاجتهم إلى تنظيم قانوني يكفل لهم حرية العمل و يمكنهم في إطار منظم يجمع شتاتهم و يوحد كلمتهم و يكتل جهودهم و تحسن ظروفهم الإجتماعية و المعيشية.

و إنطلاقا من هذه الأوضاع بدت الحاجة ملحة إلى قيام هياكل طلابية، فكان الإعلان عن قيام جمعية ' الطلبة الجزائريين الزيتونين سنة 1934م' ، بترخيص من الشيخ البشير الإبراهيمي نفسه، الذي دعا الطلبة لتكوين تكتل طلابي يكون وسيلة مثلى لحل قضاياهم.

و قد ظلت هذه الجمعية تعمل في تونس داخل إطارها الثقافي و التربوي، طوال مرحلتها التأسيسية (1934- 1939م)، إذ تميزت خلالها بالنشاط و الحيوية، كإصدار النشريات و الكتابة لصحف و المجلات و ايحياء المناسبات الوطنية، و كان الطلبة دوما على إرتباط بعلماء الإصلاح و رجال الثقافة في الجزائر و عادة ما كانت توجه إليهم دعوات لحضور المناسبات التي كانوا يعقدونها حول موضيع دينية و ثقافية.

و في هذا الصدد لم تكن الجمعية بمعزل عن المستجدات الدولية و الإقليمية و الوطنية، و التي أثرت في نشاطها خاصة عقب الحرب العالمية الثانية، و إنعكاس هذه الاخيرة على تيارت الحركة الوطنية، و التي بدورها انعكست على العمل الطلابي بتونس، فقد طعِّمت الجمعية بنهج جديد من العمل مكنها من التحول من مرحلة التأسيس و التنظيم إلى مرحلة بلورت الوعي السياسي بإعتبار أن الطالب هو رجل الإصلاح الذي سوف يلتحق في حال تخرجه من ردهات الزيتونة إلى وطنه، و أمامه مهام عظيمة تمكنه من مواجهة الواقع

الجزائري بما يحمله من مآسي وآمال و عليه أن يتحلى بالقدرات التي تؤهله للارتقاء إلى المستوى الذي ينتظره منه أبناء أمته[1].

و قد تطور إهتمام الطلبة بالقضايا الوطنية خلال هذه الفترة و أضحى الجانب السياسي من بين أهم إنشغالاتهم، خاصة بعد الصحوة السياسية التي شهدتها الجزائر خلال هذه الفترة كان لها إنعكاس أيضا على المشهد الثقافي بتونس حيث إنتقلت عدوى الخلاف السياسي الحادث في الجزائر إلى أوساط الطلبة بتونس، و الذي كان مدعاته الصراع الذي تفجر بين البيانيين بزعامة فرحات عباس و المصالين(حزب الشعب وحركة الإنتصار للحريات الديمقراطية) بزعامة مصالي الحاج عقب الحرب العالمية الثانية من خلال المواقف بين الإدارة الفرنسية، و عندما تحالفت جمعية العلماء مع البيانين (فرحات عباس) ضد المصالين في عدد من المواقف وقع الصدام.

فكما إستقطبت الأحزاب و الهيئات السياسية الجزائرين فئات العمال و الفلاحين و التجار، إستقطبت كذلك فئات الطلبة داخل الجزائر و خارجها كما هو الحال مع الطلبة بتونس عموما وهو ما سيؤدي إلى إنقسام الطلبة إلى فريقين:

- تيار متشبث بالموالات للخط الباديسي و إتباع النهج الذي ظلت تسير عليه الجمعية.

- تيار الخط المصالي و التي إنتهجت نهج جماعة (حزب الشعب و حركة انتصار الحريات الديمقراطية).

و مع نهايةسنة 1948م تدخل جمعية الطلبة الجزائريين في مرحلة من الضعف و التشتت أين تردى النضال الطلابي ليتفكك مطلع الخمسينات إلى مجموعتين، ففي حين ظلت جمعية الطلبة الزيتونيين متشبثة بخطى الجمعية الإصلاحي، و التي أسست لنفسها 'جمعية البعثة الزيتونين'، قام الموالون لحركة الإنتصار للحريات الديمقراطية بإنشاء 'جمعية الطلبة الجزائريين'[2].

و بالرغم من أن مؤرخنا لم يكن من النشطين في جمعية الطلبة الزيتونيين أو الحياة الطلابية بتونس عموما في هذه الفترة، و إنما أردنا من خلال هذه الإشارة للمسار الجمعوي الطلابي، هو معرفة الظروف التي

---

[1]- أحمد مريوش، الحركة الطلابية الجزائرية ودورها في القضية الوطنية وثورة التحرير 1954م، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر: كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية، 2005-2006م ص 200.

[2]- انظر البصائر، العدد 79، " بيان من وفد جمعية العلماء المسلمين"، 1949/06/09.

أدت إلى بروز 'جمعية البعثة الزيتونية' و التي سوف يكون لأبي القاسم سعد الله دور في نشاطها. فكيف كانت مساهمة أبو القاسم سعد الله بالجمعية؟؟

1: رئاسته لجمعية البعثة الزيتونية (1952-1954م):

و كما أسلفنا الحديث أن تأسيس هذه الجمعية جاء على إثر الصراع بين التيار الموالي لـــ ج.ع.م و التيار الموالي لـــ.ح.إ.ح.د، و نتيجة للعجز عن التوفيق بين الطرفين جاءت فكرة الإنفصال، و تأسيس ' جمعية البعثة الزيتونية ' و التي يقول عنها أبو القاسم " أنشأت هذه الجمعية حوالي 1949م في تونس إثر عدم التفاهم حول دور الطالب الجزائري المغترب في تونس : هل هو التفرغ للدراسة و العلم و التكوين الثقافي أو الدراسة و معها ممارسة السياسة في ظل ما يجري في الجزائر"[1]. و الحقيقة أن وراء تأسيس جمعية البعثة الزيتونية التنافس الشديد بين جمعية العلماء و حزب الشعب على إستقطاب الشباب المتعلم لصفوفهم فالجمعية أرادت الفصل بين نوعين من الطلاب، الطالب الذي قصد جامع الزيتونة للتعلم و من ثمة العودة إلى الجزائر لنشر التعليم العربي الإسلامي، و بين الطالب الذي يضيف السياسة إلى التعليم. فأرادت بذلك إبعادهم عن السياسة خوفا من إستقطاب حزب الشعب لهم[2].

إن أول من تولى رئاسة جمعية البعثة الزيتونية هو 'رابح بونار' ،و محمد الإبراهيمي كتابها مع عدد من الأعضاء و المستشارين، و أسندت الرئاسة الشرفية ' للشيخ محمد الطاهر بن عاشور'. وفي مطلع السنة الدراسية (1950-1951م) جرت إنتخابات لتحديد المكتب بعد تخرج رابح بونار نصب على إثرها 'أحمد بوعروج' رئيسا يقول أبو القاسم سعد الله في ذلك: " تولى جمعية البعثة قبل أن تؤول إلي هو الأخ أحمد بوعروج، و لا أذكر الآن كم بقى على مهمته و قد بقى مقر جمعية الطلبة الواقع في نهج جامع الهواء و هو نفسه مقر جمعية البعثة لآن العلماء هم الذين كانوا يدفعون كراء المحل للسيد علال التونسي[3]"

و بعد تخرج بوعروج في جوان 1950م كان أعضاء الجمعية مضطرين إلى تجديد المكتب في انتظار بداية الموسم (1950-1951م)، و انبثق عن إنتخابات التجديد تكليف أبو القاسم سعد الله رئاسة الجمعية، و قد إعتقد أبو القاسم سعد الله أن التعيين كان مجرد تكليف مؤقت إلى حين إيجاد البديل لرئاسة الجمعية، إلا

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص 147.

[2]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 24.

[3]- أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف،المصدر السابق، ص ص(148-149).

أنه يُفاجئ برسالة من طرف الشيخ العربي التبسي[1] من الجزائر لتعيينه مسئولا على جمعية البعثة الزيتونية. و قد إستغرب أبو القاسم سعد الله سبب التعيين بالرغم أنه لم يكن من النّشطين في الحياة الطلابية بالزيتونة سواء في جمعية الطلبة أو جمعية البعثة و لم يكن أيضا من المبتعثين الزيتونيين، أو قد درس من قبل في إحدى مدراس الجمعية و لم تكن له أيضا سابق معرفة بالشيخ العربي التبسي أو أي أحد من أعضاء الجمعية، و لم يكن له أي طموح شخصي للمنصب يقول في هذا الشأن: " عندما أكمل الأخ بوعروج دراسته ترك مقاليد جمعية البعثة في يدي مؤقتا رغم أنني لم أكن محسوبا على الطلبة النشطين في الحياة الطلابية عموما، و لا أدري لماذا وقع علي الإختيار رغم أنني لم اشارك في التنافس الطلابي الذي وصل حد التضارب أحيانا"[2].

و لعل عزوف أبي القاسم سعد الله عن أي نشاط داخل التنظيمات الطلابية في تونس في تلك الفترة، و نجابتة في الدراسة، قد وصلت مسامع رجالات الجمعية، و كذا ظهور إسمه في جريدة البصائر و نشاطه فيها، كان سببا في إختيار العربي التبسي لسعد الله لرئاسة الجمعية. و على أية حال فقد أرسل أبو القاسم سعد الله رسالة إعتذار لشيخ التبسي لتملص من المسؤولية إلا أن الشيخ أعاد تثبيته برسالة أخرى لقبولها يقول في ذلك : "... كما أذكر أنني كتبت إليه رسالة إعتذار و زوقتها بعبارات الإحترام المفخمة التي تعلمتها من الكتب و أبديت فيها من التواضع ما أمكنني لأخلص نفسي من المسؤولية، و لكن الشيخ رد بجواب تعييني أكثر صرامة من الأول و ضمنه لهجة فيها أمر مغلّف، و هكذا وجدت نفسي في مفترق طرق، و قد قمت بمهمتي بما

---

[1]- **العربي التبسي (1891-1957م)**: هو العربي بن مبارك بن فرحات التبسي، أحد رجال الفكر الاصلاحي في الجزائر، و من أبرز أعضاء جمعية العلماء المسلمين، ولد في بلدية أسطح جنوب غرب تبسة، بدأ حياته العلمية تلميذا على يد والده ثم عمه، فتعلم القرءاة و الكتابة، و حفظ القرآن، ثم انتقل إلى زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز، و بعد أن كون قاعدة علمية بالزاوية انتقل الى الزيتونة و تحصل منها على شهادة الاهلية و التحصيل ، ثم انتقل إلى القاهرة و تحصل منها على الشهادة العالمية، و في سنة 1927 عاد إلى الجزائر و اشتغل بالتعليم العربي الاسلامي في تبسة و غيرها، و شارك في الحركة الاصلاحية بقلمه، ومنذ اللحظات الأولى لتأسيس الجمعية كان الشيخ التبسي أحد أعضائها البارزين حيث عُين سنة 1935م كاتبا عاما لها، ثم نائبا لرئيسها الشيخ الابراهيمي، ثم رئيسا لها بعد رحيل الشيخ الى المشرق سنة 1952م، سجن عدة مرات لمواقفه الوطنية، و في ابريل 1957م خطفه الفرنسيون و قاموا بإغتياله. للمزيد أنظر عادل نويهض، المرجع السابق، ص*21*.

[2]- خير الدين شترة، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956م، ج2، الجزائر: دار البصائر، 2008، ص 1283.

أستطيع و لكن على أساس أنني مسئولا مؤقت"[1]. و رغم رفضه إلا أن العربي التبسي أصر عليه من أجل قبول المهمة فقبلها مرغما إلى حين إيجاد البديل إلا أنه ترأسها حاولي ثلاث سنوات إلي غاية تخرجه سنة 1954م .

– نشاطاته بالجمعية:

ظل أبو القاسم سعد الله محافظا على خط الجمعية النضالي رافضا الوضع الذي آل إليه المسار النضالي الطلابي نابذاً للصدام و مؤمنا بلإقناع و الحوار و إحترام الرأي الآخر، و بالرغم من أنّ سعد الله لم يكن من المتسيسين أو الذين يتعاطون السياسة أثناء هاته الفترة، إلا أنه كانت تربطه علاقة طيبة مع من يختلف معهم في التوجه من أنصار حزب الشعب و هو ما يؤكده صديقه عبد الله ركيبي في شهادته حول الشيخ أبو القاسم سعد الله: " كان لا يميل إلى المواجهة و المجابهة و الخصومة كما يرفض العداوة لذلك فإنّ ما جرى في تلك الفترة لم يمنعه من أن يحافظ على علاقة طيبة مع من يختلف معه و هذا ما ساعده على أن يكون موضوعي في أحكامه"[2] .

و يؤكد أبو القاسم سعد الله على الإندماج و التلاحم بين الفئتين و أنّ أحزاب الحركة الوطنية وحدة متكاملة يأخذ بعضها على بعض، و لا يمكن تفضيل جماعة على أخرى و عمل جاهداً للم الشّمل و الحد من الخصومات يقول في ذلك "....كنت أختلط ببعض الطلاب الجزائريين الآخرين ممن كانوا أعضاء في حزب الشعب مثلا، و معجبين بشخصية مصالي الحاج حتى كان بعضهم يبالغ فيحلف اليمين بلحيته، و ينشدون أناشيد الحركة الوطنية مثل " فداء الجزائر روحي ومال "، و كذلك أناشيد الحركة الإصلاحية مثل ' شعب الجزائر مسلم– و إلى العروبة ينتسب' و ' أعصفي يا رياح ' ... إننا كنا مندمجين نأخذ من بعضنا البعض..."[3].

و في هذا الصدد دعا أبو القاسم إلى مسابقة أدبية يشارك فيها جميع الطلبة، من مختلف التيارات الحزبية بعنوان " أَمَلُك في مستقبل بلادك" و قد تفضل بعض الشيوخ من جامع الزيتونة بعضوية لجنة التحكيم منهم العروسي المطوي و الهادي حمو و البشير العريبي و المختار السلامي، و قد قدم الطلبة مساهماتهم التي

[1]– أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 140.

[2]– عبد الله ركيبي، " صديقي الدكتور أبو القاسم سعد الله"، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 483.

[3]– مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 23.

عبروا فيها عن آمالهم في تحرير وطنهم من الإستعمار و رفع شأن شعبهم بين الشعوب بالعلم و العمل، و قد فاز في المسابقة حتى الطلبة غير مواليين لتنظيم جمعية البعثة، و من بينهم ' عبد الله الركيبي' بالإضافة إلى الطالبين 'محمد بغدادي 'و ' محمد دريدي' و قد نشرت نتائج الفائزين في المسابقة في جريدة البصائر. و هكذا كانت هذه الحادثة بلا شك إحدى المبادرات التي إستحسنها الطلبة لأنها ساهمت في وحدة الصف الطلابي و أتاحت الفرصة لهم لكي يعبروا عن طموحاتهم نحو بلادهم في وقت كان المخاض السياسي فيه يبشر بعهد الحرية للشعوب في آسيا و أفريقيا [1].

و تجدر الإشارة إلى أنّ السنوات التي تلت سنة 1950م، و طوال الفترة التي بقى فيها سعد الله مسؤولا عن الجمعية كانت مليئة بحركة 'صوت الطالب الزيتوني'، و هي حركة تونسية قادها الطلبة و إنضم إليها بعض الجزائريين، و كانت تقود حركة إصلاح في نظام التعليم و إعطاء طلبة الزيتونة نصيبهم من الحقوق الإدارية و الإجتماعية و السياسية مثل زملائهم طلبة الصادقية و غيرهم. و قد كانت بنشاطها قد شغلت الرأي العام الزيتوني و التونسي بالإضرابات و الإعتصامات و المسيرات، و هو ما أثّر على السير الحسن لدّروس و من ثم الإمتحانات، و بما أن الدراسة كانت تتعطل في كل مرة إضطر الطلبة الجزائريون إلى السفر المتكرر إلى الجزائر في إنتظار أن تستقر الأوضاع. و هذا الغياب المستمر أثّر سلبا على النشاط العادي للجمعية.

كما أن الثورة التونسية المسلحة قد بدأت في جانفي 1952م، مما أثّر على الحركة الطلابية عموما، حيث تسبب ذلك في إعتقالات متواصلة لطّلبة بسبب ميولهم السياسي، و قد أخذ الطلبة الجزائريون نصيبا وافراً من ذلك، هكذا توفرت عدة عوامل لإضعاف العمل الجمعوي الطلابي بتونس خلال هذه الفترة فلم تقم الجمعية إلا بنشاط ضعيف[2].

إلا أن هذه الأحداث التي خيمت على المشهد الثقافي بتونس لم تكن لتمنع جمعية البعثة من أن تواصل نشاطها في إدارة شؤون الطلبة و تأطير النشاطات الثقافية، فقامت الجمعية بنشاط مكثف خلال صيف 1953م، إذ قدم الفرع المسرحي للطلبة رواية تاريخية دينية بعنوان ' الخليفة العادل: عمر بن عبد العزيز' على بعض المسارح الجزائرية، و قد قامت جريدة البصائر بالإشهار لها تحت عنوان ' بشرى لهواة المسرح العربي' ، و يذكر سعد الله أنه قام رفقة ثلة من رفقائه بتمثيل المسرحية في عدة مدن جزائرية، و أن الهدف من ذلك هو

[1]- أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص150.

[2]- خير الدين شترة ، الطلبة الجزائريون....، المرجع السابق، ص 1284م.

التعريف بالجمعية في أوساط العامة في الجزائر و تمويل صندوق الجمعية و هكذا إنتعش نشاط الجمعية بشكل ملفت خلال 1953م[1].

و من نشاطاته أيضا بالجمعية دعوة بعض الشيوخ لإلقاء محاضرات توجيهية بالنادي و الإحتفال بالطلبة المتخرجين في المركز و مراسلة جريدة البصائر بقوائم الناجحين بشهادة التحصيل و الأهلية عقب كل دورة إمتحان، و كانت جريدة البصائر تنشرها في أعدادها بإعتبار ذلك من إنجازات الحركة الإصلاحية[2]. و بإعتباره مسؤولا عن الجمعية، كان يستقبل و يودع الطلبة الجزائريين القادمين إلى تونس أو المبعوثين في مهام علمية من طرف معهد عبد الحميد بن باديس إلى تونس أو المشرق عموما مرورًا بتونس، و من بين البعثات التي قام بتوديعها نجد البعثة التي كانت وجهتها إلى العراق سنة 1952م، وكان من بينهم: أبو العيد دودو ومولود شرحبيل، وعبد القادر قريصات، وزروق موساوي ....الخ[3].

و ألقى عليهم قصيدة و كلمة بإسم جمعية البعثة الزيتونية بمطار العوينة بتونس، و كانت القصيدة كلها حث على الإجتهاد و العلم و الأخلاق و أن الوطن بإنتظار عودتهم مزوّدين بنور العلم لنشره بالجزائر، يقول عن ذلك :" و أذكر أنني ودّعت بعثة العراق بالمطار في تونس بصفتي مسؤولا على البعثة، رغم أني كنت أقل من بعضهم سنا، و ألقيت عليهم قصيدة و كلمة، تحثهم و تشجعهم على الدراسة ... أي أننا كنا نتحمل مسؤولية معنوية أكبر من سِننا، قلت لهم ستكونون سفراء الجزائر و ستعودون لتكوين شباب المستقبل التي يبدوا أنها تقليدية و لعلها كانت صدى لما كنت أقرؤه في جريدة البصائر"[4] . و مما جاء في نص القصيدة التي كانت بعنوان" نغم الوداع ":

نغمة الشعر من اهازيج عودي مع نسيم الصبا ونفخ الخلود

ضحك الفجر فوقهـــا فتندت عبق الوحي من شفاه الورود

إلى أن يقول:

نخبة العلم ذي مباهـــج عيدي ونشيد الرضى وفجر السعو

[1]- عبد الكريم بوصفصاف ، المرجع السابق، ص 179.

[2]- أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص 150.

[3]- مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص 234.

[4]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 159.

قـــد تبوأت عرش مجد تليـــد وتفيـــأت ظل عهـــد جديـــــد

وكشفت الحجاب عنا فحزت قصب السبق في غمـــار الجهـــود

ورأيت(الفرات) اعـــذب مـــاء فطلبت الغـــــذاء قبل الـــورود

يـــا مجيبـــا بـــأرض(بغداد) انا قد شربنا الاسى ولفح الوقـــــود

قاسقنا منـــهل العلـــوم شبابـــا وأبقنا عند عـــــرش مجد تليـــــد

وآخر بيت يقول فيه:

و إذا وفـــــق الإلـــه رجـــالا أقبل الكـــون بالـــدعا و السجود[1]

2- الكتابة في الصحف والمجلات:

2-1: البداية مع جريدة البصائر:

بدأت علاقات سعد الله بالصحافة منذ أن كان طالب بجامع الزيتونة و لقد توضدت علاقته بالصحافة و تطورت بشكل كبير حتى كادت تتحول إلى علاقة حميمية، و ذلك من خلال جريدة البصائر التي عرفها وهو ما يزال في وادي سوف ببلدته قمار قبل ذهابه لزيتونة، و قد كان بعض أصهاره و منهم زوج خالته الشيخ الطاهر التليلي و خاله الحفناوي هالي، من خريجي جامع الزيتونة و من أعضاء جمعية العلماء و من قراء البصائر، فكانت هذه الجريدة تأتي إلى دكان أحد التجار في البلدة فيتداول على قراءتها أكثر من واحد و كان هو من بينهم، بالرغم من أنه وقتها سنة 1947م لم يكن يفهم منها إلاّ معاني غامضة، و كان صاحب المتجر يحثه على قراءتها بل و على أخذها معه و إعادتها بعد القراءة. و حين سفره إلى تونس و دراسته بجامع الزيتونة ظل على إتصال دائم بالجريدة في سلسلتها الثانية بفضل إشتراك والده له فيها بإقتراح من عديله الشيخ التليلي، فأصبحت تأتيه شخصيا و بإنتظام و كلما غير عنوانه في تونس أو الجزائر.

و يذكر أبو القاسم سعد الله أن ماكان يلفت نظره فيها وكان سببا في مطالعتها و إقتنائها هو لغة الشيخ الإبراهيمي و أدبه، و بالرغم أن موضوعات الشيخ وقتئذ لم يكن يدرك مغزاها إلا بعد تكوينه العلمي،

[1]- أبو القاسم سعد الله، الزمن الاخضر، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص ص (119-121).

و تعاقب الأيام في الزيتونة أتاح له معرفة أحداث و تطورات الساحة السياسية بالجزائر، و من بين الموضوعات التي جذبته بأسلوبها و طرحها العميق نجد مأساة 8 ماي 1945م، بأبيات شعرية يقول فيها:

ذكـــراكَ يايـــومُ تحـــــزُّ في الأحشَا

اذا اقبل القـــــوم وحشٌ تلا وحـــشا[1]

ثم سعى بعدها ليكون له مكان خاص به على صفحاتها و كانت مقالته الأولى في العدد 165 الصادر في 30 جويلية 1951م عنوانه " أمة المجد في الميدان"، و بعد ترأسه لجمعية البعثة الزيتونية توضدت العلاقة بين مؤرخنا و جريدة البصائر إذ كانت مهمته بإعتباره مسؤولا عن الجمعية كتابة التقارير الإعلامية حول نشاطات البعثة الزيتونية و هو ما جعل الجمعية تهتم بمراسالاته و تنشرها في أعدادها فكان يُوفيها بنشاطات البعثة كالمحاضرات و الزيارات و أسماء الناجحين من الطلبة و المسابقات...الخ، يقول في ذلك " و كانت مسئوليتي كممثل لبعثة جمعية العلماء في تونس تجعل الجريدة تهتم بمراسلاتي لأنني لا أبعث إليها نشاطي الخاص من شعر و قصة و مقالة فقط و إنّما كنت أبعث إليها نشاط البعثة.... فكانت البصائر تنشر مراسلاتي تارة بحذافيرها، و تارة كنت تتصرف فيها بما تراه ضروريا"[2].

و كان لظهور إسمه مطبوعا في الجريدة و حديث الطلبة معه عن مراسلتها بعد ظهورها، أن شجعه على إرسال المقالات و القصائد و غيرها لكي تنشرها الجريدة و كانت تهملها في بعض الأحيان، إلا أن ذلك لم يثنه عن عزيمته بل كان حافزا له لإرسال المزيد وتحسين أسلوبه وتعميق قراءاته ومصادر إطلاعه.

و كان للروافد الثقافية الجديدة التي إستقاها من مطالعاته حول الشعر المهجري و المدارس الشعرية و الأدبية الحديثة بالمشرق، خلافا لما درسه بالزيتونة وما تنشره الجريدة، فلم يكن نوع كتاباته ليتماشى مع مواضيع الجريدة و إهتمامات قرّائها، ذلك أن هذه الأخيرة تغلب عليها الثقافة الدينية و الأساليب التقليدية على حد قوله، يقول في هذا الشأن " ذلك أن الزيتونة كانت محافضة على الأساليب القديمة و أنا كنت متمردا على ذلك و أحب الأدب الحديث و الشعر الحر و القصة ....الخ، و قد وصل بي التّمرد أو العقوق أنني كتبت مقالة بعد أن تخرجت من الزيتونة هاجمت فيها الشّيوخ المتزمتين و شبهت أحدهم ب (راسبوتين) وقد نشرتها

[1]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص 83.

[2]- أبو القاسم سعد الله، خارج السرب، المصدر السابق، ص 98.

سنة 1954م في جريدة (البصائر عدد 285) و لكني ندمت عن عقوقي الآن طبعا بعد أن اصبحت أنا شيخا!" [1].

إلا أن سعد الله يعود بعدها ليؤكد أن كتاباته انذاك لم تكن لترقى لمستوى عال من الإتقان قائلا " ولا أريد أن أقول الآن أن السبب وراء إهمال إنتاجي هو الحداثة وحدها بل أنني أعرف أن ثقافتي لم تكن ناضجة و أن في أسلوبي الكثير من الأخطاء التي كان الغرور و الإعتزاز بالنفس يُغطيانها ".

و ليتمكن سعد الله من نشر مقالاته في جريدة البصائر كان يلجأ في بداية الأمر إلى حيل ساذجة، تتمثل في إهداء مقالاته و قصصه إلى عضو من أعضاء هيئة التحرير، و حين نجح في إستعمال حيلته هذه أخذ يكرّرها مرات إلى أن أصبح معروفا لدى هيئة التحرير، و منهم الشيوخ أحمد توفيق المدني و أحمد سحنون و الشاعر محمد العيد يقول :" .... كنت أهدي رغم عدم معرفتي بهيئة التحرير مقالاتي أو قصيدتي إلى عضو في هذه الهيئة فكان هذا الإهداء يعمل فيما يبدو على نشر ما يصلهم مني لوجود إسم أحدهم في إنتاجي و ما أظن أن الموضوع في حد ذاته كان السبب الوحيد في النشر "[2].

و عن أولى القصائد و المقالات التي نشرها في الجريدة، كما أسلفنا هو مقال " أمة المجد في الميدان"، و المقال عبارة عن كلمة خطبية إنشائية تصور فيها شعب المغرب العربي أمة واحدة نهضت للمجد و التقدم و الحرية يقول في ذلك " لا أدري كيف خطر ببالي، و قد نشر في البصائر بشكل بارز، و فيه حديث عن شمال إفريقيا و التوجه نحو الحرية و الإستقلال".

كذلك نلتمس ثوريته الجامحة و وطنيته الصادقة في ثنايا قصائده التي نظمها وقتئذ منها قصيدة ' غيوم ' التي تحتوي على إرهاصات و تباشير على قرب إندلاع الثورة التحريرية يقول فيها:

سوف نغدو كالحياة

عبر هاتيك الحقول

نطا العشب النديـــــا

وسوانا في ذهـــــول

[1]- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 56.

[2]- أبو القاسم سعد الله، خارج السرب، المصدر السابق، ص ص(98-99).

انمـــــا هي غيـــوم

مثل اشبح السكون

تلهم الاقدار فيـــها

اكل عقل وجـــنون

كلها-حتما- ستغدو

كـــالهشيم للفنـــــاء

إلى أن يقول:

هـــامة الطغيان سكرى

برصـــاص الحريـــات

فتهاوت للجحـــيم

ثورة الحلق الغضوب

و انتصار الكائنـــات

مهبط الوحي الالهـــي

و شعاعات الخـــلود

أمة العرب جمـــيعـــا

قد تنادت بالكفاح

و انتشى الوعي لديها

بتـــباشـــير الصـــبـــاح[1]

و جاءت قصيدته ' الشرق' التي كتبها سنة 1953م معبرة عن تشوقه للثورة و الخروج من دائرة الأغلال و الخوف، داعيا الشرق إلى التحرر من سيطرة الغرب مستبشرا بالنصر المأزّر، و مما جاء فيها:

[1]- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص ص (91-93).

قيـــد الظفـــر رايتي و حنودي و استياغ الحسام هـــام الحـــسود
أضرام العـــزم كهرباء ضلوعي بيـــد ان النـــضار ســـر الكبـــود
طعنات الزمـــان في كل خصم و فخـــار الزمـــان شم فنـــودي
اينما كنت تنتظر بند نصـــري أنظر الافـــق هلى تري من سعود
لا يـــزال الجـــهاد وحي سمـــو و جـــلال النهـــى وثمـــر جهودي
هـــذه يقـــظتي و نهضة مجـــدي فلقد طـــال في الزمـــان وقـــودي

إلى قوله:

قد شربتم من الدنان دهـــاقا فاشربوا- الآن- من مواضي الغمود
فلقـــد رجت العروبة رجـــا كالبراكيـــن بالصـــفى الصـــلود
و اذا ايقـــــظ الإله شـــعوبا جابه الكـــون صبحها بالسجـــود[1]

و هناك العديد من القصائد الثورية التي نظمها أيام الطلب بتونس، كلها تعبر عن ثوريته، و حبه الشديد لوطنه إلا أن المجال لا يسع لذكرها جميعا، و سنكتفي بهاذين النموذجين.

2-2: إسهاماته في الجرائد و المجلات العربية:

كانت التجارب الأولى في الكتابة الصحفية لأبي القاسم سعد الله في جرائد و المجلات التونسية، منها النهضة و الزهرة و الأسبوع و بعض المجلات مثل المعارف فقد كان يراسلها بقطع شعرية و قصص و مقالات و تعاليق و لكنها كانت لا تنشرها أو تنشر منها جزءا صغيرا تختاره حسب حاجة الجريدة له، أو لملء فراغ فيها، و يذكر سعد الله أسباب إهمال إنتاجه فيها أنه لم تكن تربطه علاقات بهاته الصحف فلم يكن يعرف فيها أحدا و إنما كان يكتفي بمراسلتها عن طريق البريد، فكان بعضه أحيانا كثيرة يضيع و لا يصل لأصحاب هاته الصحف و إن كان قد وصل لم ينشر لضعفه أو لعدم مناسبته و غير ذلك من الأسباب.

[1]- مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص 232.

و إن كانت بعض الجرائد مثل جريدة ' الأسبوع ' قد نشرت له قصيدة كاملة سنة 1951م في مدح الإبراهيمي، يقول سعد الله في مطلعها:

سناءٌ أضاءَ الافْقَ من كل جانب ووَدْقٌ دفيق الرَّج كالسيل زاغب [1]

كما كانت له مساهمات في مجلات عربية مشرقية كمجلة الآدب البروتية، التي كانت تصل إلى تونس أثناء دراسته فأقبل على قراءتها و المثابرة على شرائها، و أول مقال نشرتها له المجلة هي " أرض الملاحم" و مع هذا العنوان عنوان فرعي " في طريق الياذة جزائرية"[2]، سنكتفي بها كنموذج:

فسعد الله يرى " أن كل أمة ذات شأن في تاريخها في حاجة إلى ملحمة تخلد مآثرها التي تمثل تعبئة مستديمة للأجيال، و قد ذكر بعض النماذج التاريخية، مثلا أن حرب طروادة كانت باعثة لهوميروس على خلق الياذة كما كانت الحروب العربية موحية بإنشاء ملحمة عنترة المشهورة التي تعتبر أول الياذة عربية ".

ثم يستعرض تاريخ الجزائر عبر العصور، فيرى أنه جميع فتراته حافلة بالحوادث الجسام، و مفعمة بألوان الصراع و البطولة، و من ثم يرى أن أرض الجزائر أرض ملاحم " نتيجة مشاركتها في تثبيت أسس الحضارة الإنسانية منذ العصور الأولى و قلما يوجد شبر من أراضها لم تسقه الأقدار دما".

و أخيرا " يتساءل في حسرة و أسى كيف أهملت المعالم العظيمة في ذلك التاريخ و الإستعمار بالمرصاد يلتمس الثغرات لطعن في تراثنا و مقوماتنا، و مع ذلك فإن سعد الله لم ييأس بل أبدى تفاؤله، و رأى في الأفق أنه سيأتي يوم تحظي فيه أرض الملاحم بإلياذة، و كان إندلاع الثورة بعد صدور المقال بستة أشهر، فكانت الثورة هي الالياذة الحقيقية المنتظرة، و قد عبر عن هذا التنبؤ بقوله " و يبدو أن أرض الملاحم كان نوعا من التنبؤ لأنني تحدثت فيه عن الجزائر الملحمية فبل الثورة...."[3].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص 84.

[2]- أنظر، أبو القاسم سعد الله،" في طريق إلياذة جزائرية أرض الملاحم "، مجلة اللآداب البيروتية، العدد 4، 1954م، ص ص (51-52)

[3]- مصباح مصباحي،" أبو القاسم سعد الله الوطني و الاديب الثائر (شهاد حية)". أعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا...، المرجع السابق، ص ص (13-14).

3- تأسيس رابطة القلم الجديد :

كان أبو القاسم سعد الله خلال دراسته بالزيتونه متأثرا كثيرا بالحداثة التي عرفها الأدب العربي، و بأساليب الكتابة في المشرق العربي المتطورة، و لاسميا مدرسة المهجر و مدرسة أبوللو....الخ، و قد أضاف ظهور مجلة الآداب البيروتية التي كانت تسير في ركب الحداثة أنذاك شيئا جديدا إلى إهتماماته، في تعلّقه بالتجديد في الشعر و الأدب، فكان إذا إنتهى الدرس التقليدي إجتمع مع ثلة من زملائه للحديث عن الأدب الحديث وعن قراءاتهم في أدب جبران و الشابي[1] و نعيمة و أبي شادي و غيرهم، و أمام هذه الحركة النشطة في جو الزيتونة التقليدي برزت فكرة إقامة رابطة للشباب الأدباء جزائريون و تونيسيون فتكونت ' رابطة القلم الجديد'.

يقول عنها أبو القاسم سعد الله " أنها منتدى شعراء شباب إلتقوا على التّجديد في الشعر و الأدب عموما، و الخروج من رقابة التقاليد الأدبية البائدة و القواليب النقدية الجامدة "[2]. تم تأسيس هذه الرابطة في 1 يناير 1952م و إنعقد إجتماعها التأسيسي في 18 يناير من نفس السنة، و قد ترأسها المرحوم الشاذلي زوكار ومن أعضائها الجزائريين الجنيدي خليفة و العيد خطواري و محمد علي كرام، ومن التونسيين بالإضافة إلى الشاذلي زوكار نجد كذلك منور صمادح، و من أنشطة الرابطة عقد ندوات أدبية أو مشاركة بعض النوادي الثقافية الأخرى نشاطها، و قد نشر أبو القاسم بعض مقالاته و قصائده بإمضائه المرفق بعبارة 'رابطة القلم الجديد ' سواء في جرائد أو مجلات تونس كالندوة و الفكر و المعارف . و الجزائر في جريدة البصائر و المشرق في مجلة الآداب البيروتية. و الملاحظ أن رابطة القلم الجديد كانت تفتقر إلى منبر يجمع شتاتها، و يتولى نشر

---

[1]- **أبو القاسم الشابي (1909-1934م)**: شاعر تونس في العصر الحديث، ولد بقرية الشابية التابعة لمحافظة توزر جنوب تونس(الجريد)، تلقى تعليمة الاول بمسقط رأسه ، ثم انتقل الى الزيتونة و تخرج منها بشهادة التحصيل، ثم انتقل الى الدراسة بكلية الحقوق التونسية و تخرج بمنها سنة 1930 بإجازة الحقوق، توفي الشابي في ريعان شبابه على إثر مرض قلبي المّ به، خلّف وراءه دواوين شعرية مشهورة و عدد من الرويات للمزيد انظر: أبو القاسم الشابي، ديوان ابي القاسم الشابي، تح: احمد حسن بسج، لبنان: دار الكتب العلمية، 2005.

[2]- يوسف وغليسي، "رائد الشعر الحر في الجزائر.. الدكتور أبو القاسم سعد الله يستعيد ذاكرته الشعرية ويفتح قلبه للنصر"، المجلة العالمية لترجمة الحديثة، جامعة قسنطينة: منشورات مخبر اللغات والترجمة، العدد 5، 2010م، 67.

إسهامات أعضائها الذين راح كل واحد منهم ينشر إنتاجه الأدبي في أية جريدة أو مجلة تتاح له فيها فرصة النشر [1].

و عند رجوعه إلى الجزائر سنة 1954م، إنقطع عن النشاط الأدبي و ضعفت علاقته بإخوانه في الأدب، خاصة و أن أعداد من تلك المجلات التي كان يتابعها و يتواصل معاها و ينشر فيها ممنوعة من دخول الجزائر حينئذ، منها مجلة الآداب البيروتية. و تبقى رابطة القلم الجديد رابطة قائمة بواسطة الإتفاق بين أعضائها، ولا يُكاد يعرف لها وجود فهي رابطة اقتصرت على مؤسسيها وحدهم[2].

إستطاع مؤرخنا تقديم إسهام معتبر لصالح القضية الوطنية في تونس، إن كان في الإطار الجمعوي متمثلا في منظمة البعثة الزيتونية أين كان له دور كبير في تفعيل نشاطها، أو على صفحات الجرائد و المجلات الوطنية و العربية، أين سخر قلمه لخدمة الكفاح الوطني وزرع الروح الثورية بين أقرانه من الطلبة، و هذا الإسهام المعتبر على قلته سيكون له دفعا قويا و قاعدة لمواصلة نضاله الثّورى لصالح القضية الجزائرية في الجزائر و القاهرة .

ثانيا– نشاطه الطلابي في الجزائر(1954–1955م):

عاد أبو القاسم سعد الله إلى الجزائر بعد رفض طلبه الحصول على منحة لمواصلة دراسته في إحدى جامعات المشرق العربي، و لتوفير قدر من المال يخوله السفر من أجل إتمام دراسته على حسابه الخاص و كانت الثورة أثناء ذلك قد إندلعت و قد وصله خبرها و هو داخل لإجراء الامتحان النهائي في الزيتونة و مباشرة غادر تونس في 7نوفمبر 1954م إلى العاصمة الجزائرية التي وطأت قدمه أرضها لأول مرة في 19 نوفمبر 1954م، و عاش بها سنة كاملة و كانت مشاركته في الثورة عن بعد يمكن تلمّسها في الأعمال التالية:

1–: تدريسه بالمدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء المسلمين:

أبرق أبو القاسم سعد الله إلى خاله الشيخ الحفناني هالي الذي كان يرأس لجنة التعليم العليا بالجمعية. لتعينه بإحدى المدارس القريبة من العاصمة، فكان عند حصوله على الشهادة قد تم إجراء المناظرة (المسابقة) التي استحدثتها الجمعية في تلك السنة لخريجي الزيتونة قبل توزيعهم على المدارس المحتاجة، و كان تأخره في المجئ

[1]– يوسف وغليسي، المرجع السابق، ص 68.

[2]– أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المصدر السابق، ص ص (185–186).

للجزائر بسبب تأخرهم في إجراء امتحان شهادة التحصيل في الزيتونة بسبب الأحداث الأخيرة فيها، فلم تبقى إلا أماكن قليلة شاغرة و بتدخل من خاله الشيخ حفناوي هالي، تم تعينه في مدرسة الثبات (بالحراش) بضواحي العاصمة، وكان تعينه فيها بشكل مؤقت إلى حين إجراء المسابقة بعد حوالي سنة، فإن نجح فيها فسيتم تعينه فيها بشكل رسمي. و لعل هذا التجديد الذي أحدثته الجمعية (المسابقة) يهدف إلى إبعاد بعض العناصر التي لم تكن تتجاوب مع مبادئها، و إنما جاؤوا عندها للمصلحة المادية و لأن أحزابهم لا توفر لهم هذه الفرصة.

أ- في مدرسة الثبات:

كان مدير المدرسة هو الشاعر الربيع بوشامة ، و قد تم تعينه بها، كمدرس مؤقت إلى حين إجراء المناظرة، و لم يكن سعد الله قد إشتغل بمهنة التعليم من قبل و لم يكن له إستعداد لذلك، سوى الحرص على البقاء سنة واحدة و تأمين قدر من المال و الذهاب إلى المشرق، و بالرغم من حداثة عهده بالتعليم إلا أنه كان مدرسا مجتهدا في أداء مهامه، و ربطته علاقات طيبة بإدارتها و أساتذتها و تلاميذها، يقول في ذلك: " كانت هذه المدرسة هي الأولى التي أجرب فيها حظي في التعليم و التي إرتبطت بإدارتها وأساتذتها و تلاميذها برابط لا ينسى". يضيف " كان عدد التلاميذ حوالي أربعين و لا أذكر أنني عانيت منهم أية حادثة و لم أجد من يدلّني على كيفية التعامل معهم فكنت أجتهد و أحيانا أسأل السابقين "[1] .

إلا أنه لم يطل البقاء فيها سوى أربعة أشهر، لإنتقاله بعدها إلى مدرسة التهذيب بعين الباردة، و قد حاول مديرها الشيخ الربيع بوشامة ثنيه عن الإنتقال، ذلك أنه جمعته بهذا الأخير علاقة طيبة، فكان يجالسه في كثير من الأحيان رغم صغر سنه، إلا أنّه كان مصمما على الإنتقال من المدرسة فأنتقل بذلك إلى مدرسة التهذيب في ربيع 1955م [2].

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 188.

[2]- نفسه، 193.

ب – في مدرسة التهديب:

كان مدير المدرسة هو الشيخ 'محمد الحسن فضلاء '، و كان الشيخ أيضا صديق لخال سعد الله الحفناوي هالي، و قد سبق للشيخ فضلاء التعرف على سعد الله من قبل، و بما أنه كانت تربطة علاقة طيبة بخاله أخبره بوجود مكان شاغر للتدريس بمدرسته، فقبل ذلك و إنتقل إليها يقول أبو القاسم عن ذلك " كان الشيخ فضلاء صديق خالي الحفناوي هالي رئيس لجنة التعليم العليا، و ربما كان الشيخ فضلاء يريد فعل الخير في خالي بجلبي إلى مدرسته ". و عن الشيخ فضلاء يقول سعد الله "و أما المدير محمد الحسن الفضلاء فقد كان عصري الفكر و الهندام و كان يلبس كالأوروبيين و له معرفة بالفرنسيين و كان يعتني بالمظهر الشخصى و يتكلم بشيء من الكبرياء و الإعتزاز بالنفس "[1].

و قد إنعكس ذلك على مظهر و سير المدرسة على حد قول سعد الله، فكانت المدرسة مثالية فالتنظيم و النّظافة و النشاط و الإنضباط، و في الإنسجام بين الأساتذة و النشاط الأدبي و الفني، عكس ما عايشه بمدرسة الثبات، فكانت مدرسة التهذيب متفتّحة على محيطها، حيث كانت تقام فيها حفلات في المناسبات الدينية و الفنية بمشاركة المعلمين و التلاميذ و الأولياء وقد شارك أبو القاسم في بعض من تلك الأنشطة، بشخصه و شعره سواءً أثناء وجوده معلما بها أو بعد سفره إلى القاهرة فقد كان يراسلهم بالأناشيد الوطنية و الخواطر الأدبية.

و كان الشيخ فضلاء حريص على التنظيم و السير الحسن للمدرسة، بمتابعة أعمال المعلمين و سير الدروس فيها، و قد إستفاد سعد الله كثير من تجربته في هاته المدرسة، خصوصا في كيفية إعداد دروسه، و الحرص على إشراك تلامذته فيه، و إبتكار أساليب جديدة للترغيب في التعليم، و هو الأمر الذي لم يعهده من قبل، فلعل ذلك و غيره كان دافعا له للإنتقال إلى مدرسة التهذيب للتدريس بها.

و قد أُسند إليه تدريس تلاميذ صغار في السن صباحا تتراوح أعمارهم بين سن الخامسة و السادسة، يدخلون المدرسة لأول مرة، فكانت مهمته تعليمهم مبادئ دينهم مع الحروف العربية و كيفية تكوين الجمل و بعض الأناشيد و المحفوظات، و يذكر أبو القاسم صعوبة المهمة خصوصا في الأسابيع الأولى لتدريسهم، لصعوبة التعامل مع أطفال في مثل هاته الأعمار الصغيرة أو ' الحرجة ' على حد تعبيره !! و بنفس الوقت كان

[1]– أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، نفسه، ص 194.

يحس بمعاناتهم و ظلم الإستعمار و المجتمع لهم، الذي لم يُنقذهم من براثن الإستعمار و يوفر لهم تعليما ملائما[1].

أما دروسه المسائية فكانت موجهة للكبار في أقسام حداثية تحتوي على طاولات و كراسي و سبورة، و يذكر سعد الله أنه خلال تدريسه لهاته الفئة العمرية قد لامس تجاوبا كبيرا من الطلاب خصوصا عند تناوله التاريخ الإسلامي و أحداثه و بطولاته، فكان الطلاب على إرتباط وثيق بالثورة يقارنون بين ذلك العهد و بين أحداث الثورة التي كانت على أشُدِها يقول: " و كانت الثورة على أشدها ربيع 1955م و كان بعض الشباب يبدو مرتبطا بالثورة بدليل أنهم يَدفعونني إلى التّعمق في التاريخ الإسلامي و الحديث عن شهداء الإسلام و المعارك و الأبطال، و عن نضال المسلمين الأوائل و تضحياتهم، يومها كنت مدرسا فقط لكن الآن و عندما أسترجع الذكريات فإنني أشعر لماذا كان أولئك الشباب يلحون في ذلك النّوع من الأسئلة و لسان حالهم يقول هل من مزيد ؟ !".

كما ألقى سعد الله نوعا آخر من الدروس على عامة الناس في مصلى الحي بعد صلاة المغرب، ذلك أنه كان ينوب عن المدير في إلقاء دروسه إذا تغيب، فقد كان يقدم دروسا في الفقه و الوعظ، تمثلت في مسائل فقيهه و موضوعات دينيه و أخلاقية، و معاملات، تفسير آية قرآنية ...الخ، و التطرق إلى الأوضاع العامة و مقارنتها بما كان عليه السلف. و رغم صغر سنه مقارنة بالشيوخ الآخرين إلا أنهم إنجذبوا إلى طريقته في تقديم دروسه و كسب رضاهم عنه فتكررت تلك الدروس التي يقول عنها أبو القاسم :" أنها كانت إلى حد ما محرجة لي"، سيما أن كلمة ' الشيخ الصغير' أصبحت تردد على ألسنة التلاميذ و العامة تميزاً له عن الشيخ الكبير و هو المدير أو بعض الشيوخ الآخرين[2].

2- المساهمة في الثورة بالشعر و الكتابة الأدبية:

ساهم أبو القاسم سعد الله في الثورة بالكتابة و الشعر بنشره في جريدة البصائر التي واصل النشر فيها بعدما كان يراسلها من تونس أصبح في الجزائر قريبا من مقرها و هيئة تحريرها، المؤلفة من الشيوخ' أحمد توفيق المدني' و ' أحمد سحنون'، فكان الشعر يُعرض على الشيخ سحنون، و النثر على الشيخ المدني في محاولة نشره في الجريدة، فكانت أشعاره كلها تغوص في الحالة الراهنة في الجزائر و تتماشى مع التيار القومي و الوطني

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص ص (194-196).

[2]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص ص (38-39).

فجاءت أشعاره كلها ثورية نضالية، فالثورة كانت تسري في كيانه سريان الدم في العروق، لطالما أشاد بها حتى قبل إندلاعها، و في هذا السياق كتب عدة قصائد من الشعر الحر في كفاح الشعب الجزائري، نشرها في جريدة البصائر كمساهمة منه في الثورة ، سنكتفي بها كنماذج من ثوريته بالجزائر.

كانت قصيدة " مواكب النسور" هي أول قصيدة لسعد الله بعد إندلاع الثورة، حيث نظمها بالجزائر بتاريخ 24 ديسمبر 1954م، و جاءت متأججة لهيبا، مستبشرا بالأمل لتغير الأحوال و تحقيق النصر ، مما جاء فيها:

...وفم الاله مردود

لا لن تبور

تلك المراكب والنذور

******

و الشعب يسبح في الدموع

و البؤس يحتطب الجمـــــوع

و المبدأ الاسمـــــــى صـــــــــريع

بين المخـــــــالب و النجـــــيع

و القحة السوداء خابية النجوم

و السوط يلتهب الجســـــــوم

إلى أن يقول:

و الثائـــــــرون

الثائرون عل الطغاة يناضلون

و الخائنون يقهقهون ويسخرون

و يرددون:الخارجون المجرمـــــون

سيحـــاكمـــــون ويعـــدمـــــــــون

و الشعب تقهره الضرائب والسجون

******

إلى أن يقول:

و نمجد الأبطال أبطال... الكفاح

و نعيـــش للأوطـــــان آملا فســـاح

و نرى بأعيننـــا الـــــوجـــــوه

نشـــــوان مبتســـم الحـــــدود

وا لمواكب الوطني خفاق البنود

يهتز بالأحرار... أشباه الأسود[1]

و جاءت قصيدته ' طريقي' مفعمة بروح النضال و التحرر معبرة عن نزعة التحدي و إختيار طريق النضال:

سوف تدري راهبات وادي عبقر

كيف عانقت شعاع المجد احمر

و سكبت الخمر بين العـــــالمين

خمر حب وانطلاق ويقـــــــين

و مسحت اعين الفجر الوضيئة

إن هـــذا هـــــو دينـــــي

فاتـــبعـــــوني او ادعـــــوني

في مـــــروقـــــــي....

فقـــد اخـــــترت طريـــــقـــي !

[1]- أبو القاسم سعد الله، الزمن الاخضر، المصدر السابق، ص ص (119-121).

يـــــــا رفيـــــقي

و طريـــــقي كالحيـــــاة

شائك الاهداف مجهول السمات

عاصف التيار وحشي النضال

صاخب الأنات عربيد الخيال

كل ما فيه جراحات تسيل

و ظلام و شكـــاوي و وحول

تتـــراءى كطـــــيوف

من حتـــــوف

في طريقـــــــي

يا رفـــيـــقـــي[1]

و في قصيدة أخرى عنوانها ' احتراق ' ضمنها حبه الشديد لشعبه و وطنه يقول في بعض أبياتها:

أيا شعب أنت وجودي وشعري

و إيماني الفائض المستراق

و أنت الكيان الذي لن يذوب

إذا ما الوجود عراه المحاق

أحالك – ظلما- زمان بغي

جحيما يفوح بلحم الرقاق

و لسنا نؤمل غير انعتاق

[1]- أبو القاسم سعد الله ، الزمن الاخضر، المصدر السابق، ص ص (144-145).

يعيدك خلدا، نعيمك يغري[1].

ثالثا– نشاطه بالقاهرة (1955–1960م):

لقد كان الطلبة الجزائريون بالمشرق عموما و القاهرة خصوصا يشكلون شريحة هامة في الجالية الجزائرية، و كانوا على درجة كبيرة من الوعي السياسي، لأن معظمهم قد عانوا من ظلم الاستعمار الفرنسي قبل خروجهم من الجزائر، فإذا كان زملاؤهم الدارسون في المدارس الفرنسية قد لا يحسون بنفس المعاناة الثقافية، فإن طلبة القاهرة كانوا يحسون بمعاناة مضاعفة لأنهم كانوا مقتنعين أن الإستعمار هو الذي تسبب في غربتهم ضد ثقافتهم العربية الإسلامية، و سرق منهم هويتهم الوطنية، لذلك كانوا غير متسامحين مع الذي يتسامح مع الإستعمار و لو ثقافيا.

و بالرغم من الحياة الساسية الصاخبة التي كانت تعيشها، و كذا معايشة الطلبة اليومية للكثير من المشاكل، إلا أن التنظيم الطلابي تأخر بعض الشئ مقارنة بالطلبة الذين كانوا يدرسون في بلاد الشام الذين تمكنوا من تأسيس ' لجنة الطلبة الجزائريين 1955م '، و لعل مرد ذلك التأخر إلى قوة النظام المصري بزعامة جمال عبد الناصر، و تمسكه الشديد في زمام الأمور، و تخوفه من تعدد العمل النقابي و السياسي بين الطلبة الذين كان يرغب أن يبقوا تابعين لأطروحاته القومية و زعامته الشرق أوسطية[2].

و للإهتمام بهذه الوضعية الإجتماعية خصوصا مع تزايد عدد الطلبة، إثر إندلاع الثورة و تطورها، و تعرضهم لمضايقات من طرف السلطات الإستعمارية بالجزائر، لجأ الطلبة إلى تكوين هيئة تنظيمية خاصة بهم تجمع شملهم و تساعدهم على حل مختلف المشاكل التي يعانون منها، و في هذا الإطار إنصّبت مساعي الطلبة، إلى إنشاء ' رابطة الطلبة الجزائرين بمصر' اوت 1956م، و تم تشكيل لجنة الإنتخابات التي تمت بمقر الربطة الفلسطينية التي كان يترأسها ياسر عرفات، الذي بدوره دعم صندوق الطلبة بأول مبلغ مالي تَضامنا معهم، و قد أنتخب لمنور مروش رئيساً لها.

و لعل عامل إندلاع الثور كان له الأثر الإيجابي في بروز و تفعيل النشاط الطلابي بمصر، بالإضافة إلى أن التنظيمات الطلابية بأرض الوطن أو في فرنسا لم تكن أخبارها و نشاطاتها اتجاه الثورة التحريرية بعيدة عن

[1]– أبو القاسم سعد الله ، الزمن الاخضر، المصدر السابق،، ص ص (131–132).

[2]– أحمد ميروش، المرجع السابق، ص 252.

مسامع الطلبة الجزائريين بمصر و المشرق عموما، و من دون شك فإن الإعلان عن ميلاد رابطة الطلبة الجزائرين بمصر، و التحكم في تنظيم الطلابي كان إنتصارا جديدا للثورة، التي وجدت في الطلبة السند القوي محليا و دوليا، و من ثم لم يقتصر دورهم على الدراسة و التفوق، فحسب بل تعداه ليشمل ميادين أوسع و مجالات أكبر كلها كانت في خدمة الثورة[1].

و نحن هنا لسنا بصدد دراسة التنظيمات الطلابية بمصر و لا نشاطاتها، بل أدرنا الإشارة إلى الظروف التي تأسس فيها أول تنظيم طلابي بالقاهرة، و هي رابطة الطلبة الجزائريين و إنضمام أبي القاسم سعد الله لها، ذلك أنه كان لهذا الأخير دور حثيث بمعية زملائه في تنشيط و دعم النشاط الطلابي بالقاهرة؛ فيكف ساهم أبو القاسم سعد الله في النشاط الطلابي بالقاهرة؟

1- : نشاطه في رابطة الطلبة الجزائريين ثم الاتحاد العام للمسلمين الجزائريين:

بعد تأسيس الرابطة لم يتوان أبو القاسم سعد الله في الإنضمام إليها و تدعيم ركائزها بمجموعة من النشاطات رفقة ثلة من الطلبة الذين كانوا يدرسون بالقاهرة، فإلى جانب دراستهم كانوا يشاركون بالعديد من النشاطات لصالح التعريف بالثورة و دعمها، إذ يقول سعد الله عن ذلك " أصبحت الثورة الجزائرية قضية كل مثقف عربي في مؤسسات التعليم التي يتواجد بها الطلبة الجزائريين، بعد أن أخرجوها من حيزها الإقليمي إلى الدولي، و أصبح نادي طلبة المغرب العربي بالقاهرة المقر الرئيسي لرابطة الطلبة الجزائريين و كان يعج بالقضايا الفكرية و السياسية خدمة للثورة الجزائرية"[2].

و قد أسندت لسعد الله فيها مسؤولية رئاسة اللجنة الثقافية حيث شارك بإسم الجزائر بعدة نشاطات، و في شهادة لأحد رفقائه عن سعد الله يقول فيها: " الشخص الوحيد الذي كان يحمل هموم الجزائر و هو طالب في كل الندوات و اللقاءات الطلابية و المحاضرات لابد من أن تجد سعد الله مساهما خطيبا" [3]. و من تلك النشاطات:

---

[1]- بغداد خلوفي، "نشاط الطلبة الجزائريين بالشرق العربي اثناء الثورة التحريرية رابطة الطلبة الجزائرين بالمشرق انوذجا"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، 8 ديسمبر 2013. ص 45.

[2]-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج8، المرجع السابق، ص 280.

[3]- مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص 243.

أ- إعداد النشرة الطلابية:

عملت اللجنة الثقافية إلى إنشاء مجلة حائطية بإسم الطالب الجزائري و هي نشرة توعوية لتعريف بالقضايا الوطنية الأدبية و الفكرية، ضمت النشرة في أعدادها عددا هاما من الأبحاث و المقالات و القصص و القصائد الشعرية و الملصقات...الخ. و بالرغم من تواضع الإمكانيات التي وضعت تحت تصرف الطلبة، بالإضافة إلى ظروفهم المادية الصعبة، إلا أن اللجنة الثقافية تمكنت من إصدار حوالي ثلاثة أعداد من هذه النشرة، و حققت نجاحا هاما في التوعية الطلابية للثورة و النشاط الطلابي بصفة عامة، و كان أبو القاسم سعد الله من المساهمين فيها بمقالات و قصائد شعرية، و كذا السهر على تصحيح الكتابات المقدمة لنشرة رفقة أعضاء اللجنة الثقافية التي تضم كل من : أبو طالب اليعقوبي، يحي بوعزيز[1]، احمد فريحة...وغيرهم[2].

كما عملت اللجنة في هذا الخصوص على إعداد مناشير توزع على الطلبة لتّعريف بالقضية الوطنية، و هو ما قام به سعد الله حين قام بأعداد منشور عن الجزائر، تضمن بيان بإسم الطلبة بعنوان ' ما يجب أن تعرفه عن الجزائر' في حوالي 5000 نسخة، تضامنا مع حادثة إختطاف الطائرة و إعتقال الزعماء الخمسة، و قد إستشار في كتابته أحمد توفيق المدني، و قام بتوزيعه بنفسه في شوارع القاهرة، و في المؤتمر الذي عقده الطلاب العرب في دار نقابة الصحفين[3].

---

[1]- **يحي بوعزيز(1929-2007م)**: مؤرخ جزائري، ولد بقرية الجعافرة التابعة لبرج بوعريريج ، تلقى تعليمه الأول على يد والده الحاج عبد الرحمن، التحق بجامع الزيتونة وتحصل منها على شهادتي الاهلية و التحصيل، ثم سافر إلى مصر سنة 1957م، وسجل بقسم التاريخ جامعة القاهرة حيث تحصل على شهادة ليسانس سنة 1962م، بعد الاستقلال تولى مهنة التدريس بجامعة وهران بقسم التاريخ، وسجل أيضا للحصول على شهادة الدكتوراه، التي تحصل عليها سنى 1976م، تولى عدة مناصب و مسؤليات، و شارك في ندوات علمية وثقافية عديدة و له العديد من الدراسات التاريخية و البحوث العلمية، توفي عن عمر ناهز 78 سنة للمزيد حوله انظر:خير الدين شترة، معجم أعلام الجزائر، المرجع السابق، ص ص (225-227).

[2]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج2، المصدر السابق ص ص (260-262).

[3]- نفسه، ج1، ص 211.

ب- الندوات و المحاضرات:

إلى جانب تأسيس نشرة إعلامية تهتم بقضايا الطلبة، نَشط أبو القاسم سعد الله في العديد من الندوات و المحاضرات، التي كانت تقام في مقر الرابطة – نادي المغرب العربي- و ذلك بدعوة العديد من الوجوه السياسية و الفكرية لإلقاء محاضرات أو إحياء أمسيات شعرية تتمحور جميعها حول الجزائر و ثقافتها، و قد حرص سعد الله على أن يكون في مقدمة المدعوين مناضلون جزائريون، الذين كانوا يتوافدون على مقر المكتب السياسي أو الثقافي في القاهرة من أعضاء الحكومة المؤقتة الجزائرية.

فبعضويته في اللجنة الثقافية، مكنّه ذلك من نسج علاقات بالقادة السياسين لجبهة التحرير الوطني الذين كان يلتقيهم مراراً من أمثال: إبراهيم مزهودي، و عبد الرحمن مهري، و محمد الغسيري، و العباس بن الشيخ الحسن،..الخ، و تعرف على بعضهم أيضا بالقاهرة من أمثال خيضر و فرحات عباس[1] و أحمد فرنسيس و الأمين دباغين وحسين الاحول، و ابن خدة و كريم بلقاسم و عبد الحفيظ بوصوف ...الخ. يقول في هذا الشأن " كثيرا ما كنت ألتقي بأعضاء الوفد الخارجي لجبهة التحرير... و قد حضرت إعلان الحكومة المؤقتة

[1]- **فرحات عباس (1899- 1985م)**: سياسي جزائري و زعيم وطني، ولد بمنطقة بني عافر التابعة إداريا لبلدية الطاهير ولاية جيجل، التحق بالمدرسة الابتدائية الفرنسية في مسقط رأسه وانتقل بعدها إلى المدرسة الثانوية في مدينة سكيكدة، ثم التحق بجامعة الجزائر حصل منها على شهادة البكالوريوس في الصيدلة عام 1931م، انتخب رئيسا لجمعية الطلاب المسلمين لشمال إفريقيا بين (1927- 1931كما التحق بفيدرالية النواب المسلمين الجزائريين التي كونها الدكتور بن جلول سنة 1930 ، و في مارس 1944 أسس أحباب البيان و الحرية وبعد حله اسس حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري 1946، في أفريل 1956 حل فرحات عباس حزبه و انضم إلى صفوف جبهة التحرير الوطني في القاهرة ، و بعد مؤتمر الصومام عين عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ، ثم عين رئيسا للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية (19 سبتمر 1958- أوت 1961)، تمّ إنتخابه عند استقلال الجزائر رئيسا للمجلس الوطني التأسيسي الا أنه لم يلبث أن إستقال، ليسجن بعدها و يوضع تحت الاقامة الجبرية مرتين في عهد الرئيس بن بلة و الرئيس بومدين ، ليعتزل بعدها الحياة السياسية توفي الجزائر عن عمر ناهز 86سنة. للمزيد أنظر: خمري الجمعي، فرحات عباس من الجزائر فرنسية إلى الجزائر جزائرية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الحركة الوطنية، قسم التاريخ و الآثار، جامعة منتوري قسنطينة، 2007/2006 ، ص 2 وما يليها.

التي تشكلت برئاسة فرحات عباس في فندق الكونتينتال بالقاهرة، و التقيت بكل أعضائها و زارنا في النادي وفد جبهة التحرير و أخذنا معه الصور الجماعية "[1].

و بعضهم كانت تربطه بهم علاقة خاصة جدا وصلت حد المرافقة في كثير من النشاطات و الزيارات إلى السينما و النوادي على غرار الشيخ الإبراهيمي و توفيق المدني، عن الشيخ البشير الإبراهيمي يقول: " نزلت عند الشيخ الإبراهيمي ضيفا غير مرغوب فيه، دون سابق إشعار و بلا مقدمات دخلت عليه البيت (المكتب) لكنني عرفت الرجل بعد حين و أصبحنا لا أقول اصدقاء معاذ الله، لكن شئ من هذا فكان يناديني (سعد السعود)"[2]. و عن المدني يقول: " حين حل الشيخ بالعاصمة المصرية أصبحت أراه عدة مرات في الأسبوع، و ما يمنعني من لقائه إلا سفره إلى الخارج أو حلول موسم الإمتحانات، و خلال لقائنا كان يحدثني عن أمور بينه وبين بعض أعضاء وفد جبهة التحرير و بينه و بين الطلبةـــ و كنت من جهتي أحضر بعض نشاطه الإعلامي و السياسي و أتجول معه في شوارع القاهرة و أشاهد معه بعض الأفلام "[3].

فكان هؤلاء و غيرهم، يتم إستدعاؤهم لإلقاء محاضرات للطلبة في نادي المغرب العربي، و كان أبو القاسم سعد رفقة أعضاء اللجنة الثقافية يقومون بكل الترتيبات اللازمة لإنجاح المحاضرات، من دعوات و إعلانات و تجهيز للقاعة، و أخد التصريح من السلطات المصرية...الخ. و غالبا ما كان سعد الله من منشطي الندوات بتقديم المحاضرة و ختمتها، و كانت المحاضرات التي تلقى عادة ما يرتكز موضوعها حول قضايا الإستعمار و الثورة الجزائرية. و فيما يلي بعض النماذج من المحاضرات التي ألقيت بمقر النادي[4]:

عنوان المحاضرة	المحاضر
نظرات في تاريخ الجزائر العثمانية	توفيق المدني
نظرية الحضارة	مالك بن نبي
سياسة ديغول في الجزائر و مواقف الثورة	عدة بن قطاط
دور المرأة الجزائرية في الثورة	بوعلام الصديق
رسالة الطالب	إبراهيم مزهودي

[1]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 127.

[2]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج1، المصدر السابق، ص ص (12-13).

[3]- نفسه، ص 12.

[4]- عمار هلال ، نشاط الطلبة الجزائريين إبان حرب التحرير 1954م، الجزائر: دار هومة، 2004، ص 78.

كما أسهم أبو القاسم سعد الله أيضا إلى جانب بعض الطلبة بالمشاركة في هاته المحاضرات ببعض المواضيع، من أمثال يحي بوعزيز، الجنيدي خليفة، ابراهيم غافة، صالح خرفي[1]... الخ. وفيما يلي بعض النماذج من المحاضرات التي القاها الطلبة[2]:

عنوان المحاضرة	المحاضر
أحمد رضا حوحو و مميزاته	أبو القاسم سعد الله
محمد العيد آراؤه وتجاربه	أبو القاسم سعد الله
جبهة الثقافة في الجزائر	إبراهيم غافة
الأمير عبد القادر	يحي بوعزيز

كما كانت اللجنة تستضيف من حين لآخر أعلاما في الفكر و الثقافة إلى النادي، منهم الناقد أبو مدين الشافعي، و الأستاذ عبد القادر القط، هذا الأخير الذي أشرف على ندوة لشعراء الطلبة الجزائريين، و الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي الذي القى قصيدته الشهيرة ' أوراس' و غير ذلك من الضيوف و الأنشطة، التي كانت تخدم الثورة في أبعادها الثقافية و الفكرية و الإعلامية[3].

و حرصت اللجنة أيضا على الإحتفال بالمناسبات المخلدة لذكرى الثورة المجيدة، كما هو الحال في إحتفالهم بالذكرى الثالثة لغرة أول نوفمبر1957م، بمقر الشبان المسلمين بالقاهرة، و كان الإحتفال برعاية جبهة التحرير الوطني، هذا الإحتفال الذي حضرته بعض الشخصيات المصرية كالشيخ عبد اللطيف دراز أحد

[1]- **صالح خرفي (1932-1998م):** شاعر و باحث جزائري، ولد بالقرارة بوادي ميزاب، تتلمذ في إحدى مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، و بالمدرسة الإبتدائية " الحياة" ، ثم انتقل الى تونس ليلتحق بجامع الزيتونة و المدرسة الخلدونية، ثم إلتحق بكلية الآداب بجامعة القاهرة، أين حصل منها على شهادة الماجستير و شهادة الدكتوراه، شغل بعد الاستقلال منصب مسؤول العلاقات الثقافية بين الجزائر و البلاد العربية في وزارة التربية الوطنية. كما شغل منصب أستاذ سنة 1964م في معهد اللغة و الأدب العربي بجامعة الجزائر، ثم رئاسة المعهد من سنة 1971 إلى سنة 1976. تقلد عدة مسؤوليات ثقافية في كل من تونس والقاهر ، كما شارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات الشعرية في الوطن العربي، للمزيد أنظر مصطفى بيطام، الثورة الجزائرية في شعر المغرب العربي، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 1998م.

[2]- عمار هلال، المرجع السابق، ص 78.

[3]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي،ج8، المصدر السابق، ص 289.

اعيان مشيخة الأزهر الشريف، إلى جانب حضور الشيخ أحمد الشرباصي، الذي ألقى كلمة قيمة أشاد فيها بدور الشيخ البشير الإبراهيمي، كما حضر مسئولون من الجبهة منهم يوسف بن خدة ، محمد خيضر، و أحمد توفيق المدني[1].

و قد أسهم سعد الله في المناسبة، بقصيدة بعنوان "شعارات"، عبر من خلالها على تحول الجزائر و خروجها من مرحلة القنوط و اليأس إلى مرحلة التحدي و الثورة و الإعتماد على الذات و مما جاء فيها:

إن أهلي عرب الأطلس ثاروا

بالســـــنين الماضـــــــية

بالســـــياط الـــدامـــــــية

بالنـــداءات التي ترجـــو الإله

قـــوت يـــوم و جـــــزاء

و تلـــوا في روعـــة مجـــنونـــــة

و أعدوا أن يوم البعث جـــــــاء

أن أهلي عرب الأطلس ثاروا

عبر وهران التي تصنع مجـــــدا

و قسنـــــطين التي تحفـــر لحدا

و تعب النصر من نبع الصباح[2]

و شارك أبو القاسم سعد الله ايضا بإسم الجزائر، في التظاهرات الفكرية و الثقافية، التي كانت تعقدها الهيئات الطلابية العربية المتواجدة بمصر، و هو ما قام به في اليوم الثاني من الإحتفال الذي اقيم للإحتفال بالذكرى الثالثة لثورة الجزائرية، و التي قامت بتنظيمه' الرابطة الطلابية المغربية '، اين القى فيها عدد من الوفود العربية كلمات باسم بلدانهم منهم الشاذلي زوكار الذي ألقى كلمة باسم طلاب المغرب العربي، ثم القيت كلمات وفود كل من سوريا و العراق و فلسطين.

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم ، ج2، ص ص (237-238).

[2]- أبو القاسم سعد الله، الزمن الأخضر، المصدر السابق، ص 237.

أما كلمة الجزائر فقد القاها مؤرخنا، ابرز فيها علاقة الطلبة بالثورة ومناصرتهم للقضية الجزائرية، و مما جاء في تدخله " أيها الاخوة... عندما نحتفل اليوم بذكرى ثورة الجزائر، لا نحتفل بها كجزائريين، و لا نحتفل بها كمغاربة و إنما نحتفل بها كعرب يؤمنون بعدو واحد و هدف واحد و وطن واحد... إننا نحتفل بها كعرب لأن الثورة في الجزائر لم تكن في يوم من الأيام إلا عربية صميمة نابعة من قلوب الملايين العربية المتمردة معبرة عن آمالها في الوحدة و التحرر و مجسمة للإرادة العربية التي لا تقهر مهما طالت بها السنون و تكاثفت من حولها السحب..... إن الطالب الجزائري في فرنسا وفي الوطن العربي وفي الجزائر نفسها قد ساهم مساهمة إيجابية في سبيل دفع الثورة إلى القمة وفي سبيل بناء الجزائر بناءا ثوريا منتجا و الطالب الجزائري اليوم أحد رجلين فهو إما يخوض المعركة الوطنية السياسية و العسكرية ، و إما جندي إحتياطي ينتظر الإشارة بين الحين و الآخر، و لذلك فنحن الطلبة نعلن بكل تواضع و تقدير مسؤولياتنا أننا نعتبر أنفسنا تحت السلا ، و أننا لن نتخلى في أداء رسالتنا المقدسة التي يطلبها منا وطننا المناضل...."[1].

و بإسم الجزائر أيضا، شارك في ندوه شعرية نظمها ' نادي رابطة الطلبة الفلسطينين' ، بقصيدة بعنوان " الطين"، و من الطريف في هاته الندوة أنه عندما شرع في إلقاء قصيدته انطفأ النور، و عندما عاد قال لهم سعد الله " لابأس فإن الجزائر ما تزال تعيش في ظلام تصارعه و ستخرج منه ظافرة قريبا "[2]، فكان لهاته الكلمات وقع كبير على الحضور في القاعة، و كان لها صدى واضح في نفوس الطلبة جميعا، فعند الإنتهاء من إلقاء القصيدة بادره الجميع بالتّحية و الشكر، و مما جاء فيها:

يا أخي الضارب في دنيا الكفاح

أيها الساخر من عصف الريـــــــاح

يا ابن أمي، أيها الدامـــي الجـــراح

اصطبر، وابشر بإشـــــراق الصباح

فالغد المنشـــــود خفـــــاق الجنـــاح

***

[1]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج2، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص ص (223-224).
[2]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم ، ج2، ص 240.

يا أخي الرابـــــض في تلك البــطاح..

إنـــك اليـــوم سفـــيـــر الفـــلاح

حـــولـــك الأمـــة آمـــالا فســـاح

فخذ الحـــق اغتصـــابا واكتساح

أيهـــا الرابـــض في تلك البطـــاح ..

و في إطار التّعبئة القومية للشباب، نظمت الجامعة المصرية ' أسبوع شباب الجامعات ' الذي عقد بالإسكندرية، شاركت فيه جموع الطلبة من مختلف البلدان، بهدف التعبئة القومية والإستعداد النفسي لتأميم قناة السويس الذي سيعلنه جمال عبد الناصر[1] في خطابة التاريخي يوم 1956/7/26مـــ وهناك القى سعد الله كلمة عن الجزائر وقصيدتين[2]، كانت إحداها بعنوان ' العمالقة '، جاء فيها:

بحق الزائدين عن التراب

و من رفعوا اللواء إلى السحاب

و حق الشعب منتفضا جموعا

يرود النصر في قمم الروابي

لقد بعث الجزائر من جديد

---

[1]– **جمال عبد الناصر (1918–1970م)**: زعيم مصري، و من أبرز الشخصيات السياسية في الشرق الاوسط، ولد بمحافظة الإسكندرية، تلقى تعليمه بالقاهرة و الإسكندرية ليستقر تعليمه الثانوي بالإسكندرية، بعدها التحق بالكلية الحربية سنة 1937م، و تخرج منها ليعمل ضابطا في سلاح المشاة، ليرتقي بعدها الى عدة رتب في الجيش المصري، كان جمال عبد الناصر احد الضباط ثورة يوليو عام 1952، و التي على أثرها تمت الإطاحة بالملك فاروق، شغل جمال عبد الناصر بعدها منصب نائب رئيس الوزراء في الحكومة الجديدة و من بعدها وصل إلى الحكم في عام 1956م و ذلك عن طريق وضع الرئيس محمد نجيب تحت الإقامة الجبريّة بسبب تصاعد الخلافات بينه وبين مجلس قيادة الثورة، وتولّى منصب رئيس الوزراء و من ثُم منصب رئيس الجمهورية من خلال استفتاء شعبي تم إجراؤه في 24جوان1956م، و قد أصدر خلال حياته السياسية العديد من القرارات الهامة كان أبرزها تأميم قناة السويس عام 1956، و إعلان الوحدة مع سوريا عام 1958، ومساندته حركات التحرر العربية و الافريقية وغيرها، للمزيد أنظر : محمد راجح: جمال عبد الناصر، مصر: دار الصفا لتوزيع والنشر، (د،س)، ص 6وما بعدها.

[2]– أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج1، ص ص (125–126).

علامة على الضم الصلاب[1].

جـــ- التطوع في جيش التحرير:

أمام اتساع الثورة، و إزدياد احتياجاتها لمتطوعين في جيش التحرير، لجأ مكتب جبهة التحرير لطلب السند من الرابطة، بغية تجنيد و فتح قائمة لتطوع في جيش التحرير، إذ يذكر أحمد توفيق المدني أن العقيد أوعمران، إتصل به في القاهرة و طلب منه تجنيد عددا من الطلبة المتطوعين بغرض تعزيز صفوف الثورة، و قد لبّى الطلبة هذا المسعى بأعداد كبيرة، إلا أن العقيد أوعمران إختار منهم 20 طالبا فقط بهذا الخصوص. و لو فتحت الثورة الباب على مصرعيه لإنخرط كل الطلاب في جيش التحرير و لما بقى طالب واحد في الجامعات، إلا أن جبهة التحرير كانت تدرك جيدا حاجة الجزائر لمثقفيها و تكوين إطارات جزائرية للمرحلة الإنتقالية، و بالرغم من ذلك و بمبادرة شخصية منهم تطوع بعض الطلاب و التحقوا بصفوف جيش التحرير الوطني[2].

و قد إستجاب أبو القاسم سعد الله لمسعى الثورة، عند إشعار الجبهة لهم إحتياجها لتعزيز صفوف الثورة، إداريا و إعلاميا و عسكريا، فالبرغم من شغفه الكبير بالدراسة و النجاح إلا أن تلبية نداء الثورة كان أولى من أي شئ آخر، فمثلما كان إهتمامه بالعمل الثقافي لتعريف بالثورة كان إهتمامه اكبر بتلبية نداء الثورة العسكري و العمل في صفوفها، إذ يذكر أنه إقترح نفسه للممثل القيادة العسكرية للعقيد أوعمران و سجل نفسه في قوائم المتطوعين، يقول عن ذلك: " ....هذا و قد كتبت إسمي في قائمة المتطوعين في جيش التحرير إذ دعا الداعي"[3].

و إيماناً منها بدور الطالب، حرصت القيادة على إختيار قوائم المتطوعين بدقة، خاصة الراسبين في دراستهم، و لعل نجاح مترجمنا بعلامات جيدة في كل سنة، و نشاطه الثقافي بالرابطة، لذلك آثرت القيادة تركه يواصل دراسته، أو ربما كان بسبب الكسر الذي تعرض له في يده سنة 1945م، عشية ذهابه لزيتونة، سيما و أن تجنيد الطلبة في جيش التحرير كان يخضع لجملة من الشروط منها الفحص الطبي. و مهما كان الأمر فإن سعد الله كان دائما على إستعداد لتلبية نداء الثورة و خدمتها تحت أي ظرف[4].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، الزمن الاخضر، المصدر السابق، ص 207.

[2]- عمار هلال، المرجع السابق ص 79.

[3]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج2، المصدر السابق، ص 82.

[4]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، 81.

– نشاطه في إطار الإتحاد العام للمسلمين الجزائرين:

لم يكن من السهل على الرابطة الإنضمام إلى الإتحاد ع.ط.م.ج ، فأعضاء الرابطة كانوا يرون أنفسهم أولى من زملائهم قادة الإتحاد العام بقيادة الحركة الطلابية المناضلةـــ و تمثيل القضية الجزائرية، لأن القضية في نظرهم تعني تحقيق الهوية الثقافية للجزائر بينما لا تمثل قيادة الإتحاد العام بتركيبتها البشرية و بآرائها تلك الهوية، و قد كان غالبية أعضاء الرابطة من الفئات الشعبية المحرومة و هي نفس الفئات التي خرجت منها قيادة الثورة الأولى.

و يبدو أن وزارة الثقافة المسؤولة عن الطلبة لم تكن لتسمح بوجود تنظيمين طلابين في وقت تتوحد فيه الجهود لتوحيد الصفوف دفاعا عن القضية الوطنية، و بعد فشل كل المساعي و الجهود لوحدة الصف، تدخل أعضاء من الحكومة المؤقتة طالبين من أحمد توفيق المدني، الذي كان وزير الثقافة بالحكومة المؤقتة، و مشرفا على شؤون الطلبة، و ضع حد للخلاف، فإستطاع بحنكته و دبلوماسيته إقناع طلبة المشرق بحل رابطتهم و الإنضمام إلى الإتحاد، فقبلوا إقراحه، بعد قطعه وعودا بأن الحكومة تتعهد بعقد مؤتمر جامع خلال عام 1960م، يحضره ممثلون شرعيون من كل مكان يتواجد فيه الطلبة الجزائريون.

و هكذا تم توحيد الحركة الطلابية الجزائرية عبر جميع أنحاء العالم تحت لواء الإتحاد، وكان المؤتمر الرابع الذي أنعقد بتونس في شهر جويلية 1960م، بالفعل مؤتمرا حاسما لبداية و تأكيد هذه الوحدة، فقد حضره ممثلون عن طلبة جامعات المشرق العربي (مصر ، سوريا، الكويت، العراق)، بالإضافة إلى ممثلي كل فروع الاتحاد عبر العالم[1].

و قد مثل أبو القاسم سعد الله فرع مصر بالمؤتمر الرابع بتونس رفقة كل من عيسى بوضياف، و محمد بلعيد، و يوسف فتح الله، و احمد فرجاج يقول أبو القاسم عن ذلك " لقد تنقلنا لحضور هذا المؤتمر برًا، على ظهر شاحنة مفتوحة على الهواء الطلق، و كان الطريق من مصر إلى تونس عرضة لرياح الشديدة و الشمس المحرقة، و على اية حال حضرنا هذا المؤتمرـــ و أملك إلى الآن كراس وقائعه "[2]. و يؤكد أبو القاسم على نجاح المؤتمر، حيث تحقق خلاله التفاهم و الإتفاق بين الطلاب الجزائريين بكل فروعهم، و فكت العقدة التي

[1]– بغداد خلوفي، المرجع السابق، 49.

[2]– مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 60.

كانت بينهم، من أن هؤلاء من المغرب و هؤلاء من المشرق و أولئك من أروبا، و بذلك حدث نوع من الإندماج بين جميع الطلاب.

و في إطار الإتحاد كان الطلبة في كل مرة ينتخبون سعد الله لتولي الشؤون الثقافية سواء قبل الإتحاد أو بعده، حيث واصل عمله في دعوة، المحاضرين من رجال السياسة و الثقافة بالجزائر في مقر النادي الذي أصبح مركزا ثقافيا يعج بالطلبة للاستماع للمحاضرات التي كانت تبرمج وعادة ما كانت تلك النشاطات تتوج بجمع التبرعات و كذا حملات التضامن الجماهيري مع الثورة التحريرية.

هـــ-: نشاطه في مصالح جبهة التحرير بالقاهرة:

" تجدر الإشارة هنا أن كل نشاطات الطلبة الجزائريين كانت تتم أليا بإسم جبهة التحرير الوطني، بإعتبار أن كل الطلبة هم أعضاء في رابطة الطلبة الجزائريين بالمشرق ثم الإتحاد"، حيث عمل أبو القاسم سعد الله في مصالح جبهة التحرير، بالخصوص في مصالح وزارة الثقافة، كضارب على الآلة الراقنة، بعد تخرجه و حصوله على شهاد ليسانس سنة 1959م، حيث كان قد أخذ دروسا من قبل في الرقن على الآله الكاتبة التي يقول عنا " أنها كانت تعادل تعلم إستعمال جهاز الكومبيوتر حاليا"، و كان يرقن حوالي سبعين كلمة في الدقيقة.كما إشتغل بالمكتبة التابعة، للحكومة المؤقتة و التي كانت تضم بالخصوص الكتب المهداة إليها.

و كان عمله بمصالح وزارة الثقافة أن مكنه من التعامل و رؤية العديد من الوزراء يقول في ذلك " كان للحكومة المؤقتة مقر في جاردن سيتي، و بعد إنتقالها إلى تونس بقى مقر القاهرة تحت تصرفها حيث تعمل مختلق مصالحها و بعض وزرائها في المشرق، و لي في هذا المقر ذكريات حيث كان لي مكتب في مكتبة الحكومة، و كان تعاملي مع الشيخ أحمد توفيق المدني و الشيخ عبد الحكيم بن الشيخ الحسين، و الأستاذ عبد العزيز بن حسين و بوزيان التلمساني... أما الوزراء الآخرون فقد كنت أراهم داخلين أو خارجين و لكن ليس لي علاقة معهم أكثر من التحية "[1].

و كان أبو القاسم سعد الله قد حضر إعلان الحكومة المؤقتة في سنة 1958م، في فندق الكونتنتال، و أخذ صورة مع طاقمها الحكومي المؤَلَّف من كريم بلقاسم، أحمد بن بلة، الأمين دباغين، محمد يزيد، أحمد

[1]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص127.

توفيق المدني، محمود الشريف، عبد الحميد مهري[1]، بن يوسف بن خدة، لخضر طوبال. يقول في ذلك " من تاريخ حياتي في القاهرة الذي لا ينسى حضوري إعلان الحكومة المؤقتة في فندق الكونتنتال بساحة إبراهيم باشا حاليا، و قد حضر أيضا بعض الطلاب الآخرين و كذلك الصحافة المصرية و الدولية"[2].

2-: التطوع في جيش التحرير المصري لرد العدوان الثلاثي على مصر:

بفعل الرغبة الثورية و نصرته لقضايا العرب و المسلمين، و كرد فعل لجميل مصر لدعمها للثورة و كذلك لإحتضان الطلبة الجزائريين، تجند أبو القاسم سعد الله رفقة مجموعة من الطلبة يوم 1نوفمبر 1956م، لدفاع عن مصر، بعد التعليمات الصادرة من جبهة التحرير إلى الرابطة بالتطوع في المقاومة الشعبية لرد العدوان الثلاثي على مصر (بريطانيا- فرنسا-اسرائيل)[3].

دخل سعد الله ميدان التدريب العسكري في الساحة الملحقة لنادي الشبان المسلمين، و عند بدئ العدوان وزِّع الطلبة على مؤسسات و شركات و نقاط معينة للحراسة ليلا في ساعات محدد لكل شخص، و قد شارك سعد الله كذلك في الحراسة حيث كان نصيبه منها شارع سليمان باشا (طلعت حرب اليوم)، مدتها ساعتين و قفهما بالسلاح حارسا (من الساعة السادسة إلى الثامنة مساء)، و قد حاول الطلبة الجزائريون المتطوعون تشكيل فرقة أو لواء في جيش التحرير المصري، إلا أن قيادة الجيش المصري لم تسمح بذلك[4].

و بالرغم من وقف القتال و إنسحاب العديد من المتطوعين من التدريب إلا أن أبو القاسم واصل تدريبه على أنواع المقاومة الشعبية، و واضب على حضور التدريبات العسكرية بنادي المعلمين بالقاهرة، فمن جملة ما تدرب عليه القيام بحركات رياضية عسكرية، و الجري و الرمي بالرصاص من البنادق السوفياتية

---

[1]- **عبد الحميد مهري (1926-2012م)**: ولد عبد الحميد مهري بسكيكدة، انخرط في صفوف حزب الشعب الجزائري وحركة انتصار الحريات الديمقراطية ، بعد مؤتمر افريل 1953 أصبح عضوا في اللجنة المركزية اعتقل في نوفمبر 1954وأطلق سراحه في 1955 والتحق بالقاهرة ومن هناك أرسل الى دمشق في جويلية 1955 كممثل دائم لجبهة التحرير وفي 1958 عين في الحكومة المؤقتة الجزائرية كوزير لشؤون المغرب ،مثل الحكومة في في 1958 في ندوة طنجة وبعد الاستقلال تقلد عدة مناصب ،كوزير للإعلام وسفير في باريس 1984ثم امين عام جبهة التحرير الوطني من اكتوبر 1988 الى 1996.ينظر: شرفي عاشور،قاموس الثورة الجزائرية(1954-1962)، الجزائر: دار القصبة للنشر، 2007،ص 354.

[2]- أحمد بن نعمان، أبو القاسم سعد الله حياة و آثار، شهدات ومواقف، الجزائر: دار النعمان، 2017، ص 488..

[3]- مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص 245.

[4]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج1، المصدر السابق، ص 240.

الصنع، حيث يذكر " و قد تدربنا على الجري بإنتظام و على إطلاق النار حيث ضربت 5 رصاصات بالبندقية الروسية "[1].

و بذلك عاش أبو القاسم سعد الله تجربة جديدة في مواجهة الخطر المحدق، و التدريب عسكريا لأول مرة في حياته و لحسن الحظ أن الحرب لم تدم طويلا، بعد تدخل مجلس الأمن و وقف القتال و إنسحاب القوات، و من ثمة إستئناف الدراسة و العودة إلى النشاط الطلابي المعهود.

3- : النشاط الصحفي:

من أجل التعريف بالجزائر و ثورتها كان أبو القاسم سعد الله يكتب لمختلف المجلات و الجرائد الوطنية و العربية و عن أولى كتاباته الصحفية نجده بمجرد وصوله القاهرة حتى أخذ يرُاسل جريدة البصائر، بعد ما كان الشيخ توفيق المدني، قد حثه على مواصله الكتاب فيها، و كان هذا الأخير قد أصبح رئيس تحريرها مكان الإبراهيمي، و قد شملت مراسلاته فيها نشاط الشيخ الإبراهيمي في القاهرة، و الحياة الثقافية المصرية، و أخبار الجزائر أو ما يقال عنها في الصحف المصرية و العربية. و قد كانت البصائر تنشر مراسلاته تحت عنوان " رسالة القاهرة "، و عادة ما كان يتم نشرها في الصفحة الأولى من الجريدة[2].

و يذكر سعد الله أن إحدى مراسلاته الأولى فيها قد جلب عليه نقمة الشيخ الإبراهيمي لأنه ذكر فيها إسم المطربة ' أم كلثوم'، مما جعل الشيخ يستدعيه إلى مكتبه قائلا: " كيف تسمح لنفسك يا سعد السعود (هكذا كان يسميني) بذكر هذه المرأة في جريدة تحمل إسمي و إسم جمعية العلماء "[3] . كما أن إحدى المراسلات قد جلبت عليه نقمت الطلبة المعارضين للشيخ و المؤيدين لمكتب المغرب العربي لأنه أشاد بدور الشيخ في خدمة الجزائر كما أسلفنا الحديث من قبل، و كذا تحدثه في إحدى مراسلاته عن الوجودية، فإذا بمقالة تظهر في البصائر و هي بقلم الشيخ عمر شكري تندد بما كتبه و تذكره بما كان يحدث في الجزائر، و ما عرفه الأدب العربي من وجوديه قبل جان بول سارتر و سيمون دي بوفار.

و رغم ذلك الجدل حول مراسلاته إلا أنه لم يؤثر في تعلق سعد الله بالصحافة، و واصل كتاباته للبصائر إلى حين توقفها في أبريل 1956م. و حتى يكتسب أسلوبا علميا و فنيا في المجال الصحفي سجل في

---

[1]- مصطفي عبيد، المرجع السابق، ص 245.

[2]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج1، المصدر السابق، ص 12.

[3]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص230.

مؤسسة الصحافة العربية المصريةــ لتلقي دروسا في الصحافة، و هذا ما أكسبه خبرة أكثر في التعرف على أسرار العمل الصحفي و متاعبه و فنياته[1].

و حين توقفت البصائر، إنتقل نشاطه لكتابة في المجلات العربية منها مجلة ' العالم العربي' لصاحبها أسعد الحسني، و كانت تصدر في القاهرة ، و تهتم بقضايا المغرب العربي فكان يحرر فيها باب بعنوان ' المغرب العربي في المرآة'، و لكنه إنقطع عنها بعد بضعة أشهر، لأن التحرير فيها على حد قوله كان يتدخل لتوجيه ما يكتب، كما أن المجلة لم تكن تدفع له أتعاب ما كان يكتب فيها. و من بين المجلات الأخرى التي كان يكتب فيها نجد' الآداب البيروتية 'و ' الرسالة العراقية 'و 'الرسالة الجديدة المصرية '، الذين كان يراسلهم بقصائد شعرية و موضوعات و بحوث عن الجزائر لتعريف بأدبها و أدبائها، كجزء من حركة الكفاح ضد الإستعمار[2].

و من ضمن البحوث التي نشرها سعد الله في الآداب البيروتية و مجلة الرسالة العراقية نجد ' الأدب الجزائر مؤثراته و تياراته'، ' تصميم للشعر الجزائر الحديث'، ' الغزل في الشعر الجزائر'، ' القضايا العربية في الأدب الجزائري' و كلها تعلقت بدراسات حول الأدب الجزائري و هي مساهمة منه لتعريف به. و من بين أشعاره الثورية نجد له قصيدة نشرها في مجلة الآداب بعنوان ' المروحة' يقول فيها :

إلى كل عربي يعيش وطنه الكبير، إذاء تسعة ملايين عرب في الجزائر الناهضة

اكذا الريـــــش حريـــــر وقبل

ابيض كالقطن مياس خضل

مات فيه الحب ظمآن الامل

حـــين طاشت في الفضـــــاء

مـــــروحـــــة

و هـــو ذلك الريـــــش النـــــدي

مطـــرحـــــه

[1]- عبد الرحمن عزي، المرجع السابق.

[2]- أبو القاسم سعد الله، خارج السرب، المصدر السابق، ص 101.

و اللهيـــــب يأكـــــل الشـــــوق معه

إلى أن يقول:

سمع الكـــون ثغـــــاء وانـــــين

و دويـــــا يخـــرقـــا الاسمـــاع

يجـــــتـــــاح الســـــكـــــون

و رأى الـــــنـــــاس خـــرافا واســـود

تمـــــــضـــــــغ الحـــــقـــــد

و تـــــرقـــــاه صـــــعـــــــود !

في آخر مقطع يقول:

ما الذي أذهل حلمـــــا و أمـــومـــه

و حـــنانـــــا وطفـــولـــــــة

اهـــو الحـــقـــــد القتيـــــــل

ام هـــو الـــــريش الخـــضـــيـــل[1]

فأبو القاسم من خلال القصيدة حاول إطلاع الرأي العام العربي على واقع الشعب الجزائري في تلك الفترة، و تحدث عن أسطورة المروحة، و ما تلا ذلك من أعمال إنتقامية من الجيش الفرنسي ضد السكان العزل، و بالمقابل حاول التأكيد على شرعية الثورة الجزائرية و إزالة أي لبس حاول الإستعمار الصاقه بها[2].

و في قصيدة أخرى بعنوان ' الثورة ' يمتدح فيها ليلة نوفمبر معتبرا أيّاها الحلم الذي تطلعت إليه الأجيال طويلا حتى كاد اليأس يتسرب إلى النفوس، و لكنه تفجر كما تفجرت عواطف الشعب. يقول فيها:

[1]- أبو القاسم سعد الله،" المروحة "، مجلة الآداب، العدد 5، بيروت، لبنان، ماي 1956م، ص 8.

[2]- عبد الكامل جويبة، قضايا الثورة في مجلة الآداب البيروتية (1954-1962)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2011م، ص 194.

كـــــان حلمـــا و اختيـــــارا

كـــــان لحنـــــا في السنـــــــين

كان شـــوقـــــا في الصـــــــدور

أن تـــرى الارض تثـــــــــور

أرضنـــا بالـــذات أرض الواعـــديـــن

أرضنـــا الســـكرى بأفيـــون الولاء

أرضنا المغلولة الاعناق من قوت مضى

إلى أن يقول:

كان شوقا، كان لحنا، كان حلمـــــــا

أن نـــــرى الأرض تثـــــتور

أن نـــرى الافيـــــون نـــارا في العيون

غير أن الليلة الغراء شفت عن بطولة

و النـــداء الحـــر قـــد هـــز الرجـــولة

و الشتاء السادر المقرور قد عاد ضرام

و الولاء الوافر المخدور قد عاد إنتقام

4-: المساهمة في الثور بالكتابة و التأليف و النشر:

و بالعودة إلى إسهاماته الأدبية و ما تميزت به من تنوع و إبداع، نجد المقاومة أيضا كانت واحد من مجموع السمات التي طبعت إنتاجه، ففي القاهرة نشر أبو القاسم سعد الله أول دواوينه الشعرية بعنوان ' النصر للجزائر'، الصادر عن دار الفكر بالقاهرة سنة 1957م، و هو أول ديوان مستقل يُنشر لشاعر جزائري في التاريخ، و قد كتب مقدمته المرحوم توفيق المدني بأسلوبه السياسي الوطني الثائر و مما جاء في مقدمة الديون " إن كان الشاعر مرآة شعبه، و لسان بئته و إن كانت قصائده و مقطوعاته صوراً حيّة، تسجل الحياة في سجل

الخلود بما لها و بما عليها، فشاعرنا المبكر سعد الله، قد سجّل لنا و لمن يأتي من بعدنا صورا صادقة عارية عن حياة الثورة العارمة التي يحياها شعب الجزائر الأبي و التي لا تنتهي إلا بفوزه و تحقيق امانيه"[1].

و جاء الديوان في حوالي' 12 قصيدة ' كلها ذات صبغة ثورية مقاومة، تصف الثورة و تشيد بها و تجسد نضال الشعب الجزائري و تهلل لإنتصاراته منها على سبيل المثال: ' ثورة الأرض' ، ' برقية من الجبل'، ' الثائر الأسير '، يقول سعد الله في هذا الشأن معبرا عن فرحته عن صدور الديون " إنتشيت بصدور هذه المجموعة و فرحت بها كثيرا ربما لكونها كانت الأولى في مساري، حتى أن طلاب الفرع أخذوا مجموعة منها و راحوا يبعونها في النادي بثمن رمزي، شعرت يومها بنوع من الفخر و الإعتزاز خاصة أن تلك المجموعة الشعرية كانت مساهمة مني في الكفاح الجزائري "[2].

أما الخطوة الثانية نحو الكتابة و التأليف فكانت رسالته للماجستير التي حضّرها بدار العلوم بالقاهرة، و التي كان موضوعها كما أسلفنا عن ' محمد العيد آل خليفة رائد الشعر الجزائري الحديث '، و قد تولى تقديمها الشيخ الإبراهيمي، و نشرت لدى دار المعارف بالقاهرة تحت إشرافه سنة 1961م. و يذكر سعد الله أن الدراسة جاءت لسد الفراغ الذي تعاينه المكتبة العربية، بخصوص الحركة الفكرية في الجزائر، و للتعريف بأدبائها وشعرائها.

و في مقدمة الكتاب يذكر سعد الله أسباب إقدامه عى نشر دراستة هاته عن شعر محمد العيد بقوله : " ... هناك قسم لم يتساءل فقط عن أسباب الثورة و طبيعة البلاد و حقيقة الشعب بل أضاف إلى ذلك تساؤله عن عقلية الشعب و إنتاجه الثقافي و الأدبي و عن وجوده التاريخي و جهوده الحضارية عبر العصور... و قد كان يؤلمني حقا ما عليه المكتبة العربية من فقر في الكتب الأدبية و الثقافية الشاملة عن الجزائر حاضرها و ماضيها، و كان يعز علي حقا كذلك أن أرى بعض الباحثين العرب يقدمون بعض من كتبوا بالفرنسية من الجزائريين على أنهم هم أدباء الجزائر العربية، و قصاصوها و شعراؤها و مفكروها، و كنت آسف حقا أيضا حين أرى بعض المتخصصين في الآداب العربية من أساتذة الجامعة و المعاهد العلية لا يتعرضون لأدب الجزائر

[1]- أبو القاسم سعد الله، النصر للجزائر، ط 2، الجزائر: المؤسسة الوطنية لنشر، 1986م، ص 21.

[2]- مراد وزناجي، المصدر السابق، ص 56.

القديم أو الحديث و لا يستشهدون لأدبائنا و شعرائنا حين يدرسون قضية عربية هامة شملت الوطن العربي جميعا "[1].

و بهذا الخصوص أيضا زار سعد الله و بعض من اصدقائه منهم عثمان سعدي و عبد القادر نور و أربعة طلبة آخرين من أعضاء الرابطة، منزل الأديب ' طه حسين ' في أول من رمضان سنة 1956م، من أجل لفت نظره إلى القضية الجزائرية و أدب الجزائر العربي بالذات و لكنهم تفاجؤا بقوله أنه لم يتصل بأي إنتاج جزائري غير رواية مولود معمري (الربوة المنسية) التي كتب عنها[2].

و من خلال هذا أخذ أبو القاسم سعد الله على عاتقه التعريف بالأدباء و الشعراء الجزائريين، خصوصا ذوي الثقافة العربية أو الأدب الجزائري المكتوب بالعربية، و بالتالي تصحيح الصورة المغلوطة لدى مثقفي المشرق العربي على إقتصار الإنتاج الأدبي الجزائري على الإنتاج المكتوب باللغة الفرنسية فقط، و كانت المناسبة الأولى التي أتاحت له فرصة التعريف بهم و بشعرهم هي رسالته للماجستير التي جاءت في هذا الإطار وهي أول دراسة لشاعر جزائري في المشرق العربي[3].

و في إطار التعريف بالأدب الجزائر أيضا، جاء مؤلفه 'دراسات في الأدب الجزائري الحديث'، و هو عبارة عن مجموعة من المقالات و الدراسات التي كان قد نشرها في الدوريات العربية(الآداب البيروتية و الرسالة العراقية)، آثر جمعها في كتاب ليسهل تناوله، و لإثراء المكتبة العربية بكتاب حول أدب الجزائر، حيث كانت هذه الأخيرة تفتقر لمثل هكذا مؤلفات حول الجزائر و ثقافتها، و يضيف في هذا الشأن أسباب إقدامه على نشره " بعد قدومي إلى المشرق العربي(خريف 1955م)، صدمني ضعف العناية بأدب المغرب العربي عامة و أدب الجزائر خاصة، فأخذت على عاتقي أن أعرف على الأقل بالأدب الأخير و قد كانت أحداث الثورة في الجزائر تشجعني و تثير حماسي لزيادة البحث و كانت النتيجة ذلك الجهد بعض الأشعار و الأبحاث التي تناولت أدب الجزائر من جوانب مختلفة"[4]. و يضيف في مقدمة الطبعة الثانية " أرجو أن أكون بتقديمها

---

[1]- أبو القسم سعد الله، محمد العيد آل خليفة ...، المصدر السابق، ص ص (15-16).

[2]- مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص ص (240-241).

[3]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،ج5، المصدر السابق، 157.

[4]- أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص 77.

للطبع من جديد قد خدمت الثقافة العربية في الجزائر، لأن ذلك كان هدفي يوم كتبتها أول مرة و هو ما يزال هدفي مدى الحياة"[1].

و يتضح فيما سبق أن النضال الوطني لأبي القاسم سعد الله في القاهرة أعطى دفعا قويا للقضية الوطنية، فلقد أدى سعد الله رفقة ثلة من الطلبة دور بارزا في تدعيم ركائز التنظيمات الطلابية لفرع القاهرة سواء في صفوف الرابطة أو الإتحاد العام، و كذا تفعيل النشاط الثوري لجبهة التحرير الوطني، كما سعى لكسب مناصرة و دعم أكثر لثورة عبر ما كان ينشره في مختلف المجلات و الصحف، و ربط علاقات وثيقة بدور النشر لتّعريف بالمساهمة الأدبية الجزائرية في الأدب العربي و غيرها.

رابعا- نشاطه الطلابي في أمريكا (1960-1967م):

بعد إنتظام حياة أبي القاسم سعد الله الدراسية، و إختياره تخصص التاريخ، واصل بعض الأعمال التي سبق له ممارستها في القاهرة، بنفس الروح و الإقدام، معتبرا أيضا دراسته في هذا الخصوص جهاد و دفاعا عن بلاده " ... إن الجزائر كانت في ثورة حياة أو موت، و قد كنت أعتقد بحرارة أن أقل ما يمكن أن أخْدم به الوطن في تلك اللحظات العصيبة هو أن انجح في مشروعي..." [2]، و على هذا الأساس و بمجرد وصوله إلى أمريكا إنضم إلى فرع الإتحاد العام لطلبة المسلمين الجزائرين- فرع أمريكا- الذي كان يرأسه وقتها السيد رشيد بن عومر.

1-: نشاطه في الإتحاد العام للمسلمين الجزائرين:

بإنتقال أبي القاسم سعد الله لأمريكا كانت سمعته قد سبقت إليها، حيث عُين مسؤولا عن الشؤون الثقافية في أول اجتماع حضره للإتحاد في أوت 1961م، بجامعة ولاية كونيتكت (Connecticut)، و

[1]- أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ص 10.

[2]- علي غنابزية، " نشاطات الدكتور أبو القاسم سعد الله وأهم كتاباته حول الثورة الجزائرية "، ملتقى المثقف والثورة: الواقع والرهانات، مخبر التاريخ للأبحاث والدراسات المغاربية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة قالمة، يومي 29 و30 أفريل 2014م.

كانت المسؤولية قد لازمته حتى بعد ذهابه لأمريكا فهل كان تقليده للمنصب محض صدفة ؟ أم كان المسؤولون في الإتحاد بأمريكا على دراية بالنشاط الثقافي لأبي القاسم سعد الله بالقاهرة ؟ .

في هذا لا يمكن إغفال السمعة الطيبة التي كان يحظى بها سعد الله بين طلبة القاهرة، فلعل نشاطه الثقافي قد وصل مسامع المسؤولين بالإتحاد بأمريكا لذلك تم تكليفه بهذه المسؤولية، و كذا نشاطه بجامعة مينيسوتا رغم حداثة عهده بها إلا أنه كان يقوم بتنظيم مَعارض و إيفاد تقارير حول الثورة، أو ربما يرجع ذلك إلى تخصص سعد الله في التاريخ و بالتالي يمكنه فهم و خدمة أهداف الثورة أكثر من غيره في ذلك. فأيًا كان سبب ذلك، فثقة المسؤولين بدوره في التعريف بالقضية الوطنية كان دافعا لسعد الله لتحمل مسؤولية أكبر اتجاه الثورة و بذل جهود مضاعفة لتوفيق بين الدراسة و التعريف بالثورة في الأوساط الأمريكية و كلاهما يمثلان دعما لثورة و مستقبل الجزائر على المدى البعيد.

و قد شارك سعد الله بإسم الإتحاد في عدة مناسبات وطنية و عالمية من بينها الندوة العالمية لطّلاب التي إنعقدت بنيوهمشير (New Hampshire) سنة 1962م، و الذي شارك فيه بالإضافة إلى إتحاد أمريكا، إتحاد الطلبة الجزائري، و اتحاد الطلبة الفرنسيين، و غيرهم من الإتحادات التي تمثل العالم الحر الذي تتزعمه أمريكا. و في أشغال الندوة لم تكن لأبي القاسم مشاركة فعالة، و إنما كان دعمه معنوي فقط، و تقديم تقرير عن وضع الطالب الجزائري في العالم و في الجزائر و توزيعه في المؤتمر، و قد حصلوا بذلك على دعم تمثل في إستنكار الإستعمار و التنديد بالتعذيب الذي يخضع له الجزائريون في سجون العدو، و دعم حق الجزائر في الحرية و الاستقلال.

و يذكر أبو القاسم سعد الله في هذا الخصوص أنه اثناء وقت الفراغ في المؤتمر غنى الطلبة الأجانب أناشيد بلدانهم الوطنية و الشعبية، و كانوا يمرحون و يضحكون بينما الطلبة الجزائرين كانوا في كآبة و جدية متناهية، و بينما كان الطلبة ينشدون ما حفظوه منذ صغرهم في مدارسهم و بيئاتهم، كان الطلبة الجزائريون ينظر بعضهم لبعض لأنهم لم يتخرجوا من مدارس مشتركة، و عندما طال هذا الصمت نطق أحدهم وهو ' محمد ابركان '، و أخذ يغني (زاد النبي و أفرحنا بيه صلى عليه....)، و إنطلقت معه جموع الطلبة الجزائريين و أختلطت أصواتهم بأصوات الآخرين[1] .

[1]- أبو القاسم سعد الله ، حياتي، المصدر السابق، ص ص (316-317).

كما مثل الإتحاد أيضا، في المؤتمر الخامس أوت 1962م، في الجزائر و هو الأول من نوعه في الجزائر المستقلة، إلا أن الإجتماع قد فشل في تحقيق أهدافه على حد قول سعد الله، و هي تحقيق وحدة الطلبة والمشاركة في بناء البلاد، و خيبة الأمل التي أصيب بها الطلبة، فالمؤتمر جاء في وقت عصيب إنعكس على قيادة الطلبة فإنقسموا على أنفسهم، فكان منهم أتباع المكتب السياسي أو جماعة تلمسان، و منهم من ناصر جماعة تيزي وزو، و هناك من منهم من بقي على الحياد و منهم مؤرخنا في إنتظار ما ستسفر عنه الأزمة[1].

أ-: النشاط الصحفي والإعلامي:

عُين أبو القاسم سعد الله في إدارة تحرير مجلة المعرفة التي كان يصدرها فرع الإتحاد بأمريكا، و كانت الجريدة تصدر بالفرنسية و الإنجليزية، و مما كتبه فيه نجد له مقالة يتحدث فيها عن ' تأثير الجزائر الثقافي في أفريقيا جنوب الصحراء و في البحر الأبيض المتوسط' ، أما المجلات العربية و الوطنية فقد إنقطع عن مراسلتها منذ حلوله بأمريكا، لانشغاله بالدراسة و الحياة اليومية اذ كان عليه الاشتغال لدفع إجار السكن، فالمنحة لم تكن توفر القدر الكافي من المال لقضاء جميع حاجاته يقول عن ذلك " و من الجدير بالذكر هنا هو أن الضغط الدراسي، و ضرورة تعلم لغات جديدة و تحضير الأطروحة قد أدت إلى توقفي عن إنتاج الشعر، أما النثر فلم أنتج فيه سوى المقالات المترجمة أو الموضوعة ذات الطابع التاريخي .... و من الممكن القول بأنني خلال إقامتي بأمريكا قد ركزت كل جهودي على الناحية الأكاديمية "[2]. و بعد تخرجه و حصوله على شهادة الدكتوراه ساهم في إثراء أعداد بعض المجلات ببعض المقالات و الدراسات منها ' المجاهد الأسبوعي ' و ' مجلة المعرفة ' و الآداب البيروتية ' التي نشرت له أول مقال بعد التخرج بعنوان ' أزمة المثقف الثوري'.

و لتعريف بالقضية الوطنية أكثر في الأوساط الأمريكية أدرك أبو القاسم سعد الله دور الإعلام في الحياة العامة الأمريكية، خصوصا و أن معظم الإعلام الإمريكي كان لا يهتم بالجزائر و لا يغطي أخبارها، بإعتباره إعلاما موجه من القائمين عليه، بغرض إشغال المواطنين بحياتهم اليومية فقط، لذلك كان من الصعوبة بمكان إطلاع الأمريكان على القضية الجزائرية أو قضايا العرب و المسلمين و العالم الثالث.

[1]- أبو القاسم سعد الله ، حياتي، المصدر السابق، ص 327.

[2]- أبو القاسم سعد الله ، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص ص 51.

و بالتعاون مع أحد أصدقائه و هو محمد بن عيسى، الذي كان يدرس الصحافة في نفس الجامعة، و الذي عن طريقه تعرف على مجلات أخرى في عالم الصحافة سيما التصوير و تحليل الأخبار و إبراز الأحداث، تعاونا معا في التعريف بالثورة الجزائرية، حيث قاما بتنظيم معرض عن الجزائر يصور حياة اللاجئين و المعوقين بإصابات النّابالم و معاناة الطلبة الجزائريين في تونس بالخصوص، ونضال الشعب في المحتشدات والسجون.

كما ساهم أبو القاسم سعد الله بمعية زميل مغربي آخر و هو 'محمد المليحي' الذي يدرس الفنون بالجامعة، بمناسبة مهرجان الشباب العالمي في الحي الجامعي، ، بعدة صور تجريدية رمزية عن كفاح الشعب الجزائر و نضاله، و عرضت كذلك عادات و تقاليد الشعوب في عدة صور كالفلكلور(الفنون الشعبية)ـــ، و المآكل و الملابس، و التراث عموما[1].

حرص سعد الله في المناسبات الوطنية على إحياء ذكرى الثورة المجيدة من كل سنة، و ذلك بتنظيم معارض تصور حياة اللاجئين الجزائريين[2] و كفاح الثوار، بهدف إطلاع الأمريكيين على جرائم الإستعمار الفرنسي في الجزائر، و كذا توزيع المطبوعات، و جمع التبرعات للاجئين، يقول في ذلك " و لما كنت الجزائري الوحيد في حي جامعي يغص بأكثر من أربعين ألف طالب فقد عملت بالتعاون مع الطلبة العرب و الأفريقين على التعريف بالثورة الجزائرية و أهدافها، و ذلك بإحياء ذكراها كل سنة وتوزيع المطبوعات التي كانت تصلني من مكتب جبهة التحرير الوطني بنيويورك، و جمع التبرعات اللاجئين و عرض صور الكفاح المجيد"[3].

و في إطار الإحتفالات التي كانت تقام بأمريكا، شارك سعد الله في إحتفالية نظمها مركز اللغة الذي كان يدرس به تعلم اللغة الانجليزية 'أمريكا سنتر'، و الذي تحضره وسائل الإعلام الأمريكية المختلفة لتغطيته، و هو مهرجان لإحياء اليوم العالمي للأناشيد الوطنية، ضم عدد من البلدان، و لم يكن سعد الله على دراية بترتيبات الحفل لإنضمامه حديثا للمركز فطلب السماح له بإنشاد النشيد الوطني، فلم يسمح له القائمون على الحفل بالمشاركة في برنامج التّظاهرة باعتبار أن الجزائر غير ممثلة و غير معترف بحكومتها رسميا، فزاد ذلك من إصراره على تمثيل بلده، و حاولوا ثنيه عن المشاركة فأبى إلا أن ينشد النشيد الوطني الجزائري، و بعد إصرار

[1]- أبو القاسم سعد الله ، حياتي، المصدر السابق، ص ص (319-320).

[2]- أنظر الملحق رقم 4،ص 359

[3]- أبو القاسم سعد الله ، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 51.

كبير وافق القائمون على مضض، و تقدم أبو القاسم سعد الله إلى المنصة و أنشد النشيد الوطني ' قسما'، و عند إنتهائه من النشيد لقى إشادة من جميع الحضور على إصراراه و همته العالية اتجاه بلده[1].

ب-: المشاركة في الندوات:

شارك أبو القاسم سعد الله في عدة ندوات كانت الجامعة مينيسوتا تنظمها، فالبرغم من الصعوبات التي واجهها في تعلم اللغة الإنجليزية و التحكم بها، إلا أننا نجده دوما حاضرا في كل تظاهرة تخص الجزائر و ثقافتها، فإما محاضرا و إما متدخلا بطرح أسئلة لإثراء موضوعها أو للفت أنظار الحضور حول قضية الجزائر و حربها العادلة، و بإعتباره الجزائري الوحيد بالجامعة فقد كان الأساتذة عادة ما يدعونه للمشاركة في تأطير تلك الندوات.

طلب سعد الله المشاركة في ندوة عامة نظمها إتحاد الطلبة الأمريكان بالحي الجامعي، بكلمة حول الوضع بالجزائر، لتعريف الطلبة بالوجه الآخر للاستعمار في الجزائر، و قد حضر الندوة العديد من الأساتذة المهتمين سيما في قسم اللغة الفرنسية، و الأقسام ذات الصلة بالموضوع بالإضافة إلى جموع الطلبة المهتمين، و في ندوة أخرى نظمتها كلية سانت كاترين (St. Catherine University) بمدينة سانت بول (Saint Paul) بمينيسوتا بتاريخ 28 مارس 1961م، حيث يذكر سعد الله أن المحاضرين كانوا شغوفين لتعرف عن الجزائر، و قد بذل جهد كبير في إيصال الصورة الحقيقة للمعانات التي يعشها الشعب الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي[2].

و في ندوة نشطها نخبة من مثقفي أمريكا بالجامعة حول ' الأمريكان وراء البحار' ، أيضا كانت لسعد الله مشاركة فيها، و كان بعد كل ندوة يكتب تقريرا عنها أو عن أي نشاط آخر حول الجزائر و إرساله إلى مكتب جبهة التحرير الوطني بنيويورك الذي كان يشرف عليه عبد القادر شندرلي و رؤوف بوجقجي[3].

و كان سعد الله حريصاً على حضور أي محاضرة تعلقت بالجزائر، فإن لم يكن محاضرا كان من المتدخلين فيها بأسئلة للفت أنظار الحضور حول قضية الجزائر، ففي محاضرة ألقاها أحد الدبلوماسين الأمريكيين بعنوان ' أمريكا و قضية الجزائر' أو (العلاقات الأمريكية- الفرنسية و قضية الجزائر)، و رغم عدم

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 16.

[2]- أبو القاسم سعد الله ، حياتي، المصدر السابق، ص 308.

[3]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 31.

إستيعابه لكل ما تدخل به الأستاذ المحاضر، إلا أنه طلب الكلمة و سأله سؤال إحتجاجي يقول عن ذلك "... رغم أنني لم أكن قادرا على إستيعاب كل ما قال فإني طلبت الكلمة و سألته سؤالا إحتجاجيا و هو: لماذا تؤيد أمريكا فرنسا ضد قضية الجزائر العادلة ؟ و لماذا تقف أمريكا مع الإستعمار ؟ و أجابني المحاضر بما لم يشف غليلي"[1].

2- نشاطه في منظمة الطلبة الأفريقيين بمينيسوتا:

بالإضافة إلى التنظيمات الطلابية الوطنية، نشط أبو القاسم سعد الله في عدة تنظيمات طلابية عربية و إفريقية في الحي الجامعي، حيث أقام الطلبة الأفارقة بجامعة مينيسوتا تنظيماً طلابياً أطلق عليه ' منظمة الطلبة الأفريقين في مينيسوتا' و قد دخلها سعد الله بإعتباره طالبا أفريقيا، و بإعتبار أن ثورة الجزائر كانت تشرف على كل أفريقيا، و كانت المظمة تضم حوالي 100 طالب من غرب و شرق أفريقيا و وسطها وشمالها (كان سعد الله الطالب الوحيد من شمال أفريقيا)، و كانوا يعقدون إجتماعاتهم تارة في الجامعة و تارة في كلية مكالسترو، وتارة في بيوت أحدهم. و في السنة الأخيرة من دراسته أُنتخب سعد الله رئيسا لهاته المنظمة.

و يذكر سعد الله أن الموجهين لهذا التنظيم الطلابي هم من رجال الدين الأمريكان في أفريقيا بإشراف مؤسسات دينية في مينيسوتا، فهم يُشرفون عل تكوين طلاب في بلدانهم في أدْيرة و كنائس ثم يرسلون بهم إلى معاهد خاصة تواصل تكوينهم الديني من جهة و تؤهلهم في الإدارة و السياسة و الحقوق و الإقتصاد ليعودوا بعد ذلك إلى بلدانهم و يتولوا فيها مسؤوليات قيادية، و يضيف سعد الله في هذا الخصوص أن توليته لمنصب الرئاسة بعد إنتخابه من طرف الطلبة لم يكن مرحبا به من قبل هؤلاء الموجهين لهذا النشاط الطلابي، بإعتباره الطالب المسلم الوحيد، و خوفهم من تأثير ذلك على نشاط الطلاب فيها[2].

و قد بقي سعد الله مسؤولا عن المنظمة لمدة 3 سنوات، و كان الغرض من تأسيسها هو التعريف بالثقافة الأفريقية لدى المجتمع الأمريكي و لدى الطلبة الأجانب، إذ شعر مؤسّسوها أن هؤلاء لا يعرفون عن القارة سوى صورة مشوهة، فأخذوا بذلك على عاتقهم تصحيح الصورة المغلوطة التي ساهمت الكتابات الإستعمارية في زيادة حدتها، فمن بين الأنشطة التي قام بها سعد الله داخل هذه المنظمة تنظيم محاضرات و

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 284.

[2]- نفسه، ص ص (320-321).

ندوات داخل الحي الجامعي، تعلقت مواضيعها بالتاريخ الأفريقي، منها مشاركته في الندوة التي أقيمت بمناسبة 'يوم أفريقيا '، ألقى فيها محاضرة بعنوان ' القومية الأفريقية '، و كذا تنظيم مَعارض لتعريف بالفنون و التقاليد الأفريقية و غيرها[1].

و تجدر الإشارة إلى أن أبو القاسم سعد الله قد انضم إلى تنظيم طلابي آخر بالجامعة، تحت اسم ' النادي العربي الأمريكي '، و هو تنظيم طلابي عربي برآسة طالب مصري إسمه ' ابراهيم عويس' ، و كان التنظيم منصب على التعريف بمصر الناصرية و فلسطين لكثرة المصرين الموجودين في الحي الجامعي، و يذكر سعد الله أنه لم يكن لنادي نشاط يذكر. و فيما يخص قضية الجزائر فلم تنل إلا حظا يسيرا من إهتمام النادي[2].

و يتضح من خلال ما سبق أن شخصية أبي القاسم سعد الله تزخر بمسيرة نضالية طويلة في صفوف الحركة الطلابية الجزائرية لصالح التعريف بالثورة و النضال الوطني، فسعد الله آمن برسالة الثورة و واكب تطوراتها بمواقف نضالية شجاعة و إسهام كبير في الدعوة لمناصرة أهدافها، وتعريف المواطن العربي و العالمي بنبل أهدافها و مشروعية نضالها، و برز دوره بشكل واضح في تأطير الجانب الثقافي في التظاهرات الثقافية و النوادي العلمية لصدع بعيدا بالقضية الوطنية، الأمر الذي إستحق من أجله وسام المقاوم عام 1984م على مساهمته النشطة في الثورة الجزائرية.

[1]- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص ص (174-175).

[2]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 320.

الفصل الثالث

أبو القاسم سعد الله

الأستاذ

أولا: جامعات أمريكا

ثانيا: جامعة الجزائر

ثالثا: جامعة الأردن

الفصل الثالث: أبو القاسم سعد الله الأستاذ

نهض الأستاذ أبو القاسم سعد الله عقب تخرجه من الجامعة الأمريكية بشهادة الدكتوراه في التاريخ سنة 1965م بعدة مهام علمية، تتعلق بتدرسيه بعدد كبير من الجامعات العربية و الأجنبية، فضلا عن تدريسة بجامعات الوطن، عمل خلالها على تقديم إسهام تربوي وتعليمي كبير، و في تخريج الكثير من الإطارات و الكوادر المثقفة تعمل الآن مقتفية آثار الأستاذ في هذا الميدان، و من خلال هذا العنصر سنحاول إبراز مميزات و منهج أبو القاسم سعد الله في العمل التعليمي في بعض الجامعات التي شغل فيها كأستاذ؛ فما هي أهم المميزات و الخصائص التي ميزت المسيرة التعليمية للأستاذ سعد الله؟

أولا– تدريسه بجامعات أمريكا:

1–: جامعة أوكلير University of Eau Claire (1965–1967م):

تمكن أبو القاسم سعد الله من الحصول على أعلى درجة علمية كان يطمح لها بفضل كده و إجتهاده ليجد نفسه في مقترف طرق ماذا يفعل بعد ذلك ؟ فالمهمة العلمية التي جاء من أجلها قد تمت فكان عليه الرجوع إلى الجزائر لتولي مهمة الأستاذية بجامعتها الفتية، و قبل ذلك لم يكن سعد الله يفكر في العودة إلى التعليم الذي مارسه من قبل، بل كان يطمح لدخول المجال الإعلامي أو العمل الدبلوماسي فتكرار التجربة التعليمية مرة أخرى كان أمرا مستبعدا، كما أن الوضعية الأمنية و السياسية في الجزائر لم تكن تبشر بخير فحصول إنقلاب جوان 1965م، و عدم إستقرار الأوضاع فيها كل ذلك جعله يُرجئ أمر سفره إلى حين .

و من حسن الحظ أن التأشيرة الأمريكية تتيح فرصة الإستفادة من التدريب سنتين في التخصص المدروس، و هو كان بالنسبة إليه التعليم حسب شهادته، فما كان عليه سوى الإستفادة من التدريب أو الرجوع إلى الجزائر، و كإحتجاج على الوضع فيها فضل البقاء سنة أخرى بأمريكا.

و بتزكية من أستاذه الأستاذ هارلود دويتش إستطاع التعاقد مع جامعة أوكلير بولاية ويسكونس (Wisconsin) بعد نجاحه في المقابلة التأهلية لتدريس بها، و كان قد شرع بالتدريس بها قبل حصوله على شهادة الدكتوراه، إذ جرى التعاقد معه قبل شهور من مناقشته لرسالة، غير أن قبلوله النهائي فيها كان مشروطا بحصوله على شهادة الدكتوراه، و لعل الثقة التي حظى بها سعد الله لدى جامعة أوكلير تعود إلى

السمعة الجيدة التي يحظى بها قسم التاريخ بجامعة مينيسوتا و رئيسه الأستاذ دويتش فأي إقتراح يقدمه هذا الأخير بأحد طلابه لا يرد عادة، و هكذا كان قبوله بجامعة أكلير للتدرس بها و التي بقي بها لمدة سنتين[1].

أ- منهجه في القاء دروسه:

شرع سعد الله في العمل بالجامعة في شهر سبتمبر 1965م، و قد أسندوا إليه تدريس مادة ' تاريخ الحضارة الأروبية ' في شكل مدخل لأربعة شعب من طلبتي السنة الأولى و الثانية، و هي مادة مقررة على جميع الطلبة بالجامعة مهما كان تخصصهم و نظرا لكثرة الطلب قسّمتهم الإدارة إلى أقسام، يقوم بتدريسهم عدة أساتذة فأسند لأبي القاسم منها أربعة أقسام بمجموع اثني عشر ساعة في الأسبوع كأستاذ مبتدأ[2].

وفي السنة الثانية بالجامعة بعد تجديده عقده بها أضافوا له مادة جديدة، وهي ' تاريخ افريقيا الحديث'، و سجل فيها حوالي سبعة طلاب بإعتبارها مادة جديدة في المقرر الدراسي، أضافتها إدارة القسم حديثا، و في السداسي الثاني من نفس السنة أضِيفت له مادة أخرى سجل فيها عدد من الطلاب و هي ' الشرق الأدني ' لطلبة السنة الأخيرة في شكل حلقة بحث و كلتا المادتان جديدتان تدرسان لأول مرة بالجامعة[3].

لم يكن ما تعلمه سعد الله من اللغة الإنجليزية كافيا للسيطرة على موضوع المحاضرة و توصيل المعلومة بشكل جيد، فتعامله بها لم يكن يتعدى فهم النصوص التاريخية، و البحث في المصادر و المراجع، و كتابة أطروحته و أبحاثه، فلذا كانت أسابيعه الأولى من أشَقِّ اللحظات على نفسه، حيث لقي صعوبة في التحكم في موضوع المحاضرة و توصيلها بشكل جيد للطلبة، و الشك المتواصل في قدراته على التبليغ، و خوفه من ردود الفعل المضرة بسجله الأكاديمي، فرأي و تقيم المؤسسة في التدريس ضروري في التوظيف في المؤسسات الأمريكية، لذلك كان حرصة التام على أن يظل هذا السجل نظيفاً خلال مشوار المهني، يقول في ذلك: " عانيت في محاضراتي الأولى من التحضير و الشك في قدرتي على التبليغ و الخوف من ردود الفعل المضرة بسجلي الأكاديمي فكنت أعرق و أخاف حتى يجف حلقي أحيانا، و لكني كنت أتمالك نفسي و أحاول إخفاء العجر على التوصيل أو التلعثم في الكلام "[4].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص ص (334-335).

[2]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص ص (45-46).

[3]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 68.

[4]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 341.

إلا أنه و بعد عدة لقاءات إستطاع شيئا فشيئا القضاء على التوتر و إكتساب ثقة أكبر في النفس، و أصبح يجد لذة كبيرة في تعامله مع طلابه و الإجابة على تساؤلاتهم، و من عاداته في التدريس الإحتفاظ بمسودة كل محاضرة مع عناصرها ــ فقبل الشروع في إلقاء درسه يقوم بكتابة عناصره على السبورة، ليقوم الطلاب بنقلها، ثم يتابعون معه سير المحاضرة و استقاء منها المعلومات التي يحتاجونها و التنسيق بينها و بين ما طالعوه في الكتاب المساعد المقرر عليهم و الذي يتقيد الأستاذ ببرنامجه[1].

و كان عادة ما يقوم بتحضير محاضراته من كتب عديدة، و أحيانا كتاب واحد لمؤلفين مختلفين، و لم يكن يلتزم فيها بتسجيل المراجع عند إعداده المحاضرة، لإهتمامه وقتها بتحضير درسه و إيصال المعلومة لا أكثر، و عند شرحه لدرس كان غالبا يستعمل السبورة لكتابة العبارات الأساسية و المصطلحات و الأسماء...الخ. و الإستعانة أيضا بالخريطة الجغرافية لتوضيح و توثيق المعالم الرئيسية، و أثناء تدريسه كان الأستاذ سعد الله من وقت لآخر يطلق دعابة أو نكتة لتّخفيف على طلبته و خلق جو من المرح داخل القسم [2].

و في كثير من الأحيان لم يكن يتقيد ببرنامج الكتاب المقرر على الطلبة، خصوصا و أنه لاحظ ندرة المعلومات المتعلقة بالحضارة العربية الإسلامية، فكان يتناولها بشيء من التوسع، و يعيطها تفاصيل قد لا يلتزم بها زملاؤه الآخرين الذين يدرسون نفس المادة في الأقسام الأخرى، كما هو الحال في حديثه عن أي دور للعرب و المسلمين في التاريخ، فكان بقدر الإمكان يحاول تصحيح الصورة المغلوطة للتاريخ العربي أو ما نسج حوله في المؤلفات الغربية، من تشويه لدورهم في التاريخ عموما، و كمثال عن ذلك تدريسه لمادة أفريقيا الحديثة، و إكتشافه مساهمة العرب المسلمون في تدوين تاريخ أفريقيا الوسيط و الحديث، إذ يؤكد على الدور الذي لعبه المسلمون في نشر اللغة و الثقافة العربية في أفريقيا، إلا أن إستئثار اليهود بالبحث و التأليف و التدريس في التاريخ الأفريقي جعل هؤلاء تجارا للعبيد فقط[3].

ب– علاقته داخل الجامعة مع (الطلبة – الأساتذة – الأدارة):

إستطاع أبو القاسم سعد الله خلال تدريسه بجامعة أوكلير تكوين علاقات طيبة داخل الجامعة سواء مع الطلبة أو الأساتذة أو إدارة القسم يقول في ذلك: " تكونت بيني و بين الجامعة و محيطها أُلفة فهناك إحترام

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص ص (46-47).

[2]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص ص (342-343).

[3]- نفسه، ص ص (347-348).

متبادل"[1]. فلطالما أثنت إدارة القسم على أدائه و منهجه في التعليم و علاقاته مع الطلبة، فالبرغم من الصعوبة التي لقيها بادئ الأمر في التعامل معهم إلا أنه جمعته بهم علاقة طيبة ودّها الإحترام المتبادل.

فكان الأستاذ سعد الله يشجع طلبته على المبادرة في الحوار داخل القسم، و تشجيعهم على طرح إستفساراتهم و تساؤلاتهم لكسر حاجز التعامل بين الأستاذ و الطالب، و تعزيز ثقتهم بأنفسهم أكثر فأكثر، فيذكر أنه طيلة فترة تدريسه بالجامعة لم تقع له أية حوادث أو مشادات بينه و بين طلبته ، فلطالما كان مكتبه و وقته مسخرا لطلبته للإجابة عن أسئلتهم و انشغالاتهم، و في المقابل لم يتوانى سعد الله إبداء إعجابه بسلوك طلبته و إحترامهم له، فقد سُعد كثيرا بتدريسهم و التعامل معهم يقول عنهم: " ... لم يحدث لي طيلة سنتين ما يعكّر صفو علاقتي بالطلبة فقد كانوا مؤدبين إلى درجة متناهية يدخلون بإنتظام و يخرجون بإنتظام لا تسمع لهم صوتا ولا ضجيجا و إذا سألوا- و كنت أشجعهم على الأسئلة- تكلموا بثقة كبيرة في النفس، لا يقلقون الأستاذ و لا يطلبون شيئا ليس من حقهم"[2].

كما جمعت الأستاذ سعد الله بأساتذة جامعة أوكلير علاقة وطيدة، حيث كان القسم يضم حوالي 20 أستاذاً رجلا و نساء، و إستمرت علاقة الصداقة هذه حتى بعد تعاقدة مع جامعة الجزائر، و رجوعه كأستاذ زائر في جامعات أمريكا، فلطالما جمعتهم الإجتماعات و موائد الطعام و إحتساء كوب من القهوة، للحديث عن القضايا التاريخية و السياسة و شؤون البحث العلمي، بالرغم من إختلاف مشاربهم و إيدولوجياتهم و أدياهم، فهناك مثلا الأستاذ ' ديكسون ' الذي كان يدين باليهودية، و الذي جمعته به علاقة طيبة، و كان يزوره في بيته و كثير ما تجمعهم نقاشات حول مواضيع سياسية و دينية، و حتى أن هناك أساتذة يهود سجلوا لتعلم اللغة العربية التي كان يدرِّسها سعد الله في الجامعة، فالإختلاف العقدي بينهم لم يكن أبدا حاجزاً لتعامل سعد الله معهم أو الكيد لهم[3].

و في هذا الخصوص يذكر سعد الله أنه عندما إجتمعت هيئة التدريس بالقسم لتقرير إسناده مادة ' تاريخ الشرق الأدنى'، كان المعترض الوحيد هي أستاذة يهودية، إذ عارضت هذه الأخيرة الأمر بشدة، خوفا من أنه قد يبث أفكار قد لا تكون لصالح خدمة الأيديولوجية الصهيونية بالجامعة. على كل حال فقد تقرر إسناده المادة لتدريسها على شكل حلقة بحث على طلاب السنة الأخيرة، بعد إقناع رئيس القسم الجميع-

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص351.

[2]- نفسه، ص 345.

[3]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص ص (346-367).

ماعداها هي- بأحقية سعد الله بتدريس المادة، و أن وجوده فرصة لتدريسها فكانت الحادثة فرصة لسعد الله ليعاين بنفسه مدى التأثير اليهودي في الحياة الثقافية الأمريكية[1].

و غير ذلك، كان جميع الأساتذة يحترمونه و يقدرونه، و على رأسهم رئيس القسم الذي كان دائما يثني على أدائه التعليمي، يقول فيه سعد الله : " كان حقا أستاذا سمحا متفهما لظروفي و يعاملني معاملة الأخ الكبير و ليس معاملة الرئيس لمرؤوسه"[2]. و خلال سنته الأولى بالجامعة، إستطاع الأستاذ سعد الله أن يكسب ثقة الإدارة و الطلبة في أدائه التعليمي، إذ أنه و في التقيم الذي تخصه الإدارة بالنسبة للأساتذة الجدد لمعرفة مستواهم من التدريس للإحتكام له عند تجديد العقد من عدمه، و ذلك بإستبيان يوزع على الطلبة لتقيم الأستاذ و حضور رئيس القسم لأحدى الحصص لتقيمه، فما كان من رئيس القسم إلا أن شكره على أدائه و منهجه في التعليم و علاقته بالطلبة، بعد حضوره جلسة تقيمية معه في قاعة الدرس، أما إستبيان الطلبة فقد جاء بنتائج مرضية حول أستاذهم، و بالتالي تقرر تجديد عقده لسنة إضافية بجامعة أوكلير (1966-1967م)، و تجديد العقد بالنسبة للأستاذ الجديد في المؤسسات الأمريكية يعني الشئ الكثير، أبرزها رضى المؤسسة على عمله، مما يضاف إلى رصيد سيرته الذاتية إذ قرر الإنتقال إلى جامعة أخرى[3].

قبِل سعد الله تجديد عقده لسنة إضافية أخرى بجامعة أوكلير، في ظل عدم إستقرار الأوضاع بالجزائر، و كذا لشعوره بالرضى عن مصيره في هاته المهنة، و بلذّة التعامل مع الطلبة و التدريس و المحيط العام بالجامعة يقول عن ذلك " ... أحببت الجامعة الناشئة بها –أوكلير- و التي أعجبت بطلبتها و إدارتها، و التي إكتشفت فيها أنني قد أكون أستاذ جامعيا ناجحاً، بعد أن كنت أعدّ نفسي لمشاريع أخرى ثبت أنّها كلها غير مخلوقة لي و لا أنا كنت مخلوقا لها"[4].

لم تختلف هاته السنة عن سابقتها فقد إستطاع سعد الله تقديم مجهود و أداء ناجح، و إزداد تعلق الطلبة بأسلوبه، و منهجه في التدريس، و كذا رضى إدارة القسم على أدائه، و هو ما دفع برئيس الجامعة و رئيس القسم إلى طلبه البقاء سنة أخرى بالجامعة، و هذا دليل آخر على نجاح تجربته التعليمية. إلا أن الفترة المنصوص

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج3، المصدر السابق، ص 33.
[2]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 343.
[3]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج3، المصدر السابق، ص 70.
[4]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص 46.

عليها في شروط التأشيرة و هي سنتين قد نفذت، و قراره الرجوع إلى الجزائر، حال دون تجديد العقد مرة أخرى مع جامعة أوكلير.

جـــ- نشاطه الأكاديمي بالجامعة:

تهتم الجامعات الأمريكية بالنشاط العام الذي تقوم به هيئة التدريس لديها سواء داخل الجامعة أو خارجها، "فبقدر ما تردد إسم الجامعة هنا و هناك بقدر ما تستفيد هي سمعة و صدى"، فالأستاذ الذي يسهم بورقة بحثية في ندوة أو مؤتمر خارج المدينة أو داخلها، أو تطوع لإلقاء محاضرة على الطلبة في نواديهم، فإن كل ذلك يزيد في قيمته و قيمة الجامعة التي جاء منها، و يدخل في مردودية الخدمة التي يؤديها الأستاذ للجامعة، يضاف أيضا إلى رصيد سيرته الذاتية إذا قرر الإنتقال إلى جامعة أخرى.

و بذلك تعتبر هاته الأنشط ضرورية للسِّجل الأكاديمي للأستاذ في الجامعة فمهمة الأستاذية وحدها لا تكفي لجعل الأستاذ ناجحا في مهمته، فلابد من النشاط الدائم في المحيط الجامعي و خارجه، فالنظام الأمريكي كله قائم على الإعلام و الدعاية و الإشهار. لذلك نجد الجامعة تضع تحت تصرف الأستاذ كل الوسائل التي تعينه على ذلك، كتخصيص مكتب له بالمكتبة، و يضعون تحت تصرفه الأوراق التي تتضمن إسم الجامعة، عنوانها، شعاراتها...الخ. لكي يراسل بها من يشاء داخل و خارج البلاد.

خلال فترة تدريس سعد الله بالجامعة أقيمت عدة مؤتمرات خارج مدينة أوكلير، إلا أنه لم يشارك فيها بل كان يكتفي بالحضور و الإتصال بالأساتذة القادمين من عدة جامعات داخل و خارج أمريكا، و الإستفادة من نشاطهم في اللقاءات العلمية، أما نشاطه داخل الجامعة، فقد أسهم في تنشيط عدة محاضرات سواء كانت من تنظيم أساتذة القسم أو في نوادي الطلبة التي كانت بالجامعة.

فيما يخص تنشيط المحاضرات، فنجده مثلا قد شارك في ندوة نظمتها الجامعة في ديسمبر 1966م، عن ' ديناميكية الثورة '، إشترك فيها عدد من الأساتذة الجامعيين، و تحدث كل منهم عن ثورة من الثورات المعروفة كالثورة الأمريكية و الفرنسية و الروسية، و قد شارك سعد الله بمحاضرة بعنوان " ثورات العالم الثالث" ، و في هذا الخصوص يذكر سعد الله أن موضوع الندوة قد جلب كثيرا من الإنتباه و النقاش حوله[1].

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 353.

و في مشاركة الطلبة في نواديهم، تهتم الجامعة أيضا بهذا النشاط كالمشاركة في جريدتهم أو التبرع لهم بحديث أو محاضرة، و في هذا الخصوص و في نطاق إهتمامه بتاريخ أفريقيا، ألقى سعد الله عدّة محاضرات خصوصا لنادي الذي كان يشرف عليه الطلبة الأفارقة (منظمة الطلبة الافارقة)، ، تناول في معظمها التاريخ الأفريقي نذكر منها 'القومية الأفريقية' ، ' الإنقلابات الإفريقية ' ، ' مشاكل أفريقيا بعد الإستقلال '، و كلها كانت تلقى إستجابة و إهتمام من طرف الحاضرين[1].

و في هذا النطاق أيضا، تطوع لإعطاء دروس في اللغة العربية، للراغبين من الطلبة و الأساتذة، و يذكر سعد الله أنه من بين أوئل المسجلين في هاته الدروس أساتذة يهود، و في هذا الأمر أيضا تلقى مراسلات من شركات عديدة لها فروع في بعض البلاد العربية تطلب منه ترجمة عناوين شركات و عبارات تجارية[2].

تمكن أبو القاسم سعد الله في فترة وجيزة لم تتعدى السنتين من تسجيل مجهود و نشاط ملحوظ في جامعة أوكلير، بالرغم من خوضه المجال التعليمي الجامعي لأول مرة و في بلاد أجنبية اللغة و الثقافة، فأثبت بذلك أنه مشروع أستاذ ناجح، و بذلك حان الوقت لإستفادة بلده منه بعد أن قطع وعدا على نفسه و لبلده الجزائر بخدمتها و تأطير كوادرها، و في هذا الخصوص كان قد زارها خلال سنة 1966م، لتأمين الإلتحاق بجامعتها.

و رغم تجديد الجامعة لعقده لسنة إضافية، إلا أنه كان عليه المغادرة وفقا لشروط التأشيرة كما أسلفنا، و رغبته الإلتحاق بجامعة الجزائر، فأبدت الجامعة أسفها على لسان رئيسها، في عدم تمكنه من تجديد عقده، و هكذا كان عليه الرجوع إلى الجزائر للبحث مع جامعتها في موضوع التدريس بها، و قبل ذلك كان قد تقدم بطلبات عمل إلى عدة جهات منها السعودية، و كندا و قد جاءه القبول من كليهما لتدريس بجامعاتهم، و كان سبب طلبه للعمل هذا هو الرد الغير الواضح من الجزائر في إمكانية إستقباله في جامعتها، خصوصا في ظل عدم وجود تخصص تاريخ بالعربية فيها، و عدم تلقيه رد واضح بخصوص تعديل شهادته، بإعتبارها أول دكتوراه تاريخ من جامعة أمريكية يقول في ذلك: " أما الجزائر فإن الجواب الذي حصلت عليه في صيف 1966م،

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص ص (41-43)

[2]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 353.

جعلني متأكداً أنني سأدخل في صراع ليس لي فيه من معين "[1]. و هكذا ودّع سعد الله جامعة أوكلير و القائمين عليها في أوائل شهر جوان 1967م.

2-:أستاذ زائر بجامعة ميشيغان ومينيسوتا(University of Michigan and Minnesota)

:

تعددت زيارات أبو القاسم سعد الله إلى جامعات أمريكا بعد رجوعه إلى الجزائر، و توليه منصب الأستاذية فيها، فكانت جامعة الجزائر تمنحه انتداب لإجراء أبحاثه و خصوصا كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، و في هذا الإطار كان أستاذا زائراً و باحثاً في عدد من الجامعات الأمريكية، و سنحاول التركيز على جامعتين هما 'جامعة ميشغان' و 'جامعة مينيسوتا' التي زارهما في مناسبات عديدة، لتدريس و للبحث عن مصادر و مراجع لأبحاثه في مكتباتهما من جهة، و من جهة أخرى للأحداث المفصلية و المؤثرة في حياة مؤرخنا و التي كابدها خلال تواجده بهاتيين الجامعتين في سنوات مختلفة.

أ- أستاذ باحث في جامعة ميشيغان:

زار أبو القاسم سعد الله جامعة ميشيغان في مناسبات عديدة كأستاذ باحث متفرع من جامعة الجزائر، و كانت أول زيارة له اليها في أكتوبر عام 1978م، ثم توالت زياراته لها بين سنوات(1979-1980م)، ثم بين سنوات (1983-1988م)، و كانت معظم زياراته لمكتبتها للبحث في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي الذي إستطاع خلال تلك الفترة إصدار جزئين منه، و كان بصدد البحث في جزئه الثالث إلى غاية 1988م، و كذا ترجمة و تحقيق كتب، و البحث في كتابه تاريخ الحركة الوطنية...الخ، و كانت آخر زيارة للجامعة سنة 1988م، بعد ضياع حقيبته في مطار هثرو بلندن في 27 أوت من نفس السنة[2].

و تعود حيثيات ضياع الحقيبة، بعد عودته من قضاء سنة التفرغ بجامعة ميشغان لسنة 1988م، أين سُرقت الحقيبة بمطار هثرو بلندن، و تحتوي الحقيبة على 3 فصول من الحركة الوطنية الجزء الأول، و ثلاثة فصول من تاريخ الجزائر الثقافي الجزاء الثالث، و جميع مادة هاذين الكتابين، و كذلك الرابع من الأخير، و

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق ، ص 361.

[2]- أحمد بن نعمان، المرجع السابق، ص 509.

معها أوراق هامة و مصورات و مصادر و غير ذلك من وسائل أبحاثه، بالإضافة إلى قدر من المال (حوالي 3 آلاف فرنك)، و أوراقه الشخصية، من بصاقة تعريف، عنوان مترله...الخ[1].

هذه البطاقات هي ثمرة جهد مضن و متواصل دام أكثر من ربع قرن، و أكد سعد الله أن تكون المحفظة قد سرقت بفعل فاعل، و أنها لو كانت السرقة عادية لرجعت إليه، لأن الحقيبة تحتوي على المعلومات الشخصية للأستاذ، من عنوان شخصي و بطاقة تعريف...الخ. و يرجِّح سعد الله أن يكون السارق من المخابرات الفرنسية أو الإسرائلية، و في هذا الخصوص نشر أحد الأساتذة كلمة في جريدة الشعب بعنوان (نداء وعبرة)، قال فيها " أنه تنبأ بأن شيئا سيحدث له منذ الصيف الماضي بعد حملة الطابور الخامس ضده و بعد مقالة (ديكارت و حفلة التكريم)"[2].

فيما يخص هاذين المقالين، فالمقالة الأولى (الحاج ديكارت الجزائري) المنشورة في جريدة الشعب[3]، و التي أحدثت ضجة في الأوساط الثقافية و السياسية، لأنها تعرضت إلى وضع شاذ كان غير معلن إلى الناس، و هو وجود عدد من الأطفال الجزائريين من أبناء السفراء في ثانوية ديكارت[4]، و بما تتضمنه من برامج وزارة التربية الفرنسية و بما تحمله من قيم الأمة الفرنسية نفسها، حيث كشفت المقالة حقيقة ما يجري في هذه الثانوية، و خطرها على الأمة الجزائرية و التي تهدف إلى التخلي عن التعليم العام إلى الخاص و إلى إعطاء الفرنكوفونية في بلادنا حصة الأسد في التعليم المرتقب فقام سعد الله بفضح ممارساتها و فضح من سمحوا لها بالوجود[5].

و كذا صراحته في مقالة إنطباعية له عن ملتقى النجم بباريس(نجم الشمال الأفريقي و الحركة الوطنية) الذي إنعقد أواخر شهر فبراير 1987م و المنشور في جريدة الشعب أيضا[6]، و كانت قد تحدث في

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج5، المصدر السابق، ص ص (93-94).

[2]- نفسه، ص 96.

[3]- أنظر جريدة الشعب، " الحاج ديكارت"، بتاريخ 25 /1988/5م.

[4]- **ثانوية ديكارت:** تقع هذه الثانوية بالجزائر العاصمة، بإشراف المركز الفرنسي في الجزائر، حيث تُطبق في هذه الثانوية نفس البرامج التعليمية المطبقة في فرنسا، و هي موجهة أساسا لأبناء البعثة الدبلوماسية الفرنسية، و الجالية الفرنسية الموجودة بالجزائر، إلا أن هذه المدرسة مع مرور الزمن تحولت إلى قبلة أبناء بعض المسؤولين الجزائرين و كذا بعض أصحاب النفوذ.للمزيد انظر: لونيسي ابراهيم، " قصة شيخ المؤرخيين الجزائريين أبي القاسم سعد الله مع فرنسا الاستعمارية والموالين لها، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، إعداد وتنسيق: نجيب بن خيرة، ، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2014، ص ص (222-230).

[5]- نفسه، ص 222.

[6]- انظر جريدة الشعب، "في ملتقى النجم بباريس"، بتاريخ 18 /6/ 1987م.

المقالة عن إنطباعاته عن هذا الملتقى بوصفه بالعلمانية، و تحدثه عن الكثير من الأحداث التي حدثت بالملتقى بكل جرأة و صراحة، و هو ما أغضب القائمين عليه بالمركز الثقافي الجزائري بباريس المنَّظِم للملتقى، فنشر هؤلاء مقال تشويهي لترجمة المقال و لشخص أبو القاسم سعد الله، نُشر في مجلة أحداث الهجرة. و هو ما دعا بأبي القاسم سعد الله لإعادة نشر مقالة أخرى بعنوان 'حول صراحة المركز الثقافي '، صحّح فيها الإدعاءات الباطلة المنشور في حقه[1].

و نتيجة لهذاين المقالين دفع أبو القاسم سعد الله فاتورة غالية أثرت عليه نفسيا، فحزن لذلك حزناً شديداً على ضياع جهوده و ضياع مشروعه الثقافي، إنها ' نكبة ثقافية ' [2] كما سمَّاها أدت إلى شلل شبه كامل لمشاريعه العلمية، إلا أن صبره وعزيمته لم تمنعانه من إعادة جمع ما ضاع، يقول الأستاذ التهامي مجوري في هذا الخصوص أنه اتصل بالأستاذ سعد الله لمواساته عندما سرقت منه المحفظة و مؤازرته في محنته و ليعرض عليه المساعدة إن كان في حاجة إليها فقال له " ياريت أين نحن من جهد عشرين سنة يا فلان ". يضيف " و مع ذلك سألني ألا أجد عندك نسخة من ' تاريخ العدواني' مطبوعة أو مخطوطة، فذُهلت للطّلب و لجَلد الرجل و رباطة جأشه... فالرجل ضُرب ضَربة تسقط لهولها الكَوكبة من الرجال، و مع ذلك بقى صامداً تألم لوجع الضربة- نعم- و لكنها لم ثتنه"[3].

كانت سنة التفرغ لسنة 1988م، من آخر زياراته لجامعة ميشيغان كأستاذ باحث، فبعد ضياع بطاقاته التي جمعها خلال حلوله ضيفا على هذه الجامعة، سيحاول جمعها من جديد من جامعة مينيسوتا، أما جامعة ميشيغان فكان يزور مكتبتها من حين لآخر حين كان استاذ زائر بجامعة مينيسوتا.

ب- أستاذ زائر بجامعة مينيسوتا:

- جامعة مينيسوتا (1977-1978م):

كانت زيارته لجامعة مينيسوتا هي الأولى بعد رجوعه إلى الجزائر سنة 1967م، بعد غياب دام 10 سنوات، بدعوى من قسم التاريخ بالجامعة لتدريس بها كأستاذ زائر، و زيارة أيضا مكتبتها للبحث في كتابه التاريخ الثقافي الذي بدأ يجمع له مادة علمية طيبة ليخرجه فيما بعد في جزئين كمرحلة أولى.

---

[1]- انظر جريدة الشعب، "حول (صراحة) المركز الثقافي"، بتاريخ 12 /2/ 1988م.

[2]- نفسه، " نكبة ثقافية" ، جريدة الشعب، 1988/12/15م.

[3]- التهامي مجوري، " الدكتور سعد الله علاّمة الجزائر وعلامتها "، الشروق اليومي ، 2014/01/22م.

و قد خصصت له إدارة القسم تدريس مادة ' تاريخ العرب و العثمانين '، و مادة عن ' الشرق الأدنيى ' بالإشتراك مع أستاذه ' ثيوفاني ستافرو' في شكل حلقة بحث على طلبة الدراسات العليا، و قد إستفاد الطلاب منه كثيراً في تدريسهم لهاته المادة، و من المحاضرات التي كان يدعى لتأطيرها في الجامعة[1]. كما كان يساعد عدة طلبة في الدراسات العليا لإعداد أطروحاتهم، خصوصا ما تعلق منها بموضوع حول الجزائر، و في هذا الخصوص ساهم أثناء تلك الفترة بمناقشة مذكرة ماجستير بكلية الصحافة بجامعة مينيسوتا أعدها الطالب ستيوارت بوليون حول ' الإعلام في الجزائر '[2].

و بالرغم من تمديد جامعة الجزائر تفرغه لسنة أخرى إلا أنه فضل الرجوع إلى الجزائر، بعد فك إرتباطه بقسم التاريخ بمينيسوتا، و إنهائه جميع دروسه، و عدم تمديد إدارة قسم التاريخ تدريسه لديها لسنة أخرى، بسبب الضائقة المالية التي مر بها القسم، حيث كف عن إستقبال الأساتذة بالقسم لذا قرر قضاء تفرغه لسنة الموالية في جهة أخرى، و هي جامعة ميشيغان التي تردد على زيارتها لسنوات بدل مينيسوتا كما أسلفنا، إلى حين ضياع محفظته ثم العودة من جديد إلى جامعة مينيسوتا كأستاذ زائر (1993-1996م).

– جامعة مينيسوتا (1993–1996م):

لم يكن من السهل على أبو القاسم سعد الله تدارك ما ضاع منه في الحقيبة الفقيدة، التي إستغرق في جمعها سنوات طوال، ضاع حلم العمر بضياع تلك الحقيبة التي إنتظر رجوعها طويلا و لكن بدون جدوى. و بعد أن فقد الأمل نهائيا في رجوعها، رفض الإستسلام للأمر الواقع، فقرر الشروع من جديد في عملية جمع المادة العلمية التي ضاعات منه، وفي هذا الأمر تقدم إلى هئية فولبرايت سنة 1993م بطلب منحة كأستاذ باحث، فجاءه الرد بالقبول، و كانت مدتها حوالي 6 اشهر سيقضيها في أمريكا ضيفا على جامعة مينيسوتا لإستدراك ما ضاع[3].

و بمجرد وصوله مينابوليس في 10 اوت 1993م، شرع في عملية إعادة تجميع مادة البطاقات الضائعة من مكتبة جامعة مينيسوتا، إذ و أنه بعد مرور شهرين من وصوله إلى هناك تمكن من تجميع الكثير من

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج4، المصدر السابق، ص ص (274-277).

[2]- نفسه، ص 319.

[3]- (صاحب المقال مجهول)، "رحل أبو لقاسم سعد الله .. و في نفسه شئ عن تاريخ الجزائر الثقافي"، رحيل شيخ المؤرخين الجزائريين : أبو القاسم سعد اله بأقلام أحبائه، إعداد وتنسيق: محمد الأمين بلغيث، الجزائر، البصائر الجديدة لنشر والتوزيع، 2014،، ص 591.

البطاقات المعلوماتية يقول في ذلك: " و أشعر أنني أتيت على معظم المراجع التي كنت جمعت منها المادة التي ضاعت"، بل و أنه وجد مراجع و رؤية جديدة للمسار الثقافي، و تداركا للخطأ الذي صاحب سرقة المحفظة و هو تجميع البطاقات في مكان واحد، فكان هذه المرة يرسل نسخة من كل فصل قام بتحريره إلى الجزائر عند أخيه ' على سعد الله ' ليحتفظ بها، خوفا من ضياعها مرة أخرى[1].

لم تكن المدة التي منحتها له هيئة فولبرايت و هي حوالي 6 اشهر كافية لإستكمال مشروعه و أبحاثه، فكان يدرك جيداً أنه لو عاد إلى الجزائر فسيصعب عليه إستكمالها، فقرر تمديد المنحة سنة أخرى من جامعة الجزائر، إلا أن السنة استغرقت 3 سنوات قضاها في أمريكا للبحث، بعد السماح له من هيئة فولبرايت بتمديد الإقامة، و من جامعة الجزائر بتمديد التفرغ، إلا أنه كان عليه قضاءها دون منحة التي أُستنفذها في منحة فولبرايت في 6 أشهر الأولى، و مع إحالته من طرف جامعة الجزائر على التقاعد[2]، كان عليه أن يجمع بين التدريس و البحث في جامعة مينيسوتا لإعالة عائلته من دخله المحدود من الجامعة المضيفة.

و يجب علينا أن نسجل هنا أن الأستاذ سعد الله عاش أوضاع حرجة بسبب الإقامة، و معاناة شديدة من أجل الحصول على تأشيرة تمكنة من إطالة الإقامة في الولايات المتحدة الأمريكية، لذا وجدناه يطرق كل الأبواب و السبل فيحدث مثلا بعض معارف و زملائه من الأمريكان، و يراسل مؤسسة فولبرايت، و كذا معهد التاريخ بجامعة الجزائر، كما إتصل بوزير الخارجية الجزائري 'محمد الصالح دمبري' للتوسط له من أجل التجديد و التمديد.

و أمام إنسداد كل الأبواب أمامه في بعض الأحيان أشار عليه البعض بطلب اللجوء السياسي، و هو ما كان رحمة الله عليه يرفضه جملة و تفصيلا حيث كان يجيبهم " بأن ذلك غير داخل في الإعتبار أبدا، إن حياتي التي كرستها للجزائر لا يمكن أن تتغير في آخرها بطلب اللجوء السياسي في أي بلد... و فكرة اللجوء قالوها لأحمد فحذرته و أرجو أن يكون ذلك درسا له مدى الحياة لأننا ضيوف و سنرجع إلى بلدنا متى إنتهت

[1] – أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج6، المصدر السابق، ص 24.

[2] – أُحِيل أبو القاسم سعد الله على التعاقد من جامعة الجزائر في جوان 1994م.

الضيافة مع شكرنا لضيفنا "[1]. وهو ما أكده ابنه احمد سعد الله الذي ذكر أن والده كان يشدد كثيرا على هذه المسألة و يعتبرها غير قابلة لنقاش[2].

و خلال إقامته بأمريكا تقدم إلى الجامعة بطلب عمل لتدريس بها، فخصصت له إدارة القسم بعض المواد لتدريسها طيلة 3 سنوات التي قضاها هناك، و كانت معظم المواد التي درسها تتعلق بقضايا العالم العربي و الشرق الأوسط لعلنا نذكر منها:

- تاريخ العرب الحديث
- تاريخ الدولة العثمانية
- النقد الثقافي المعاصر
- الوطن العربي في الحالة الراهنة
- الشرق الاوسط

إلا أن تدرسه بالجامعة وحدها لم يكن يكفي لتغطية مصاريفه اليومية من مأكل ومشرب، ومصاريف صحية، و دراسة ابنه.....الخ. فلم يكن لدخله المحدود من الجامعة أن يكفي لكل هذا، بالإضافة إلى صعوبة الحياة و غلائها بأمريكا، و كذا أموره البحثية التي كانت تكلفه الكثير في رقنها و نسخها و إرسالها، و في شهادة للأستاذ إبراهيم لونيسي حوله ظروفه عندما كان مغتربا بأمريكا " أن سعد الله مرت عليه أيام كان يتضور فيها جوعا لعدم أيجاده ما يأكل نظرا لظروفه و حالته المادية الحرجة"[3]. أمام هذا الوضع فقد إضطر سعد الله أن يتقدم بعديد الطلبات إلى جامعات و معاهد أمريكية لمحاولة قبوله لتدريس بها. فكان غالبا لا يلقى رد على طلباته أو يلقى تهرب المسؤولين من ذلك، في هذا الشأن يقول سعد الله في رسالة وصلته من أخيه 'على سعد الله' من الجزائر أنه أشيع عنه في الجزائر بأنه يتسول في أمريكا" كلام صحيح- سعد الله- لحد كبير

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج6، المصدر السابق، ص 106.

[2] - مقابلة شخصية مع أحمد سعد الله، بالمركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر بالأبيار يوم الاثنين 2017/1/30م.

[3]- مقابلة شخصية مع الاستاذ ابراهيم لونيسي، جامعة سيدي بلعباس، يوم 2014/12/17م.

لأن طلباتي للعمل كل ذلك نوع من التسول و الله أعلم !!!". و في هذا الخصوص تم قبوله من طرف معهد اوغسبورغ(Augsburg) لتدريس لديهم في الفترة الصيفية جويلية 1995م، مادة عن "الشرق الاوسط"[1].

و للأمانة،؛ يمكننا القول أن ما عاناه أبو القاسم سعد الله طيلة هذه 3 سنوات التي قضاها في أمريكا لم يعاني منه قط في حياته، حيث كانت هذه السنوات قاسية جدا على نفسه، فإلى جانب صعوبة الحياة بأمريكا و غربته و وضعه المادي، كان إبتعاده عن وطنه يُسبب له ألماً عميقا و قلقا شديدا على مصيره، خاصة لما كانت تمر به الجزائر في ظل الأوضاع الأمنية المتردية التي كانت تعيشها. كانت الجزائر تعيش في أعماقه و تلازمه في أحلامه و يقظته و قد عبر عن ذلك في رسالة أرسل بها إلى الأستاذ يوسف مناصرية يقول فيها: " الهموم التي تلازمني في كل لحظة عن مصير الجزائر، و قد طالت الأزمة و استفحلت و ليس بيدي ما أقدمه من حلول سوى دعوات العجائز و زفرات العاجز، فيا لها من مصيبة ما كان أغنانا عنها لو وجدت ذوي عقول واعية و مشاعر مخلصة و عزائم مسؤولة "[2].

فلطالما كان يحدث نفسه بأن عليه أن يكون إلى جانب طلابه و شعبه في هذه الظروف الصعبة التي يمر بها الوطن، إلا أنه كان يعزي نفسه بأن ما يقوم به هنا في أمريكا هو لصالحهم جميعا، و كل ذلك يهون أمام سعيه لتحقيق الهدف الأسمى الذي سطره لنفسه من الوصول بهذا الحلم إلى محطته الأخيرة و هو أن يقدم للجزائر و البحث العلمي عملا يشرف أجيالها الماضية و اللاحقة[3].

و قد يجهل الكثير المعاناة التي عانها أبو القاسم سعد الله من أجل إتمام هذا الحلم، و الذي أخذ من ماله و عائلته و صحته الشئ الكثير، و الذي يرى أبو القاسم سعد الله في جسمة النحيل قد يفهم ما نعني بذلك، و المتتبع ليومياته المعنونة بمسار قلم سيعرف أن المرض وسعد الله كانا "صديقان حميمان" على حد قوله، ذلك أنه لا يكاد يمر يوم دون أن يشتكي من سقم أو ألم مر به. و كان في كل زيارة لـــ و.م.أ يزور فيها الطبيب للمعاينة، ولا نبالغ إن قلنا إن جميع أعضاء جسمه كانت محل مراجعة أو معاينة من طرف الأطباء في أمريكا. ذلك أن جُل أمراضه المزمنة كانت منذ إعتكافه على البحث و المراجعة في كتابه التاريخ الثقافي، و كان في كل

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج6، المصدر السابق، ص 112.

[2]- يوسف مناصرية، "سعد الله ومحنة الوطن "، أعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا...، المرجع السابق، ص 368.

[3]- مقابلة شخصية مع أحمد سعد الله، بالمركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر بالأبيار يوم الاثنين 2017/1/30م

مرة يزور فيها الطبيب، كان ينصحه بأخذ قسط من الراحة، لأن الأمراض التي يشتكي منها عموما كانت بسبب الإرهاق و التعب[1].

و كان الأستاذ ناصر الدين سعيدوني قد حدثنا عن هذه المعاناة التي واجهها سعد الله، و ذلك في عدم قدرته الكتابة على الكتابة لمدة 6 أشهر تقريبا حيث يقول : " و لعلي لا أنشر سراً إن رويت حادثة أطلعني عليها الأستاذ أبو القاسم سعد الله تبين للقارئ مدى الجهود و المعاناة التي واجهها في عمله و التي كانت بمثابة الثمن المتوجب دفعه لإنجاز هذا الكتاب، و ملخص هذه الحادثة أن الأستاذ أبو القاسم سعد الله عندما غادر الجزائر صيف 1993م إلى أمريكا و هو مثقل بالعمل و منهك بالجهد و محبط لتطورات الأوضاع في الجزائر إحتبست نفسه عن الإنتاج و كلّت ذاكرته عن العطاء، و لم تطاوعه أفكاره حتى أن يده لم تطاوعه على مسك القلم، فماله الأمر هو الذي لا يجد نفسه إلا في الكتابة و لا يحقق ذاته إلا في الإنتاج، فظن أنه قد أصيب بمرض يعجزه عن تحقيق ما يراه رسالة ملقاة على عاتقه، فتردد على الطبيب و مارس الرياضة، لكن أصابعه لم تطاوعه على الكتابة، و ظل كذلك حوالي نصف سنة إلى أن تغلبت فيه النفس الآملة و إنتصرت العزيمة الصامدة فعاد إلى المترل في أحد الأيام و هو فرح لا يكاد يصدق نفسه بعد أن خط بعض السطور"[2].

إلا أن سعد الله لم يكن يأبه لكلام الأطباء، فلطالما كان يحدث نفسه بأن ايامه أصبحت معدودة و أن إستسلامه للمرض سيوقف مشروعه الحلم الذي جاء من أجله، فلم يكن يرْكن لراحة قط، كما أن عائلته كانت بحاجة ماسة له لتوفير لقمة العيش فدخله المحدود من تدريسه بالجامعة لم يكن يكفي كما أسلفنا، و بالمقابل كان راتبه بالجامعة لا يوازي الأعمال التي كان يقدمها و الجهد الذي كان يبذله فيها، و هذا ما صرح به أحد الأساتذة العاملين بجامعة مينيسوتا بقوله: " أن الجامعة تستغل فيك لأن أجرك ليس ثمنا لخدماتك الحقيقية "[3]، هذا فضلا عن إشرافه و توجيهه لعديد من الطلبة بدون مقابل !!!.

و لأن المصائب لا تأتي فرادى؛ فقد زاد من معاناته وفاة والدته ' العبيدية هالي'، إذ اقترن ذلك بقلة المال الذي منعانه من زيارتها في آخر أيامها عندما إشتد المرض بها، و كل ما كان يخشاه هو أن تلفظ أنفاسها الأخيرة و هو في غربته بعيد عنها، و قد سجل هذه اللحظات في الجزء السادس من يوميات مسار قلم، فقد

---

[1] [1] مقابلة شخصية مع أحمد سعد الله، بالمركز الوطني للبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر بالأبيار يوم الاثنين 2017/1/30م.

[2] – مقابلة شخصية مع الأستاذ ناصر الدين سعيدوني بمترله بالعاصمة يوم الثلاثاء 2017/1/24م.

[3] – أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج6، ص ص (196-197).

كتب بتاريخ 31 جويلية 1994 "... إن هذه البلاد بعيدة جدا و السفر منها و إليها مكلف للغاية، و أنا الآن أبحث عن طريقة أعيش بها الشهور القادمة، أما الوالدة فكل ما أخشاه أن يدركها الموت دون ان أراها- لاقدر الله- إن نفسي تحدثني بذلك و يالها من مصيبة أن يقع ذلك، و لكن لابد من الصبر لقضاء الله"[1].

و كتب أيضا تحت تاريخ الخميس 18 اوت 1994م " وصلتني رسالة أمس من أخي على يصف فيها الوالدة وصفا ميؤس منها و كأنها في حالة إحتضار، إنزعجت كثيرا و قد إقترح علي أن أزورها قبل النهاية لمدة أسبوع، إنني لا إعرف كيف أفعل ذلك و أنا على هذه المسافة من البعد و الخصاصة المادية و الحالة العائلية و الحالة الأمنية في الجزائر و السفر سيكلفني على الأقل ألفي دولار و أين هي الآن".

و قد حدث ما كان الأستاذ سعد الله يخشاه، إذ توفيت والدته دون أن يراها و لم يتمكن من الحضور إلى جنازتها يوم 8 افريل 1995م " أخير وقع الذي كنت أخشاه و أتوقعه، وصلني خبر وفاة الوالدة العزيزة على نفسي توفيت 7 افريل 1995م... يالله هكذا إختفى الرمز الذي كان يشدّني إلى البلاد و الوحش الذي كان يحملني إلى أن اهتف كل شهر لأسمع صوتها الملائكي...كلما تذكرت سالت دموعي و أحسست بشعلة تضطرم في صدري حزنا إنني أحسست بأنني يتيم لأول مرة في حياتي"[2].

و في ظل هذه الظروف، و عدم قدرته العودة إلى الجزائر، لنصح الكثير من أصدقائه التريث و عدم المجئ بسبب وضع البلاد الأمني، و أمام إعتذار قسم التاريخ عن تقديم عروض لتدريس خلال سنة (1997-1998م)، بسبب الضغط المالي الذي يمر به القسم، و الضغط من الزملاء الأساتذة الذين رأوا فيه عنصرا " دخيلا " على حد قوله، فقد إنتابهم نوع من الحسد و الغيرة إتجاهه، بما معناه ' أن صفة الأستاذ الزائر قد طالت' ؟؟؟.

و بعد أن تأكد الأستاذ سعد الله من أن حلمه قد إكتمل تحقيقه بكتابة مقدمة لكتابه تاريخ الجزائر الثقافي، و كان ذلك في أفريل 1996م، شرع في التفكير بالرجوع إلى الجزائر أو على الأقل التوجه إلى إحدى الجامعات العربية لتدريس فيها تمهيدا للرجوع إلى الجزائر، و في ذلك تقدم لعدد من الجامعات بطلبات عمل لتدريس بجامعاتها منها كندا و السعودية و أستراليا و القاهرة و الأردن ....الخ. كانت جامعة ' آل البيت' بالأردن هي أول جامعة تخبره بقبول توظيفه فيها إبتداء من سبتمبر 1996م، إلتحق بها بعد مساعي السفير

---

[1]- نفسه، ص 83.

[2]- (صاحب المقال مجهول)، رحل أبو القاسم سعد الله ....، ، المرجع السابق، ص ص (593-594).

الهاشمي قدوري، الذي أرسل ملفه إلى رئيس جامعة آل البيت مع ملحقه الثقافي الأستاذ ' العربي خيروني '، و بالتنسيق مع أصدقائه عبد الله الركيبي و محمد الميلي. و هكذا غادر الأستاذ سعد الله مينابوليس و جامعتها مينيسوتا في 22 أوت 1996م، و قد كان حين إستقراره بالأردن قد تردد على زيارة الو.م.أ عدة مرات للبحث و للإشراف على دراسة نجله أحمد سعد الله[1].

أبرز ما يمكنه القول عن رحلات سعد الله الطويلة بأمريكا لإنجاز مشاريعه الثقافية أنه عاني الكثير من المصاعب و المشاكل إلا أن أصعبها و أقساها على الإطلاق هو إبتعاده المتكرر عن الجزائر، و الذي كان لمدة طويلة، و لم يعان خلال هاته السنين ما عاناه حين قرر الذهاب إلى الو.م.أ سنة 1993م، لإستكمال العمل في ما بقي من أجزاء مشروعه تاريخ الجزائر الثقافي، و لتدارك ما ضاع في الحقيبة الفقيدة، فالمدة التي بقيها هناك دون أن يرى وطنه الذي أحبه كثيرا، و الذي كان دائما يأبى إلا أن يكون تابعا له في جميع إرتباطاته كانت من أشقِّ اللحظات على نفسه، إلا أنه كان يعزى نفسه أنه كان يفعل ذلك من أجل الجزائر و لكي يقدم عملا يشرف أجيالها الماضية و اللاحقة.

ثانيا– تدريسه بجامعة الجزائر(1967–2013م)[2]:

1–: ظروف إلتحاقه بجامعة الجزائر:

بعد حصوله على شهادة الدكتوراه من جامعة مينيسوتا سنة 1965م كان على أبو القاسم سعد الله الرجوع إلى الجزائر لتولي مهمة الأستاذية بجامعة، إلا أنه عدل عن الرجوع بسبب الأوضاع بها، حيث كانت تمر بمرحلة إنتقالية على إثر وقوع انقلاب جوان 1965م، و بالتالي أرجأ أمر سفره إلى حين إستقرار الأوضاع، و ذلك بالإستفادة من التكوين الذي تتيحه التأشيرة الأمريكية و هو تدريس سنتيتن في التخصص كما أسلفنا الحديث، وبذلك درّس بجامعة أوكلير التي إستقبلته فيها كأستاذ مساعد لمدة سنتين (1965–1967م).

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج6، المصدر السابق ص 245.

[2]– نشير إلى أن تدريس أبو القاسم سعد الله بجامعة الجزائر قد تم على مرحلتين المرحلة الأولى من (1967–1993م) و المرحلة الثانية (2002–2013م) بعد عودته من جامعة آل البيت بالأردن، أين تعاقد مع جامعة الجزائر كأستاذ متقاعد متعاقد.

و كان سعد الله قد زار الجزائر من قبل سنة 1966م، للبحث في موضوع إلتحاقه بجامعة الجزائر، و إتصل بمديرها حينئذ ' مالك بن نبي' لنّظر في معادلة شهادته، لأن الشهدات الغير فرنسية لم يكن يعترف بها وقتها، و إنما تصنف في مستوى حامل دكتوراه الحلقة الثالثة، لأن الثقافية الفرنسية و الأيدولوجيات الفرانكوفونية كانت هي المسيطرة على مقاليد الأدارة بالجامعة، فلذلك كان المثقفون لايصنفون حسب درجاتهم العلمية و إنما بمصدر تخرجهم، لذلك كانوا لا يعترفون إلا بالشهدات الفرنسية.

كما أنه لم يكن في الجامعة تخصص تاريخ بالعربية، و انما أستحدث في السنة الموالية بعد إزدواجية الأقسام (المعربة- المفرنسة)، و بالتالي لا يوجد له مكان بالجامعة إلى حين إستحداث هذا الفرع، و أيا كان فقد كانت الزيارة ' لجس النبض ' فحسب لأنه كان له عقد مع جامعة أوكلير لسنة الموالية (1966-1967م)، و لكنه كان يسعى لتأمين التحاقه بجامعة الجزائر لسنة الموالية (1967-1968م)[1].

بعد سنتين من التدرس بجامعة أوكلير، كان على سعد الله مغادرة أمريكا، بعد إستنفاذه المدة المعطاة له في التأشيرة، رغم أن هنالك مجال لتّحايل في البقاء فيها عن طريق الزواج أو طلب رسمي من الجامعة التي عرضت عليه تجديد العقد للعمل معهم، إلا أن سعد الله إمتثل لتعهداته في المغادرة، و أبدت الجامعة أسفها على لسان مديرها لعدم تمكنه من تجديد العقد معهم.

عاد سعد الله إلى الجزائر في أكتوبر 1967م لتدريس بجامعتها الوحيدة انذاك، و كان قد سبق ذلك مراسلات المسؤولين بها لتحديد درجته و تعديل شهادته، فإتصل بالعميد و مدير التعليم العالي و الأمين العام لوزارة التربية ثم الوزير نفسه، كل ذلك لم يُوصله إلى أي نتيجه نهائية و هي معادلة شهادته. و سعد الله كان مثله مثل كل من تخرج من جامعات غير فرنسية، إذ لا يعترف إلا بهذه الأخيرة، لأن الجامعة كانت تحت النفوذ الأكاديمي الفرنسي ببرنامجها و إدارتها و مكتبتها ، بل أن الجامعة الجزائرية كلها كانت جزائرية الإسم فقط، ذلك أن المناهج و البرامج و اللغة كانت من العهد القديم، إذ كانت الفرنسية هي السيدة الأولى مقارنة بالعربية، بل أن معظم المواد الدراسية و حتى التاريخ الوطني كان يُدَّرس من طرف الفرنسين أنفسهم، وهو المعطى الذي جعل ظلال المدرسة الفرنسية تهيمن على نسبة المشتغلين بها.

فالمرحلة التي إلتحق فيها سعد الله أستاذا بالجامعة الجزائرية، تميزت بنقص واضح في الإطارات الوطنية، أو إنعدام الإطارات الوطنية الكفأة إذ كان جل الإطارات الوطنية عندئذ لم يستكملوا شهداتهم

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص ص (354-355).

العلمية، و الأجانب الذين كانو يمثلون العمود الفقري لإطارات الجامعة فقد كان أغلبهم من المتعاونين الجدد الذين ليس لهم تجربة طويلة في الحياة الجامعية فلم يسهموا في تنشيط البحث الجامعي، و إذا ما بحثوا فإنما يكون بحثهم في مجالات تفيد بلادهم الأصلية أو جامعتهم التي أوفدتهم.

لذلك فإن الجامعة الجزائرية في هاته المرحلة قد إهتمت حسب سعد الله بالتعليم أكثر من البحث، أو رفع نسبة الأمية في المستوى العالي إن صح التعبير، فكان تعليمهم غير وطني لسيطرة الأجانب على إطاراتها، و كان تعليما غير موظف لخدمة التنمية، لأن اعتماد البرنامج كان على مناهج غربية عن واقعنا، كما كان تعليماً غير موحد الهوية لسيطرة اللغة الفرنسية فيه على العربية، و بإختصار كان التعليم الجامعي يمر بمرحلة إنتقالية، لم يسمح للجامعة أن تؤدي دورها الأساسي و هو أنها " موؤسسة وطنية لخدمة الوحدة الوطنية و الهوية العقلية للبلاد والحقيقة الاجتماعية للدولة"[1].

و هناك أيضا وقوف صلب في وجه التعريب، و مادام سعد الله يمثل الإتجاه العربي المعادي لفرنسا و شهاداته العليا من غير فرنسا، فقد وقفوا جميعا عقبة في طريق تعديل شهادته، فكان الأستاذ سعد الله مع أقلية من المعربين الذين التحقوا بجامعة الجزائر، أن يخوض صراعا مريرا مع القوى العلنية و الخفية التي كانت تؤسس لبقاء الجزائر فرنسية، و لو حصلت في ظاهر الأمر على الاستقلال. و على كل حال و شعورا منه بالمصلحة العامة، و حتى لا تضيع عليه سنة بلا عمل قبل بدرجة مكلف بالتدريس حتى تتقرر المعادلة، في حين نجد البعض اللآخر قد قبلوا بما عرضوه عليهم كأساتذة مساعدين أي في مستوى حامل دكتوراه الحلقة الثالثة، بينما هو رفض هذا العرض و دخل في صراع مع رئيس الجامعة عندئذ ' يوسف منشلية ' و السيد بوزاهر المكلف بالمعادلات. و قد عرضوا عليه عدة تسميات كلها دون التسمية التي تعني الإعتراف بشهادته على أنها دكتوراه دولة فرفضها.

و خلال هاته الفترة حاول سعد الله إثبات شخصيته الأكاديمية بتدرسه و بالمشاركة في النشاط العام من محاضرات و الكتابة و أعمال اللجان، و تولية مهام إدارية بالجامعة، لدفع المسؤولين الإعتراف بمؤهلاته، و بالفعل تم الإعتراف بشهادته في أكتوبر 1968م، و هو التعين الذي يُعطي لصاحبه لقب ' أستاذ محاضر' و الذي لا يحصل عليه إلا حامل دكتوراه دولة، و ذلك بعد حوالي سنة من الضغوطات النفسية، فلم يستلم راتبه لمدة تسعة أشهر، و بقاؤه بلا سكن كل تلك الفترة، يقول صديقه عبد الله الركيبي: " لا أنسى أبدا أنني زرته و

[1]- أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق، ص ص (87-88).

كان معي الصديق عبد الله عثمانية، فوجدناه ينام في مترل خاله المرحوم الأديب حفناوي الهالي و رأيت المطر يتساقط من على سقف الحجرة التي كان ينام فيها و كان الفصل شتاء... و قد تحمل هذا بصبر لأنه كان بإمكانه أن يعود من حيث أتى ولا يتعرض لمثل هذا الوضع بَيْد أنه فضل أن يبقى في وطنه و أن يعمل مع زملائه من أجل جامعة جزائرية وطنية متطور"[1]

فلولا الغيرة الوطنية و شعوره بأن لديه رسالة اتجاه شعبه و طلابه، لما بقي أبو القاسم سعد الله في تلك الظروف التي عايشها يقول عن ذلك: " لماذا يتعذب الإنسان في سبيل الوطن ؟ أليس الوطن هو حيث يجد الإنسان الإحترام و الراحة و الحرية ؟ هل يمكن أن يكون السجن وطنا ؟....إنني أعتقد أن حب الوطن من الإيمان و الإيمان شئ في القلب و ليس في عذاب الإنسان لنفسه هكذا، إنْ كان من الممكن أن أعمل في سبيل الوطن و أنا في الخارج و قد يكون ذلك أفضل لي و له "[2].

فسعد الله فضّل الكفاح بروح نضالية عالية في سبيل خدمة الجامعة و تكوين إطارات وطنية تؤمن بالثقافة و الهوية العربية الإسلامية، بعد أن وقف صامدا أمام خصوم الثقافة العربية، و في الأخير لم يجد هؤلاء بُدا من إرجاع الحق لأصحابه، و هو ما جاء على لسان أحد المسؤولين بالجامعة بقوله: " إنهم كانوا يتمنون و يتوقعون انك ستكره الوضع و المعاملة و تغادر البلاد و هكذا يتخلصون منك و يخلوا لهم الجو كما فعلوا مع فلان و فلان الذي لم يطق المعاملة و رجع من حيث أتى "[3].

2-: منهج أبو القاسم في التدريس:

ينفرد الأستاذ أبو القاسم سعد الله بخاصية متميزة في إلقاء دروسه حيث لم تختلف تجربته التعليمية بسابقتها كما هو الحال بأمريكا، فقد حاول الأستاذ سعد الله تطبيق الطرق الحديثة في التدريس و نقل مايمكن نقله من تجربته الأمريكية في ميدان البحث العلمي لإستفادة الجامعة و الطلبة منها، و في هذا الصدد سنحاول الإعتماد على شهادة بعض الأساتذة الذين كانوا قد درسوا عليه في سنوات مضت في تبيان منهجه في التدريس.

---

[1] – عبد الله ركيبي، " صديقي الدكتور أبو القاسم سعد الله"، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، المرجع السابق ، ص ص(486-487).

[2] – أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج3، المصدر السابق، ص ص (89-90).

[3] – أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 373.

كان الأستاذ سعد الله حريصاً على إلقاء دروسه، لا يتخلف إلا في حالات المرض الشديد، تجده في قاعات الدرس أستاذا مفعما بالحيوية و النشاط، "غزير العلم واسع المعرف يحرص على أن يفرغ كل ما وسعه فهمه و عقله و ذوقه و حسه لطلابه، بكل جديه وعمق"[1]. فهو يقوم بطرح الإشكالية ثم يفسر الأحداث التاريخية و يحللها كأنه عايشها، يسردها بكل تفاصيلها بأسلوب ممتع و شيق يتجلى في شدِّ إنتباه الحاضرين و تركيزهم معه، وكان من حين لآخر يطرح اسئلة لإثراء الموضوع لخلق جو من التحاور بينه و بين الطلاب، فمنهجه في التدريس يعتمد أساسا على التحاور إذ يجعل كل طالب شاء أم ابى فعالا في كل حصة يقول الأستاذ عاشوري قمعون: " كان يقول لنا: لا أحب الطالب الخامل، بل يعجبني الطالب النشيط الذي يشارك و يناقش "[2].

فكان يستمع لكل تدخل من الطلبة ثم يعقب واضعا النقاط على الحروف فيحاورهم و يناقشهم ويحاول إقناعهم بارآئه و يقتنع بآرائهم أن كانت صائبة يقول الأستاذ محمد شاطو " و مع ذلك كان يحرجنا بين الحين و الآخر بأسئلة يتدخل الكثير منا و هو يستمع لكل واحد من غير إقتناع في أغلب الأحيان، ثم يعقب واضعا النقاط على الحروف أي أنه يشير إلى مختلف الهفوات التي تضمنتها الإجابات المختلفة و التي قد تكون في المصطلحات، و قد تكون في اللغة، و قد تكون في سوء توظيف معلومات و قد تكون في المعلومة ذاتها "[3].

فقد كان يسود الدرس جو من المناقشة العلمية الراقية بينه و بين الطلبة، تقول الأستاذة أمينة صاري "و هو في ذلك كان يحاول أن يخرج ما في فكرهم من عصارة علمية. و هو في منهجه هذا يختلف عن منهج بعض الأساتذة القائم على الشرح دون السماح للطلاب بالمشاركة في إدارة النقاش أو القائم على الإملاء و السرد فقط مع العلم أن هذا الاخير يقتل الفكر و يحجره"[4] . و من ثمة تجد الطلبة بمجرد إتمام حفظهم للمادة و إفراغها على ورقة الاجابة في الامتحان تتلاشى تلك المعلومات و لايبقى منها إلا السراب.

---

[1]- عبد العزيز فيلالي، 'شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور سعد الله خالد بتراثه وفكره" ، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، إعداد وتنسيق: نجيب بن خيرة، المرجع السابق، ص 180.

[2]- عاشوري قمعون، المرجع السابق، ص 90.

[3]- محمد شاطو، المرجع السابق، ص 80.

[4]- أمينة صاري، "شهادة من الجيل الأخير من الطّلبة في حق الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله"، الشروق اليومي، 2014/01/04م

و كان رحمة الله عليه يحث الطلبة على الإكثار من قراءة الكتب فكان في كل حصة تقريبا يحضر معه مجموعة من المصادر و المراجع التي تخدم موضوع الدرس، و يحدثهم عن قيمتها العلمية ليستفاد منها الطلبة في أبحاثهم كما هو الحال في وحدة " الجزائر العثمانية "، إذ كان كثير الحديث عن الإنتاج الفكري للعلماء الذين عايشوا هاته الفترة منهم ابن حمادوش، و ابن العنابي، و أبي راس الناصري.....الخ، لتعريف الطلبة بتطور الحياة الفكرية و الثقافية التي ساهم فيها الشعب الجزائري بنفسه بفعل الأوقاف دون الإعتماد على الدوائر الرسمية في البلاد، و لتجلية حقائق هذا العصر بما فيه من نشاط علمي تقليدي و حركة تعليمية و تكذيب الإدعاءات الإستعمارية التي روجت و مازالت تروج إلى اليوم في كتاباتها، أنه لم يكن بالجزائر أي تعليم منظم و لا حياة فكرية فالحديث عن العلماء و التعريف بإنتاجهم الغزير ماهو إلا دليل قاطع على تطور الحياة الفكرية و الثقافيه في هاته الفترة.

أما وحدة الحركة الوطنية فيقول عنها الأستاذ إبراهيم مياسي " أما الحركة الوطنية التي تخصص فيها الأستاذ لذلك فكان يحاضر لنا من ذاكرته مباشرة دون أن يفتح محفظته و تبقى جاثمة على المكتب"[1]. و يضيف الأستاذ مولود عويمر " أن من تقاليد الأستاذ في كل عام خلال الحصة الأخير استضافة شخصية وطنية لتتحدث عن تجربتها النضالية من جهة و لبناء جسر التواصل بين جيل الثورة و جيل الاستقلال " و كان من حسن حظنا إستضافة السيد بشير بومعزة الذي صال و جال بأسلوب طريف و جذاب في تاريخ الحركة الوطنية و الثورة الجزائرية "، فالأستاذ سعد الله كان حريصاً خلال تدريسه على أن يضَّمِن في أي محاضرة يلقيها إيحاءات و رسائل ترسخ في النفس حب هذا الوطن[2].

تلك إذن بعض النماذج من الوحدات التي كان الأستاذ سعد الله يدّرسها و إختلاف كل وحدة عن سابقتها في طريقة تقديم مادتها و لا يسع الحديث لتطرق لجميع الوحدات التي كان يدرسها ولعلنا نذكر أهمها فيما يلي:

- أروبا المعاصرة

- منهجية التاريخ

---

[1]- إبرهيم مياسي، المرجع السابق.

[2]- مولود عويمر، "ذكريات عن أبي العطوف: أبي القاسم سعد الله" ، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، المرجع السابق، ص 372.

- تاريخ الجزائر المعاصر

- الشرق الأقصى

-الجزائر العثمانية

- الحركة الوطنية الجزائرية

- العلاقات الثقافية بين الشرق و الغرب في الفترة الحديث

- الحركات التحريرية في آسيا

- المغرب العربي الحديث و المعاصر

و من جهة أخرى كان يحرص على أن يجعل الطالب محور للعملية التعليمة، و هذا ما تذكره الأستاذة ' أمينة صاري': " ...كان يطلب من الطلبة القيام ببحث أساسي للوحدة، كما يكلفهم في كل حصة بالقيام بأبحاث صغيرة ، كالبحث عن هذه الشخصية أو تلك، و البحث في هذا المصدر أو ذاك حتى بلغ عدد البحوث المنجزة لكل طالب أكثر من عشرين بحث، و كان يسأل بإستمرار عن تقدمهم في البحوث و عن المصادر و المراجع التي تحصلوا عليها و يوجههم إلى أخرى تفيدهم، و بين الفينة و الأخرى كان يتيح الفرصة لأحد الطلبة لعرض بحثه و يُرغّب زملاءه في مشاركته بأفكارهم و أرائهم و مناقشته مناقشة علمية، بالإضافة إلى إثرائه هو رحمة الله عليه لموضوع الطالب بمعلوماته القيمة و الغزيرة "[1].

فالأستاذ سعد الله حريص على تكوين الطلبة تكوينا جيدا خاصة طلبة ليسانس، إذ يؤكد الأستاذ ' محمد العربي معريش' في هذا الخصوص أن أبو القاسم سعد الله كان لا يقبل من المعيدين المتعاونين معه على التدريس إلا من يثق بهم و يذكر أنه تحفظ في ذلك على عدة أشخاص عندما رأى أن التكوين العلمي للطلبة أصبح في تدهور ملحوظ و ذلك بإنتقال بعض الطلبة من السنة الأولى و الثانية بحد أدنى من التكوين، وهو ما إستدعى إعادة النظر في البرنامج و إيجاد مواد في التاريخ المعاصر ضمن السنوات الأولى بإشراف كفاءات علمية مؤهلة لذلك، لبناء قاعدة صلبة في التاريخ الوطني و ضمان تكوبن جيد لطلبة.

[1]- أمينة صاري، المرجع السابق.

و يضيف الأستاذ معريش أنه لم يكن يتسامح في المستوى و التنقيط، لأجل ذلك وجدنا من الطلبة من كرر مادتة عدة مرات و منهم من تحصل على جميع الوحدات في السنوات الأربعة وبقيت له مادة الدكتور سعد الله " و أعرف من الطلبة من أنهى شهادة الليسانس إلا مادة تاريخ الجزائر و إنقطع عن إستكمالها فلما سمع بذهاب الدكتور إلى الخارج عاد و إمتحن في المادة و نجح". فأبو القاسم سعد الله كان يتطلع من وراء ذلك إلى تحصين الطلبة بمعرفة شاملة و تكوين رصين خصوصا في السنوات الأولى لتدرج لتكون بمثابة الذخيرة العلمية التي تحتاجها الأجيال الصاعدة فيما بعد[1].

أما في مرحلة الماجستير فمنهج التدريس يختلف عن مرحلة ليسانس، فقد كان في مرحلة الليسانس يقدم المادة في شكل محطات و قد تختلف ضمن المقياس الواحد من حيث التعدد و التنوع و الزيادة و النقصان من دفعة إلى أخرى معتبرا إختلاف المعلومات و تنوعها تكاملا ضمن الجيل الواحد.

و في الماجستير يقوم التدريس عنده على المنهج العمودي، أي على التركيز و التعمق في مواضيع الوحدات، مع التجديد أو الإستغناء أو تغير المواضيع من سنة إلى أخرى، و هذا ما يذكره الأستاذ ' محمد بلقاسم ' ففي محاضراته لطلبة الماجستير في السنة النظرية الأولى و الثانية خلال السنة الجامعية (1981-1982م) في وحدة ' المغرب العربي الحديث والمعاصر' ركز على الحركة التونسية ثم في السنة التي تليها على النخبة في المغرب العربي ثم على الدين و الدولة في المغرب العربي فالأفكار الوحدوية في المغرب العربي....الخ[2].

وخلال السنة الجامعية (1986-1987م) خلال تدريسه لوحدة الحركات التحررية في آسيا ركز مع طلبته على موضوع الحركة التحررية في الهند منذ بدايات الأستعمار البريطاني لشبه القارة الهندية إلى غاية تخلصها من هذه السيطرة و هكذا و هكذا كان حريصا على التنوع و التكامل في المواضيع من سنة إلى أخرى[3]

كما كان يكلف طلبة السنة النظرية إلى جانب الأبحاث الفصلية و المذكرة السنوية، بتقديم تقارير أسبوعية عن القراءات و الأعمال و إنجاز الأبحاث و هي تقارير كان يقرؤها و يصححها بنفسه، إلى جانب كل هاته الأعمال كان يكلفهم بقراءة أمهات الكتب في الأدب إلى جانب الكتب التاريخية كالعقد الفريد لابن

---

[1] – مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد العربي معريش، بجامعة الجزائر يوم الثلاثاء 2017/1/24م .

[2] – مقابلة شخصية مع الاستاذ محمد بلقاسم، بجامعة الجزائر يوم الاثنين 2017/1/23م.

[3] – مقابلة شخصية مع الأستاذ ابراهيم لونيسي بجامعة سيدي بلعباس، يوم 2017/5/20م

عبد ربه، البيان و التبين للجاحظ، و الكشاف للزمخشري، و وحي القلم و وحي الرسالة .....الخ. بهدف تحسين لغتهم في الكتابة و التحرير.

و يضيف' الأستاذ محمد بلقاسم' " أنه كان يكلف الطلبة الذين تجاوزوا السنة النظرية في الماجيستير و الذين كان يشرف عليهم بتحضير أبحاث في مواضيع مختلفة عن التاريخ أو غيرها و عرضه في حلقات البحث على طلبة السنة النظرية"، و كان المغزى من ذلك هو تهيئة الطالب للتدريس والبحث قصد تكوين جيل من الباحثين و المؤرخين الأكاديميين في التاريخ الوطني و العالمي [1].

3 –: منهجه في التعامل مع طلبته :

جمعت الأستاذ سعد الله بطلبته علاقات طيبة، فتعامله معهم كان كتعامل الأب الحنون العطوف على أبنائه، يستمع إلى إنشغالاتهم و يهتم بآرائهم و يساعدهم و يوجههم كلما طلبوا منه ذلك، فكان مثالا راقيا في التواضع و العطف على طلبته و هو في ذلك لا يفرق بين طلبته أو طلبة آخرين لم يتتلمزوا على يديه، بل معاملته لهم كانت على حد السواء خصوصا و إن التمس في الطالب الجدية و الصرامة في العمل[2]، عن ذلك يقول الأستاذ محمد شاطو " عندما تنتهي المحاضرة كان الطلبة يلتفون حوله كل يستفسر عن شئ، فيمضي وقتا ليس بالقصير لا نحس أنه متضايق منا، غير أنه كان يركز على الإجابة المتكاملة الجوانب حول الأسئلة التي يراها ذات أهمية أما الأسئلة التي لا يراها كذلك فإنه كان يردها على أصحابها بأسئلة بديهية مصحوبة بإبتسامته المعهودة"[3].

فكان الطلبة حريصين على التقرب منه للإستزادة من علمه و إرشاداته النافعة بعد نهاية كل محاضرة، أين ما حل أو إرتحل إلا و تجد أكواما من الطلبة مجتمعة حوله كل يستفسر عما يخصه، فهذا يستفسر عن بعض المراجع و المصادر و هذا يطلب الرأى لخطته البحثية و الآخر في مواضيع بحثه ....الخ، فكان رحمة الله عليه لا يتردد في الإجابة على تساؤلاتهم و كان يعطي لكل ذي حق حقه و لا يبخل بأي معلومة مهما كانت صغيرة.

و أحسب أنني كنت من هؤلاء الطلبة الذين كانوا حريصين على التقرب منه للإستزادة من علمه، حيث أذكر وقتها عندما كان في زيارة إلى الجامعة الأفريقية أحمد دراية بأدرار سنة 2010 لإلقاء محاضرات

---

[1]– مقابلة شخصية مع الاستاذ محمد بلقاسم، بجامعة الجزائر يوم الاثنين 2017/1/23م.

[2]– مقابلة شخصية مع الأستاذ ابراهيم لونيسي بجامعة سيدي بلعباس، يوم 2014/4/28م.

[3]– محمد شاطو، المرجع السابق، ص 79.

على طلبة الماجيستير و اثراء تحصيلهم العلمي، فقام وقتها أيضا بتنشيط محاضرة على طلبة ليسانس و كان المدرج ممتلئ بالطلبة الذين كانوا متشوقين لرؤيته و متطلعين إلى أجوبته حول أسئلتهم التي كانت تأتيه في شكل قصاصات للإجابة عليها، و عند إنتهائه من المحاضرة أسرعت إلى إستيقافه أمام مدخل المدرج لأسئله بعض الأسئلة و أظنها كانت حول تحضيري لمذكرة الماستر في التاريخ فرد عليا قائلا " حاولي أن تكتبي كل إستفساراتك في ورقة و سأحاول الإجابة لك عليها و أرسلها مع بعض الأساتذة –الذين كانوا برفقته أنذك– ". و كم كانت سعادتي كبيرة بلقائه فلطالما كان إسمه و كتاباته يترددون في قاعات الدرس لدينا و ها أنا أقف اليوم أمام شخصه الكريم [1].

و مع كثرة تعاملاته مع الطلبة فقد أساء بعض الطلبة فهم حدود العلاقة بينهم وبينه، فتصرفوا تصرفا غير لائق معه، و هنا يحدثنا الأستاذ مولود عويمير عن تصرف قام بيه أحد الطلبة بالجامعة " ... هذا ما فعله طالب مر علينا و نحن واقفين نتحدث في رواق قسم التاريخ، فسلم علينا بالحضن، فستنكر الدكتور سعد الله هذا السلوك و اعتبره من قلة الأدب ثم شرح للطالب بعدها أدب التعامل بين الطالب و الأستاذ"[2].

كما يذكر الأستاذ إبراهيم مياسي أحد المواقف في تعامله مع طلبته " في إحدى السنوات كان الأستاذ سعد الله يدرس تاريخ الجزائر و كان الطلبة في إضراب و ليس للأستاذ علم بذلك، فدخل المدرج كالعادة ليدرس و كان عدد كبير من الطلبة تريد أن تدرس، و لا تريد تفويت الفرصة، غير أن أحد الطلبة من منظمي الإضراب منع الأستاذ من التدريس بل و تهجم عليه بكل عنف و وحشية و لما سمعت هيئة التدريس بذلك غضبت غضبا شديدا مع الإدارة و قررت معاقبة الطالب عن طريق مجلس التأديب، غير أن الأستاذ سعد الله عارض بشدة هذا الإجراء و قال " كيف أعاقب أحداً من طلبتي أخطأ في حقي و أنا بصفتي أستاذ، فلا يمكن ذلك أبدا ؟ فإني أغفر ذنبه مهما كان "[3].

فكان ذلك قمة التسامح و ذروة الأخلاق النبيلة و قدوة للأساتذة الآخرين، و إن كان الأستاذ سعد الله قد نجح في كسب إحترام كبير من زملائه و طلبته فإن هذا لم يكن نتيجة تخطيط حاصل، و إنما لعدة إعتبارات تأتي في مقدمتها كفاءته العلمية من جهة و التي لا يضاهيه فيها أحد، من خلال ما أكتسبه من خبرة علمية التي جمعها من بئات متنوعة مع طول ممارسته للتدريس في جامعات كثيرة، و من خلال المساهمة في

---

[1]– انظر زيارته لجامعة أدرار في كتابه حبر على ورق ص ص (153– 164).

[2]– مولود عويمر، المرجع السابق ، ص 373

[3]– إبرهيم مياسي، المرجع السابق.

الملتقيات الفكرية و الثقافية. و من جهة أخرى أخلاقه العالية و تواضعه و لباقته و حسن سيرته حتى مع من يسئ لشخصه.

4-: طريقته في تأطير طلابه:

خلال تدريسه بجامعة الجزائر أشرف أبو القاسم سعد الله على تأطير و توجيه العديد من طلبة الدراسات العليا، و كان الأستاذ سعد الله ينفرد بطريقته الخاصة في الإشراف ميزتها الصرامة و الحزم في التكوين و التشدد العلمي و المعرفي، و هذه الطريقة نابعة من رحلته الطويلة و الجادة في البحث العلمي و تجاربه الأكاديمية في الكثير من البلدان. و هذا ما قد يؤكده العديد من طلبته الذين أشرف عليهم، و سنحاول الإعتماد على شهادات بعض الأساتذة في هذا الموضوع و الذين حظوا سابقا بإشرافه عليهم في أعمالهم الأكاديمية.

كان الأستاذ سعد الله يفرض شروطه العلمية و الأكاديمية في الإشراف منذ البداية لمن أراد الإلتزام بها، فكانت له مقاييس منهجية و لغوية لا يتساهل فيها مع طلابه، يقول محمد العربي معريش: " أذكر أنه أملى علي جملة من الشروط سنة 1981م، تبدو اليوم تعجيزية، و ما كان جوابي إلا أن قلت له لأجل هذا أخترتك مشرفا"[1]. فكان على الطالب قبل البدأ بالإشراف أن يقدم تصور أو عدة تصورات أحيانا عن موضوع مذكرته وافيا بجملة من المراجع التي تخدم الموضوع و خطة عمل مبدئية، و اضحة العناصر للموافقة عل الإشراف.

و قبل ذلك كان الأستاذ سعد الله يشترط أن يكون الموضوع موضوعا فكريا و أن يبتعد الطالب عن المواضيع السياسية الحساسة، و هو ما فعله مع الأستاذ رابح لونيسي" أتذكر عندما كنت طالبا في الماجستير في بداية التسعينات، طلبت من أستاذي أبو القاسم سعد الله الإشراف على تحضير الرسالة... فأقترحت عليه ثلاثة مواضيع أحدهما عن السياسية البربرية في الفكر الإستعماري الفرنسي في الجزائر، و ثاني عن فكر حركة الإخوان المسلمين، و موضوع ثالث عن الفكر القومي عند ساطح الحصري، فوجهني إلى الموضوع الأخير قائلا أنه لا يمكن تناول الموضوعين الأولين لأنهما مواضيع جد حساسة لجزائر التسعينات التي كانت تغلي بصراعات حادة بعد أحداث أكتوبر[2].

---

[1]- مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد العربي معريش، بجامعة الجزائر يوم الثلاثاء 2017/1/24م.

[2]- عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق، ص 122.

و هو ما يفسر التوجه الذي رسمه الأستاذ سعد الله لنفسه و هو الإبتعاد عن الخوض في التاريخ السياسي لما قد يثيره من حساسيات، و تفضيله البحث في تاريخ الفكر و الثقافة. كما كان الأستاذ يحبذ فكرة إبتعاد الطلبة في الكتابة عن مناطقهم و جهوياتهم، إذ يذكر في هذا الخصوص أن الكثير من الطلبة يلجؤن في دراساتهم إلى البحث في جهاتهم بحجة السهولة و اليسر في الوصول إلى الوثائق و المصادر و غير ذلك، و في الحقيقة أن ذلك فيه نوعا من الخطأ أو المغالطة إن صح التعبير، فلا يمكن لطالب في نظره في هذا الشأن أن يكون مؤرخا وطنيا، "فقد نسميه مؤرخا محليا"، فالطالب في هذا الأمر سيحتكم إلى نوازعه و ذاتيته عوض الحكم بموضوعية في تناوله للأحداث، يقول في هذا الشان " ... دوما كنت أوجه طلبتي إلى عدم الكتابة عن مناطقهم،... فليكتب الطالب عن جهة أخرى من الوطن ليتعرف أكثر عن الشعب الجزائري و تاريخه، و يعرف التطورات التي حدثت في جهة أخرى، و شعور الناس بالآخرين، و ماذا قدم الآخرون، ثم إن الطالب نفسه سيكون حينئذ متجردا من العاطفة ومن " النستالجية" أو الحنين إلى المحلي...."[1].

و لعل ما يلفت الإنتباه أيضا في تلك المواضيع التي كان يختارها الأستاذ سعد الله هو عدم إقتصارها في البحث على المواضيع الوطنية فحسب، بل توزعت على مختلف التخصصات الإقليمية و الدولية، إذ كان مشروع سعد الله يهدف إلى تكوين جيل من الباحثين و المؤرخين الأكاديمين في التاريخ الحديث و المعاصر تحت إشرافه يبحثون في شتى التخصصات، و هو ما يؤكده الأستاذ معريش: " فيما أذكر أنا شخصيا على سبيل المثال قدمت له ثلاثة مواضيع لكل منها مشروع بحث صغير يتكون من تصور و خطة و بيبلوغرافيا مبدئية فلما راجعته بعد أسبوع اقترح علي موضوعا آخر يتعلق بتاريخ المغرب الاقصى و كلفني بإعداد مشروعه و لم تمضي أشهر قليلة بل أسابيع حتى تنبهت أنه وجه زميلا إلى تاريخ تونس و آخر إلى تاريخ الجزائر و ثالثا نحو اليابان و رابعا نحو أفريقيا ...الخ[2].

و إذا ما تمت الموافقة على الموضوع يبدأ الطالب معه العمل، الذي يبنى أساسا على الصبر و النفس الطويلة في العمل و اللقاءات المتكررة، و تقديم تقارير أسبوعيه أو نصف شهرية على تطور الموضوع و مراجعه الجديدة....الخ. و عند تقَدم الموضوع و توفر المادة العلمية للتحرير، يشير الأستاذ للطالب بالبداية في تحرير الرسالة لينتقل بعدها الطالب إلى المرحلة الأصعب، إذ يراعي الطالب فيها شروط الأستاذ في أسلوب التحرير و كيفية تفسير الأحداث، و الالتزام بالخطة أو إدخال تعديلات عليها حسب المستجدات مع الإلتزام الكلي

[1]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص ص (251-252).

[2]- مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد العربي معريش، بجامعة الجزائر يوم الثلاثاء 2017/1/24م

بالمنهج العلمي، و كانت مواعيد الأستاذ مضبوطة فحين يقدم له الطالب فصلا عن الموضوع يتتبع عمل الطالب بعناية فائقة يدقق العمل مبحثا مبحثا، و يضع حتى أماكن الفواصل و النقط ناهيك عن الجانب العلمي و المنهجي و اللغوي و الأسلوبي[1].

فكان الأستاذ يشير على الطلبة الإبتعاد عن الغموض و الإبهام و التركيز على الدقة في الشرح، و كان يلح على شرح كل كلمة غامضة و تعريف بالأعلام الواردة في النص، إن كان ذلك سيزيد الموضوع وضوحا، و لابد من الإهتمام بالهوامش لأنها تخدم النص، و كان يحترم نقول الطالب مادامت موثقة،كما يحترم أفكاره و تفسيراته شريطة أن تكون معللة و في قالب من النقاش و تعدد الآراء و تكاملها و غالبا ما كان الأستاذ يساعد طلبته في الحصول على بعض الوثائق و المصادر التي قد يعجز الطالب في الحصول عليها[2].

و في المقابل كان لا يتساهل في جانب المنهجية، و يذكر بالمناسبة محمد العربي معريش أنه إستشاط منه غضبا بسبب ذلك ".... و كان ذلك في ثاني مبحث من مباحث رسالة الماجستير، لأنني لم أضع خطا تحت عناوين المصادر و المراجع في الهوامش و هو ما يقتضي تغليظها عند طبع الرسالة و قد حزّ في نفسي.... فرحت أجتهد على تفادي الأخطاء و بقيت أتحرى المنهجية حتى ألفت فيها كتيبا، و كان الإهداء إلى الدكتور أبي القاسم سعد الله الذي علمني منهجية البحث، و قد بلغ الحزم مع أحد الزملاء الأساتذة في السبعينيات أن القي بفصله أرضا "[3].

وتسير جميع فصول الموضوع على هذا النحو في التحرير الـــأول " ثم يبدأ التحرير الثاني بعدها يراجع الطالب عمله و يلتزم بالملاحظات بدقة ثم يحرر الطالب ثانية، و يراجع الأستاذ عمله بدقة تفوق المرحلة الأولى و يعيد العمل للطالب في وقته المضبوط ليحرره للمرة الثالثة، بعد أن يلتزم بجميع الملاحظات، و تكرر هذه العملية إلى أن يفرغ الموضوع من الملاحظات الأساسية و يصبح في شكله المطلوب، و قد يحرر البعض عملهم للمرة الرابعة و حينئذ يقدم العمل في شكله النهائي بعد وضع الخاتمة و المقدمة و ضبط قائمة المصادر و

---

[1]- يوسف مناصرية، "مسيرتي مع أستاذ الجيل أ.د. أبو القاسم سعد الله"، دراسات وشهادات مهداة ...، المرجع السابق، ص 522.

[2]- محمد سي يوسف، "العلامة أبو القاسم سعد الله كما عرفته"، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، ، المرجع السابق، ص 331.

[3]- مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد العربي معريش، بجامعة الجزائر يوم الثلاثاء 2017/1/24م.

المراجع، ثم يأتي في آخر المطاف القراءة و المراجعة الختامية بإحضار الطالب لأطروحته و مناقشة جوانب منها، قبل إخراجها النهائي، ثم يأذن للطالب بطبع عمله و تقديمه للجنة القراءة"[1].

وكان الأستاذ أثناء إنجاز الطالب لرسالته حريصاً على الوقت بُغيته أن لا ينشغل الطالب بشي آخر إلا البحث، حريصاً على الزيارات العلمية للتزود بالمصادر و المراجع الضرورية خاصة اذا كان الموضوع غير جزائري، فإن كان غير ذلك فكان يسعى لطلبته لزيارة المراكز البحثية التي تخص موضوعه في البلد المعني بالبحث، وهو مافعله مع الأستاذ محمد العربي معريش حين سعى له لسفر إلى المغرب للبحث في موضوعه لرسالة الماجستير بعنوان ' المغرب الاقصى في عهد السلطان الحسن الأول (1290-311ه/1873-1894م).

هكذا كان حريصا على طلبة الدراسات العليا لكي يمضو قدما في اعمالهم، و كان لا يسمح لأي طالب في تجديد التسجيل إلا بتقديم تقرير مفصل على تقدمه في إنجاز رسالته، فإن تعذر ذلك أمضى للطالب مع ملاحظة أنه لا يتقدم في عمله بغرض تحفيزه على إنجاز عمله في أقرب الآجال حيث كان رحمة الله عليه يمقت إطالة مدة البحث عن ذلك يقول محمد العربي معريش في إمتعاض الأستاذ سعد الله منه لما تأخر في تقديم رسالته للدكتورة يقول في ذلك " و في ما يتعلق بي شخصيا أبطات في رسالة الدكتوراه حتى أقدم شيئا يشرفني و لكنه كان يمتعض من طول المدة ول م أكن اقدر ذلك الإمتعاض إلى اليوم الذي فاجأتني فيه زوجته و أنا أهُم بمرافقته إلى المستشفى بأنه لن يشفى من مرضه إن لم تناقش رسالتك فاندهشت"[2] .

و في هذا الإطار أيضا ؛كان الأستاذ سعد الله حريص على مصير طلبته و التفكير الدائم بهم، حتى و هو في غربته، التي مكث فيها بعيدا عن الجزائر لمدة تسع سنوات، و هو ما تعبر عنه رسالة مؤرخة بتاريخ 1994/01/16م أرسلها الأستاذ سعد الله إلى الأستاذ إبراهيم لونيسي يقول فيها " لقد سعدت برسالتك... بعد قلق ساورني منذ بضعة أسابيع عن مصير رسالتك...(يقصد أطروحته للماجستير) و أنني أهنك و نفسي على إنتهائك من طبعها و تقديمها إلى المعهد راجيا لها القبول الحسن و منذ شعرت بالقلق المشار إليه كاتبت رئاسة المجلس العلمي بالمعهد إقترحت عليهم التصرف بدلي معاك "[3]. فالرسلة تبرز مدى حرصه الشديد على

---

[1]- يوسف مناصرية ، المرجع السابق، ص ص (522- 523).

[2]- محمد العربي معريش، تجربتي مع الدكتور سعد الله، المرجع السابق، ص ص (102-103).

[3]- ابراهيم لونيسي، رسائل من شيخ المؤرخين الجزائريين أبو القاسم سعد الله (آراء ومواقف)، من وحي الذكرى، المرجع السابق، ص ص (92-93).

أعمال طلبته، فعلى الرغم من وجوده بعيدا عن الجزائر آلاف الكيلوميترات، إلا أنه كان يفكر بجد في مصير أعمال طلبته.

و أثناء انجاز العمل أيضا كان سعد الله يشجع طلبته على كتابة المقالات، و تولي تصحيحها بنفسه لتنشر إن وجدت وسيلة للنشر في وقت لاحق، يقول الأستاذ محمد بن يوسف " كان يقول لنا المهم أن تكتبوا و قد يكون النشر في وقت لاحق، و كان لنا ذلك بعد أن أصدر قسم التاريخ ' مجلة الدراسات التاريخية ' إذ إحتوت أعدادها الأولى على مقالات كثيرة لطلبة الدكتور سعد الله"[1].

و كان حريص على الوقت في تقديم أعمال الطلبة لتنشر في أقرب الآجال بغرض التشجيع على المزيد من الكتابة من ناحية، و من ناحية أخرى قبل أن تخرج أي دراسات في الموضوع أو موضوع قريب، و "معروف علميا قضية السبق في النشر"، و أما الغرض الآخر فهو لأنه على ثقة بأن الرسائل التي يشرف عليها و يأذن بطبعها و صلاحيتها للمناقشة هي رسائل صالحة للطبع، و نجده قد سعى للعديد من طلبته لنشر رسائلهم و دراساتهم في دور النشر يقول الأستاذ عبد العزيز فيلالي في هذا الشأن: "... فقد كان له الفضل في طبع كتابي الموسوم ' المظاهر الكبرى لعصر الولاّة في بلاد المغرب و الأندلس ' بدار المعرفة التونسية، في مدة زمنية قياسية لم تتعد الستة أشهر، بينما ظل ما يزيد على سنتين، في الجزائر ينتظر دوره في الطبع و النشر"[2]. فالأستاذ سعد الله من خلال هذا لم يكن يشرف عل الطلبة فقط في إنجاز رسائلهم، بل كان حريص على متابعة أعمال الطلبة إلى أن تكون أعمالا حرة تسوق في المكتبات العالمية .

و نجده أيضا يدفع طلبته إلى المشاركة في الحياة الثقافية بالكتابة و ذلك عبر نقد ما ينشر في الصحافة و المساهمة في تقديم الكتب و نقدها و كتابة الدراسات و المقالات و نشرها في المجلات.

و في الأخير إذا انتهى الطلبة من رسائلهم، كان بعضهم يفضل فكرة مواصلة تأطير سعد الله لهم في أعمال أخرى، إلا أن الأستاذ سعد الله كان لا يحبذ فكرة أن ينال الطالب الواحد معه شهادتين، لأن ذلك في نظره لا يخدم البحث العلمي، بل من مصلحة الطالب إختيار مشرف آخر يتعلم منه الجديد، بل و حتى

---

[1]- محمد سي يوسف، المرجع السابق، ص ص (330-331).

[2]- عبد العزيز فيلايلي، المرجع السابق، ص 182.

التسجيل في جامعة أخرى أجنبية مثلا يكتسب من أساتذتها و لغتها و مصادرها ما يضيف قيمة علمية إلى بحثه[1].

5-: نشاطه الإداري و الأكاديمي:

أ- وكيل كلية الآداب:

شغل الأستاذ سعد الله بعض المهام الإدارية خلال تدريسه بجامعة الجزائر ، و أول منصب إدراي شغله هو وكيل كلية الآداب بعد فوزه في الإنتخابات التي أجريت في 20 جوان 1968م، و قد كان ترشحه لنيابة بضغط من زملائه لقبول المنصب و إلا فالأستاذ سعد الله كان دائم التهرب من مثل هاته المناصب و عدم ميوله بالأساس للعمل الإداري، أو لمعرفته المسبّقة بعدم فوزه لثقافتة العربية بين المثقفين الفرانكوفونيين أو المفرنسيين بالكلية، يقول في هذا الخصوص في شهادته حول صديقه عبد الله الركيبي " في هذه الأثناء، سعى سي الركيبي وأصدقاؤه إلى ترشيحي نائبا للعميد، إلى أن نجحوا في مسعاهم، وكان ترشيحي في نظرهم منطقيا، لأنني كنت الجزائري الوحيد الحاصل على الدكتوراه. و رغم إلحاحهم، فإنني كنت متمنعا و غير راغب في المنصب، لأنني لا أقدر على الصراع و لا أرغب فيه. وتحت ضغط الأصدقاء أمثاله قبلت الترشح. و للغرابة كانت النتيجة إيجابية لأننا حصدنا على الحد الأدنى للفوز بنائب عميد كلية الآداب"[2] .

و يضيف الركيبي أيضا في هذا الشأن: " ففي أواخر الستينات إقترحت عليه أن يترشح لنيابة العمادة فإعتذر و لكني رفضت إعتذاره فقال لي ' إنهم لا يعرفونني ' و طبعا هو يقصد الأساتذة الفرانكفونيين فقلت له إذا نجحت سيعرفونك و إذا لم تنجح سيسألون عنك و لحسن الحظ فقد نجح، و أشهد أن هناك زملاء كان موقفهم مشرفا في ذلك الوقت اتجاه سعد الله "[3].

و شعورا منه بالمصلحة الوطنية قبل الأستاذ نيابة العمادة على أن تكون تجربة مفيدة لمدة قصيرة إذا نجح في ذلك، و إلا فإنه يستقيل، فلطالما كانت رغبته في التفرغ للبحث العلمي و التدريس، أما المهام الادارية في

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص 233.

[2]- أبو القاسم سعد الله، " الصديق الدكتور عبد الله ركيبي"، الشروق اليومي، يوم 2011/6/6م.

[3]- عبد الله ركيبي، " صديقي الدكتور أبو القاسم سعد الله"، دراسات وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، المرجع السابق، ص485.

نظره فستقف حاجزا أمام إنتاجه الفكري و إستكمال مشاريعه، خاصة مشروعه الثقافي الذي كان بصدد البحث عن مادته العلمية.

و خلال نيابته للعمادة بذل الأستاذ سعد الله جهودا كبيرة في المسؤوليات المناط به و هي التعريب، و وحدة الأقسام المزدوجة و الإصلاح بما يتلائم و جزأرة التعليم و الإطارات ...الخ، و كانت موجة الفرنسة طاغية على الكلية و الجامعة انذاك كما أسلفنا، تقف عثرة أما تجسيد فكرة التعريب و تعميم اللغة العربية، و لطالما وقف سعد الله بإستماتة يدافع عن قضايا التعريب لإنزال اللغة العربية مكانتها التي تستحقها، و دفاعه المستميت عن التعريب نابع من إيمانه العميق بإنجاح المهمة إن وجدت الطريق الصحيح لذلك لكن التغريبيين كانوا بالمرصاد وكانت السلطة الفعلية إلى جانبهم بل بين أيديهم دون سواهم فجندوا كل ما لديهم من طاقات الهدم و التخريب و راحوا يتفنون في إقامة العراقيل المتنوعة .

و هو ما جعله دائم الإصطدام مع هؤلاء يقول في ذلك: " و قد عرفت في هذه الفترة فن العرقلة للتعريب لأنك لا تجد من يعارضك بل تجد من يقول لك: نعم و لكن ... ". و في نطاق التعريب أيضا عُين أبو القاسم سعد الله عدة مرات مبعوثا من وزارة التعليم العالي في مختلف الجامعات العربية بمصر و سوريا والعراق للتعاقد مع الأساتذة للتدريس بجامعة الجزائر[1].

إلا أن أبا القاسم سعد الله لم يطل بقاءه في منصب العمادة و إستقال بعد سنتين من تعيينه في 27 يناير 1972م، و يذكر سبب ذلك بقوله " قدمت إعفائي من العمل في الكلية كنائب عميد بتاريخ 27 يناير 1972م عللت ذلك بحالتي الصحية و حادثة السيارة و لكن الواقع غير ذلك فأنا قد كرهت وضع الكلية الحالي ". لم يكن سعد الله يحس بإرتياح بالكلية و مجلسها فأنصار التعريب قليلون ممن كانوا يقفون إلى جانبه للدفاع عن اللغة العربية و التعريب بالكلية، في حين أن أعداء التعريب كثيرون لا يُرجى منهم خير للتعريب لذلك وجد سعد الله نفسه وحيدا لا سند له[2].

كما و أنه بعد فصل وزارة التربية إلى وزارتين جديدتين الأبتدائي و الثانوي، و العالي و البحث العلمي أصبح العميد يُعين بدل الإنتخاب، كما هو الحال لنوابه الذين يعينون أيضا تعينا و بما أنه في المجلس الجديد في عمادة الكلية قد تم تعيينهم بإستثنائه الذي كان قد أنتخب من قبل، فقد جاء الآخرون بعقلية الولاء

[1]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 387.

[2]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج3، المصدر السابق، ص 290.

لصاحب الفضل في تعيينهم ' و بقاء ما كان على ماكان عليه' و الذي هو التراث و التقاليد الفرنسية و كان ذلك من أسباب سوء التفاهم بينهم و بينه[1] .

و كانت القطرة التي أفاضت الكـــأس هو علاقته بالعميد الجديد في مجلس العمادة ' العميد إدريس شابو' الذي كان على حد تعبير أبو القاسم سعد الله 'معقداً ' منه لمساهمته الوطنية و العلمية، و الذي كان يتحين الفرصة لدفعه للإستقاله و مغادرة نيابة العمادة و هو ما دفع بأبي القاسم لمغادرتها نهائيا يقول في ذلك " كنت أحضر الجلسة التي تكون مع الوزير إبن يحي للحديث عن وضع الإصلاح و العلاقة مع الأساتذة و الطلبة ومنحة رؤساء الأقسام الجدد، ثم نرجع إلى الكلية و نجتمع بهيئة التدريس فيقدم العميد شابو بما انتهى إليه الإجتماع مع الوزير و من عادتي أن أكون موضوعيا و أعلق بأننا قلنا كذا و كذا للوزير على لسان الأساتذة، و أنه رد علينا بما جاء في التقرير و لكن شـــابو لا يريدني أن أعلق و أقدم وجهة نظر أخرى، و إستمر الوضع كذلك بعض الوقت ثم أصبحت لا أدعى للإجتماع مع الوزير، و في يوم من الأيام جئت إلى مكتبي فوجدت أغراضي خارجه و عليه ورقة تقول مكتب السيد العميد و فعلا حوّل شابو مكتبه إلى مكتبي بالاستيلاء عليه من غفلة دون علم مني أو إخطار مسبق و لم أشأ أن أجعل منها قضية تخرج عن إطار العلم و الأستاذية و إغتنمت حادثة السيارة و إستقلت من الوكالة التي لم أرجع إليها مدى بقائي بالجامعة"[2].

ب- رئيس قسم التاريخ:

أُنتخب أبو القاسم سعد الله رئيسا لقسم التاريخ يوم 22 أكتوبر 1969م، بالموازات مع منصب عميد كلية الآداب، أنتخب على رأس قسم التاريخ المعرب بينما كان على رأس قسم التاريخ بالفرنسية محفوظ قداش قبل توحيدها، و كان سعد الله ضد هذه الإزدواجية في الأقسام حتى لا يبقى منفذ يدخل منه دعاة الفرنسة تحت ذريعة فشل التعريب، و كان سعد الله أول من تولى مهمة الإشراف على قسم التاريخ المعرب، بعدما كان هذا الأخير منذ نشأته في يد الأساتذة المشارقة[3]، و قد كرس أبو القاسم سعد الله جهودا كبيرة لخدمته، و ليتبوأ المكانة اللائقة به في تخريج طلاب أكفاء لخدمة التاريخ الوطني، و إرساء قواعد مدرسة تاريخية جزائرية و هو ما راح يجسده على أرض الواقع منذ دخوله للقسم.

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج3، المصدر السابق ، ص 261.

[2]- أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 386.

[3]- تولى رئاسة قسم التاريخ المعرب كل من : أ. محمد الهادي شعيرة (مصر) 1966-1967م. أ. ليلى الصباغ (سوريا) 1967-1968م. أ. عبد المنعم ماجد (مصر) 1968-1969م.

و كان يحرص على التكوين الجيد لطلبة التاريخ سواء من خلال تدريسه الذي كان يتسم بالتشدد العلمي و المعرفي، أو حرصه على جلب أساتذة أكفاء لتدّريس، خصوصا إن تعلق الأمر بتاريخ الجزائر، فكان حريص على أن يتشبع الطالب بتكوين رصين في التاريخ الوطني برؤى نقدية، لتحرير الدرس التاريخي من قبضة المدرسة التاريخية الفرنسية و تفسيرها المغرض للتاريخ، كما أن الأقسام العربية آنذاك كانت تشكو من الطرق التقليدية لكونها يعوزها الإطار الكفء لسيطرة الأجانب على إطاراتها، فكان تعليمها غير موظف لخدمة التنمية، فحاول الأستاذ سعد الله " نقل ما يمكن نقله من أحدث ما توصلت إليه العلوم الإجتماعية من تطور و تقدم من مضانها الإنجلوسكسونية لإنه يدرك تمام الإدراك بأن الغرض من التعليم الجامعي هو تثقيف العقل لا إملاء الحافظة و الحشو بالمعلومات بل غرضه تنمية ملكة البحث العلمي". فسعد الله كان يرى أن التعليم الذي لا يرتقي به الأستاذ إلى درجة التصورات و المقارنات و الإستجابات هو تعليم غير جدير بالجامعة و من ثمة فهو تعليم عقيم لا ينفع المجتمع بشئ[1].

إلى جانب تدريسه ساهم الأستاذ سعد الله في تخريج جيل من الباحثين و المؤرخين الأكاديميين في التاريخ الحديث و المعاصر تحت إشرافه يبحثون في تخصصات وطنية و إقليمية و دولية تلبية لحاجة الجامعة في الإعتماد على إطارتها في التدريس وفي تسيير الجامعة و بالتالي بدأ العد التنازلي في تقليص التعاون مع الأجانب وخاصة الأساتذة بالمشرق .

و هو ما تجسد فعلا في عديد الباحثين و الأساتذة الذين شكلوا في حياتهم مدارس تاريخية رائدة من أمثال الأستاذ مولاي بالحميسي، هلال عمار، مياسي إبراهيم، يحي بوعزيز، ناصر الدين سعيدوني .... الخ، و الذين أسهموا بتواليف في مجالات عدة في التاريخ الوطني و العربي. و بالتالي فقد أسهم الأستاذ سعد الله مساهمة كبرى في إرساء قواعد مدرسة تاريخية جزائرية.

و كان خلال رئاسته لقسم التاريخ حريصاً على تنشيط الحياة الثقافية بالجامعة، بعقد الندوات و المحاضرات يشترك فيها الأساتذة، من أمثلة ذلك: "ندوة الكتاب , ندوة الاساتذة ...الخ. و كذلك التعاون و جلب أساتذة مختصين من خارج الجزائر لدعم الدراسات التاريخية بالقسم. و عليه فإن رئاسة أبو القاسم سعد الله لقسم التاريخ قد إتسمت بحركية علمية لم تشهدها من قبل لحزمه و جديته و حبه لقسم التاريخ في

[1]-عبد العزيز فيلالي، المرجع السابق، ص ص (180-181).

النهوض به لخدمة البحث العلمي عن ذلك يقول " كنت أحب قسم التاريخ حبًا جمًا، و قد بذلت جهدي في أن يكون أفضل الاقسام و أقواها "[1].

إنتهت مهام أبو القاسم سعد الله في تولي رئاسة قسم التاريخ في 6 سبتمبر 1971م، بعد تعين الأستاذ 'جمال قنان' كرئيس لقسم التاريخ، و يذكر سعد الله أسباب عزله بقوله: "و السبب في إزالتي ظاهر و باطن: أما الباطن فهو إنشغالي بأمور العمادة، أما الباطن فهو معارضتي لضم التاريخ لدائرة العلوم الإجتماعية ودفاعي عن إستقلال القسم كدائرة خاصة لها شخصيتها "[2].

و بغض النظر عن عزله عن رئاسة القسم، فلم يكن ذلك ليقف عثرة في تجسيد مشروعه، في تكوين طلبة ذوي كفاءات عالية لخدمة التاريخ في البلاد، و هو ما تجسد فعلا على مدى تدريسه بالجامعة، حيث أشرف على تخريج العديد من الطلبة في مختلف التخصصات، و الذين أسهموا في اثراء المكتبة الوطنية بالعديد من الكتابات التاريخية بتشجيع من أستاذهم أبو القاسم سعد الله.

جـــ- عضو لجان إصلاح التعليم و التعريب:

عُين أبو القاسم سعد الله عضوا في اللجنة الوطنية لإصلاح التعليم، التي نصبها الرئيس هواري بومدين في قصر زيروت يوسف في 5ديسمبر 1970م، و قد عين سعد الله في اللجنة دون علمه أو إستشارته ممثلا لوزارة التربية الوطنية، و بالرغم من رفضه عضويتها بادئ الأمر بسبب طابعها السياسي، الذي نأى سعد الله بنفسه عن دخول غماره، و بعد إلحاح من زملائه، رأى سعد الله العمل داخلها خدمة للوطن و المساهمة في ميدان التعريب و القضايا غير السياسية الظاهرة، و ذلك بالعمل في اللجنة الوطنية لتعريب و التي هي لجنة فرعية عن لجنة إصلاح التعليم.

و لطالما دافع سعد الله في جلسات اللجنة عن مبدأ التعريب، و الرجوع إلى الحضارة العربية الإسلامية تحت شعار ' التعريب و التراث و الثقافة العربية الإسلامية '، مع الأخذ طبعا بالتقدم العلمي و الاتصال بالخارج، الذي يسعى له الآخرون إلا أنه يرى ضرورة تثبيت اللغة العربية في الوقت الراهن، و لولا ذلك لكان

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم،ج3، المصدر السابق، ص 255.

[2]- نفسه، ص 277.

أول المنادين بالبحث العلمي و التفتح نحو العالم الخارجي، و لكن مع وجود عناصر معارضة لتعريب جعله يكتفي بالدفاع عن موقف قد يراه الآخرون محافظا[1].

د- البحوث و المقالات:

إلى جانب التدريس بالجامعة، عكف أبو القاسم سعد الله على نشر العديد من المقالات في الجرائد و المجلات الوطنية و الدولية، فإلى جانب كونه مؤرخا و ناقدا أدبيا، فقد حلل الوضع الثقافي في الجزائر من خلال التأكيد على الهوية الوطنية ببعدها الإسلامي و العربي، و لإدراكه العميق لأهمية الصحافة و النشر في التبليغ و التأثير، نجده يُسهم بمجموعة من البحوث و المقالات و التآليف التي دار مواضيعها حول تاريخ الجزائر خصوصا فى تلك المرحلة – أي مرحلة ما بعد الإستقلال- أين إرتفعت فيها كثير من الأصوات داعية لإعادة كتابة التاريخ الجزائري و وضع لبنة لتأسيس مدرسة تاريخية بعيدة كل البعد عن مخلفات الإرث الفرنسي الذي خلفته الفترة الإستعمارية بكل تداعياتها في مختلق شؤون الحياة بالجزائر.

لذا نجده يسخر جهودا جبارة لخدمة التاريخ الوطني، و دراسته على ضوء المناهج الحديثة العلمية، مؤمنا بكتابة تاريخ الجزائر برؤية وطنية أصيلة، و هو يسعى بذلك لوضع معالم مدرسة التاريخ المكتوب بالعربية بالجزائر، و تجلت تلك الجهود في البحوث التي فاقت الثمانين بحث، و المقالات التي ناهزت الثمانين، هذا فضلا عن مجموعة من الدراسات التي سيأتي الحديث عنها لاحقا.

و تظهر في كتابات سعد الله منذ الوهلة الأولى شخصيته من خلال منهجه الدقيق في البحث التاريخي معتمدا على البحث الجاد، و تقصي الحقائق، و المقارنة والإستدلال و الإستنتاج ليوصلنا إلى الحقيقة العلمية، بأسلوب سلس بعيد عن التكلف و المبالغة، بحيث يعطي أهمية للمصادر المحلية، فطريقته في كتابة مقلاته تعتمد على أسلوب بسيط وسهل يلتزم فيه بمبادئ منهجية البحث العلمي التاريخي، حيث يقسم مقلاته إلى مقدمة و متن و خاتمة، معتمدا في ذلك على الأسلوب التحليلي للوقائع التاريخية و يصورها بمنهج علمي صرف، ثم يبدي رأيه فيها، و أحيانا اخرى يقوم بالسرد و العرض بإستعراض الأحداث من وحي المصادر و المراجع المختلفة.

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 260.

و سعد الله في مقالاته لم يقتصر على بحوث و دراسات في التاريخ الوطني فحسب، بل تجاوز عطاؤه إلى دراسات فكرية و سياسة تطرق فيها إلى القضايا العامة الداخلية في الجزائر، و قضايا العالم العربي و الإسلامي، بكل جرأة بعيدا عن لغة التمجيد التاريخي. وفي هذا نجد جملة من القضايا التي كان الأستاذ سعد الله شامخا وجريئا في التعامل و إبداء الرأي فيها، و هو ما عبرت عنه كتاباته التي أثارت الساحة السياسية الجزائرية و العربية بداية الثمانينيات و التسعينيات من القرن الماضي، حيث كسرت جدار الصمت حول عديد القضايا خصوصا ما تعلق منها بقضايا اللغة العربية و الهوية الوطنية الجزائرية. و هو ما جعلها عرضة لعدم النشر من أمثلة ذلك ' الشخصية الوطنية و الثقافة الجزائرية'ـــ مقال آخر 'حدثونا عن الوحدة'، 'مؤتمر عربي- عثماني في تونس'.....الخ .

و في إطار البحث لا يمكننا إستفاء جميع المقالات و البحوث التي كتبها سعد الله بالدراسة، بل سنكتفي بالإحالة عليها عبر قائمة بيلوغرافية تضم بعض من مقالاته[1]. و يمكننا تقسيم طبيعة مقالاته إلى 5 محاور رئيسية وهي:

- **المحور الاول:** و هو الأساس و الغالب في مقلاته، خصصه لدراسة شخصيات جزائرية تاريخية و أدبية و فكرية، منها على سبيل المثال 'عبد الرزاق ابن حمادوش الجزائري و رحلته' ، أثار إبن العنابي، 'الشاعر محمد العيد آل خليفة'، ' ثورة الأمير عبد المالك بالمغرب الأقصى من خلال وثائق جديدة'، 'مجاهد آخر حياة الشيخ عبد القادر الياجوري '....الخ.

- **المحور الثاني:** خصصه لمقالات تاريخية خالصة، إستعرض من خلالها حلقة من حلقات تاريخ الجزائر في الفترتين الحديثة و المعاصرة، و منها مقال ' الإتجاه العربي في الحركة الوطنية الجزائرية بين الحربين'،' إهتمامات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقضايا المغرب العربي ' ....الخ.

- **المحور الثالث:** فقد خصصه لمواضيع تاريخية و أدبية عامة حاول من خلال بعضها ربط العلاقة التاريخية الأدبية مثلما جاء في مقال بعنوان ' الأدب و الثورة التكنولوجية'، كما وظّف الأدب و الشعر في المجال التاريخي مثلما جاء في مقال بعنوان ' من حضارة الشعر إلى حضارة العلم '، و مقال آخر بعنوان الشاعر 'محمد بن الشاهد و إحتلال الجزائر'.

[1]- أنظر الملحق رقم 8، ص ص (363-367).

- **المحور الرابع:** خصصه لمقلات سياسية، عالج فيها القضايا العامة الداخلية الجزائرية و قضايا العالم العربي و الإسلامي، مثل مقال بعنوان ' حدثونا عن الوحدة ' إنتقد فيه السلطة بشكل مباشر ، و مقال آخر بعنوان ' مؤتمر عربي- عثماني في تونس '، و الذي إنتقد فيه تونس لإحتضانها مؤتمرات فرانكوفونية، مقال آخر ' عذراً يا عراق' و الذي عبر فيه عن تخازل الجيوش العربية عن الدفاع عن العراق.

- **المحور الخامس:** مقال الخاطرة و هو نوع من المقلات الوجدانية الخاطرية ذات الطابع الإنفعالي التي تصنف على أنها لون من ألوان الذكريات من أمثلة ذلك ' صيف في سوف ' ، و مقال آخر بعنوان ' في أعماق الأوراس '...[1].

و صفوة الحديث فإن سعد الله يعتبر بحق أحد أعمدة المقالة الصحفية، بما دبجته أنامله في مختلف المجلات و الجرائد حول التاريخ الوطني و الشأن الثقافي الجزائري بمختلف قضاياه، فترك بذلك بصماته الواضحة في المدرسة التاريخية الجزائرية الحديثة، من خلال بعث روح البحث و التنقيب عن كل ما تعلق بتاريخ الجزائر الفكري و السياسي و الإجتماعي.

هـــ- المحاضرات و المؤتمرات:

دأب أبو القاسم سعد الله على تنشيط محموعة من المحاضرات خلال تدرسيه بجامعة الجزائر، كمساهمة منه في تنشيط الحركة الثقافية و الفكرية بالجامعة، منها كما أسلفنا ' ندوة الأساتذة ' و 'ندوة الكتاب'...الخ. أو نجده مشاركا في بعضها سواء داخل جامعة الجزائر أو مختلف الجامعات الوطنية التي كانت تدعوه لإلقاء محاضرات أو لتدعيم قسم الدراسات التاريخية بها، و كذا في المناسبات الوطنية التي كان يدعى لها.

و الأستاذ سعد الله في مداخلاته يقدم الجديد دائما، إن لم يكن في المعلومة ذاتها، ففي قراءتها و تحليل بعض جوانبها، فيشد بذلك تركيز الحاضرين إليه، و كان أثناء مناقشته لا يتعصب لرأيه أبدا، يستمع بصدر رحب لمنتقديه بكل تواضع. و يذكرنا الأستاذ محمد شاطو بإحدى مداخلاته بقوله: " في يوم العلم الموافق لـــ 16 افريل دعوناه مع الأستاذ محمد قنانش و الأستاذ مولاي بلحميسي- رحمهم الله جميعا- لتنشيط ندوة تاريخية إحتفالا بيوم العلم، فلما أتم مداخلته الموجزة، التي أثار فيها مسألة التجنيس التي كان يطالب بها دعاة الإدماج و موقف جمعية العلماء من ذلك، و فتوى ابن باديس تجاه كل من يتجنس بالجنسية الفرنسية، فلما

[1]- عبد القادر بكاري، " الجانب التاريخي في فكر الشيخ أبو القاسم سعد الله "، مجلة عصور الجديدة، المصدر السابق، ص ص (331-332).

أُعطيت الكلمة للأستاذ محمد قنانش و إذا به – رحمه الله – يوجه إنتقادات حادة بأسلوب شديد، و كنت أنتظر ردا قويا من أستاذنا، غير أنه ظل هادئا متماسكا واثقا من نفسه دون رد و كان بإمكانه، و لم ينتصر لنفسه تواضعا منه و أدبا و إحتراما لصديقه"[1]. و هي كانت رساله ضمنية لطلبته لكي يتعلموا منها أدب الإختلاف و القبول لرأي الآخر و لعلها، من أبرز سمات العلماء الكبار من أمثاله.

و سعد الله كان يرفض حضور الندوات التي يرى أنها تخدم جهة معينة، لأنه يدرك جيدا أن المرء لا يقول الحقيقة في مثل هاته المناسبات، فالباحث في التاريخ في نظره يجب أن يتجرد من كل ميول أو عداء لأي جهة أو حدث تاريخي، و أن يتناول الدراسة بكل حيادية بعيدا عن تأثيرات شخصية أو جهوية أو سلطوية. و هو ما فعله مثلا عند رفضه حضور ندوة عن الشيخ البشير الإبراهيمي بمناسبة ذكراه السادسة يقول في ذلك:" ...و أول أمس أيضا كانت هناك ندوة عن الشيخ الإبراهيمي بمناسبة ذكراه السادسة في قاعة ابن خلدون، و لم أحضر أيضا ... و كان من بين المحاضرين ستة كلهم تعودوا على الكلام فتكلموا، و من جهة أخرى لي وجهة نظر في دور الإبراهيمي في الحركة الإصلاحية عامة، و لا أظن أن الوقت حان للإعلان عنه، ثم إن إبنه الذي هو الآن في الوزارة يستغل منصبه لهذا الغرض و معظم الكتاب و المتكلمين الآن يتملقون له"[2] .

و نفس الشئ ينطبق على المؤتمرات والمتلقيات العلمية، فكان حريص على أن لا يحضر الملتقيات الجهوية و الإقليمية، شديد التحفظ منها، فالملتقيات في نظره التي ليس وراءها خدمة مباشرة وواضحة للوطن الشامل و للعلم و الثقافة لا تفيد البلاد في شئ، و من أمثلة ذلك إعتذاره المشاركة في الملتقى الثامن لكتابة تاريخ الثورة، الذي نظمته المنظمة الوطنية للمجاهدين، و إكتفى بالحضور فقط و حينها شاهد المشاكل التي خيمت بظلالها على الملتقى، من بينها الإقليمية التي ظهرت في خطاب بعض المتكلمين من المجاهدين القدماء، و منها النزاعات الحزبية الضيقة إنطلاقا من الإنتماءات القديمة و هكذا[3]. يقول في هذا الشأن " لا أحبذ كثرة المشاركة في الملتقيات و الواجب إنتقاء بعضها بما يتلاءم مع الجدية و الإختصاص حتى لا يصبح الباحث كمداح الأعراس و الولائم، و أنا أتصور أن هناك مغريات عديدة لمثل هذا النشاط، أعني الملتقيات الإخوانيات

[1]- محمد شاطو، المرجع السابق، ص 80.

[2]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج3، المصدر السابق، ص 268.

[3]- نفسه، ج5، ص 82.

و الجهويات و حب الظهور، و لعل هناك مغريات مادية أيضا، و مهما كان الأمر فإن العمل الجدي هو الذي يخلد "[1].

و حتى الملتقيات الدولية إذا إشتّم منها رائحة أنها تخدم سياسة أو شخصية سياسية ما، فإنه يمتنع عن حضورها و هنا يذكر الأستاذ معريش في هذا الخصوص أنه تنازل له عن ملتقى دولي عقد ببغداد في جانفي 1987م، و الذي تناول موضوع ' منهجية إعادة كتابة التاريخ العربي' . و إن صادف إن حضر ملتقيات و اكتشف أنها ذات اغراض غير علمية كتب عنها و كشف عن نواياها مثل ملتقى النجم بباريس'[2].

و المحاضرات و المؤتمرات التي شارك الأستاذ سعد الله فيها بورقات علمية كثيرة، لا يسع الحديث لذكرها جميعا و سنكتفي أيضا بالإشارة لها عبر قائمة ببلوغرافية، تضم بعض المحاضرات و الملتقيات العلمية التي أسهم فيها[3].

و في الأخير فإن أنشطة الأستاذ سعد الله كثيرة و عديدة، أثرنا الإشارة إلى بعض النماذج منها بنوع من التفصل، أما واقع الحال فنجده قد اضّلع في الكثير من الأنشطة سواء داخل الجامعة أو خارجها، كمشاركته في عدة لجان منها:

- رئيس المجلس العلمي لدائرة التاريخ ثم معهد التاريخ بالجزائر سنوات 1972 – 1980 – 1984 – 1986 - 1993م

- رئيس لجنة العلوم الإنسانية لمعادلة الشهادات الأجنبية الجزائر 1990 – 1993م.

- رئيس لجنة ترقية الأساتذة المشاركين إلى رتبة أستاذ، في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية الجزائر 1990 – 1993م.

بالإضافة إلى اللجنة الوطنية لإصلاح التعليم و اللجنة الوطنية لتعريب كما أسلفنا، كان أيضا رئيس اللجنة الوطنية لمعادلة الشهدات و الترقيات، و عضو في لجان الإمتحانات منها الإمتحان الخاص بالجامعة، و

---

[1]- ابراهيم لونيسي، رسائل من شيخ المؤرخين الجزائريين ....، المرجع السابق، ص 95.

[2]- محمد العربي معريش، "تجربتي مع الدكتور سعد الله"، رحيل شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله: بأقلام أحبائه، إعداد وتنسيق: محمد الأمين بلغيث، المرجع السابق، ص 108.

[3]- أنظر الملحق رقم 8، ص ص (368-370).

لجان الباكلوريا إلى جانب إمتحانات الليسانس و الدبلومات و طلبة الصحافة[1]. و مبعوثا عدة مرات من الجامعة لتمثيل الجزائر في عدة مؤتمرات...الخ. و القائمة تطول بل يحتاج نشاطه الأكاديمي في حد ذاته إلى دراسة مستقلة، فرحمة الله عليه كان لا يركن للراحة ابداً في سبيل البحث العلمي و الإرتقاء به بعيدا[2].

ثالثا– تدريسه بجامعة الأردن(1996–2002م):

بعد تأكد الأستاذ سعد الله من إتمام إنجاز مشروعه تاريخ الجزائر الثقافي بأمريكا، و كان ذلك في أفريل 1996م، و إنهاء جميع إلتزماته مع جامعة مينيسوتا شرع في التفكير بالعودة إلى الجزائر كما أسلفنا، أو على الأقل التوجه إلى إحدى الجامعات العربية لتدريس فيها تمهيدا للرجوع إلى الجزائر، و بالرغم من تقديمه طلبات عمل لعدة جامعات لقبوله فيها، إلا أن عامل السن كان دائما يقف حاجزا في قبول معظمها لكبر سنه.

و في غمرة البحث و الإنتظار جاء الفرج من جامعة ' آل البيت ' بالأردن التي قبلت توظيفه بها إبتداء من سبتمبر 1996م، إلتحق بها بعد مساعي السفير الهاشمي، الذي أرسل ملفه إلى رئيس الجامعة الأستاذ محمد عدنان البخيت في المفرق مع الملحق الثقافي الأستاذ محمد خيروني، إضافة إلى مساعي صديقاه محمد الميلي و عبد الله الركيبي سفير الجزائر بسوريا حينئذ، فهو الذي فاتحه أول مرة برغبته بإستقباله فيها و هذا الأخير كلّم السفير الهاشمي، فرحب رئيس الجامعة بذلك و إتخذ الإجراءات اللازمة لمراسلته و التعاقد معه[3].

1– منهجه في التدريس بجامعة آل البيت:

كلف الأستاذ سعد الله بتدريس طلبة الدرسات العليا بالخصوص نظرا لمؤهلاته و خبرته التعليمية، كما درس بعض الوحدات لطلبة ليسانس، و على مدى تعاقده مع جامعة آل البيت قام بتدريس عدة تخصصات نذكر منها:

---

[1]– فالإمتحان الأول خاص بقدماء المجاهدين ممن سبق لهم التعلم باللغة العربية دون الإحراز على مستوى معين يؤهلهم لدخول الجامعة، و الإمتحان الخاص يغنيهم عن كثير من النقاط لدخول للجامعة. والإمتحان الثاني هو الباكلوريا و كان تحت إشراف وزارة التربية، و الدبلومات تعني الدراسات العليا قبل إحداث الماجستير، أما الإمتحان الاخير فهو خاص بطلبة المدرسة العليا للصحافة حيث كان الأستاذ سعد الله يحاضر في مادتين ' التاريخ والحضارة الأروبية' و ' تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر'.

[2]– أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج 3، المصدر السابق، ص 190.

[3]– نفسه، ج 6، ، ص 245.

1. انتشار الإسلام إلى الوقت الحاضر.
2. تاريخ الأوقاف والنظم المتصلة بها.
3. تاريخ العالم المعاصر
4. التاريخ المعاصر للعالم الإسلامي (من القرن 16 – 19).
5. تاريخ أوروبا الحديث.
6. تاريخ أوروبا في عصر النهضة.
7. التطور الفكري في المجتمعات الإسلامية الحديثة .
8. تطور ملكية الأرض والضرائب في العالم الإسلامي .
9. التغلغل الأوروبي في العالم الإسلامي الحديث 1800 – 1920م.
10. التنظيمات الأهلية والحركات العامة المؤثرة في المجتمعات الإسلامية.
11. الحج والرحلة في العالم الإسلامي.
12. الحركات الاستقلالية والتحرر الوطني في العالم الإسلامي الحديث.
13. الحركة الإصلاحية في الدول الإسلامية الحديثة. .
14. دراسات نقدية للمصادر الأصلية والوثائق الحديثة للعالم الإسلامي .
15. الدول الإسلامية الحديثة (القرون 16 – 19م)
16. العلاقات الخارجية للعالم الإسلامي إلى القرن 18م.
17. الفرق والمذاهب الإسلامية.
18. المؤسسة العسكرية في التاريخ الإسلامي .
19. مدخل إلى التاريخ الإسلامي.
20. ملكية الأرض والاستثمار في العصر الإسلامي (القسم الثاني)، من القرن 13 إلى 20.
21. مناهج البحث الحديث في التاريخ .
22. النهضة الإسلامية الحديثة، 1800 – 1924م.

و الملاحظ في هاته الوحدات أن معظمها لم تكن ضمن إختصاصه، فقد كان يجد صعوبة في التحضير لها، نظرا لضغوطات العمل بالجامعة، إلا أنه لا ينفي إستفادته منها في معرفة التطور الحضاري للأمة العربية و الإسلامية.

أما العملية التعليمية بينه و بين طلابه؛ فقد كانت تتم بطريقة سلسلة، فهناك إحترام متبادل بين الطرفين، فالبرغم من إختلاف طريقة الأستاذ سعد الله عن غيره من الأساتذة في التدريس، إذ أن الأساتذة الآخرون بالجامعة، كانوا يقومون بإعطاء التلاميذ إملاءات فيكتبونها في دفاترهم، فإذا إقترب الإمتحان تجد الطبة يحفظون ما أُملي عليهم حفظا و يرجعون ما حفظوا في الإمتحان، و قد حارب أبو القاسم سعد الله هذه الظاهرة أيام وجوده بالجامعة، لأنها تجعل الطلبة يكتبون ما يملى عليهم دون الإهتمام بالفهم و الإستيعاب، فلذا كان يدعوا الطلبة لكتابة رؤوس أقلام و أفكار فقط مما فهموه من محاضراته، و يمتنع عن إملائهم رغم ما كان يسببه ذلك من ردود فعل من قبل الطلبة لتعودهم على غير هذه الطريقة[1].

فمن ملاحظاته على هؤلاء الطلبة أنهم لا يهتمون بالتحصيل العلمي بقدر إهتمامهم بالنجاح و العلامات المتفوقةــ لأن التعينات في الوظائف مرتبطة بذلك (أي النسبة المؤوية في المعدلات)، عن ذلك يقول:" ما ألاحظه على الطلاب أنهم يبالغون في الكسل و لا يطمحون إلى العمل من أجل النجاح و لكن إلى النجاح فقط، و القليل منهم يطالع المادة خارج المحاضرة و الأقل منهم من يُطالع ما هو خارج المقررات، و في الفصل الواحد لا تجد سوى أربعة أو خمسة من ثلاثين لهم رغبة و ذكاء و طموح و إستعداد"[2].

و لعل في المقام ذكر لبعض الحوادث الطريفة التي حصلت له مع طلبته بقوله: " يكتب الطلبة هنا في آخر ورقة الإمتحان طلبا ملحاً لي بأن أنجحهم- هكذا ! و العبارة المألوفة هي (نجحني يا دكتور، أو إنني خائف (خائفة) من الإمتحان – أرجوك يا دكتور!) إنني لم أعرف هذا النوع من الإستجداء منذ بدأت أتعلم و أعلِّم". أما الورقات البحثية، فالطلبة يكتبون بعاطفة شديدة على حد قوله، فإذا كتبوا بحثا فإنهم يكتبون إهداء مليئا بالمشاعر لوالديهم، لأقاربهم، لأصدقائهم، لأساتذتهم...الخ. و عند بداية البحث فالطالب يكتب حوالي عشرة أسطر من الحمدلة و التصلية و العبارات المتصلة بذلك، أما الخاتمة فعادة ما تنتهي بعبارات مختصرة

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج 7، المصدر السابق ، ص 365.

[2]- نفسه، ص115.

مثل و بالله التوفيق، و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين... و غيرها من العبارت الدينية"[1]. و ربما يرجع ذلك على حد قوله " إلى الروح الدينية السائدة في العائلات و المجتمع و وسائل الإعلام الأردنية " ، فالطالب ماهو إلا صورة لما يحدث في مجتمعه خلال هذه الفترة من حياته.

كما أشرف الأستاذ سعد الله على بعض الرسائل بجامعة آل البيت، و مناقشة العديد منها سواء داخل الجامعة أو في الجامعات الأردنية الأخرى، و في مايلي بعض النماذج من جملة الرسائل التي أشرف عليها:

الطالب	عنوان الرسالة	سنة المناقشة
مصطفى عبد القيم	مؤسسات التعليم في المغرب الاقصى في العهد المريني	2000م
محمد الصياح العيسى	نشأة القدرية وتطورها	2000م
محمد الحسن الكتاني	فقه الشيخ أحمد القماري	1999م

ب- النشاط الأكاديمي:

شارك أبو القاسم سعد الله في تنشيط الحياة العلمية بجامعة آل البيت، بالرغم من طغط العمل الذي تُستنْزف فيه طاقات الأستاذ إلى أبعد الحدود في هاته الجامعة، فدوام العمل من الثامنة صباحا إلى الخامسة مساء، مع عدم السماح للأستاذ بالخروج و لا بالتغيب إلا برخصة من المدير، فهناك الإجتماعات المتتالية و قراءة مشاريع التخرج، و المشاركة في مناقشة الرسائل الجامعية....الخ. كما أن الأستاذ لا يستطيع أن يشارك في أي مؤتمر أو ندوة أو أي نشاط خارج الجامعة، إلا بإذن من رئيس الجامعة، و هو لا يعطيه مادام الأستاذ مرتبطا بالتدريس بالجامعة[2].

و مع ذلك فإن سعد الله كان حريصاً على المشاركة في الندوات التي كانت تنظمها الجامعة و هي كثيرة سنحاول الإشارة إليها عبر قائمة تضم جميع الندوات التي شارك فيها، أيضا كانت له مساهمات بحثية في

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج 7، المصدر السابق، ص 119.
[2]- نفسه ج6، ص 244.

الملتقيات العلمية التي كان يُدعى إليها خارج الجامعة، أو التي كانت تنظمها الجامعة منها مؤتمر دولي حول ' التعليم في الدولة العثمانية'، في إسطنبول وشارك فيه ببحث بعنوان ' التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني' ، و أيضا شارك في الملتقى العماني الثاني بجامعة آل البيت ببحث عنوانه ' مصادر تاريخ عمان' ، و أيضا في مؤتمر زبيد باليمن شارك ببحث عن ' التواصل بين الشيح مرتضى الزبيدي و علماء المغرب'. و غيرها من المؤتمرات التي سنحاول الإشارة لها ايضا. و أسهم أيضا في التظاهرات التي كانت تنظمها الجامعة منها ' يوم الجزائر' الذي نظم بالتنسيق مع السفارة الجزائرية بعمان، شملت التظاهرة محاضرات و قد شارك بكلمة عن ' الشرق و الغرب في ثقافة الجزائر الحديثة '، و ضمت الفعالية أيضا معرضا للكتب و الأزياء و نحوها[1].

و كرّس أيضا حضوره إلى دورات مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، بالمشاركة بمجموعة من البحوث ، كما كان عضواً في اللجنة العلمية لكتابة تاريخ الأمة العربية، الذي تشرف عليه المنظمة العربية (الإليسكو) و قد أسند إليه الإشراف على المجلد الخامس الخاص' بالدولة العثمانية ' ، و قد كان عدد المجلدات حوالي سبعة، كل مجلد يشرف عليه أحد أعضاء اللجنة[2].

و خلال تدريسه بجامعة آل البيت نشر سعد الله عدة مقالات، سواء بمجلة ' المنار العلمية '، التي أنشأها الجامعة كمجلة علمية محكمة، و التي كان عضو في هيئة تحريرها، أو في مجلة 'الندوة ' التي كان يشرف عليها رئيس الجامعة الأستاذ البخيت، و الذي كان يدعوه دائما للمشاركة في أعدادها، و أيضا في مجلات علمية أخرى عديدة كانت له فيها عدة دراسات سنحاول الإشارة لها ضمن المقالات التي قام بنشرها.

وفي النشاط الأكاديمي أيضا، تبوأ الأستاذ سعد الله مكانة كبيرة في قسم التاريخ، لخبرته و تجربته، فكان عضو في مجلس البحث العلمي لقسم التاريخ، و عضو اللجان الجامعية لوضع البرامج الجامعية المقررة على طلبة الدرسات العليا، وكان أيضا مسؤولا رئيسياً في لجنة مواد التاريخ الحديث[3]، و أيضا عضو لجنة البرمجة لكتاب ' المدخل في التاريخ الإسلامي' المقرر على جميع الطلبة، و قد وزعت هيئة تحرير الكتاب إلى محاور، فكان نصيبه المحاور المتعلقة باللغة العربية و التعليم و المساجد و المدارس و الوقف وا لحج و نحو ذلك[4].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج 7، المصدر السابق ، ص ص (157-158).

[2]- نفسه، ص 61.

[3]- نفسه، ج6، ص 273.

[4]- نفسه ج7، ص 83.

هذا فضلا عن إعادة طبع العديد من أعماله، و صدور مشروعه ' كتاب تاريخ الجزائر الثقافي'، بعد أن توسع فيه ليشمل 9 أجزاء، و كم كانت سعادته بهذا الصرح الثقافي كبيرة، رغم أنف من حاول عرقلته فيه، و كم كانت معاناته لأجله كبيرة، و لعل غربته في أمريكا كانت بسببه، كما أن والدته قد توفيت و هو في غربته من أجله. و لم يكتف سعد الله بذلك فقط بل شرع في إستكمال العمل فيه بالرجوع به إلى الفتح الإسلامي، بالتركيز طبعا عل التيارات الثقافية و الفكرية و المذاهب الدينية و الطرق الصوفية، و هو من آخر إصدارته قبيل وفاته، إذ جاء الكتاب في حوالي 3 اجزاء .

فبعد قضاء حوالي 6 سنوات بالأردن و إستكمال مشروعه الثقافي بطبعه، فكر سعد الله بضرورة العودة إلى الجزائر و المساهمة في الحياة الثقافية فيها، و التي إنقطع عنها منذ مجيئه إلى جامعة آل البيت، و قد إستفاد كثيرا من تجربته بالأردن سيما في التاريخ العربي و الإسلامي[1]. و مع تغير رئيس الجامعة و تولي الأستاذ ' سلمان البدور' رئاستها كان له ذلك، إذ حاول هذا الأخير ' أردنة' التشكيلات الجامعية، أي تولي المسؤوليات للأردنين ولو كانوا غير مؤهلين إداريا و أكاديميا، و هذا خلافا لما سارت عليه إدارة الرئيس السابق 'محمد عدنان البخيت'، الذي ولّى المسؤوليات لمختلف الجنسيات من الأساتذة ماداموا مؤهلين في نظره.

و الحق أن الرئيس السابق محمد عدنان البخيت قد جمعته بالأستاذ سعد الله علاقة وطيدة، إذ كان يحبه كثيرا و يحترمه لثقافته، و لطالما كان يعتبر وجوده بالجامعة الأردنية مكسبا، بينما الرئيس الجديد (البدور) الذي يقول عنه سعد الله أنه كان "كثير الإعجاب بنفسه"، عكس محمد عدنان البخيت، الذي عرف "بالتودد و الإنسانية و حب النكتة" .

و قد سرت هذه السياسة الجديدة على هيئة التدريس أيضا، إذ أن الرئيس الجديد إقتصر عل تعين حملة الماجستير من الأردنين فقط في بعض التخصصات و هو ما يستدعي الإستغناء عن بعض الأساتذة خصوصا ممن تجاوزا سن 70 سنة، و هو ما كان الأستاذ سعد الله يتوقعه منذ تولي الرئيس الجديد منصب الرئاسة لذا بدأ بالتفكير الجدِّي للرجوع إلى الجزائر و مراسلة جامعة الجزائر عن إمكانية إندماجه في أسرة التعليم من جديد و لكن كأستاذ متقاعد متعاقد بعد مراسلة جامعة الجزائر في ذلك، كما أن المركز الوطني للدراسات و البحث

[1]– أصدر سعد الله كتاب في هذا الخصوص بعنوان ' بحوث في التاريخ العربي و الإسلامي ' للمزيد انظر الكتاب.

في ثورة أول نوفمبر 1954م و على لسان مديره الأستاذ جمال يحياوي قد رحب بفكرة عودته للجزائر و منحه مكتبا داخل المركز للعمل فيه، و للعمل معهم على تأليف كتاب عن تاريخ الثورة الثقافي [1].

و حدث فعلا ما كان قد توقعه الأستاذ سعد الله؛ إذ وصلته بذلك رسالة إعفاء من التدريس بناء على تجاوزه 70سنة بتاريخ 30 ماي 2002م، لتكون بداية النهاية مع جامعة آل البيت، التي قضى بها 6 سنوات عمل خلالها بكل إخلاص و تفان، و قد تأسف بعض الأساتذة لمغادرته بقولهم ' لقد خسرتك الجامعة '، و قد حاول الرئيس السابق عدنان البخيت ثنيه عن المغادرة، إلا أن سعد الله أبى إلا الرجوع للجزائر و الإستقرار فيها بعد غربته الطويلة عنها (9سنوات) يقول عن ذلك: " أنا هنا ضيف منذ 1996م و لابد للضيف أن يرحل ذات يوم، و ها قد حان وقت الرحيل، و آن للفارس أن يرتحل"[2].

و تجدر الإشارة إلى أن تجربته التعليمية في المشرق العربي لم تقتصر على تدريسه بجامعة آل البيت فحسب، بل سبق و أن درّس في عدة جامعات في الوطن العربي بالمشرق ' كأستاذ زائر'، حين كان أساتذا بجامعة الجزائر نذكر منها: دعوته من قبل ' معهد الدراسات العليا ' التابع للجامعة العربية بمصر في مارس1970م لإلقاء محاضرات عن ' تاريخ الجزائر الحديث '، و مرة أخرى في مارس 1974،كما عمل أستاذا زائرًا بجامعة عين شمس بمصر لإلقاء محاضرات مدة خمس عشرة يوما عام 1976م، ثم أستاذا بجامعة دمشق في جانفي 1977 م، كما كانت له زيارات علمية لجامعة الملك عبد العزيز مدة خمسة عشر يوماً، ناقش خلالها رسالة الماجستير التي تقدم بها الباحث 'مازن مطبقاني'.

---

[1]- طلب سعد الله من مدير المركز الأستاذ جمال يحياوي الموافقة على منحه مكتبا يعمل فيه فوافق على ذلك، بعد إستشارة وزير المجاهدين أنذاك محمد الشريف عباس الذي رحب بالفكرة ايضا. حيث كان ضيق منزله لا يساعده في عمله العلمي، كما وقّع مع المركز عقدا يتم بمقتضاه تأليف كتاب عن تاريخ الثورة الثقافي في حوالي 3سنوات، و قد أخرج الأستاذ سعد الله الكتاب و هو الجزء التاسع من تاريخ الجزائر الثقافي مرحلة الثورة (1954-1962م)، للمزيد أنظر مقدمة كتاب تاريخ الجزائر الثقافي الجزاء التاسع.

[2]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج7، المصدر السابق، ص ص (294-295).

الفصل الرابع

أبو القاسم سعد الله

مؤرخا

أولا: رحلة أبو القاسم سعد الله من الأدب إلى التاريخ

ثانيا: منهج سعد الله في الكتابة التاريخية

ثالثا: موقف سعد الله من بعض القضايا التاريخية

أولا: رحلة أبو القاسم سعد الله من الأدب إلى التاريخ

1- نظرة عامة حول تجربته الأدبيه:

يمثل الأدب الجزائري صفحة هامة من الأدب العربي، و إنْ حالت الظروف دون نشر هذه الصفحة أو إلقاء الضوء عليه من خلال هذا العمل، فإن ذلك لا يقلل من أهميته، فرغم الظروف الصعبة التي عانت منها الحركة الأدبية في الجزائر مطلع القرن العشرين فقد ظهرت نخبة من الأدباء، و المفكرين حملوا على عاتقهم مهمة النهوض بالأدب العربي في الجزائر، و عملوا على إرساء قواعده على أسس سليمة، من هؤلاء الأدباء و القامات العلمية السامقة في الأدب الجزائري أبو القاسم سعد الله.

فلقد كان أبو القاسم سعد الله شغوفا بالأدب، و هيمن على عقله لمدة من الزمن فشغل وقته بالإدمان و الإستزادة من لذة القراءة المتواصلة، التي جعلت منه فيما بعد أبو القاسم سعد الله العالم الموسوعي و الباحث الأكاديمي، و هو قبل أن يصل إلى هذه المكانة العلمية سار أشواطاً مهمة في التجربة الأدبية، فالقلة من الباحثين يعرفون أن هذا الرجل كان أديباً قبل أن يكون مؤرخاً، و القلة منهم يعرفون إسهاماته الأدبية في أجناس أدبية مختلفة من (شعر و نقد و قصة و أدب الرحلة).

فكان في خمسينيات القرن الماضي شاعراً مغرداً ينافح عن وطنه و حريته، إذ عطّر إنتاجه الشعري بكثير من القصائد التي تتغنى و تفتخر بقوة الثورة و صلابة عودها و بسالة صانعيها و صمودهم في وجه المحتل الغاصب، و هو ذو حس أدبي راق و نظرة تحسن تقديم الأعمال الأدبية و تذوقها، فكيف كانت تجربة سعد الله الأدبية؟ و ما هي أهم الألوان الأدبية التي إضّلع فيها؟ و كيف قيم المشتغلون أو المختصون بهذا الحقل تجربة أبي القاسم سعد الله الأدبية؟

وعند حديثنا عن التجربة الأدبية أو الجانب الأدبي في أعمال أبي القاسم سعد الله هو الحديث عن أديب موسوعي لم تقتصر محاولاته عن فن أدبي واحد من فنون الأدب بل نجده قد إضّلع في الكثير من الألوان الأدبية منها (الشعر- النقد-القصة- أدب الرحلة)، و هو ما قد يستدعي تخصيص دراسات معمقة في كل لون من هذه الألوان، أما عملنا في هذا الجانب هو اقتصارنا على حوصلة عامة عن تطور التجربة الأدبية لأبي القاسم سعد الله، لأن أهل الاختصاص في هذا المجال قد أدلوا بدولهم فلا ندّعي أننا سنأتي بجديد و لا داعي لتكرار ما سبق، إنما سنحاول إرشاد القارئ إلى دراسات فصل فيها جمع من الباحثين تجربة أبي القاسم سعد

الله الأدبية و هي: رسالة دكتوراه لعبد السلام ضيف بعنوان "الكتابة الأدبية لأبي القاسم سعد الله" ، وزين حفيضة "النقد الأدبي عند أبي القاسم سعد الله" ، ورسالة ماجستير للطيفة بن سعيد "أبو القاسم سعد الله أدبيا" ، فقد أبرز هؤلاء الباحثون التجربة الأدبية لأبي القاسم سعد الله و أهم مميزاتها، ومن خلال إطلاعنا على ما قدمه الأستاذ سعد الله في هذا المجال يمكن إجمالها في النقاط التالية :

أ- أبو القاسم سعد الله شاعراً:

يحدثنا أبو القاسم سعد الله عن أولى محاولته الشعرية فيقول: "أذكر أن أولى محاولتي الشعر المكتوب كان في ظل النخيل بمسقط رأسي المسمى البدوع حوالي أربع ك.م من قمار، و كان ذلك في الصيف الأول من رجوعي من تونس"، فموهبته الأدبية تفتحت في ظل بيئته الصحراوية بين أحضان الطبيعة، يستلهم منها عطاءاته و هي لا تكاد تختلف كما قال عن بيئة أبي القاسم الشابي، ذلك أن طبيعة وادي سوف و طبيعة الجريد التونسي متشابهة كثيراً.

و لعل ما صقل هذه التجربة طبيعة الدراسة بالزيتونة المعروفة بتركيزها على المواد الدينية و التاريخية و الأدبية، هاته الأخيرة التي كانت أحب المواد إلى قلب أديبنا و من هنا بدأت موهبته الأدبية بالتفتح، كما أنه صقلها بقراءاته الكثيرة لكل من قصيدة الطلاسم لإيليا أبي ماضي، و كل ما في هذه القصيدة من شك و تردد حول مصير الإنسان يتلاءم مع مرحلة الشباب المتحفز الذي لا يرى في الوجود سوى تقاليد بالية و أحكام تعسفية و مناهج تربوية عقيمة، فنغمة تلك القصيدة و إن كانت فلسفية، و رغم ما فيها من أفكار ليست محافظة، إلا أنها صادفت هوى الثورة و الجموح عن الحاضر الأليم الذي كان يعيشه الشباب عموماً و خصوصاً الشاب الجزائري المحروم من كل شيء[1] .

كما قرأ لجبران خليل كل كتبه تقرباً، و مع تعاقب زمن الدراسة في الزيتونة، توالت إهتماماته بالشعر المهجري و بشعر مدرسة أبو لّلو خصوصاً شعر أحمد زكي أبو شادي، و تابع معركة القديم و الجديد على صفحات الرسالة العراقية، و الآداب البيروتية، كما يذكر ولعه و إعجابه بشعر المتنبي، " فالشاعر الذي إستحوذ على هو المتنبي حتى كدت أحفظ ديوانه جمعياً"[2] .

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المصدر السابق، ص182.

[2]- نفسه، ص184.

كما أن سعد الله لا ينفي دور المساجلات العلمية مع أصدقائه في تطوير ملكته الأدبية، و من الطريف أن أحد زملائه كان يحفظ شعر الشابي و ينسبه إلى نفسه، مما جعل أبي القاسم سعد الله يشعر بالحرج فشعره لم يبلغ مستوى شعر الشابي، فكان ذلك تحدياً كبيرا له لمواصلة قرض الشعر، كما يذكر دور عبارات التحفيز و الإفتخار التي كان يتلقاها من شيوخه في الزيتونة خاصة شيخه على الأصرم حين قال له بصوت عال أمام جمع الطلبة "إنني فخور بك سعد"، و كيف بقيت تلك العبارة ترن في أذنه، كلها عوامل عززت من جنوح أبي القاسم سعد الله إلى إختيار هذا اللون و إبداعه فيه.

و أمام تحدي البيئة القاسية التي نشأ فيها أديبنا و الإضطهاد السياسي و الإقتصادي الذي كان يعيشه في تلك المرحلة تحت وطأت الإستعمار الغاشم في كلا القطرين (الجزائري و التونسي)، كانت النفوس مستعدّة للثورة و الرفض و التمرد ليس على مستوى السياسي فحسب، بل حتى في الميدان الأدبي، حيث استلزم ذلك التحول عن القالب التقليدي في الشعر، إلى قالب جديد يتماشى مع متطلبات الحياة المعاصرة و يكون أكثر تفاعلا مع التطورات السياسية و الثقافية و الإجتماعية.

فإلى جانب إعجابه بالمتمردين و المتزمِّتين من الشعراء أمثال جبران و الرافعي و الشابي و أضرابهم، ظهرت مجلة الآداب البيروتية في تونس، فأقبل على قراءتها و المثابرة على شرائها، و المعروف إن هذه المجلة قد إحتضنت قضيتين هامتين: الأولى الشعر الحر، و الثانية الترجمة عن الآداب الأجنبية، و لاسيما الأدب الفرنسي و خوض أبي القاسم سعد الله في هذا النوع من الشعر، جاء من خلال تأثره بهذه الأخيرة و بالأدباء و الشعراء الذين كان يقرأ لهم خصوصاً الشعراء المغتربين بالمشرق العربي، لكون المشارقة أحدثوا ثورة كبرى في ميدان الأدب في تلك الفترة متأثرين بالأدب الغربي الذي عرف تطوراً مذهلاً شأنه شأن الصناعة.

و سعد الله نفسه إعترف بفضل المشارقة عليه في كتابة القصيدة الحرة يقول عن ذلك: " غير أنّ إتصالي بالإنتاج العربي القادم من المشرق، ولاسيما لبنان و إطلاعي على المذاهب الأدبية و المدارس الفكرية و النظريات النقدية، حملني على تغيير اتجاهي و محاولة التخلص من التقليدية في الشعر"[1]. ثم يعود سعد الله و يقدم لنا عملا آخر مهم في إختياره الشعر الحر، و هو تأسيسه رفقة مجموعة من الشعراء التونسيين لرابطة أطلقوا عليها إسم 'رابطة القلم الجديد'، كما أسلفنا الحديث من قبل ضمت هذه الرابطة مجموعة من الشعراء المتمردين

[1]- يوسف وغليسي، المرجع السابق، ص ص (67-68).

إلى حدٍ ما شاعرين بالكبت الإجتماعي و السياسي و الأدبي، و كان الحديث دائما على إنتاجهم الأدبي أو إنتاج غيرهم أو ما نشرته المجلات و الجرائد في هذا الميدان[1].

و على صعيد آخر يبرز سعد الله موقفه من الشعر الحر باعتباره حركة جديدة و دعوة إلى مناوأة القديم فيقول: "في اعتقادي أن إنتاج المرء هو جزء منه و صورة له، و هذا يعني أنّ الشعر الحر هو جزء و صورة للذين أنتجوه، كما أن شعر المحافظ أو التقليدي هو جزء و صورة من أصحابه، إنّ الشعر الحر في نظري هو تعبير عن تمرد أصحابه و تحررهم من المفاهيم السائدة ليس في الشعر و حسب، و لكن في مختلف أوجه الحياة إنه جزء من ثورة أو شكل من أشكال الثورة".[2]

و رغم إنقطاعه بعد عودته إلى الجزائر سنة 1954م عن النشاط الأدبي الذي إعتاده في تونس و خصوصاً علاقته بإخوان الأدب (رابطة القلم الجديد)، و بمجلة الآداب التي لم تكن تأتي إلى الجزائر عندئذٍ، فإن علاقته بالشعر الحر ظلت وثيقة، فألف قصائد كثيرة مستوحياً إيّاها من غربته التي أحسّ بها جراء البعد عن الأصدقاء من جهة و إنكساره تحت وطأة الإستعمار و ضيق الأفق من جهة أخرى، و قد نظم خلال تلك الفترة أشعار ثورية حماسية أشارنا إليها فيما سبـــــــق، نشر بعض منها في جريدة البصائر مثل: "أنشودة المزراع و الحقول، و طريقي....الخ".

توثقت صلته بمدرسة الشعر الحر أكثر بعد حلوله بالقاهرة، فعاد إلى التواصل والنشر في مجلة الآداب البيروتية و التفاعل مع مدرستها، بالإضافة إلى ربط علاقات مع شعراء مصر المتمردين عندئذٍ أمثال: أحمد عبد المعطي حجازي و صلاح عبد الصبور وعبد الرحمن الخميسي و غيرهم، و نقاد متمرسين أمثال: غالي شكري، ورجاء النقاش و محمود أمين العالم و غيرهم، الذين كان يلتقي بهم في الندوات و المهرجانات الأدبية[3].

و على صعيد الكلية؛ رغم أن كلية دار العلوم التي درس فيها، تمتاز بأنها تقدمية بالنسبة للأزهر و رجعية بالنسبة لأقسام الأدب في جامعتي القاهرة و عين شمس، فإنها كانت تضم بعض الشعراء الشبان المتمردين على أوضاع الكلية التي تبدو في نظرهم متخلفة و على بعض أساتذتهم المتزمتين، و يذكر أن من بين هؤلاء

---

[1] – أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، المصدر السابق، ص9.

[2] – أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المصدر السابق، ص184.

[3] – محي الدين سالم، الدكتور أبي القاسم سعد الله حول خصائص أسلوبه و أفكاره الأدبية و اللغوية، المجلة العالمية للترجمة، قسنطينة، العدد50، 2010، ص ص(36-37).

الشبان فاروق شوشة و إسماعيل الصيفي، و كان الأخير يقود ندوة أسبوعية في الكلية يلقي فيها الشبان أشعارهم الحرة و كان أديبنا حاضراً في جميع ندواتها.

و في هذه الفترة نمت ثقافته و تضاعف وعيه الوطني، و كان ذلك داعيا للكتابة الأدبية، نثراً و نظماً و نقداً، و هو ما ترجمه في شكل دراسات و دواوين شعرية لصالح التعريف بالقضية الوطنية، و لقد كانت هذه المرحلة الأخيرة أن رسخت لدى شاعرنا أن الثورة الشاملة شيء لابد منه، ثورة داخلية ذاتية عاطفية، وثورة وطنية تحررية و ثورة قومية ائتمانية[1] .

و خلاصة القول أن نظم الشعر عند أبي القاسم سعد الله بدأ في مرحلة مبكرة من حياته، فتأثره بإنتاج الشعراء آنذاك و إطلاعه على كل ما هو جديد في مجال الآدب مكّنه من إبراز تجربته الشعرية التي عكست مدى إرتباطه بالثورة الذاتية و الثورة الوطنية، فرحلة العطاء الشعري عند سعد الله غنية و ثرية تجلت فيها العديد من الرؤى الوطنية و الجمالية، و رغم قصر هاته التجربة و تحوله إلى دراسة التاريخ، إلا أنه استطاع أن يترك بصمته المتميزة في الشعر و الأدب الجزائري الحديث.

ب- أبو القاسم سعد الله ناقـــداً:

يُعد أبو القاسم سعد الله من بين أهم النقاد الجزائريين، حيث تمكن بفضل جديته و موضوعيته في البحث و روح التمرد الفكري التي اتسم بها، أن يتوج على رأس قائمة هؤلاء، و في إجابته عن إحدى الأسئلة الموجهة إليه حول مدى اهتمامه بالنقد يقول: "و كنت إلى جانب ذلك ولوعاً بالنقد الأدبي و كنت أحاول إثارة الشغب حول القضايا الأدبية، حتى أنني ذات مرة نقدت نفسي بنفسي، عندما لم أجد نقاداً يعاركونني"[2].

لأبي القاسم سعد الله عدة مقالات تُعنى بالنقد الأدبي في الجزائر، و قد نشرها في مجلات جزائرية و أخرى عربية، عالج من خلالها واقع النقد الأدبي في الجزائر و ما كان يعانيه من ضعف، و إذا أردنا التدليل على ذلك يمكن العودة إلى ما كتبه في كتابه: " دراسات في الأدب الجزائري الحديث" و "تجارب في الأدب و الرحلة" و شاعر الجزائر محمد العيد و غيرها. و يؤكد المشتغلون بهذا الحقل من خلال رؤيتهم و تمحيصهم للخطاب النقدي لسعد الله على ريادته في هذا المجال و هو ما يؤكده الناقد الأدبي الأستاذ يوسف و غليسي

[1]- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المصدر السابق ،ص187.

[2]- أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص64.

بقوله: "إنّ سنة 1961م، هي تاريخ الميلاد الرسمي للمنهج التاريخي في النقد الجزائري و هي السنة التي ظهر فيها كتاب الدكتور أبو القاسم سعد الله الشاعر محمد العيد آل خليفة "[1].

و من أوئل ما كتبه في النقد مقال بعنوان " في ظلال النقد- مع حمار الحكيم" و هي مقالة نقدية لكتاب حمار الحكيم لرضا حوحو، نشرها في جريدة البصائر سنة 1953م، و الكتاب عبارة عن حوارات يجريها الكاتب رضا حوحو مع حماره بأسلوب ساخر يعالج المشاكل الاجتماعية التي سادت المجتمع الجزائري في ذلك الحين، و كان هدف رضا حوحو الإصلاح كما كانت تفعل جمعية العلماء و لكن بأسلوب مختلف، و كانت فرصة لسعد الله في هذه المقالة أن يتجاوب مع هذه الحوارات التي يجريها الكاتب على لسان حماره، إلا أن نقده كان لاذغاً و قاسياً ركز فيه على أسلوب الكاتب و لغته و أخطائه النحوية، مستعرضاً معارفه في القواعد النحوية و البلاغية مدعما أقواله بشواهد من القرآن الكريم[2].

و الحق أن سعد الله لم يوفق في هذه البداية النقدية التوفيق المطلوب، حيث إقتصرت براعته النقدية على الشكل دون المضمون، و قد أعترف هو نفسه بذلك فيما كتب " كانت هذه الكلمة من أوائل ما كتبت في النقد الأدبي، و يظهر فيها التحامل الشديد القائم على عدم النضج، و قد رد علي الأستاذ حوحو في العدد الثاني من البصائر....اتهمني في كلمته بكوني مازلت طالبا و متأثراً بما أقرأ في الكتب المدرسية".

ليتطور بعدها خطابه النقدي مع الأستاذ رابح بونار في مقالة حول "النهضة الأدبية في الجزائر"،[3] إذ سيلاحظ القارئ اتجاه النقد هذه المرة للمضمون أكثر من الشكل، و يمكن للقارئ إلتماس ذلك بالرجوع للمقالة و الإطلاع على رد الأستاذ سعد الله على الأستاذ رابح بونار[4]. كما أنه هناك مقالات أخرى نشرها لرد على نفسه حين لم يجد ما ينقد مثل مقالة "في طريق إلياذة الجزائرية – أرض الملاحم" التي نشرت في البصائر العدد 264 لسنة 1954م بإمضاء إبراهيم الحمداني وهو إمضاء استعاره للرد على نفسه، كما أن نفس الكلمة نشرت في الآداب البيروتية بإمضاء رشيد الخوري وهو أيضا سعد الله ".

و تعتبر دراسته حول شعر "محمد العيد آل خليفة" باكورة النقد الأدبي الجزائري، حيث لم يتجرأ أي ناقد جزائري على الكتابة في تلك الظروف الصعبة، حيث كانت الممارسة النقدية الأدبية ناشئة ليس عند ناقِدنا

---

[1]- يوسف و غليسي، النقد الجزائري المعاصر من اللأنسونية إلى الألسنية، الجزائر: رابطة إبداع الثقافة، 2002، ص22.

[2]- مصباح مصباحي، المرجع السابق، ص12.

[3]- أنظر، بلقاسم القماري، "حول النهضة الأدبية في الجزائر"، البصائر، العدد 275، 1954/6/18م

[4]- أنظر في المقالين المذكورين، كتاب تجارب في الأدب و الرحلة، ص-ص 119-165.

فحسب بل في الجزائر عامة، إلا أن سعد الله فعل ذلك بجرأته العلمية المعهودة، و للأستاذ سعد الله أعمال نقدية أخرى تطبيقية و نظرية، يطول الحديث عنها، إلا أننا سنكتفي بهاته اللمحة الموجزة عن بعض إسهامات الأستاذ سعد الله في هذا المجال ولعنا نحيل القارئ إلى دراسة حول الخطاب النقدي للأستاذ سعد الله من إعداد الأستاذة زين حفيظة، حاولت جمع إسهامات أبي القاسم سعد الله النقدية و للقارئ المهتم الرجوع إليها و الإفادة منها أكثـــــــــر.

لقد نجح الأستاذ سعد الله في التأسيس للمنظومة النقدية في الجزائر بخطوات جريئة تمثلت في قراءاته النقدية لنصوص جزائرية متعددة و متنوعة ترك من خلالها رصيداً نقدياً مهماً بالنظر إلى حالة الركود التي شهدها النقد الأدبي مطلع الخمسينات و المدة الزمنية المبكرة التي إشتعل فيها بالأدب و النقد، و هذا إن دل على شيء إنما يدل على حسه النقدي الكبير من جهة، و على طموحه العلمي الكبير للارتقاء بالأدب و النقد الجزائري بعيداً .

جـــ – أبو القاسم سعد الله قاصاً:

"يكاد الأدب الجزائري يكون خاليا من عنصر القصة التي أصبحت مادة أولى لمفاهيم الآداب العالمية الحديثة، ...و ذلك الخلو البالغ هو الذي دفعني إلى أن (أحاول فقط) موضوع القصة، و أن أبرز فيه معالم من حياتنا الإجتماعية ظلت منسية...و رائدي في ذلك كله خدمة أدبنا ليتمكن من مواكبه، النهضة العربية في مختلف الأقطار" [1] هذا هو التمهيد الذي إستهل به سعد الله أول قصة له منشورة في جريدة البصائر بتاريخ (21 ماي1954)، بعنوان ' سعفة خضراء' و القصة واقعية مستوحتة من الواقع الجزائري بعيدا عن الخيال ، و تعد هذه القصة من بواكير القصة الجزائرية.

يقول سعد الله حول إهتماماته الأدبية المبكرة بالقصة في مقدمة مجموعته القصصية –سعقة خضراء– "بدأ إهتمامي بالشعر و القصة في وقت مبكر، ثم تغلب عندي الشعر عن القصة، و أخيراً تفرغت للمقالة و الدراسة و أهملت القصة و الشعر"، إلا أنه يؤكد على أهمية هذا الفن "إنني متأكد أن القصة من أخص فنون الأدب و أصعبها على التقييم و النقد الموضوعي، و هي تحتاج إلى ناقد متخصص متجرد "[2].

[1] – أبو القاسم سعد الله، سعفة خضراء، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011، ص05.

[2] – أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب و الرحلة، المصدر السابق، ص133.

و قد عنون سعد الله مجموعته القصصية 'بسعفة خضراء'، و التي بلغ عددها سبعة (7) و هي كما يلـــــي:

- سعقة خضراء.
- فتاة القرية.
- مرارة التبغ.
- ليلة غران.
- ممنوع الدخول.
- عندما لبست العمامة.
- مع أديب الخلود.

من خلال الإطلاع على السرد القصصي للمجموعة نجد أن معظمها تحوم حول معالجة الواقع الإجتماعي و السياسي بالجزائر إبان الثورة التحريرية و قبلها و إبراز بعض مساوئه، كما كشفت حواراته القصصية عن طاقاته التعبيرية الهائلة و عن معاناة الأديب و هو يتألم لحال واقعه.

إستطاع سعد الله من خلال هاته المجموعة القصصية أن يحجز لنفسه مكانة خاصة في عالم القصة القصيرة، كما كان له دور في تطورها حسب قول المختصين في هذا المجال، و ذلك في إدخال العنصر النفسي، حينا و الإتجاه به نحو الحوار الفكري حينا آخر، و هذا بالنظر إلى أن الموضوع لم يكن مألوفاً في الأدب القصصي الجزائري قبل ذلـــــك[1]. و سعد الله من خلال هذا العمل الفني المعتبر هو التأكيد على أهمية الاشتغال بهذا الجنس الأدبي الجميل، و كذلك الدعوة إلى التعبير عن الواقع الإجتماعي و معالجة مشكلاته معالجة صادقة.

كما يمكن إضافة لون أدبي آخر طرق أبوابه أديبنا و أبدع فيه وهو أدب الرحلة، ذلك أن سعد الله لم يكن مؤرخاً لأدب الرحلة و الرحالة الجزائريين فحسب، بل كان هو الآخر رحالة حيث سجل في كتاباته العديد من الرحلات التي قام بها سواء داخل الجزائر أو خارجها، وهي مدونة و منشورة في كتابه 'تجارب في

[1]- لطيفة بن سعيد، أبو القاسم سعد الله أديبا، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان: كلية الادآب واللغات، 2012/2011م، ص 175.

الأدب و الرحلة ' و يومياته المعنوية ' بمسار قلم'، و لا بد من التّأكيد هنا على أن الهدف الأساسي لهاته الرحلات كان في أغلب الأحيان هو البحث عن المخطوطات الجزائرية و إستكمال أبحاثه و مشاريعه أو حضور ندوات علمية.

وعلى العموم فإن أبو القاسم سعد الله أديب موسوعي، طرق أبواب أدبية كثيرة، و نوّع في القوالب كما نوع في الموضوعات الفنية، و ساير الحركة النقدية و الأدبية، و عليه فإن أدبه، كما يؤكده المشتغلون بهذا الحقل يعد بحق شمعة من شموع الأدب الجزائري الذي لازال ينتظر جهود أبنائه ليكشفوا عن الدرر الكامنة بداخله، وحسبنا أننا حاولنا الإشارة إلى تجربة علم من أعلامه و إن لم يكن بالقدر الكافي فبالقليل الذي ترجى من ورائه الفائدة.

2- أسباب التحول من الأدب إلى التاريخ:

أبرز أبو القاسم سعد الله في عدة مناسبات سبب إنتقاله من دراسة الأدب و قرض الشعر إلى الدراسات التاريخية، و بالتنقيب في مجمل حوراته و تصريحاته إستطعنا إجمالها فيما يلي:

أ- المناهج التربوية:

يذكر أبو القاسم سعد الله أن البيئة التي نشأ فيها و نوع التعليم الذي تحصل عليه خلال مرحلة التكوين لا يساعدان على أن يكتشف الطالب مواهبه و اتجاهاته، فدراسته كانت تعتمد على المنهج القديم الذي يقوم على تعليم الطالب " طرفا من كل شيء مع التركيز على دراسته آداب اللغة و العلوم الإسلامية، و كان ذلك حاله في الزيتونة و كلية دار العلوم، فالتعليم الثانوي كان عاما يتناول من علم الكلام و أصول الدين إلى الكمياء و الطبيعة،و الشعر و البلاغة، و تاريخ الإسلام...الخ. إن هذا التعميم في مناهج التعليم و الخلط بين الجديد و القديم، يجعلان من الصعب على المرء أن يختار لنفسه ما يميل إليه[1].

و حين إنتقاله إلى كلية دار العلوم لم يكن حاله فيها بأحسن من الزيتونة إذ لا تكاد كلية دار العلوم تختلف في برامجها عن الزيتونة، إلا في تعميق المواد المذكورة آنفا، و تطعيمها بنظريات و أفكار جديدة.كما أن نظام الدراسة بهذه الكلية لا يسمح للطالب بالتخصص الكلي إلا ابتداء من الدراسات العليا، و حتى بعد تسجيله في الدراسات العليا كان في تخصص الأدب، فيذكر أبو القاسم سعد الله أنه تردد بين تسجيل الماجستير في التاريخ أو النقد الأدبي في كلية دار العلوم، إلى أن اختار الثاني.

[1]- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 62.

وقد كان فرع التاريخ يشمل التاريخ العربي و الإسلامي فقط. و لعل للأستاذ دورا في ذلك الإختيار أيضا كما أسلفنا الحديث من قبل فقد كان على رأس فرع التاريخ الأستاذ ضياء الدين الريس، بينما كان الأستاذ عمر الدسوقي على رأس الفرع النقدي، و الذي يختلف عن زميله شخصية و أسلوبا، و حُب سعد الله لهذا الأخير حسم إختياره لتخصص الأدب. فكلية دار العلوم التي قضى بها خمسة سنوات (4ليسانس،1 دراسات عليا)، لم تساعده أيضا في إستكشاف حقيقة اتجاهه لأن الدراسة بها كانت أيضا عامة.[1]

ب- الميل إلى العقلنة:

يذكر أبو القاسم سعد الله أنه كان يميل إلى العقلنة منذ شبابه، فهو أكبر إخوته من الأم يقول في ذلك "كان أقاربي يصفونني بالهدوء و قلة الحديث و أحيانا يقولون أنني أنطق بكلام كبير أي أن تعبيري كان أكبر من مستواي عندئذ، أو ما نقول اليوم النطق بالحكمة " . و يضيق سعد الله أن الدراسة صقلت كل ذلك و بلورت إتجاهه نحو العقلنة بقوله ".... كنت أحب التأمل و عدم الإندفاع في الأحكام و كنت أنظر إلى كل شئ أنه خاضع للنسبية إذ أن ما نتعصب له اليوم قد يظهر فيما بعد أنه لا يستحق كل هذا التعصب و الحماس، و أن من نحبة اليوم حبا جما قد يظهر غدا أنه ليس أهلا لذلك الحب الجم و هكذا على التعميم"[1].

و حين حلوله بأمريكا للدِّراسة، تلك البلاد المادية و الصناعية الكبرى رأي أن التاريخ هو أفضل ما يشبع نهمه العلمي و تطلعاته العقلية، ففيه الشك قبل اليقين و فيه التريث و التثبت قبل إصدار الأحكام، و هو قائم على العقل و الإحتكام إلى الحقيقة و الشهود و الوثائق، و هو بذلك ينأى بصاحبه عن العاطفة و الخيال،" فالشاعر ينفعل و تعتريه هزة كهزة الحَمام المنتقض، أما المؤرخ فيفكر و يتأمل ثم يعاود التفكير و التأمل و شتان بين مشرق و مغرب، أو بين شاعر جموح و مؤرخ حكيم إن الأدب تعبير عاطفي أو متصل إتصالا وثيقا بالعاطفة سواء كان شعراً أو قصة أو مقالة و هذه العاطفة غالبا ما ترتبط بعهد الشباب، و بمرحلة الوثوب و النشاط الجسماني"[2] و سعد الله يذكر أن إهتمامه بالشعر يرتبط بهاته المرحلة العمرية من حياته.

كما أن كثير من الأدباء كانوا يتوقفون عن الإنتاج بأنواعه في مرحلة متأخرة من أعمارهم لسّبب المذكور، فيميلون إلى الهدوء والركون و التفكير، وقد تتحول طاقتهم الابداعية، إلى نوع آخر من الانتاج يتلائم مع المرحلة الجديدة من أعمارهم و في تراجم العلماء العرب منذ القديم تزدحم بالنماذج التي بدأ

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص ص(130-131).

[1]- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المصدر السابق.ص 154.

[2]- نفسه، ص 155.

أصحابها حياتهم الثقافية بالشعر، و فيهم من إستمر في تعاطيه كثيراً أو قليلا، ثم تحولوا من الشعر إلى التخصصات التي عرفوا بها.

جـــ- عامل اللغة و البيئة:

و يضف أبو القاسم سعد الله عامل البيئة و اللغة في ميوله، فعند تركة الشعر، كان قد إنتقل من بيئة شرقية، إلى بيئة غربية و من لغة عربية في التعامل اليومي بكل إيحاءاتها الشعرية التراثية و الثقافية ، إلى لغة غربية ،تتمتع أيضا بكل رصانتها العقلية و دلالتها العلمية، فاللغة الإنجليزية لغة محدودة الألفاظ عقلية المعاني و تنشد الإختصار لا التطويل عكس اللغة العربية لغة أهل الفضاء الواسع و الخيال الشعري.

و يذكر في هذا الصدد أنه عندما كان يتعلم اللغة الإنجليزية كانت معلمته تلاحظ أنه يكتب بعاطفة خيالية في نظرها (غير واقعية)، فتأمره بإعادة ما كتب، و كان أيضا المشرف على أطروحته يملء فصوله حين كان يصححها بعبارات (هذا رأي شخصي، هذه مبالغة، هذه ليست لغة مؤرخ ...) و لعل هذه العبارات و تلك الملاحظات هي التي كانت من بين الأسباب التي جعلته يبتعد عن الشعر، فالإنتاج يصبح ذاتيا عندما يتناول بلغة عربية و لكن نفس الإنتاج يصبح محايدا أو عقلانياً إذا تناول القضايا نفسها بلغة غربية[1].

د- الثورة الجزائرية:

كان للثورة الجزائرية أثر في توجيهه و نقله من الأدب إلى دراسة التاريخ، فتتبعه الدائم لأخبار معركة التحرير في الجزائر جعله يهتم بالقضايا الوطنية و البحث عن ماضي الجزائر الذي لم يدرسه في المدارس كما يدرس الناس تاريخ أوطانهم، فالمثقفون بالفرنسية درسوا تاريخ فرنسا بدل تاريخ الجزائر و المثقفون بالعربية درسوا تاريخ تونس و مصر –كانوا قد درسوا فيها- بدل تاريخ الجزائر و هكذا، كانت معرفته بالتاريخ الوطني معرفة عصامية إن صح التعبير، يقول ذلك " أما ثورة الجزائر فقد أرغمتني على البحث و تطبيق التاريخ، أي جعلتني أدرس تاريخ بلادي الذي لم أدرسه من قبل في أي مدرسة أو جامعة و أتحرى على معرفة إنجازات الأجداد و الآباء و أقارن بين ما قدموا به وما أنجزه الآخرون في الحروب و العلوم وا لحضارة على العموم "[2].

و لعل الثورة نفسها، و معرفته بالتاريخ الوطني على بساطته عندئذ و محاولة إفهام الآخرين محتوى الثورة و أهدافها هو الذي جعله يتخصص في تاريخ أوربا بالذات، للإستزادة من التاريخ العالمي و من ثمة إثراء

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص ص(209-211).

[2]- نفسه.ص 155.

تجربته التاريخية الوطنية فدراسته لتاريخ الشعوب الأخرى و لاسيما تاريخ أوربا الحديث، قد جعله يقارن بين ما حدث بالجزائر، و بين ما يحدث في أماكن أخرى.

هـ – العامل النّفسي:

يذكر سعد الله أنه بينما كلن يتصفح أحد المجلات الأجنبية أيام دراسته بأمريكا فوجد فيها مقالا عن تاريخ العرب في جزيرة سردينيا، و لما كان ذلك الحين يجهل دور العرب في تلك الجزيرة فإن ذلك كان كافيا للضغط على نفسه لمحاولة استكشاف تاريخ أجداده و دورهم الحضاري ،فنقل بذلك تخصصه من دراسة الآداب إلى التخصص في التاريخ[2] .

كما إن وجوده بأرض الغربة (أمريكا) و إتصالاته بالعائلات الأمريكية و المنظمات الجامعية و الطلبة كل هؤلاء كانوا يسألونه أسئلة عن الجزائر و علاقتها بفرنسا، و عن الثورة و أهدافها...الخ، و هو المعطى العام الذي حتم عليه معرفة تاريخ الجزائر و الإلمام بأحداث الثورة لإقناع الناس بمبرراتها و أهدافها[1].

و أبو القاسم من خلال هذا يرجع و يؤكد عدم إبتعاده كلية عن الخط الأدبي "مازلت مزدوجا و هذه الإزدواجية تظهر في آخر منشوراتي، و هو (تاريخ الجزائر الثقافي) لأنني أومن بأن الأدب كنصوص و موافق و قيم و لغة يحتاجه المؤرخ أشد الحاجة و النصوص الأدبية التي أنشرها من وقت لآخر عن العهد العثماني تبين كيف يُمكن فهم الحوادث التاريخية من خلالها. و على هذا فأنا مازلت على هذه الإزدواجية و أدعو إليها و إلا فأي مؤرخ هذا الذي لا يعرف كيف يصوغ أفكاره و يقدم مادته إلى القراء؟"[3].

و لم يمنعه إهتمامه بالدراسات التاريخية من مطالعة الشعر و التلذذ به و الإستفادة منه، يقول عن ذلك " أنا إلى الآن أعود إلى ديوان المتنبي الذي كنت حفظته عن ظهر قلب لأتمتع بروحه و بلغته و حكمته، كما أعود إلى قصائد و دواوين الشعراء المحدثين. و مازلت أقرض الشعر أحيانا و لكن في شكل أبيات و مقطوعات و ليس في شكل قصائد مطولة. و الحقيقة أن من الخطأ أن نختصر التاريخ في قيام الدول و سقوطها و تصادم الجيوش و سير الملوك و العلاقات الدبلوماسية، إن التاريخ اليوم أصبح يشمل ميادين مختلفة إجتماعية و

---

[2]- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المصدر السابق ، ص ص (63-64).

[1]- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص63.

[3]- نفسه، ص14

إقتصادية وثقافة بل إن هناك تاريخ الفنون، و تاريخ الآدب، و اعرف أنهم اليوم في بعض الجامعات الأجنبية يدرسون التاريخ عن طريق الشعر"[4].

و أبو القاسم سعد الله في هذا يؤكد أن التاريخ لا ينفك ينفصل عن الأدب، فكثير من المؤرخين العالميين قد بدؤوا حياتهم كأدباء قبل أن يكرسوا مواهبهم للتاريخ، فحقيقة الأمر أن التاريخ يُوسّع أفق الأديب و يعطيه المعلومات التي يصوغ منها أفكاره و الحكمة التي يستنتج منها آراءه ، و الشخصيات و الحوادث التي يستوحي منها تجاربه . و في المقابل كذلك الأدب ضروري للمؤرخ فمنه يستمد منه تعبيرات و أساليبه. و منة يتلقى حرارة العمل و انطلاقة الخيال[1].

و يدعو سعد الله في مقام آخر إلى أن يكون الباحث على دراية بما يجري في جميع العلوم، و أن لا يحصر نفسه في مجال معين من البحث، "فالإنسان في القديم غير متخصص بالمفهوم الذي نستعمله الآن، فلعلماء الإغريق و الرومان و العرب، و علماء أوروبا أثناء عصر النهضة و حتى العصور الحديثة كانوا يجمعون بين عدة إختصاصات فيكون الواحد منهم طبيبا و فلكيا و شاعرا و رياضيا و فيلسوفا، و قد يكون الواحد منهم مؤرخا و محدثا و فقيها و مفكرا إجتماعا و هكذا، إلى ذلك ، فالحدود كادت أن تكون معدومة بين العلوم و الآداب و الفنون"[1].

فالباحث في نظره يجب أن يلغي جميع الحدود بين مناحي الفكر و الإبداع و أن ظاهرة التخصص في العلوم لا تعني "بالضرورة إقامة الحدود الفولاذية" بين أنواع المعرفة على حد تعبره، حتى تجد الباحث لا يكاد يعرف شيء خارج نطاق المواد التي درسها، و إذ قدر له أن يكتب أطروحته في موضوع ما،ـــ فإنه لا يعرف أبعد من الموضوع الذي كتب فيه. و في التراجم العربية، نماذج من العلماء الذين أعطوا لهذه الظاهرة (التخصص) مفهوم أضيق، أي أنه دائرة ضيقة من دوائر المعرفة الكبرى، و من أمثلة ذلك : الطبيب ابن سينا كان عالما نفسيا و متذوقا للموسيقى و شاعر..الخ.كما أن ابن خلدون المؤرخ كان عالما بالسياسة و الأنساب

---

[4]- أبو القاسم سعد الله قضايا شائكة ، المصدر السابق، ص ص (18-19).

[1]- أبوالقاسم سعدالله ،منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 64.

[1]- أبو القاسم سعدالله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص 86.

و علم الإجتماع و الإقتصاد،كما كان شاعراً و فقيها، و نفس الشئ يقال عن ابن رشد و الرازي و غيرهم[2].

ثانيا: منهج سعد الله في الكتابة التاريخية

1- الكتابة التاريخية

إن المتمعن في الإنتاج الغزير الذي خلفه الأستاذ سعد الله نجده قد إتبع منهجا تاريخيا صارما في تحليل المادة التاريخية التي توفرت لديه، و مناقشة آراء الكتاب و المؤرخين من أجل الوصول للحقيقة التاريخية على نسبيتها، و هنا سنحاول بالدراسة إستكشاف خصوصية هذا المنهج المتبع في الكتابة التاريخية لمؤرخنا، و لن نحاول تخصيص دراسة بعينها فالأمر لا يتعلق بكتاب معين حتى نرصد توجهاته و لكننا أمام رجل له عشرات المؤلفات و الدراسات.

في حوار أجرته ' أسماء خزاعلة ' مع أبي القاسم سعدا لله نُشر في جريدة الشورى الأردنية، سألته فيه عن مفهوم التاريخ عنده فأجابها قائلا : " التاريخ حقل من حقول المعرفة الإنسانية تتمثل فيه كل تجارب الإنسان الخيرة و الشريرة و من ثمة تظهر قيمة التاريخ بين العلوم الأخرى و التاريخ يدرس للعبرة والموعظة و للمتعة و للتخصص في مجال التدريس والبحث، و هو من العلوم التي تتحدى العقل فتجعله يشك في كل ما قيل و يقال، و في كل ما فعل الإنسان و يفعل"[1].

فالتاريخ عند أبي القاسم سعد الله يتحدى العقل، و بالتالي فهو يعتمد منهج الشك قبل اليقين، و التثبيت و التريث قبل إصدار الأحكام، و الموضوعية العلمية قبل الذاتية و هذا المنهج يعتمد على جملة الأدلة من وثائق وقرائن.

و يرى أبو القاسم سعد الله أن التاريخ لابد أن يكتب من طرف مختصين يكتبونه وفق المناهج العلمية الحديثة ،بعيدا عن الهوى و التعصب، فالمؤرخ في نظره هو الذي درس المناهج التاريخية الحديثة و يفرق بين هذه المناهج و مناهج العلوم الأخرى، كما أنه يجب عليه إستعمال الوسائل و المنهجية الصحيحة في تحليل المصادر و إستنطاق الوثائق، فيتعرف على الأحداث التاريخية ويحلل نتائجها ليس كصانع للحدث أو مشارك فيه أو متأثر

---

[2]– أبو القاسم سعدالله، قضايا شائكة، المصدر السابق ، ص87).

[1]- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص203.

به إنما كملاحظ له، و متفهم لأسبابه و مستخلص لنتائجه حيث يقول:" التاريخ في أساسه بحث في أحداث الماضي، و تفهم لأحداثه إعتماداً على منهج أكاديمي و نظرة موضوعية و رؤية محايدة فهو عمل شاق صعب الممارسة، كما يجب عليه أن يحسن إستعمال الوثائق و يعرف منها المتفقة و المتعارضة و المزيفة، و أن لا يصدر حكمه في أي مسألة أو حادثة إلا بعد أن يعلم الرأي فيها على كامل وجوهها".

فليس في نظره كل من يكتب في التاريخ مؤرخا للأحداث، و ليس كل من ينشر الوثائق باحثا في التراث، كما ليس كل من يثير إشكالية أو يطرح مسألة يعتبر محللا لمعطيات التاريخ، لأن مواصفات المؤرخ و نوعية إنتاجه تتحدد على ضوء ما يملكه من زاد معرفي و منهج علمي و منظور أكاديمي، و هذا ما يجعل المؤرخين الحقيقيين عددهم قليل في نظره، و في هذا يصنف سعد الله المؤرخين إلى ثلاثة أصناف هم كالآتي:

- الصنف الأول: يحاولون عرض الأحداث التاريخية و تفسيرها حسب ميولاتهم السياسية و قناعتهم الإيديولوجية.
- الصنف الثاني: هم الذين سكنهم هوس التاريخ و يعتبرون أنفسهم صناعاً للأحداث التاريخية شأنهم شأن كتاب المذكرات الشخصية .
- الصنف الثالث : هم هواة التاريخ الذين يستهويهم خيالهم الغير محدود و ينفون أنفسهم من ذكريات الماضي و يقطعون سيرتهم بالحاضر، فيكتبون ما توفر لديهم لا يفرقون بين ما هو خيالي وبين ما هو منطقي فهم درسوا التاريخ من أجل المتعة والترفية[1].

فالباحث فالتاريخ عليه أن يتجرد من كل ميول أو عداء لأي جهة أو نظام أو حدث تاريخي، و أن يتناول الموضوعات التاريخية بكل حيادية بعيداً عن أي تأثيرات شخصية أو جهوية أو سلطوية فالمؤرخ الأصيل في نظر سعد الله عليه أن يتصف بالصدق و الأمانة و التجرد يقول سعد الله في هذا الشأن: " إن بعض الناس اليوم يكتب من وجهة نظر حزبية، و بعضهم يكتب بمنظار الطرقية و بعضهم يكتب بلون الحركة الإصلاحية، و بعضهم يكتبه في ضوء الإيديولوجيات العالمية، و أود أن أقول هنا بأني في إعتقادي، لست من هؤلاء ولا من أولئك، و المؤرخ الحق في نظري هو الذي يفرق بين ميوله الشخصية و مهمته الوطنية و القومية و الإنسانية، إننا لا نكتب التاريخ حسب أهوائنا و ميولنا و لكن حسب منطوق و مفهوم الوثائق مع الأخذ بالإعتبار جميع معطيات القضية التي نعالجها، و رائدنا في كل ذلك خدمة التاريخ نفسه و خدمة الأجيال في ضوء العلم

[1]– البشير غانيه، مفهوم التاريخ ومنهجه عند أبي القاسم سعد الله،أعمال الملتقى الدولي أبو القاسم سعد الله مؤرخا و مفكرا...، المرجع السابق، ص 257.

الحديث و التقدم البشري، و مع إخضاع جميع الأبحاث إلى تحكيم العقل الواعي ذلك أن تاريخنا العربي والإسلامي و الجزائري على الخصوص ملئ بالخرافات الغليظة التي لا يقبلها العقل و لا العلم و لا نظرية التقدم في أوسع معانيها"[1].

من خلال ما تقدم حاولنا تبيان المهمة الكبرى التي تقع على عاتق المؤرخ وما يجب أن يتزود به من خصائص وصفات تؤهله لذلك، كما إستنكر موقف كبير من المؤرخين الذين يكتبون حسب ميولهم أو عدائهم للأحداث و المواقف و الأنظمة وغيرها.

أما مسألة الكتابة التاريخية في نظر أبي القاسم سعد الله فإنها تخضع لما عليه الجيل من ثقافة و إبداعات حضارية، فإذا كان الجيل المدون للتاريخ مثقفاً جداً فإنتاجية سيكون مرآه لثقافته و قدراتة العقلية، و إذا كان متوسط الثقافة، أو حتى قريبا من الأمية فإن إنتاجية الكتابي سيكون مرآة له أيضا و هو بذلك يدعو إلى التجديد في الكتابة التاريخية حسب معطيات العصر الذي يعيش فيه الكاتب و ما يتوفر لديه من وثائق جديدة يقول عن ذلك " إن الكتابة التاريخية عملية متجددة يمارسها كل جيل بالقدرة العقلية التي وصل إليها و الوثائق المتوفرة لديه و المستجدات الحضارية التي تحيط به "[1]. و بالتالي نجد سعد الله يُقِّر بأن عملية البحث التي خاضها لا تعني بالضرورة الوصول إلى الحقيقة التاريخية، و أن عملية الكتابة التاريخية باب مفتوح ليكتب المؤرخ حسب ظروفه و إمكانياته و وثائقه و ثقافته.

و عملية التجديد في الكتابة التاريخية، لا تعني قلب الحقائق و لا عكس المفاهيم و لكنها تعني تصحيح ما غاب من خطأ عن الأجيال السابقة و إستكمال ما تم إنجازه فيما توقف عنده المؤرخون السابقون، و قد تكون بعض حقائق التاريخ مزيفة أصلا فتكشق عملية التجديد عن ذلك الزيف و تعيد الأمور إلى نصابها، و سعد الله يشير هنا إلى معاناة الجزائرين من الزيف الذي طال الكتابة في تاريخ الجزائر من طرف الكتاب الفرنسين[2].

فالكتابة هواية وصنعة على حد قوله، و هي على كل حال تبدأ هواية فردية، فإذا تكاثر أصحابها في المجتمع الواحد تصبح هواية جماعية أو إجتماعية، " لذلك فإن بعض الشعوب هوت الكتابة و برزت فيها فخلدت آثارها،غثة و سمينة، و بعض الشعوب عزفت عن الكتابة فأهملت آثارها و ذرت الضباب على

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء ...،2، المصدر السابق، ص ص (5-6).

[1]- أبو القاسم سعد الله، "الكتابة التاريخية"، مجلة الثقافة، العدد 66،ديسمبر 1981، ص5.

[2]- أبو القاسم سعد الله، حورات، المصدر السابق، ص 179.

نفسها"[1]. و الجزائريون في هذا التصنيف في نظر سعد الله من الشعوب التي عزفت عن الكتابة كهواية، فبالقياس إلى الشعوب الأخرى نجدهم شعوب مقلة في تسجيل حوادثهم و أخبارهم، و هذا في جميع العصور والحقب التاريخية، فبينما تكتب بعض الشعوب الأخرى عن الحادثة الصغيرة في بلادهما فتضخمها و تعظمها حتى تصبح حادثة دولية أو قضية إنسانية لا تنسى نجد في الجزئر الأحداث الجسام تهمل فتتضاءل حتى تضيع من ذاكرة الشعب التي صنعها[2].

و يعزي سعدالله هذا العزوف إلى عدة أسباب منها، الحساسية المفرطة لدى الفرد الجزائري، فهو لا يقبل أن يطعن في كفاءته أو ينتقد في سلوكه، و الأولى له أن لا يقال فيه شيء البته من أن يقال فيه أنه غير كفء، فهو يفضل الهروب من قول الحقيقة و أن يهمل آثاره حتى لا يكون في دائرة النقد أو الإنتقاص من كفاءته، و أن كل ناقد له هو خصمه مهما كان هذا النقد نزيها و بناء على ذلك فهو يفضل أن لا يكون ناقداً حتى لا يكون منقوداً .

و سعد الله يشير إلى الظروف التي تساعد على خلق المؤرخ الذي يكون صوت الجيل الذي يعيش فيه في تدوين أو تجديد عملية الكتابة التاريخية فالثقافة العالية و المناخ الحر و المحفزات وبطولات الشعب، كلها عوامل تساعد على خلق هذا المؤرخ، و يثبت الاستقراء أن التاريخ الجزائري لم يعرف هذه الظروف التي ذكرنا. فالثقافة تكاد تكون دون المتوسط، و المناخ الحر كان مفقودا، و المحفزات المادية و المعنوية لم يعرفها الجزائريين إلا في فترات قصيرة و مبعثرة، أما بطولات شعب فنحن حسب سعد الله بإجماعنا لا نكاد نعترف لأي بطل في تاريخنا سواء كان ملكا جبارا أو محاربا مغوارا أو شهيدا أو عالما. يقول سعد الله في هذا الشأن" إن تحطيم الأبطال و الرموز ظاهرة غريبة تميز بها الإنسان الجزائري عبر تاريخه و يكاد يكون فريدا بين الشعوب في ذلك".[3]

ففي تحليله لهاته المعطيات، فعندما نرجع إلى المركزية الثقافية، فنجدهما تكاد تكون غائبة في بلدنا فالتشرذم الثقافي كان ظاهرة إمتازت بها جميع العصور في الجزائر، ففي ظل غياب المركزية السياسية في العصر القديم و الإسلامي كان عامل مساعد على التشرزم الثقافي، و في العهد العثماني و هو العهد التي تميز بجغرافية سياسية محددة، و مركزية سياسية واضحة، نلاحظ أن التشرزم الثقافي قد تواصل بحيث لا نجد أن السلطة

[1]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء...، ج2، المصدر السابق، ص 6.
[2]- نفسه، ج2، ص 7.
[3]- نفسه، ج4، ص 8.

العثمانية قد فرضت لغة أو لهجة واحدة كما فعل فرنسوا الأول بفرنسا أو كما فعلت عائلة الرومانوف بروسيا بل إن المركزية السياسية العثمانية قد أبقت على الفوضى اللغوية أيضا بعامياتها العربية و البربرية.

وفي العهد الفرنسي الذي زاد من حدة هذه التمزق الثقافي، ويكفي أن نعرف أن هذا التمزق قد ضربت جذوره بقوة على الوحدة الفكرية للجزائر ما بعد الإستقلال، رغم وجود المركزية السياسية الوطنية و التي هي في نظر سعد الله لاتختلف كثيرا عن المركزية السياسية العثمانية بالنسبة قضية اللغة، فإذا كانت المركزية العثمانية قد فرضت التركية فإن المركزية الوطنية الحالية قد فرضت الفرنسية، و تركت العربية للتعليم الذي قد يتحول إلى تعليم ديني هو أيضا كما في العهد العثماني، و بذلك تحتكر الفرنسية في التعليم و الإدارة [1].

وفي بطولات الشعب؛ فهناك مثلا ثورة التحرير الكبرى، فيذكر سعد الله إن ثورة مثل ثورة الجزائر حدثت في بلد آخر يهوى أهله الكتابة لكتب عنها أهلها المجلدات، و لفاخروا بها الشعوب الأخرى، فقد كانت عظيمة تحمل في طياتها آمال عريضة، يقول " ... كم عرفت من رموز و أبطال و كم أفتكت من إحترام و إعجاب العدو و الصديق في العالم وكم كانت قدوة لعدة من حركات التحرر، و لكن ثورة الجزائر بالنسبة للجزائريين ما تزال حادثة تتردد حولهما الشعارات فقط مثل ثورة المليون شهيد، و ثورة تحرير العالم الثالث".و بالتالي فالشعب الجزائري توفرت لديه بطولات و رموز و أبطال خلدوا تاريخها، و مع ذلك لا نجدهم يسهموا في تدوين تاريخهم بل إمتازوا بظاهرة تحطيم الأبطال و الرموز.

و أمام ظواهر الخوف من كتابة التاريخ و التشرزم الثقافي و تحطيم الأبطال و الرموز، و أمام غياب المركزية الواعية الموجهة و فقدان الحرية الفكرية، نجد سعد الله يتساءل " كيف يولد المؤرخ و يمارس نشاطه و تجديده لتاريخ شعبه؟" و يضيف: " لقد كتبت مرة أن الأمة العظيمة هي التي تلد المؤرخ العظيم و أن الأمة القزمة هي التي تلد المؤرخ القزم فنسأل أنفسنا إذن : هل نحن شعب قزم و من ثمة فإن ما عندنا من (مؤرخين) قدماء و محدثين ما هم إلا مجرد أقزام. و ماذا ننتظر من شعب يحطم أبطاله، بفأسه، و يمزق كيانه بيده و لسانه(ثقافيا)، و يخشى أن يتحرك في رابعة النهار و يفضل العيش في ظلام الكهوف؟"[1].

و يرى سعد الله أنه إذا إستطعنا أن نحل هذه المعضلات فإن مشاكل تاريخنا الأخرى ستجد لها حلاً بدون شك، و ليس بالضرورة أن جميع الإمكانيات قد توفرت الآن أمام المؤرخ ليكتب، فحسب سعد الله أن كثير من العازفين عن الكتابة يبررون موقفهم و يتعللون بحرية التعبير و حرية النشر، ففي نظره أن الحرية تؤخذ

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء...،ج4، ص ص(8-9).

[1]- نفسه، ص 10.

و لا تعطى فوجودهما هو نعمة على الشعب و عدم وجودهما يحتم على عشاقها أن يعملوا من أجلها ضد أي سلطة، فالمؤرخ يحرص على وضع قدميه على أرض صلبة و عدم إصدار أحكامه قبل توفر شروط معينة، كالحرية و الوثيقة و الموضوعية، و على المؤرخ أن يصدع بالحقيقة متى اقتنع بوجودها عن طريق البحث في الوثائق و المصادر المتنوعة، أما نشر المكتوب في هذه الظروف فليس بالضرورة في الوقت الحالي، فقد يتأخر بعض الوقت أو بعض السنيين، فالمهم هو تسجيل الرأي و الموقف للأجيال القادمة.[2]

كما يضيق سعد الله " أنه يجب ألا أن تكون عندنا عقدة من كون تاريخنا غير مجدد و لا أقول غير مكتوب، فمعظم الشعوب تحاول إستعادة كتابة تاريخها بناء على المعطيات الحضارية و الظرفية و الإستراتيجية، و إعادة كتابة التاريخ تعطي الفرصة لتوظيف عناصر كانت غائبة في مرحلة سابقة عن المؤرخ، أو كانت محرمة أو ضد مصلحة الوطن"[3] .

2- خصوصية منهج سعد الله في الكتابة التاريخية:

يؤكد الأستاذ سعد الله على ضرورة إلتزام الباحث بقواعد المنهجية العلمية، في أي عمل تاريخي من أجل الرقي بالكتابة التاريخية، و جعلها أقرب إلى الحقيقة العلمية، و إلى الموضوعية، و من خلال قراءتنا للكتابات التاريخية للأستاذ سعد الله نجد أن الأستاذ سعد الله قد أتبع في كتاباته المنهج العلمي، البعيد عن الذاتية بهدف الوصول إلى بعض الحقائق النسبية. فنجده في الكتابة التاريخية يوظف منهج الكتابة بحسب الأحداث و المواضيع، فهو عادة ما يذكر الحدث و التاريخ الذي يرتبط به، إلا أن القارئ يمكن أن يلاحظ أن أستاذنا غالبا ما يرتب المواضيع في شكل عناوين و يخضعها إلى الترتيب الكرونولوجي، الذي يوافق المنهج المتبع في كتابه التاريخ بحسب السنين، فالترتيب الذي وضعه مثلا لكتابه الثقافي و تاريخ الحركة الوطنية، يندرج في هذا الخصوص، هذا الأخير الذي نجده يتدرّج فيه من جزئه الأول حتى جزئه الرابع (1830-1945م). فالمرحلة الممتدة من 1830 إلى 1900 و التي تميزت بحكم عسكري إلى سنة 1870 و ساد بعدها حكم مدني لا يختلف عن سابقه إلا من حيث التسمية و كان رد فعل الجزائريين على الأسلوبين حاضراً بمواصلة التصدي و الصمود و المقاومة.

---

[2]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء...، ج2، ص ص(7-8).

[3]- نفسه، ج4، ص10.

ومن حيث إنتهى يبدأ مرحلة جديدة يغطي فيها الحركة الوطنية بأحذابها السياسة و هيئاتها الإجتماعية و علاقاتها بالمحيط الدولي و المذاهب و الإيديولوجيات المعاصرة إلى سنة 1930م...إلخ. و قد تناول فيها التطورات التي آلت إليها مختلف التنظيمات السياسية، و ميثاقها الاجتماعي و علاقاتها بالمحيط الدولي و المذاهب و الأيديولوجيات المعاصر إلى سنة 1930...إلخ، و قد تناول فيها التطورات التي آلت إليها مختلف التنظيمات السياسية منتهيا عند محطة أحداث 08 ماي 1945 الأليمة. مما تقدم يتضح لنا التسلسل الزمني كان يساير أجزاء كتاب الحركة الوطنية بشكل تصاعدي من نكبة الإحتلال سنة 1830م إلى مجازر 08 ماي سنة 1945م[1].

و في تحليله للمادة الخبرية نجده يوظف المنهج الوصفي التحليلي في كتاباته نظراً لواقعية الأفكار التي طرحها للمناقشة يقول عن ذلك في كتابه التاريخ الثقافي " و لم تكن مهمة البحث في المظان تهدف إلى جمع المادة و حشرها في الكتاب بدون رأي أو تمحيص أو ترتيب، فالكتاب كما قلتُ يدرس الظواهر و يحللها و يعللها، كما يدرس الإنتاج و يصفه و يقيمه و يناقش المؤلفين آراءهم و مواقفهم و يصحح بعض الأخطاء، فمادة الكتاب إذن ليست كتلة جامدة من الحوادث التاريخية أو تجريدة إحصائية للإنتاج"[2].

و يمكن للقارئ أيضا أن يستشفه في جميع أجزاء الحركة الوطنية، و التاريخ الثقافي، مع التزامه قدر المستطاع أسلوب التحليل في إبداء الرأي، و هو نفسه يتحدث عن تحليله للمواضيع التي تناولها و من ذلك قيامه بتحليل العلاقة التي كانت قائمة بين الحركة الوطنية و أهم الإيديولوجيات المعاصرة لها من أجل الكشف عن تفاعلات هذه الحركة أثناء الفترة ما بين 1900 و 1930م من تاريخ الجزائر المعاصر[3].

كل ذلك يسمح للباحث بالولوج إلى المرحلة الصعبة و الحساسة من البحث التاريخي، و هي إخضاع مادته التاريخية للنقد، بحيث يسلط النقد على الوثيقة من مختلف جوانبها، و هذا ما أشار إليه الأستاذ سعد الله إلى ضرورة العناية، بالوثائق بإعتبارها المصدر الأول، و أن تذوق التاريخ و إستيعابه و الإحساس به، يتوقف على قراءة النصوص و الوثائق قراءة متأنية، ذلك أنه لا يكفي أن يقرأ المرء سرداً للأحداث التاريخية، أو تحليلا

---

[1]- حاج عبد القادر يخلف،" مساهمة شيخ أبو القاسم سعد الله في التاريخ للجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي"، مجلة عصور الجديدة، المرجع السابق. ص ص (316-317).

[2]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، ص24.

[3]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، المصدر السابق، ص12.

جافاً بل من قراءة النص الأصلي في لغته و عباراته و أسلوبه و حرارته الأولى، و ذلك ما يعطي للحادثة معناها و لونها و قوتها.

فالشئ الملاحظ في كتابات سعد الله التاريخية هو غناها بالمادة الوثائقية الموظفة في محلها وخاصة استقراء النصوص الحية المعبرة عن طبيعة الفترة المدروسة وتوظيفها في سياقها التاريخي مع الاستشهاد بها في ايصال الفكرة وتثبيت الحكم، و إن جل هذه النصوص مأخوذة من أقوال و شهدات و تصريحات القادة العسكريين و رجال الادارة، وكذلك المؤرخين المعاصرين لفترة الاحتلال الفرنسي وغيرهم[1].

فقد فتش في رفوق الأرشيف الجزائري و الفرنسي و العربي و الأمريكي، و الأوروبي، و بالمقابل فإنه تعامل معها كرؤية معينة لها مالها و عليها ما عليها مع الكشف عن خباياها، و في نفس الوقت فهو لا يميل إلى الكتابة التي تهلل على نغْم عواطف التمجيد الزائدة بل الموازنة بين معطيات البيئة و صاحب الوثيقة و ضمن هذا السياق فهو يأخذ بمقولة :" المؤرخ الحق يجب أن يكون عدلا غير متحيز لهوى، ولا مائلا إلى جهة، و أن لا يغلبه الهوى على الإنصاف، فيجعل الحق باطلاً و الباطل حقاً، و يطنب في مدح من لا يستحق لحبه، و يقصر في الثناء على مستحق المدح بمجرد أنه لا يميل إليه أو لكراهيته أو إختلاف في المذهب أو لغير ذلك من الأسباب التي تجور بها الأحكام، و يختل بها الميزان"[2].

و هذا ما يؤكده الأستاذ ناصر الدين سعيدوني في تعامله مع مادة التاريخ الثقافي بقوله"...نأى بنفسه عن العواطف الصادرة عن الميول الجهوية و الناتجة عن الأفكار المستندة الى الخرفات، و التي غالبا ما تصدر في أساسها عن الاطراء المبالغ فيه أو العداء الصريح، فلم ينتقص عملا و لم يتاجهل جهدا و لم يهمل موقفا، لأن هدفه، حسب قوله: ' اطلاع الجيل الحاضر و من خلاله أجيال المستقبل على حقيقة الثقافة الجزائرية كما كانت "[3].

و قد إهتم أيضاً في هذا المجال بكتابات الجزائريين المتعددة، حيث حقق الكثير من المخطوطات، و كشف أن أهمية تلك المصادر التي أرخت للجزائريين كإبن الفكون و أبي راس الناصري .....إلخ، للكشف عن المساهمة الوطنية. و في دراسته للحركة الوطنية نجده يقارن بين المصادر الجزائرية التي كانت شاهد على

---

[1]- مراد وزناجي، مفهوم التاريخ عند أبي القاسم سعد الله، الجزائر: عالم المعرفة، 2015م، 315.

[2]- أبو بكر الصديق حميدي، "قراءة في الإنتاج الفكري لدكتور سعد الله، مجلة عصور الجديدة، المرجع السابق، ص25.

[3]- ناصر الدين سعيدوني، كلمة وفاء، المرجع السابق، ص 93.

الأحداث أو كانت من صناعها أمثال فرحات عباس، ابن باديس و مصالي الحاج و غيرهم، و المصادر الأرشيفية الفرنسية و الجرائد المعاصرة خاصة منها البريطانية و الأمريكية.

حيث يحاول أن يكتب تاريخا بعيدا عن المؤثرات والضغوط بهدف الوصول للحقيقة التاريخية حيث يقول عن شخصيات الحركة الوطنية ما بين (1830-1945)" إن الرجال الذين ساهموا في صياغة تلك المفاهيم، قد إنسحبوا اليوم من المسرح السياسي، إما بالموت مثل ابن باديس و مصالي و العقبي و الإبراهيمي ... و إما بالسن مثل فرحات عباس و إبن جلول و أوزقان ... ولو ظل هؤلاء و أمثالهم في الحكم أو في أماكن النفوذ و التأثير لصعب على المؤرخ النفاذ إلى بعض الحقائق و لواجه صعوبة حتى في إصدار أحكامه"[1].

هذا فيما يتعلق بالتعامل مع مادة البحث و تحليلها، أما فيما يتعلق بأسلوبه في الكتابة التاريخية، فأسلوبه سهل بسيط إهتم فيه بإبراز المادة التاريخية بعبرات قصيرة توضّح المقصود، فالقارئ لا يكاد يشعر أنه منحاز إلى فريق ضد آخر، و إنما هو دارس تنتهي مهمته حيث تقوده المعلومة، مع التقيد بالأمانة العلمية في التوثيق الذي يضفي عليها الصبغة الأكاديمية العلمية، فقد كان يحرص على إستقاء المعلومات و المادة التاريخية من أصولها المخطوطة و المطبوعة، و لم يكتف سعد الله في طريقة توثيقه بتثبيت المصدر أو المرجع الذي إستقى منه معلوماته، بل يعطي فوق ذلك ملاحظاته الفنية و النقدية معرفا ببنية المصدر و مضمونه و محتواه فتجاوز بذلك عمله حالة التوثيق إلى دراسة الكتابة الشاهدة على الظواهر و الأحداث في حد ذاتها و هو ما يجعل أسلوبه يتصف بالصِّدق و الأمانة، و الثقة التي تؤكد صحة و سلامة الحقائق التي نقل ألينا.

و مما يلاحظ على مؤرخنا في كتاباته التاريخية، هو طغيان الأسلوب الأدبي في كتاباته، فلغته رفيعة المستوى، و أسلوبه تطغى عليه مرجعيته الفكرية الصادرة عن تكوينه الأدبي، فالأستاذ سعد الله كما أسلفنا من قبل يتمتع بموهبة أدبية خلاقة، و خيال واسع، و فهم نفيس لخبايا اللغة العربية، ناهيك عن إلمامه بأصول الثقافة العربية الإسلامية.

و نستدل من ذلك الحالات و المواطن التقفية السجعية النثرية و المحسنات البديعية اللفظية و المعنوية، فيما كان يصفه أو يستدل به أحيانا في كتاباته التاريخية، و من ذلك قوله في كتابه الحركة الوطنية: "إن فرحة

1- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج3، المصدر السابق، ص 10.

بورمون بالنصر قد شابتها مرارة العلقم"[1]. و قوله " لذلك يمكن القول أن نشاط جمعية العلماء لم ينقطع خلال الحرب و لكنه كان هادئاً كالجدول الصغير لا هادراً كالنهر الكبير"[2].

و نجده أحيانا يستشهد بالشعر العربي حيث يكون لذكره معنى و ارتباط بالموضوع أو الحادثة التاريخية، و رغم كونه شاعراً فهو عادة لا يستخدم شعره الخاص، و الأشعار التي وظفها هي شعر منقول عن غيره للضرورة التي تقتضيها خدمة الحقيقة التاريخية، من ذلك قوله: " و قد كان لسان حال كثير من أهل المدن التي وقعت فريسة الإحتلال قول الحكيم المتنبي:

و من نكد الدنيا على الحر أن يرى عـــــدوّا لــه مـــا من صـــداقتـــه بدّ[3].

و في موطن آخر يقول "وقد عبر الشاعر الكبير محمد بن الشاهد الذي كان قد تولى الفتوى قبل الإحتلال و أصبح بعد سنة 1830م طاعنا في السن فاقد البصر، و فقير معدوما، قال على لسان مواطنيه يرثي مدينة الجزائر بعد أن وقعت فريسة ذلك الغزو و يخاطبها بقوله :

لبست ســـواء الحزن بعد مَســـرّة و عمّت بواديك الفنونُ بلا حصر

رفضت بياض الحق يوماً فأصبحت نواحيك تشكو بالأماني إلى الجور

إلى قوله

و نالوا من الأقوال يســـر مســـيراً و فازوا بها و القلب يُصلى على الجـــمر

أموت و ما تدري البواكي بقصتي و كيف يطيب العيش و الأنس في الكفر[4]

وقد يستشهد بشطر من البيت، كما في قوله: "فالذين رشحوا ندموا على رأيهم فيه ولات ساعة مندم"[5].

كما يلاحظ على سعد الله أيضا طغيان الثقافة الدينية في كتاباته، بحيث يورد عبارات مقتبسة من التعبير القرآني، فقد يأتي بالآية الصريحة المطابقة، لما يتحدث في نطاقه، و قد يأتي بتعبير قرآني ضمني للدلالة على أمر

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المصدر السالق، ص31

[2]- نفسه،ج3، ص 187.

[3]- نفسه، ج1، ص102.

[4]- نفسه، ص89.

[5]- شطر البيت من البيت الشعري: ندم البغاة ولات ساعة ندم و البغي مرتع مبتغيه وخيم.

معين، و نلمس ذلك على سبيل المثال في الجزء الرابع من كتابه أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر بقوله : "...و إنصافاً للتاريخ أيضا نقول أنه لولا أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم و وطنهم، و كوّنوا أنفسهم في الخفاء و إجتمعوا و تعاونوا و قرروا الثورة...". و يضيف: "و يبقى أن نعرف مستقبلاً كم من الذين فجروا الثورة 1954م كانوا من خريجي خلايا حزب الشعب و كم منهم كانوا من خريجي مدارس جمعية العلماء، و كم هؤلاء و أولئك (صدقوا ما عاهدوا الله عليه) "[1].

و يستشهد بذلك أيضا في كتابه الحركة الوطنية، من ذلك على سبيل المثال : "...ولكن الحملة استغرقت قرناً و ربعاً و كانت تبدو لأصحابها بلا نهاية، و السحابة تحولت إلى ظلمات بعضها فوق بعض..." فقوله " ظلمات بعضها فوق بعض يطابق قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ سورة النور- الآية 40. و قوله عن قسنطينة " و هي أيضا قاب قوسين من تونس" فقد إستعمل "قاب قوسين" التي تطابق قوله تعالى: ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ سورة النجم- الآية 29. و للقارئ أن يقيس على ذلك العديد من الأمثلة.

فالأستاذ سعد الله خريج المدرسة القرآنية طفلا، و الزيتونة و كلية الآداب و العلوم الإسلامية شابا، و تركيزه في هاتين المرحلتين على المواد ذات التوجه أو الصبغة الأدبية الدينية، كان لها الأثر البالغ في الكتابة التاريخية لديه و التي أصطبغت بهذا اللون، و هذا إن دل على شيء فإنه يدل على مدى تأثره بالحياة الروحية الإسلامية و تمسكه بإحدى أهم مكونات الشخصية، الجزائر الأصلية .

من خلال ما سبق يمكن أن نجمل منهج أبو القاسم سعد الله في الكتابة التاريخية في النقاط التالية:

- إستخدام سعد الله منهج الكتابة حسب الأحداث بإخضاعها للترتيب الكرونولوجي الذي يوافق المنهج المتبع في كتابة التاريخ حسب السنوات.

- الروح النقدية في كتاباته، و ذلك بتفكيك النصوص و ممارسة النقد عليها، من أجل إثبات الحقيقة التاريخية و تحليلها بطريقة موضوعية.

[1]-أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء، ج4، المصدر السابق، ص-ص (147-148).

– اتبع أبو القاسم سعد الله المنهج العلمي البعيد عن الذاتية، بهدف الوصول إلى بعض الحقائق النسبية، من خلال أستنطاق الشواهد و الوثائق، حيثُ كان مصدرها و باللغات المتاحة و مقارنة بعضها ببعض، مما أعطى لدراساته التاريخية العمق و الشمولية و القدرة على تفسير الكثير من المعطيات .

– حرص أبو القاسم سعد الله على الابتعاد عن الضغوط في الكتابة التاريخية، و الاحتفاظ بقناعاته في الكتابة بعيدا عن المؤثرات قدر المستطاع .

– إستخدامه لأسلوب سهل بسيط في الكتابة التاريخية، إهتم فيه بإبراز المادة التاريخية بعبارات قصيرة توضّح المقصود.

– طغيان الأسلوب الأدبي و الثقافة الدينية في كتاباته التاريخية، نظرا لمرجعيته الفكرية ذات التوجه أو الصبغة الأدبية الدينية الصادرة عن تكوينه العلمي.

– التقيد بالأمانة العلمية في التوثيق، بتثبيت المصدر و المرجع الذي استقى منه معلوماته، مع إعطاء ملاحظات فنية و نقدية معرفا ببنية المصدر و مضمونه ومحتواه.

و في الأخير يمكن القول أن كتابات أبو القاسم سعد الله التاريخية تميزت في عمومها بالطرح الموضوعي و العلمي نظراً لاعتمادها على المنهج العلمي بإسترداد الأحداث التاريخية، و تحليلها بطريقة موضوعية كما أتقن كذلك تفكيك النصوص و ممارسة النقد عليها، و ما خلصنا له من خلال الإطلاع على المادة التاريخية التي كتبها، هو طغيان الصبغة الأدبية و الدينية و بدأ ذلك جليا للعيان في كتاباته مردها إلى لون الثقافة التي نشأ فيها و أغترف من معينها. و مساهمة الأستاذ سعد الله على بساطة أسلوبها وطبيعة مرجعيتها إلا أنها استطاعت بناء أسس مميزة لمدرسة تاريخية جزائرية.

3–: البعد الثقافي في كتاباته التاريخية:

إن المتمعن في أعمال أبي القاسم سعد الله سيلاحظ لا محالة إهتمامه الكبير بتاريخ الفكر و الثقافة، بل و أن كثيرا من يعرفون المؤرخ أبو القاسم سعد الله يلاحظون مدى عزوفه عن الكتابة في التاريخ السياسي و العسكري، خصوصا في تاريخ الجزائر، إذ قدم لهذا الأخير دراسة علمية متميزة تعتبر مرجعية أساسية للباحثين في التاريخ الثقافي الجزائري و المتمثله في موسوعته " تاريخ الجزائر الثقافي"، و في هذا المحور سنحاول التعرف على أسباب إهتمام أبي القاسم سعد الله بالجانب الثقافي في كتاباته، و هذا ليس معناه إقتصار دراساته على

الجانب الثقافي فحسب، بل كانت له دراسات رائدة في التاريخ السياسي، مثل دراسته المعنونة بـــ" الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1945م"، و عليه ما أسباب تركيزه على البعد الثقافي في دراساته و إهتماماته بتاريخ الجزائر؟

إن حديثنا عن إهتمام سعد الله بالتاريخ الثقافي، يقودنا بالضرورة إلى التساؤل حول دواعي إهتمامه بالبحث و التأليف في تاريخ الجزائر بالذات، مع ميل خاص إلى الجانب الثقافي، خصوصا إذا علمنا أن حقل تخصصه العام يكاد يكون خارج التاريخ الجزائري، أو بمعنى أدق لا يوجد حقل خاص بذلك التاريخ، سواء في أوربا أو أمريكا أو المشرق العربي، أو حتى بالجزائر نفسها قبل الإستقلال، فالإستعمار قد أغلق جميع الأبواب حتى لا نرى الشمس في تاريخنا، و مع ذلك نجد جل مؤلفات و دراسات سعد الله تخص تاريخ الجزائر.

أضف إلى ذلك تخصصه الأكاديمي بجامعة مينيسوتا، كان يشمل تاريخ أروبا الحديث و المعاصر، ومع ذلك لا نكاد نلمس دراسة لأبي القاسم سعد تخص هذا الجانب، مع تعمقه الكبير في دراسة جميع فروع هذا التخصص، و بإتقان عدة لغات لفهمه، و ما وجدناه هو شذرات موزعة هنا و هناك في شكل مقالات أو بحوث أو محاضرات، أما كدراسة مستقلة متعمقة، فلم يخصص سعد الله لها ذلك في إطار اهتمامه بالكتابة التاريخية فما دواعي اهتمامه بتاريخ الجزائر بالذات رغم عدم دراسته بطريقة أكاديمية؟ وكيف كانت مصادر إطلاعه حوله؟

يمكن أن نلتمس أسباب اختياره البحث في تاريخ الجزائر في بعض كتاباته و لعل من أبرزها:

- وجوده في بلاد الغربة (أمريكا) حيث يحن الإنسان إلى أهله و وطنه و يفتخر بتراثه و يصبح كل شيء عنده ذا قيمة تكاد تكون مقدسة.

- الثورة الجزائرية نفسها قد جعلت كل جزائري يكتشف نفسه من جديد و بالتالي يكتشف وطنه وشعبه وحضارته، و قد كانت الثورة في حد ذاتها تصحيحا للتاريخ الوطني .

- إتقانه لعدة لغات أجنبية قد سهل عليه الإطلاع على آثارنا التي اعتنى بها الأجانب و أهملناها نحن لعوامل تلقائية و اضطرارية.

- دراسته لتاريخ الشعوب الأخرى، و لاسيما تاريخ أوروبا الحديث قد جعله يقارن بين ما حدث في الجزائر و بين ما حدث في أماكن أخرى " فكلما قرأت كتابا عن مشاكل أوروبا السياسية و الإجتماعية و الثقافية و

الدبلوماسية، أو ثورات الأقليات و ظهور القوميات إلا و طار فكري إلى الجزائر و أهلها و نضالهم و تراثهم الذي كاد ينساه التاريخ"[1].

و كان تعامله مع التاريخ الجزائري بشكل مباشر هو أطروحته للدكتوراه عن الحركة الوطنية الجزائرية بالبحث المعمق. و كان قبل ذلك قد كتب عدة أبحاث في دراسته للماجستير عن الجزائر أيضا، منها بحث عن الحملة الفرنسية على الجزائر 1830 و أيضا 'سياسة فرنسا في الجزائر'، ' المؤتمر الإسلامي الجزائري 1936'....الخ. بالإضافة إلى ذلك شارك في عدة ندوات جامعية و مدنية كان موضوعها دائما عن الثورة الجزائرية وعن تاريخها الحديث.

و هناك طريقة أخرى درس بها تاريخ الجزائر، فحين بدأ التدريس بجامعة أوكلير أَوْكل له تدريس مادة الحضارة الأوربية، و أثناء رحلته التاريخية هذه كان مضطرا إلى أن يقرا عن أفريقيا الشمالية و عن ظهور نوميديا و دورها في العلاقة بين القرطاجيين و الرومان، كما قرأ الكثير عن ملوك و شخصيات الجزائر القديمة أمثال ماسينيسا،و سيفا قس، و يوغرطة، و يوبا الثاني، و القديس أوغسطين....الخ.

كما أنه في تدريسه لمادة الشرق الأدنى بجامعة أوكلير قد جعله يقف طويلا عند دور الجزائر الحضاري الذي أهمله المؤرخون و الأجانب على السواء فمساهمة الجزائر، و المغرب العربي عامة في نشر الحضارة العربية و الإسلامية في الأندلس و صقلية و إفريقيا ما تزال لم تعط حقها من الدراسة.و في دراسته لتاريخ الدولة العثمانية جعلته يفهم علاقة هذه الدولة بالجزائر خلال سنة 1516-1830م، كما جعلته يفهم النظام الذي كان قائماً في الجزائر انذاك، و قد أدت دراسته لتاريخ أوروبا الحديث إلى البحث في العلاقات السياسية و الإقتصادية و العسكرية و الدبلوماسية التي كانت بين الجزائر و الدول الأروبية المعاصرة .

ومن هذا المنطق، ففي الوقت الذي يجد نفسه متخصصا أكاديميا في تاريخ أوروبا الحديث، يجد نفسه كذلك متخصصا عاطفيا في تاريخ الجزائر، و ما عمق هذه المعرفة التاريخية هو بحثة للدكتوراه عن الحركة الوطنية، و التي من خلالها كان ولوجه لتاريخ الوطني و إقتصاره على البحث فيه دون غيره من فروع التاريخ يقول في ذلك " وكم أود أن تتاح لي فرصة التأليف و البحث في جميع فروع التاريخ ولكن أنى لي ذلك ؟ على أنه إذا كان لابد من إختيار موضوع بالذات فإني بلا شك أفضل البحث و التأليف في تاريخ الجزائر"[2].

---

[1]- أبوالقاسم سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 54.

[2]- نفسه، ص ص(60-62).

و اهتمام سعد الله بتاريخ وطنه ليس من منطق شوفيني أو اقليمي كما يعتبره البعض ، لأنه كان دائما في دراساته و أبحاثه يضع نصب عينيه دراسته الجزء من أجل الكل[1]، و يوضح هذه القضية بقوله" و قد يظن البعض بأني اقصر أبحاثي عن الجزائر لغرض شوفيني و الحق أن أبحاثي تنطلق في الأساس من نظرة شمولية للتاريخ العربي الإسلامي و أن القارئ سيلاحظ أنني دائما أربط بين تطورات الأحداث و الأفكار في الجزائر بواقع الوطن العربي و أحداثه و أفكاره"[2]

و بعد دراسته المعمقة لتاريخ الجزائر لاحظ أبو القاسم سعد الله أن الكتابات الفرنسية قد طغت على المكتبة الوطنية فيما يتعلق بتاريخ الجزائر، و بمضامين بعيدة في أغلبها عن الحقيقة، في المقابل غياب كبير للأقلام الوطنية و التي من شأنها إبراز الحقيقة، و الرد على هذه الكتابات، و في هذا الإطار يرى سعد الله أن الكتابات الفرنسية التي كتبت أثناء فترة الإحتلال في أغلبها كتبت بخلفية إستعمارية تندرج في سياق عام و هو تبرير حركة الإستعمار الأروبي، بحجة نقل الحضارة يقول في ذلك" إنطلق الفرنسيون في كتابتهم تاريخ الجزائر انطلقوا من عدة معطيات أهمها: كونهم تغلبوا على الجزائريين بالقوة، و كونهم شعبا متحضراً حكم شعبا متخلقا، و كونهم مسيحين قبضوا على زمام شعب مسلم، و هذه المعطيات متفرقة و مجتمعة هي التي قررت نوعا من (الحتمية التاريخية) عندهم، و هي التي حددت منهجهم الذي تطور مع الزمن كلما إزدادوا صلة بالجزائريين، و لعل تلك المعطيات التي مازالت تتحكم في الكتابات الفرنسية عن الجزائر حتى اليوم"[3].

ومن هذا المنطق كان اهتمامه بقضايا تاريخية معينة دون أخرى، خاصة و أن الجميع قد لاحظ مدى إهتمامه بالتاريخ الثقافي للجزائر مقارنة بتاريخها السياسي و الإجتماعي و الإقتصادي، وسعيه الدؤوب من أجل تحقيق العديد من المخطوطات التي أنجزها جزائريون خاصة في العهدين العثماني و الإستعماري. و طبعا هذا لا ينفي إهتمامه بالتاريخ السياسي و قد سبق القول أن أطروحته لدكتوراه كانت في هذا الجانب، و حتى في هذا الإتجاه كان إهتمامه منصبا أكثر على الجانب الإيديولوجي و الثقافي لهذا الحركة و ليس على الجانب السياسي المحض.

---

[1]- عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق، ص 162.

[2]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء ...، ج2، ص 5.

[3]- نفسه، ص 48.

وعليه فمن خلال بحوثه الطويلة و تعمقه في التاريخ الوطني العام، لاحظ سعد الله أن هناك تغطية لابأس بها فيها يتعلق بالتاريخ العسكري و السياسي للجزائر إلا أنه وجد ثغرات في نقطتين هامتين تتعلقان بالذاتية الوطنية وهما:

- الحركة الوطنية من جهة.

- التاريخ الثقافي من جهة أخرى.

أما النقطة الأولى فقد خصص لها سلسلة الحركة الوطنية الجزائرية في حوالي أربعة أجزاء.

والنقطة الثانية تناولها في سلسلة تضم 12 جزء.

وفي حواراته التي أجراها مع عدد كبير من الجرائد و المجلات الوطنية و العالمية، وهي منشورة في كتابة حوارات و كتابة قضايا شائكة، عادة ما كان يُسْأل سعد الله عن دواعي هذ الإهتمام، فكان يعزوها إلى مايلي:

أول دافع كان سببا في إهتمام سعد الله بالجانب الثقافي في دراساته هو ميوله الشخصي، و هو إهتمامه منذ مرحلة الدراسة بالحياة الثقافية أكثر من الحياة السياسية، و هو ما عبر عنه نشاطه في القاهرة سواء في إطار الرابطة أو الإتحاد، أين كان سعد الله في كل مرة يعين لتولي الشؤون الثقافية، من أجل التعريف بالقضية الوطنية، فكان شغوفا بالإنفتاح الثقافي والعلمي و الأدبي و الفكري للجزائر و التعريف به، و هذا بشهادة الشيخ محمد الإبراهيمي في تصديره لكتاب شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة حيث كتب عنه " كاتب هذه الدراسة هو الأستاذ أبو القاسم سعد الله أحد أبناء الجزائر البررة الناشئين، في ظلال نهضتها الحاضرة... هو مشغوف إلى حد الإفتتان بالبحث عن الآثار الأدبية و العلمية لعلماء الجزائر في جميع العصور"[1].

و عند ذهابه لأمريكا و تخصصه في التاريخ ظلت جاذبيته نحو التاريخ الثقافي أكثر من التاريخ السياسي، و كان منطلق سعد الله في ذلك أن الشعب الذي له ذاتية ثقافية، لا يمكن أن يذوب في غيره و لو لم

[1]- أبو القاسم سعد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، المصدر السابق، ص 5.

تكن له شخصية سياسية، بينما العكس الصحيح، يقول في هذا الشأن " إن الشعب الذي يتمتع بذاتية ثقافية واضحة لا يمكنه أن يستعمر (برفع الياء) أو يضيع بين الشعوب"[1].

كما أنه و في إطار إهتمامه بتاريخ القوميات و تاريخ الشعوب، وجد أن الحركة القومية التي ظهرت في القرن التاسع عشر بالخصوص في أوروبا كانت تستند على قاعدة ثقافية، لتعزيز هويتها، ونفس الشيء حين دراسته لتاريخ أمريكا و حتى شرق آسيا مثل الصين و الهند، وجد أن هذه البلدان أيضا أقامت قومياتها و ذاتيتها في العصر الحديث على أساس الإهتمام بتاريخها من خلال التركيز على الثقافة[2].

فأول ما بدأ به رواد الحركات القومية، هو الإهتمام بتاريخ الأمة الثقافي، فمن هذه الزاوية كان ولوجه لتاريخ الثقافي متأثرا بالقوميات و علاقتها بالثقافة و التراث، و سعد الله يشير في هذا الخصوص إلى تبني جمعية العلماء هذا المنحى، فيرى أن حركة ابن باديس قامت على أساس البعث الثقافي في الجزائر لأنها رأت أن الجزائر قد ظلمت في ثقافتها و أضطهدت في شخصيتها، فكان البعث الثقافي متمثلا في تعليم اللغة العربية، و الدين الإسلامي، والاهتمام بالتاريخ الوطني، "حتى أن الفرنسيين كانوا يبحثون في الكلمات التي يستعملها العلماء فيجدون أنهم مهتمون بالتاريخ الوطني بما فيه الثقافي و يربط هذا التاريخ كله بالتاريخ العربي الإسلامي"[3].

و عليه إختار البحث في القومية و الحركة الوطنية الجزائرية حتى في هذا الجانب كان تركيزه على الجانب الثقافي أكثر من الجانب السياسي، لأنه يعتبر المجال الثقافي هو الركيزة أما الجانب السياسي فهو حق ضرورة ولكن يجب أن تتكون قوميا وثقافيا لكي تطالب بالإستقلال و السيادة و بهوية و كينونه سياسية.

ومن هذه الأسباب أيضا، فقد رأى أبو القاسم سعد الله أن خلود الجزائر في ذاكرة التاريخ يرتبط أساسا بإسهامها الثقافي و مشاركتها في المعرفة الإنسانية في نطاق الأسرة العربية الإسلامية، و عليه فقد لاحظ أن البحث في تاريخ الجزائر الثقافي في الماضي يكاد يكون معدوما، بينما الأبحاث عن ماضيها السياسي و الإقتصادي متوفرة نسبيا، يقول ناصر الدين سعيدوني في هذا الخصوص" إن الثقافة في جزائر الإستقلال لم تتجاوز في معالجتها للتراث المعرفي الجزائري عرض مواقف التحدي و مظاهر المقاومة و لم تهتم في إسهامها إلا

---

[1]- أبو القاسم سعد الله ، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص 46.

[2]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق،ص 246.

[3]- نفسه، ص ص(246-247).

بالموضوعات الوطنية السياسية و الأعمال الثورية البطولية في مواجهتها للإجراءات التعسفية للإدارة الفرنسية بالجزائر، مما جعل الإهتمام بالمواضيع الثقافية و التعريف برجالاتها في آخر الإنشغالات إن لم تكن من قبيل الترف الفكري"[1].

كما أن المسائل الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني لم تنل حظا أوفر من الدراسات، و هذا راجع إلى إهتمام الباحثين بالأحداث السياسية و العسكرية و القضايا الإقتصادية و الإجتماعية، بالإضافة إلى طبيعة الحكم العثماني بالجزائر الذي تميز وجوده بالطابع العسكري على حساب الجانب الحضاري، و هذا ماجعل عملا رائدا في كتاب تاريخ الجزائر الثقافي بمثابة مشروع مخالف للمألوف بل عمل خارج عن السلوكات المتعارف عليها في عالم الثقافة الجزائرية[2].

ومن هذه الإعتبارات أيضا أن الوجود الفرنسي كان ينفي في كتاباته وجود ثقافة جزائرية، و كان هدفهم من ذلك الطعن في شخصية الجزائر الوطنية حتى يتأكد لهم إمكانية تذويب الجزائر في فرنسا، لأن أكبر حاجز كان يحول دون عملية التذويب هو الشخصية الثقافية الوطنية، و من تم كانت حربهم الشرسة ضد اللغة العربية و ضد الإسلام كحضارة و ضد اتصال الجزائر بالثقافة العربية المتطورة في المشرق العربي آنذاك، بدعوى أن هذه الثقافة أجنبية على الجزائر[3].

وفي هذا الإطار عمل سعد الله على القيام بمسح شامل لتاريخ الجزائر الثقافي ركز في بدايته بشكل كبير على فترة التواجد العثماني، مدفوعا في ذلك بتنفيذ فكرة إنعدام الإنتاج الثقافي الجزائري في تلك الحقيبة التاريخية، و التي أراد الإستعمار الفرنسي الترويج لها خدمة لنظريته القائمة على فكرة نقل الحضارة، فهو يسعى لطمس أي فعل ثقافي سابق لوجوده في الجزائر ليدعي شرف تعليم شعب أمي و إخراجه من حالة الأمية و الجهل التي عايشها[4].

و بالرغم من حماسة سعد الله في مشروعه هذا إلا أن الموضوعية العلمية لم تغب عنه، فهو يعترف بالمستوى المحدود للإنتاج العلمي لتلك الفترة، لكنه يرفض طمسه و كأنه لم يوجد أصلا، كما عالج أيضا فترة الإستعمار الفرنسي ليكشف من جهة السياسة الإستعمارية التي كانت تهدف إلى طمس مقومات هوية الشعب

---

[1]- ناصر الدين سعيدوني، كلمة وفاء، المرجع السابق،ص:66.

[2]- أحمد بن يغزر، "فترة الحكم العثماني بالجزائر في كتابات الأستاذ أبو القاسم سعد الله"، محاضرة القيت بالملتقى الوطني أبو القاسم سعد الله ونصف قرن من البحث و التأليف، جامعة سيدي بلعباس، يوم 14و 15 ديسمبر 2014.

[3]- أبو القاسم سعد الله ،قضايا شائكة ، المصدر السابق ،ص ص(16-17).

[4] - عيسى بن قبي، المرجع السابق، ص 274.

الجزائري بالقضاء على معالم ثقافته، و من جهة أخرى أراد إبراز أن هناك ثقافة عربية جزائرية إمتدت عبر الأجيال رغم المحاولات الاستعمارية لعرقلتها، و قد تواصلت هذه الثقافة في العهد الاستعماري بشتى الأشكال، ما يدفعنا لهذا القول هو ما لاحظناه من تركيزه على الإنتاج الثقافي باللغة العربية و إهماله الكبير أن لم نقل التام للإنتاج الثقافي الجزائري باللغة الفرنسية و إن تحدث عنه فإنه يشير إليه بطريقة تشعرنا أنه إنتاج له علاقة بالثقافة الإستعمارية بشكل مباشر أو عير مباشر[1] .

من جهة أخرى أرد سعد الله من خلال تركيزه على الجانب الثقافي في دراسة تاريخ الجزائر هو الكشف عن عمل يبرز مساهمة الجزائر في الحضارة العربية الإسلامية، فقد هاله النقص الفادح للمساهمة الجزائرية في المكتبة العربية، كذلك عدم إهتمام الدراسيين بالمشرق عموما بمساهمة الجزائر الثقافة، في الحضارة العربية الإسلامية، فدفعه ذلك إلى البحث و التنقيب لإبراز تلك المساهمة. و في هذا السياق حاول سعد الله إبراز ريادة الجزائر في بعث التيار القومي العربي ، مقابل تفنيد فكرة أن المشارفة كانوا سباقين لذلك حيث أن المفكرين الجزائريين تبنوا الفكرة القومية منذ سنة 1830م، و أن الدعوى إلى النهضة العربية و الجامعة الإسلامية كانت في أدبيات هؤلاء، و معهم ابن العنابي و ابن الكبابطي و المجاوي، ولكن حسب قوله تواضع و جهل الجزائريين بقيمة مفكريهم جعل المشارفة ينسبون المبادرات لأنفسهم[2] .

و كانت ردت فعل بعض المؤرخين و المفكرين في هذا الخصوص قوية، و ذلك بإتهام سعد الله بالنزعة القطرية و الإقليمية و بأنه ' شوفينيست '[3]، لأنه نسب للجزائر مبادرة الدعوة إلى النهضة العربية و القومية الجامعة الإسلامية، و أن الجزائريون قد تحدثوا عن ذلك قبل ظهور الأفغاني و محمد عبده، بحوالي خمسين سنة[4].

ومن هنا يتضح أسباب إهتمام أبي القاسم سعد الله بالتاريخ الثقافي و الفكري للجزائر مقارنة بالتاريخ السياسي و العسكري، و جاءت موسوعته الثقافية (تاريخ الجزائر الثقافي) لإبراز هذا الجانب الخفي من التاريخ الجزائري، و قد وفق في ذلك إلى حد بعيد و بالتالي حقق توازنا في نظرنا و نظرة القارئ الجزائري لتاريخه.

---

[1]- عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق، ص 119.

[2]- أبو القاسم سعد الله ،حوارات ، المصدر السابق، ص ص (108-109).

[3]- انظر، سالم حجار،تاريخ الجزائر نظرات سعد الله ، مجلة امال العدد 57 جوان 1983 .

[4]- أبو القاسم سعد الله ، حوارات، المصدر السابق ،ص 109.

رابعا: موقف سعد الله من بعض القضايا التاريخية

1- موقفه من الحقبة العثمانية:

تعد الحقبة العثمانية في تاريخ العرب الحديث من أكبر الحقب التاريخية، إثارة للجدل و النقاش بين الكُتاب و المؤرخين بين منددد لهذه الحقبة محمل أياها كل ما لحق بالبلاد العربية من تخلف و إنحطاط و بين ممجد لها بعدها إمتداداً للخلافة الإسلامية، و مؤرخنا أبو القاسم سعد الله و في إطار اهتمامه بتاريخ الجزائر وجد نفسه وسط هذا الجدل التاريخي، فكان ذلك من المرجعيات التي دعته للتعمق في البحث في هذا العهد، في محاولة منه لتأسيس رؤية وطنية جزائرية في التعامل مع أحداث و واقع هذه الحقبة كونها من أكثر المراحل التاريخية التي تعرضت لتشويه فظيع على أيدي كتاب المدرسة الاستعمارية.

إن الحقبة العثمانية من تاريخ الجزائر حقبة مهمة و حاسمة، حيث شهد القطر الجزائري متغيرات سياسية جذرية لا يمكن إنكارها، و لعل من أبرزها و أهمها تبلور شخصية الدولة الوطنية الجزائرية، و تنامي قوتها و دورها البحري على الصعيدين الإقليمي و الدولي، و كما وصفها الأستاذ سعد الله أن الجزائر أضحت خلال ثلاثة قرون من السيطرة العثمانية " قوة بحرية تسيطر على غربي البحر الأبيض المتوسط و على أجزاء مختلفة من شواطئ المحيط الأطلسي"، و لكن ذلك كله لم يشفع لهذه الحقبة في كتابات سعد الله التي أخضعها للتقييم ضمن غيرها من مراحل التاريخ الجزائري، فكيف كانت نظرة مؤرخنا لهاته الحقبة التاريخية من تاريخ الجزائر؟

اهتم أبو القاسم سعد الله بهذه الحقبة التاريخية أيما إهتمام، حيث أرخ و بعث الروح في العديد من المكنونات الثقافية التي تخص تلك المرحلة، و هو الإهتمام الذي زج به في ثنائية التنديد أحيانا و التمجيد أحيانا أخرى إن صح التعبير، تباعا للحدث التاريخي و دلالته على الشخصية الوطنية، يبدأ سعد الله بالتأريخ للحقبة العثمانية من خلال طرح تلك التساؤلات الجوهرية العميقة على غيره من المؤرخين؛ هل جاء العثمانيون إلى الجزائر غازين أو منقذين ؟ و هل كان وجودهم خيرا و بركة على البلاد و أهلها أو كان شراً و نقمة عليها ؟ و هل كانت الجزائر في عهدهم مستقلة أو تابعة ؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي مازالت لم تنته و لا نتوقع أنها ستنتهي ذات يوم.

إن هذه التساؤلات الأساسية هي الباعثة على الخصوصية في التاريخ الجزائري، و مبعث هذه الخصوصية هو الظرفية التاريخية للحضور العثماني في أيالة الجزائر التي خضعت إلى إجراءات مختلفة عما هو الحال في الأيالات العثمانية الأخرى، فالظروف الإقليمية السائدة آنذاك و الخطر الصليبي الأوربي على السواحل الجزائرية، استدعى تدخل الدولة العثمانية بأمر من أهالي البلاد أنفسهم لنجدتهم[1].

ومن ثمة فإن سعد الله يرى من الصعب تحديد وصف دقيق موحد بين الدارسين لتواجد العثماني بالجزائر، فهو فتح في عصر الحروب الدينية، و هو تدخل أو دخول في عصر العدوان على الشعوب الإسلامية وقت ضعفها و تنازعها، و هو إحتلال في عصر القوميات، و على كل حال فهو ليس تواجدً و لا دخولاً في نظره، لأن التعبيرين يعنيان زمناً قصيراً غير مؤثر، بينما العهد العثماني (ثلاثة قرون و أكثر) له تأثيره و طابعه الخاص[2].

و يؤكد سعد الله في هذا الخصوص أنه من الإجحاف وصف العثمانيين "بالمستعمرين" كالفرنسيين، فهؤلاء اعتدوا على شعب و احتلوا بلادا و أسقطوا نظماً سياسية قائما، و قاموا بحركة توطين على حساب شعب الجزائر و شردوا أهلها بالحروب الإبادية المتتالية و محاولة اقتلاع جذور الثقافة الإسلامية و إحلال ثقافتهم محلها و ترك الجزائريين في حالة تخلف مقصود بينما العالم يعيش عهداً جديداً من التطور و التقدم.

و بالعود إلى ثنائية التنديد و التمجيد، فسعد الله يباشر حالة التنديد بالحقبة العثمانية، من زاويتين رئيسيتين متتابعتين هما حالة التخلف و الإنحطاط التي شهدتها الجزائر خلال هذه الحقبة، ومن ثمة مدى مسؤولية تلك الحالة عن الإحتلال الفرنسي للجزائر، و ما ترتب عن ذلك من نتائج وخيمة على المجتمع الجزائري يقول عن ذلك: "...بينما نعرف من كل الدراسات حول موضوع أن الوجق في الجزائر لم يحاول أبداً أن يعيش في العصر الحديث الذي كانت تحياه أوربا بل العكس لقد أغلق جميع النوافذ وقبع في حدوده القديمة ...مما جعل البلاد تعاني من حكم الإقطاع وظلم الحكام و الجهل و التخلف العلمي، فكانت النتيجة أن احتل جيش فرنسا الجزائر، و لم يكن الوجق يدافع حتى عن حريمه، و إذا توسعنا في الإستعمال و تجاوزنا في الحكم نقول بأن ما

[1]- فاتح رجب قدارة، "رؤية المؤرخ أبو القاسم سعد الله للحقبة العثمانية في الجزائر"، مجلة الجامعة، العدد 18، ماي 2016، ص21.

[2]- مراد وزناجي، مفهوم التاريخ ...، المرجع السابق، ص331.

وقع سنة 1830م في الجزائر ليس إحتلال فرنسا للجزائر هكذا بل هو إحتلال العصر الحديث للعصر الوسيط أو إحتلال التقدم للتخلف"[1].

و يستدل سعد الله على ذلك في بعض التصرفات التي تتفق العثمانيون فيها مع الفرنسيين منها: "إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، ثم في العهد الفرنسي بالدولة الفرنسية، و تولي حكم البلاد في كلتا الحالتين، من قبل حكام غرباء عنها (بإستثناء قلة من البشوات و البايات في العهد العثماني) و التعالي على أهل البلاد"[2].

يبدو من منطوق الفقرتين قسوة الحكم فهو يحمل العثمانيين كل ما حل بالجزائر من جهل و تخلف، و بالتالي إحتلال فرنسا الجزائر، إلا أنه في موقع آخر يقّر بأنه: " بالرغم من أهمية المرحلة العثمانية في تاريخ الجزائر، فإنها بقيت حقلا بكرا أمام الدارسين، و نقول (أهمية) لأن الجزائر الحالية في الواقع قد تشكلت تقريبا خلال هذه الفترة سياسيا و إجتماعيا وشعورياً ففكرة الدولة ظهرت خلال هذه الفترة بكل مقوماتها من حكم مركزي و حكم أقاليم و إدارة محلية، و إقتصاد متكامل و دبلوماسية نشطة تشمل توقيع المعاهدات و فتح القنصليات، و تبادل الأسرى و وجود أسطول يرهب عدو الله و عدو البلاد، و عملة ثابتة و متنوعة وراية خاصة، و مراسيم سيادية عديدة"[3].

و على الرغم مما يبدو من هذا الحكم من الوهلة الأولى على أنه تناقض فإنه في حقيقة الأمر ليس كذلك، بل أن الأستاذ سعد الله كان حريصاً أن يضع موقفه من هذه الفترة التاريخية، بشكل مناسب لقناعاته الفكرية و محدداته المنهجية و ليس بالضرورة أن يصطف إيديولوجيا إما (مع) بالجملة أو (ضد) بالجملة، بل إن المتمعن في إنتاج سعد الله سيلاحظ أن موقفه من هذه الفترة سجل تطوراً يمكن رصد بعض ملامحه من خلال مؤرخاته من مطلع عقد الستينات من القرن العشرين حتى مطلع الألفية الثالثة، أكثر من نصف قرن من البحث حسب المعطيات و الرؤي التي تتيحها الوثائق و بالتالي تفسير جديد أو بمعنى التجديد في الكتابة التاريخة[4].

و على صعيد آخر فإن سعد الله في هذا الاتجاه يضع موقفه من السياق التاريخي لتلك المرحلة بمعطياتها و ظروفها و يرى أنه من الخطأ المنهجي محاكمة هذه المرحلة بمعايير خارج السياق السائد في زمنها يقول في ذلك: "و الواقع أننا نظلم هذا العهد (العهد العثماني) إذا طبقنا عليه معيار اليوم فوصفناه بعصر التنوير أو عصر

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011، ص06.

[2]- نفسه ص 7.

[3]- أبو القاسم سعد الله، حاطب أوراق، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011، ص ص(119-120).

[4]- احمد بن يغزر، المرجع السابق ص 2.

الظلام، بينما هو لم يكن لا هذا ولا ذاك، و إنما كان بكل تواضع يعبر عن حالة كانت تمر بها كل المجتمعات الإسلامية من تطوان إلى جاكرتا، حالة وصفتها الدراسات الحديثة بالتخلف المزمن الذي بلغ النخاع و مس العقل والقلب"[1].

و في سياق متصل نجد سعد الله يدافع عن محدد مهم لتعامل مع هذه الفترة التاريخية في الجزائر بإعتبار أن التجاوزات و الأخطاء لا تمثل عملا ممنهجا من الدولة نفسها إذ وجد المؤرخون مبررات للعثمانيين في المواقف التي أظهر فيها العثمانيون العنف، فكانت الثورات التي قامت بها قبائل الرعية و التمرد العسكري و إرتكاب بعض الجرائم، أن ذلك قد يكون راجعاً إلى ثقافة الإنسان العثماني (التـــركي) عموماً، و هو في الأصل فلاح من أناضوليا عاش حياة قاسية وورث طبيعة الغزو و الغلبة، و ربما هو جاهل بحقيقة الإسلام و طبائع الشعوب الأخرى، أما شيوع الفساد و الرشوة و الفوضى و الجهل فهو ظاهرة عامة، في المجتمع الإسلامي آنذاك و ليس بالجزائر و حكام العثمانيين، كما أن هذه التجاوزات قد تكون في بعض الأحيان تعبّر عن نوازغ فردية لبعض الحكام، يقول في هذا الشأن "....فقضية الأخطاء و المظالم حينئذٍ يجب تناولها على أساس أنها (ظاهرة سلطة) و ليست (ظاهرة قومية) "[2].

و نتيجة لذلك يبرز موقف سعد الله التمجيدي أو حرصه على إبراز ما يراه من أدوار ايجابية ميزت فترة الحكم العثماني فهو مثلا يعيد الفضل للعثمانيين في تشكيل الروح الوطنية، و إبراز دور الجزائر الإقليمي في البحر المتوسط لمدة طويلة من الزمن قبل وقوعها تحت نير الإحتلال " فإذا كنا من أنصار فكرة الجزائر القطرية فالفضل في إنشائها يرجع بالدرجة الأولى إلى هؤلاء الرجال الذين جعلوا من المملكة الزيانية و جزء من المملكة الحفصية و إمارات سويد و التعالبي، و الذواوده و غيرها جعلوا منها دولة الجزائر التي استمرت عدة قرون و التي أصبحت تدعى جلادة المسيحية، و التي لم يعتد عليها إلا الاستعمار الفرنسي سنة 1830م"[3].

ومـــــن جهة أخرى فإن سعد الله يرفض إلقاء التبعة دائما على أصحاب السلطة و النفوذ في الجزائر العثمانية، ذلك أن أهل البلاد أو الرعية يتحملون جزء من المسؤولية فوجود العثمانيين في بلادهم كان بطلب منهم لما استشعروا الخطر الأوربي، كما أن العثمانيين لم يحاولوا التدخل بشكل مباشر في الشؤون الخاصة للجزائريين، أو توجيه واقعهم نحو مصالح ضيقة خاصة بهم يقول في ذلك: " و من الثابت تاريخيا أن الجزائريين

[1]- أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص120.

[2]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء...، ج1، المصدر السابق، ص62.

[3]- نفسه، ج1، ص63.

أنفسهم هم الذين طلبوا التحالف مع الخلافة الإسلامية في أوائل القرن السادس عشر، و كان ذلك الطلب يستهدف التعاون مع الخلافة لطرد الغزاة الإسبان و البرتغال الذين احتلوا شطراً من سواحل الجزائر و هددوا جميع أفريقية الشمالية بالإحتلال، و هكذا فإن نزول الأسطول العثماني ميناء الجزائر بناء على رغبة الجزائريين أنفسهم، لم يكن للاستعمار و لكن لإنجاد جزء من العالم الإسلامي كان مهدداً بالخطر"[1].

و عليه فإن الأمر ما دام يتعلق بالتحالف الإستراتيجي و الاقتصادي، فإن العمل الثقافي لم يكن ذات أهمية في الموضوع فالثقافة لم تكن مزدهرة شأنها في ذلك شأن الثقافة في البلاد العربية الإسلامية الأخرى، غير أن هناك اختلافا واضحاً هو أن السلطة الحاكمة في البلدان العربية الإسلامية، قد تدخلت في الثقافة بإنشاء المؤسسات و تشجيع المنتجين، أما في الجزائر فالسلطة كانت غائبة تماماً في المجال الثقافي، و سعد الله في هذا الخصوص يؤكد على الدور الذي تلعبه الرعية أو الشعب في هذا الأمر، فإذا كانت الرعية لم تقوم بواجبها فلماذا يُلام الحكام وحدهم؟ يقول عن ذلك: "و يجب أن لا نلقي باللوم على السلطة وحدها على تخلفنا الثقافي، لأن القضية لها طرفان السلطة و المواطن: أنظر إلى وضعنا الحالي مثلا، هل أن السلطة هي المسؤولة على تردي أوضاعنا الثقافية"[2].

و هذه الإشادة ببعض المزايا التي أشار إليها سعد الله لا تدفعه بالضرورة إلى تبرئتهم من أخطائهم و مثالبهم، لكنه يشير أن كل ذلك لا يجعلهم في مقام الإحتلال الفرنسي الذي جاء بعدهم في ما إرتكبه من جرائم، " إن العثمانيين لم ينتزعوا الأراضي من أصحابها و لم يقوموا بحركة توطين على حساب أهل البلاد، و لم يفرضوا على السكان مذهبا ولا لغةً ولا ثقافة معينة، بل أسهموا مع أهل البلاد في بناء المدارس و المساجد و الزوايا و توفير الأوقاف للشؤون العلمية و الدينية، و الإجتماعية و قد تركوا اللغة العربية هي السائدة في التعليم و التأليف و الثقافة العامة"[3].

و الحال أن هذه المقارنة تحتل موقعاً مركزياً و محورياً في بناء سعد الله لموقفه من العهد العثماني فهو كثيراً ما يعتبر إلحاق كل السلبيات به امتداداً للمدرسة التاريخية الفرنسية و المتأثرين بها من الجزائريين، لتبرير أكثر من قرن من الإحتلال بمظالمه و انتهاكاته[4]، و لعل ذلك ما دفعه لتخصيص حيز كبير في مناقشة ما كتبه

[1]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء...، ج1، ص62.

[2]- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص55.

[3]- نفسه، ص 56.

[4]- أحمد بن يغزر، المرجع السابق، ص 3

المؤرخ الفرنسي شال أندري جوليان[1](Julien ch.A) في كتابه تاريخ الجزائر المعاصر للرد على إدعاءاته فيما يتعلق بالعثمانيين و خاصة اعتبار الحكم العثماني استعماراً "...إن النظرية التي بنى عليها المؤرخون الاستعماريون محاربه الوطنية الجزائرية، كانت تقوم على الإدعاء بأن الجزائريين مخلوقون للإستعمار، و جوليان قد قبل هذه النظرية خصوصاً في كتابه-تاريخ الجزائر المعاصر- و قد كان هناك سببان واضحان لهذه النظرية، الأول هو أنها كانت تحاول تبرير الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ألم يكن سوى حلقة من سلسة الإستعمارات التي سبقته و من بينها الإحتلال العربي و الإحتلال التركي؟ و الثاني هو أنها كانت تحاول فصل الجزائريين عن حضارتهم العربية الإسلامية "[2].

و لذلك فإن سعد الله عندما يتناول مرحلة الحكم العثماني خصوصاً ما يتعلق منها بأوجه السلبية سرعان ما ينبه إلى التفريق ما بين نقد هذه السلبيات، و هو أمر طبيعي و عادي لا يخلو منه نظام حكم، و لكن من الخطأ تحويل ذلك النقد إلى حكم عام، أو محاولة سحب الحكم على الإستعمار الفرنسي على الوجود العثماني بالجزائر.

فسعد الله من خلال ما سبق لا يحاول أن ينتهج نهجا دفاعياً عن العثمانيين، بقدر ما حاول قدر الإمكان أن يُنصفهم، بحيث لا يجرد فترة وجودهم في الجزائر من السلبيات و المآخذ بل هو يستخدم أحياناً عبارات عنيفة وهو يتحدث عن ذلك[3].

و لعلنا نحاول أن نبرز أهم المآخذ التي يضعها الأستاذ سعد الله عن الحكم العثماني فيما يلي:

---

[1]- **شارل أندري جوليان**(1891-1991 **م**) : مؤرخ فرنسي، ولد بمدينة كان الفرنسية ، انتقل جوليان وهو في الخامسة عشرة من عمره ليعيش في الجزائر .وبعد حصوله على شهادة الباكالوريا، عمل كاتبا بمحافظة وهران، وقد صدم منذ دخوله إلى عالم الشغل، للممارسات كبار الملاكين بمنطقة وهران، وسلب الملاكين الجزائريين لأراضيهم. ونتيجة صدمته بالمعاملة التي كان يلقاها الجزائريون، انخرط في العمل السياسي باكرا، حيث انتمى إلى اليسار وتعرف على مثقفين وسياسيين معارضين للنظام الاستعماري، كان رئيسا لرابطة حقوق الانسان في الجزائر، وهو معروف بالاتجاه الاشتراكي، و الاطلاع الواسع، والصراحة في الرأي، و الاهتمام بقضايا شمال افريقيا حسب قول سعد الله،له عدة مؤلفات منها " تاريخ الجزائر المعاصر"، "أفريقيا الشمالية تسير" وغيرها، للمزيد حوله انظر الموقع: ar.wikipedia.org. و كتاب : أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء...،ج2، المرجع السابق، ص 59.

[2]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء..،ج1، المصدر السابق، ص ص (62-63).

[3]- مراد وزناجي، مفهوم التاريخ...، المرجع السابق، ص 331.

- طبيعة الحكم العثماني و نمط حكامه و علاقاتهم بالسكان فهم لم يحاولوا في أغلبهم الإقتراب من السكان و لا إشعارهم بالرّعاية و الإهتمام، فقد كتب سعد الله قائلاً: "كان الباشوات و البايات يتوارون عن الناس فلا يحد قوتهم و لا يخرجون إليهم، فقد يبقى الحاكم ما يبقى فلا يعرف الناس وجهه و لا شكله ولا يسمعون له صوتاً و لا يخرج إلا غازياً أو إلى قبره، بعد أن يكون خصومه قد تخلصوا منه سرياً بالخنق و نحوه، حتى التوليه و العزل لا يعرف المواطنون عنها شيئاً و لا شأن لهم بها "[1].

- إحتكار الحكم طيلة العهد العثماني و لم يحاولوا إشراك السكان المحلين في شؤون الحكم و دوائر القرار إما لعدم الثقة فيه أو للنزعة إقصائية متأصلة في العنصر التركي "تكاد القيادات السياسية بين الجزائريين أن تكون منعدمة في العهد العثماني، و إذا كان هناك نوع من القيادة للرأي العام فإنها كانت منحصرة في المجال الديني، العلماء و المرابطون و في المجال الإقتصادي الأغنياء أو كبار التجار و ملاك الأرض، و كان هذا الوضع هو الموجود ساعة احتلال الجزائر "[2].

- إهمالهم للشؤون الثقافية و إنشغالهم بالغزو و جمع الغنائم يقول عن ذلك: "لم تؤسس السلطة العثمانية الجديدة نظاماً للتعليم ترعاه و تنميه، و لم تهتم بالمراكز الثقافية كالمدارس العالية و المساجد المفتوحة في وجه الطلبة المتعطشين للعلم...لقد كان شغل السلطة الجزائرية الجديدة الشاغل هو الدفاع عن المكتسبات و فرض الهيمنة بالداخل و شن الغارات في أعالي البحار لحصد الغنائم و قهر الأعداء، و هكذا إستمر وجود السلطة العثمانية، قرناً و نصف قرناً تقريباً وجوداً سياسياً و إقتصادياً ليس فيه أثر أو تأثير للثقافة"[3].

و سعد الله في هذا الخصوص لا يلقى باللوم وحده على العثمانيين، بل للشعب دخل في ذلك فالعثمانيون لم يحاولوا أن يغيروا أمراً وجَدوه قائماً، فالتعليم و الثقافة كانت من شأن السكان و لا علاقة للسلطات به، و ليس لهم من مسؤولية خاصة بهم في هذا الشأن إلا في نقطة واحدة هو تشجيعهم لإنتشار بعض أشكال الخرافة و البدع يقول عن ذلك: «...أما النقطة التي نود أن نتعرض لها لأهميتها فيما نحن بصدده و هي إنتشار البدع وشيوع حلقات الذكر و الأوراد و تعدد الطرق الصوفية و تطرفها في عقائدها، و قد كان بعضها يعمل بتشجيع واضح من الحكم العثمانيين"[4].

---

[1]- أحمد بن يغزر، المرجع السابق. ص 5

[2]- نفسه. ص6.

[3]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص98.

[4]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء...، ج1، المصدر السابق، ص178.

من خلال ما سبق نلاحظ أن سعد الله في نظرته من الحقبة العثمانية لا يتخذ موقفا جامداً يحاول أن يبرره في كتاباته و لكنه يتعامل مع هذه المرحلة التاريخية بموضوعية متوازنة حسب السياق التاريخي و الظرف الحضاري، و تبعا لما تجود به المصادر التاريخية المتعددة من مادة علمية، متوقفاً خلال ذلك على إيجابيات المرحلة و سلبياتها دون تشنج و لا تطرف، بحيث كانت قضيته الأساسية الكتابة التاريخية برؤي وطنية في هذه المرحلة التأسيسية، فجاءت كتاباته متميزة ذات خصوصية بعيدة عن طروحات مؤرخي المدرسة الاستعمارية لهذه الحقبة التاريخية.

2- مفهوم الحركة الوطنية و إشكالية البداية 1830 أم 1919م:

عند تناول موضوع الحركة الوطنية في كتب التاريخ سواء التي تخصصت في هذا العنوان كما هو الحال مع كتاب مؤرخنا ' الحركة الوطنية الجزائرية ' أو لدى الكتاب و المؤرخين الفرنسيين أمثال أرون ، نوشي، جوليان، باربور، فافرو و غيرهم، أو حتى في ثنايا المراجع الأخرى التي تصدر من حين لآخرتاريخ في موضوع تاريخ الجزائر المعاصر، فإننا نقف على عدم ضبط هذا المصطلح بنفس المعنى لدى المؤرخين فبعضهم يربط بداية بروز الوطنية و الشعور الوطني ببداية الإحتلال لإظهار شمولية التحرك الوطني كرد فعل عن الإحتلال الأجنبي و ممارساته.

في حين نجد بعضهم يربط ذلك بما بعد الحرب العالمية الأولى من باب التقسيم المعلمي المرحلي، أو من باب ترسيخ إنعدام الحس الوطني لدى الجزائريين، كما هو الحال مع المؤرخين الفرنسين، و هذا يتماشى مع نظرية إنكار وجود الدولة الجزائرية قبل الإحتلال الفرنسي، و هي النظرية التي عبر عنها دوغرامون (De Grammont)[1] في كتابه الشهير ' تاريخ الجزائر تحت سيطرة الاتراك ' الذي صدر عام 1887م، و أكدها بيار بواتي (piér roitier) في دراسة له ظهرت في المجلة التاريخية الفرنسية سنة 1966و 1970 و التي خلص فيها إلى القول " بأن من يعتقد في وجود دولة جزائرية قبل عام (1830) كمن يصدق خرفات ألف

[1]- **دوغرامون** : مؤرخ فرنسي، ولد بفرنسا في 5 اوت 1830م، من عائلة غنية، إنتقل إلى بالجزائر سنة 1850م، في إطار الخدمة العسكرية، كرس معظم حياته للبحث في التأليف والبحث في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، وهو احد المؤسسين البارزين للجمعية التاريخية الجزائرية منذ 1874م، للمزيدي انظر : G.JAQUETON, M.-H. DE GRAMMONT, Revue Africaine, vol n°36,année 1892, pp (289-311)

ليلة و ليلة "[1]، و البعض الآخر كذلك يربط الشعور الوطني بمساعي أفراد، أو مجهودات كتلة معينة أو جماعة نخبة، من باب إبراز مقدمات الفكر التحرري قبل ظهور التشكيلات الحزبية.

بالعودة إلى مصطلح الحركة الوطنية (Mouvement national) فنجدها في المفهوم العام تتركب من مفردتين، الحركة: ضد السكون و الثبات، و تعني العمل و النشاط العلني أو السري الهادف إلى غاية ما . أما الوطنية: فهي نسبة إلى الوطن، و تعني في وضع إستعماري – كحالة الجزائر – الإنتماء إلى الوطن و العمل على استرداد حقوق مواطنيه بأساليب مدنية أو عسكرية[2]. هذا فيما يخص المفهوم العام، و نفس المفهوم نجده يختلف بين المؤرخين حسب كل تقسيم معلمي يحدده لبداية نشأة الحركة الوطنية، فإذا نظرنا إلى مفهومها من منظور ما يحدده المؤرخون الذين يرون مطلع العشرينات من القرن الماضي بداية لنشأة هذه الحركة، فإنه يمكن أن نصوغ مفهوم الحركة الوطنية تبعا لهذا الأعتبار كاللآتي: " هي مجموع المنظمات السياسية و الإصلاحية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى، و عملت على ترقية الشعب، و الدفاع عن مصالحه، و النضال في سبيل إفتكاك حقوقه السليبة"[3] .

و من خلال ما يفهم من مؤلف أبو القاسم سعد الله المشار إليه، يمكن القول أن الحركة الوطنية هي " كل تحرك أو تعبير مادي أو معنوي قام به الشعب الجزائر كرد فعل تلقائي أو مخطط ضد الغزو الفرنسي من بداية الإحتلال إلى نهايته ".

الملاحظ أن هذا الطرح يغطي كامل فترة الإحتلال بشكل شمولي فالحركة الوطنية الجزائرية حسب سعد الله كانت بالدرجة الأولى حركة سياسية تقوم على مقاومة المستعمر بالسلاح أولا ثم لجأت إلى العمل السياسي المنظم في شكل أحزاب و هيئات، و بالرغم من تأخر بروز الوعي السياسي الجزائري و عدم تزامنه مع الكفاح المسلح، إلا أن الجزائر عرفت نوعا هاما من المقاومة المسلحة مجرد دخول الاستعمار الفرنسي لمدينة الجزائر، ولكن سرعان ما تغير أسلوب النضال مع بداية القرن العشرين إلى نضال سياسي منظم في شكل أحزاب و هيئات، و بالتالي نجد تباين في آراء المؤرخين في البداية الحقيقية لنشأة الحركة الوطنية كان مع بداية

---

[1]- جمال قنان، دراسات في المقاومة والاستعمار، الجزائر: منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، 1998 ، ص 126.

[2]– حباسي شاوش، "مصطلحات ومفاهيم في الحركة الوطنية الجزائرية"، مجلة الباحث، المركز الجامعي بالوادي – الجزائر، عدد 1 ،يونيو 2010 ، ص 187.

[3]– رابح لونسيي و آخرون... .، تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1989م، الجزائر: دار المعرفة، 2010م، ص 361.

الإحتلال الفرنسي سنة 1830 أو عقب نهاية الحرب العالمية الأولى و بداية التشكيل الحزبي المنظم سنة 1919؟ فما هو موقف مؤرخنا من هذين التقسيمين المعلمين ؟

يرى مؤرخنا بعد دراسة مستفيضة لتاريخ الحركة الوطنية الجزائرية أن بداية الشعور الوطني جاء كرد فعل للإحتلال الفرنسي سنة 1830م، فقد ثار المجتمع أفرادا و جماعات و بكل ما أسعفته به الظروف للإعلان عن منطق و سياسة الرفض القاطع للاحتلال الأجنبي و هو ما تجلى في مختلف أشكال المقاومة سواء العسكرية منها أو السياسة أو الثقافية أو الروحية أو عن طريق المقاطعة و الهجرة لكل ما يتصل بالمحتل .

رغم أن الكتاب و المؤرخين المعاصريين يؤرخون للحركة الوطنية إبتداء من عقود متأخرة، فالكتاب الذين تناولوا هذا الموضوع يعودون بها عادة إلى العشرينات أو الثلاثينات من القرن الماضي ذلك أنه خلال هذه الفترة ظهرت الأحزاب السياسية بأهداف واضحة و محددة بما فيها هدف الإستقلال، و خصوصا مع نشأة حزب نجم أفريقية الشمالية سنة 1926م، أو مع نضال الأمير خالد سنة 1922م[1].

غير أن هذا التناول لأصول الحركة الوطنية الجزائرية حسب سعد الله مضلل من الوجهة التاريخية، ذلك أن أصحابه ينظرون إلى أصول هذه الحركة من خلال وجود الأحزاب السياسية التي أصبحت قوية تستطيع أن تعمل علانية ببرنامج محدد، ولكن تاريخ القومية حسبه لا يتفق مع هذا التناول، فمعظم الحركات القومية للشعوب المطهدة سواء في أروبا أو في غيرها، قد وجدت أولا في أشكال أخرى غير الأحزاب المنظمة، فقد ظهرت أولا كجمعيات سرية وتمردات و صحافة، و انتعاش أدبي ونشاطات اجتماعية كالنوادي، ثم بدأت تتحدى مضطهديها بطرق مختلفة بما في ذلك الأحزاب السياسية.

و قد كانت حركة الجزائر انموذجا لذلك، فالحركة الوطنية الجزائرية خلال ثلاثينات القرن التاسع عشر كانت تحت إطهاد شديد من جميع النواحي، ولكي يصل الجزائريون إلى مستوى العمل الظاهر كأحزاب و منظمات، كان عليهم أن يمرو بمراحل أخرى مثل العمل السري و التعاون و إقناع الفرنسيين بولائهم المطلق، و إستعمال الصحافة و النوادي الثقافية و غيرها[2].

فمن المظاهر الهامة للحركة الوطنية في القرن التاسع عشر هو أن الجزائريين لم يقبلوا أبدا بالهزيمة أو الاستعمار الفرنسي لأراضيهم، و الفرنسيون كانوا يعلمون أنهم قد إنتصروا على الجزائريين بقوة السلاح و

[1]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، المصدر السابق، ص 94.

[2]- نفسه، ص 95.

ليس بعقد إتفاق أو استسلام، بينما كان الجزائريون يعرفون بأنهم كانوا منهزمين فإنهم قد إستمروا في مقاومتهم بكل الوسائل التي يملكونها و على جميع المستويات.

إن كان على المستوى الفردي القومي، و المتمثل في حركة حمدان خوجة الذي إعتبره سعد الله رائداً للوطنية الجزائرية و القومية العربية، إذ يمكن القول بأن النشاط السياسي الذي زاوله حمدان خوجة كان نواة للحركة الوطنية في شقها المدني السياسي بإعتبار أن نشاطه تجربة جزائرية هادفة إلى التحرر و إسترجاع الوطن، أما مبايعة الأمير فهي نواة للحركة الوطنية في شقها العسكري عن طريق الكفاح المسلح[1].

أو إن كان على المستوى الشعبي، المتمثل في الطرق والزوايا التي كانت موزعة في كل أنحاء الجزائر، حيث لعبت دورا سياسيا هاما في حياة الجزائر بما كانت تنظمه من حملات دعائية سرية محكمة ضد القوات الفرنسية، هذا بالإضافة إلى دورها العسكري الهام، ذلك أن معظم ثورات القرن 19 كانت قد أعدت و نظمت ونفذت بوحي منها، و هو ما عبر عنه مريدوها من تحركات عسكرية (المقاومة الشعبية) مثلت روح المقاومة المستمرة عند الجزائرين منذ الإحتلال. و قد لعب الأدب الشعبي أيضا مع كل هذا دورا في المحافظة على روح و ثقة الشعب الجزائري بما كانت تجودُ به حناجر المدّاحين من أشعار حماسية أمام الجماهير في المقاهي و الأسواق العامة[2].

فالقول بأن هذه الحركة تعود فقط إلى بعض السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية أو العشرينات من القرن الماضي، يعني غض النظر عما رأيناه من تحركات، كما يورد سعد الله أن الذين يأخذون بالقول الأخير (عشرينات القرن الماضي) لا يعتبرون حتى هاته التحركات أعراضا لهذه الحركة، بل و أهملوا حتى القرن الماضي في النشاط الذي قامت به كتلة المحافظين و جماعة النخبة أواخر القرن 19، و دورها في الحياة العامة الجزائرية، و في نفس الوقت أيضا أهملوا وضع الحركة الوطنية الجزائرية خلال الحرب العالمية الأولى.

و عليه فإن الكفاح السياسي و العسكري غداة الأحتلال الفرنسي يمثل تحرك مهم لنشأة الحركة الوطنية الجزائرية و أن حصر الكثير من المؤرخين معالم المقاومة الجزائرية و بروز العمل السياسي المتمثل في الأحزاب السياسية مطلع القرن 20، يعتبر إجحافاً في مسيرة النضال الوطني، و إنْ كان التحرك السياسي المطلبي قد بدأ قبل ذلك من خلال تكليف أهالي البلاد بعض الشخصيات الوطنية للتحدث بإسمها و مراسلة

[1] – أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص 110.

[2] – أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، المصدر السابق، ص 29 وما بعدها.

الإدارة الإستعمارية للتفاوض معها كما هو شأن حمدان خوجة كما أسلفنا الحديث، أو مع ظهور كتلة المحافضين عام 1900م و جماعة النخبة 1907م... وغيرها.

و على الرغم من أن عملهم خلال تلك المرحلة – في غالب الأحيان – لم ينضبط بعد بقواعد التنظيم الحزبي أو الجمعوي المنظم، إلا أنه كان عبارة عن نواة للنضال السياسي، فالحركة الوطنية إذن، رد فعل الشعب الجزائري اتجاه العدو المحتل سواء كانت جماعية أو فردية، معزولة أو منظمة بإستعمال مختلف الوسائل كان الهدف منها واحد و هو الرفض التام للسياسة الإستعمارية.

و على أية حال؛ فإن تمكن الفرنسيين من احتلال و اعلان إستسلام حكومة الداي حسين في 5جويلية 1930م، لم يعن ذلك إستسلام الشعب الجزائري بالأمر الواقع، بل ثار المجتمع أفرادا و جماعات و بكل ما أسعفته به الظروف للإعلان عن منطق الرفض القاطع للإحتلال الفرنسي، و هو ما تجلى في مختلف أشكال المقاومة سواء العسكرية منها أو السياسية أو الثقافية أو الروحية ، كان الهدف منها جميعا واحد و هو الرفض التام للسياسة الإستعمارية.

3–كتابة تاريخ الثورة

تعتبر الثورة الجزائرية من بين أهم و أبرز ثورات العصر الحديث، و لكن في المقابل هناك غياب للأقلام الوطنية التي من شأنها إبراز هذه الأهمية، و كانت النتيجة فراغا كبيرا في الكتابة التاريخية في هذا المجال بالخصوص، أُستغل من طرف الكتاب الأجانب الذين غيبوا في أعمالهم الموضوعية، فجاءت كتاباتهم أقرب للدعاية المضادة منها للحقيقة التاريخية.

ومن هنا تبرز أهمية تدوين تاريخ الثورة، و أبو القاسم سعد الله يدرك جيدا أهمية سد هذا الفراغ بأقلام جزائرية تتوخى الموضوعية العلمية، و تكشف حقائقها الخفية، و رغم دعوته الصريحة للمؤرخين الجزائريين من أجل خوض غمار هذا الجانب، إلا أننا لم نجده في المقابل يترجم هو الآخر ذلك في كتاباته، فما هي نظرة أبي القاسم سعد الله للكتابة في تاريخ الثورة ؟ و ما هي العوائق التي جعلته يحجم عن الولوج في تاريخ الثورة التحريرية ؟ بالرغم من تقديمه دراسات هامة في تاريخ الجزائر على غرار التاريخ الثقافي و تاريخ الحركة الوطنية ؟

أ- أسباب عدم كتابته في تاريخ الثورة :

من خلال التنقيب في بعض كتاباته و حواراته الصحفية، يمكننا أن نحصل على بعض الأسباب المهمة التي دفعت بمؤرخنا إلى عدم كتابة دراسات تتعلق بتاريخ الثورة، نجملها فيما يلي :

- عدم توفر الوثائق الضرورية للموضوع :

إن إشكالية جمع المادة الضرورية للكتابة في تاريخ الثورة تعتبر من أهم العراقيل لعدم خوض مؤرخنا في هذا المجال، فلا يمكن بلوغ الحقيقة على نسبيتها دون الإلمام بالمعلومات الكافية، و الوثائق الضرورية للخوض في ذلك، سواء كانت عبارة عن وثائق مكتوبة، أو شهادات شفوية، وفي هذا الإطار إحدى أهم اشكاليات كتابة تاريخ الثورة، والتي لم تعق سعد الله وحده، بل ما تزال عائقاً لكل باحث في هذا المجال، ألا و هي قضية الأرشيف الخاص بفترة الثورة التحريرية و الذي يوجد القسم الأساسي منه في كل من الجزائر و فرنسا.

فبرغم من أن السلطات الفرنسية قد أتاحت الإطلاع على الكثير من الوثائق الأرشيفية الخاصة بتاريخ الجزائر سواء فترة الاحتلال أو الثورة التحريرية في مختلف مراكز الأرشيف لديها، و يتعلق الأمر بأرشيف ما وراء البحار بآكس آن بروفانس، أو أرشيف وزارة الخارجية بكي دورسي، أو أرشيف وزارة الحربية الفرنسية بقصر فانسان، إلا أن هناك عدداً كبيراً من الوثائق التي تتحفظ عليها السلطات الفرنسية، و لا تتيح الإطلاع عليها إلا بعد مرور مدة زمنية معينة، فمثلا الملفات الخاصة بالأشخاص لا يمكن الإطلاع عليها إلا بعد مرور 120 سنة على تاريخ ميلادهم، و ملفات العدالة العسكرية إلا بعد مرور 100 سنة على تاريخ بداية العمل به. كما أن هنالك ملفات لا يمكن الاطلاع عليها بتاتا إذ تعتبر من أسرار الدولة مما يجعل الإطلاع عليها في خانة الممنوعات، و بالخصوص الوثائق التي توثق للأعمال الغير قانونية التي مارستها سلطات الاحتلال في الجزائر و التي تصنف في خانة الجرائم ضد الإنسانية [1].

و في المقابل نجد جزءا هاماً من أرشيف الثورة متواجد في الجزائر، فبعضه تحتضنه مراكز الأرشيف الوطنية، و بعضه نجده عند الأشخاص و العائلات الجزائرية، كما أن إشكالية الاطلاع على الكثير من هاته الوثائق منه تبقى مطروحة أيضا، ذلك أن مراكز الأرشيف الوطني بالجزائر يحتوي على العديد من الوثائق ذات الطابع السري، إذ لا يسمح بالإطلاع عليها نظرا لحساسيتها في الفترة الحالية، كما أن نصفه متواجد في مراكز

[1]- عيسى بن قبي، المرجع السابق، ص 275.

الأرشيف في فرنسا، فمعظم الوثائق التي تدين الممارسات الغير قانونية للإحتلال الفرنسي خصوصا أثناء الثورة، قد أخذتها سلطات الإحتلال معها وقت خروجها من الجزائر.

فإشكالية الإطلاع على الأرشيف سواء المتواجد بالجزائر أو خارجها يجعل من أي كتابة تاريخية مهما كانت جديتها تعتبر ناقصة و غير ملمة بكل الجوانب، فالوثائق لها دور مهم في تجلية الحقائق و كشفها، فلا تاريخ بدون وثائق، و هذا لا يعني بالضرورة إستحالة الكتابة حول تاريخ الثورة، إلا أن الوثيقة يمكنها أن تحيط بجميع القضايا التاريخية العالقة، و الإجابة على كل التساؤلات المطروحة، و سعد الله في هذا الجانب لا يرمي إلى دراسة حدث بعينه، بل يهدف إلى القيام بمسح شامل لفترة سبع سنوات و نصف من عمر الثورة، أي بنفس الطريقة التي اتبعها في دراسته للمراحل السابقة في الحركة الوطنية و التاريخ الثقافي [1].

أما فيما يخص المصادر الشفوية لما لها من أهمية في كتابة تاريخ الثورة، فبالرغم من ظهور كم هائل من المذكرات الشخصية لمجاهدين شاركوا في الثورة من جنود و قادة عسكريين و مسؤولين سياسيين من صناع الحدث، إلا أنها هي الأخرى لا يمكن الإعتماد عليها لوحدها بشكل مطلق، و هذا بالرغم ما توفره من مادة تاريخية مهمة، و رغم كشفها للعديد من الحقائق، إلا أنه قد يشوبها أحيانا نوع من الذاتية أو النستالجية على حد قول سعد الله، وأحيانا قد تتخللها بعض المبالغات، فيتم الإنحياز لشخص و تقزيم آخر، أو الوقف مع طرف على حساب الآخر إلى غير ذلك.

– العامل الزمني:

يري سعد الله أن البعد الزمني ضروري في بعض الأحداث لتأثيرها على الأحياء و حياة الناس في الوطن، فالتاريخ من وجهة نظره يجب أن يكتب من مسافة زمنية معقولة، أي بعد إنقراض الجيل الذي صنع أحداثه ، فكلما ابتعدت المسافة كلما توفر التفسير الموضوعي، و تمت معالجة الأحداث بموضوعية علمية، أما إذا اقتربت المسافة فإن حرارة العاطفة هي التي ستطغى و تُعطي الأحداث تفسيراً ذاتيا، يكون خاضعا لترات الأشخاص الذين صنعوا الأحداث، فهم جميعا يعتقدون أنهم صانعوا الحدث، و أن الآخرين غائبون عنه أو ثانويين فيه، يقول سعد الله عن ذلك " المؤرخ الحقيقي يجب أن يترك للزمن يعمل عمله في الأحداث التاريخية

[1]– عيسى بن قبي، المرجع السابق ، ص 276 .

قبل تناولها بالدرس و التحليل، فالبعد الزمني عنصر أساسي للوصول إلى الموضوعية المنشودة لاسيما إذا كانت من مواطن عاش الأحداث و شارك فيها ، ستزج به في متاهات التفسير الشخصي و الحكم الذاتي "[1].

و الكتابة في هذا الخصوص لا تعني بالضرورة النشر حسب سعد الله، فإذا كان المؤرخ يكتب كتابا أو مذكرات و هو يدرك مُقدما أن نشر ذلك يسبب تصدّعات سياسية، أو إضطرابات إجتماعية، فلا يمكنه نشرها أو أن السلطة القائمة من حقها أن تمنع نشره، و هناك من الأعمال ما يضر أيضا بالعلاقات مع الدول بعضها البعض، و نحن نعلم أن لكل دولة أسراراً و لكل مواطن الحق في السرية أو الخصوصية، و بعض الكتاب يضعون يومياتهم و مذكراتهم في البنوك و نحوها و يوصون أن لا تفتح إلا بعد كذا سنة بعد وفاتهم، فمثلا ما تزال حقيقة مقتل الرئيس كينيدي الأمريكي غير معروفة، لأنه ليس من مصلحة الشعب الأمريكي أن يعرفها الآن كاملة، و ما الفائدة الوطنية التي سيجنيها الشعب الجزائري اليوم من معرفة تفاصيل مقتل ابن بولعيد، و عبان ر مضان، و الحواس، و شعباني ...[2].

كما أن الثورة الجزائرية في هذا الخصوص هي عمل بشري، لا يمكن أن نضفي عليها طابع القداسة، بالرغم من نبل أهدافها و مشروعيتها، ذلك أن خلال مسيرتها، بل وحتى الفترة التي سبقتها أي فترة التحضير لها، قد شهدت عدة خلافات بين قاداتها و زعمائها، و هناك عدد منهم ما يزال على قيد الحياة، فإننا من خلال تحليل مواقفهم والفصل في خلافاتهم قد نعطي الحق لطرف على حساب طرف آخر ، و قد يتدخل البعض بإستغلال النفود السياسي لطمس حقيقة أو السكوت عنها، و هناك أحداث متعددة وقعت أثناء الثورة وهفوات مثلها في ذلك مثل كل ثورات العالم، يتنكر كل طرف من مسؤوليتها و الخوض فيها و الكشف عن خفاياها، و قد تخرج أطراف معينة أو تدين أطراف موجودة في السلطة الحاكمة حاليا، و كل هذه المعطيات تزيد من إشكالية البحث في تاريخ الثورة خلال الفترة الزمنية الحالية[3] .

– العامل الذاتي :

إن الأسباب السالفة الذكر التي ساقها الأستاذ سعد الله لتأجيل ولوجه في كتابه تاريخ الثورة يغلب عليها الطابع الموضوعي في عمومها، غير أن هناك أسباباً ذاتية زادت في دعم هذا التوجه لديه، و أولها هو أن

---

[1]– أبو القاسم سعد الله ، حاطب أوراق ، المصدر السابق ، ص 289 .

[2]– أبو القاسم سعد الله، حوارات، المصدر السابق، 159.

[3]– عيسى بن قبي، المرجع السابق، ص 277.

المشروع الذي كان يطمح إليه الأستاذ سعد الله هو ذو طابع موسوعي يهدف إلى إتمام الأجزاء التي كتبها و الخاصة بتاريخ الحركة الوطنية، و بالتالي محاولة القيام بدراسة شاملة و متكاملة لمختلف المراحل التي مرت بها الثورة، مما يتطلب منه جهدا مضاعفا، و تفرغا لفترة زمنية طويلة، و محاولة جمع المادة العلمية الكافية التي تغطي جميع مراحل الثورة، مع تأكيده أن الكتابة التاريخية متجددة تتطلب المراجعة و الإضافة حسب المعطيات و الوثائق المتوفرة . كما أن أولوياته قد صبها في مشروعه الفكري النهضوي المتمثل في الجانب الثقافي بطابعه الموسوعي، أيضا كان عائقا عن التفرغ للبحث و الكتابة في تاريخ الثورة. حيث يؤكد أن معركة تحرير تاريخ الجزائر من هيمنة الكتابات الأجنبية عموما هي كل متكامل تشمل جميع المراحل الزمنية التي مرت بها البلاد.

كما يمكن اضافة سببا ذاتيا آخر وراء عدم ولوجه الكتابة في تاريخ الثورة، و معايشته للمرحلة و خوفه أن تتغلب على كتاباته النزعة الذاتية، بحكم أنه أحد المشاركين في هذه الثورة، فمنذ سنة 1956م كان عضوا نشيطا في إطار الرابطة ثم الإتحاد العام للمسلمين الجزائريين فرع القاهرة و أمريكا، و ساهم مساهمة فعالة في النشاط الثقافي لصالح خدمة الثورة و بالتالي كانت له مواقفه و ميوله الخاصة و آراءه الذاتية، فيما يتعلق بمختلف القضايا و الأحداث التي عايشها، كل هذا جعله يتخوف من أن تطغى الذاتية على كتاباته، و هو الذي كان دائم الحرص على توخي الموضوعية في الكتابة التاريخية ما استطاع لذلك سبيلا، و قد كتب قائلا " أنني أعرف بعض المؤرخين الجزائريين الذين كتبوا عن الحركة الوطنية كتبوا عنها من وجهة نظر أحزابهم أو الهيئات التي كانوا منتمين إليها قبل الثورة و أعتقد أن مؤرخي الثورة سيتأثرون أيضا بدورهم فيها وحدود مشاركتهم و مسؤوليتهم "[1].

و ما يمكننا قوله في هذا الإطار أن عزوف سعد الله عن الكتابة في تاريخ الثورة لأسباب ذاتية في نظرنا غير كاف، فمن المؤكد أن صدقه و أخلاقه العالية و منهجيته العلمية ستجعل كتاباته في هذا الجانب أكثر قربا إلى الموضوعية، و أننا نعلم أنه إن كانت بعض الذاتية، فإن ذلك دون تعمد منه، فهو من المؤرخين القلائل الذين جمعوا الكفاءة العلمية، و الموضوعية إلى حد بعيد في كتاباته . و إن كان قد أبدى أسفه و هو يتحدث عن تقصيره أتجاه هذا الأمر بقوله في أحد التصريحات" أنا جزء من جيل قام بثورة عظيمة، لكنه لم

[1]- أبو القاسم سعد الله، ابحاث و آراء ....، ج2، المصدر السابق، ص 238.

يستطع أن يصفها لمن يأتي بعده، إنني حزين من هذه الجهة... الحزن المكظوم الذي يحرق صاحبه، قبل أن يحس به الآخرون"[1].

إن هذه العوائق مجتمعة دفعت أبو القاسم سعد الله إلى عدم الخوض في كتابة تاريخ الثورة، فقد دأب على وصف نفسه بأنه ليس كاتبا حسب الطلب، و لا مؤرخ مناسبات، بل يسعى دوما لتوخي الحقيقة على نسبيتها، بعيدا عن أي ضغط خارجي، أو توجيه إيديولوجي، أو ترتيبات سياسية.

ب- أنواع الكتابة في تاريخ الثورة :

إن عدم ولوج أبي القاسم سعد الله في الكتابة في تاريخ الثورة، لا يعني إهمال الموضوع، أو عدم إدراك أهمية مبادرة أقلام وطنية لتولي ذلك، بل كان يرى أن المرحلة الحالية، و إن لم تكن صالحة بعدُ لكتابة تاريخ مفصل ودقيق لوقائع الثورة التحريرية للأسباب السالفة الذكر، فهي من جهة أخرى مرحلة جد حساسة، و ذات أهمية كبيرة لتدوين أحداث الثورة، و لعل الفراغ في هذا الميدان الذي شهدته الكتابة في تاريخ الثورة هو الذي فتح المجال على مصراعيه أمام الأجانب ليكتبوا تاريخنا و يقدموا أعمالهم إلينا لنقرأها و نستفيد منها.

فكل ما كان يخشاه الأستاذ سعد الله هو أن تصبح " الأدبيات الفرنسية – كما أطلق عليها – هي المرجع الوحيد للجيل الحاضر من الجزائريين أنفسهم عن تاريخ ثورتهم هذا من جهة، و من جهة أخرى تصبح هي المرجع أيضا لغير الجزائريين الذين يرغبون في التعرف على مسيرة الثورة الجزائرية يقول في ذلك " إن ما نخشاه حقا هو أن تصبح الكلمة الفرنسية هي الفصل في تاريخ الجزائر كله، ماضيه و معاصره تماما كما كانت كتابة (قزال) هي الفصل في التاريخ القديم و كتابة (قوتيه) هي الفصل في التاريخ الإسلامي، و كتابة (قرامون) هي الفصل في العهد العثماني، و كتابة (جوليان) هي الفصل في التاريخ المعاصر، ألا ينذر ذلك بخطر كبير ؟ "[2].

و في هذا الإطار يرى سعد الله وجوب الشروع في جمع المادة التاريخية المتعلقة بالثورة الجزائرية من مختلف المصادر (الشفوية و المكتوبة) ، و تصنيفها و تهيئتها للاستغلال كمادة خام توضع بين يدي الباحثين،

[1]- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 255.

[2]- أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة، المصدر السابق، ص 246.

و المتمثلة في البحث الاختصاصي المجرد، القائم على دراسة الوثائق و الحكم من خلالها على سير الأحداث التاريخية لتقييمها متى حان وقتها، بل يجب الإجتهاد فيها، كل بطريقته و أسلوبه و تخصصه و خلفياته.

فكتابة تاريخ الثورة حسب رأي سعد الله تستلزم مساهمة جميع العناصر المنتجة ثقافيا، من خلال إختصاصاتهم فمثلا يمكن لعلماء الإجتماع و الإقتصاد أن يتناولوا جوانب من التاريخ الاجتماعي و الإقتصادي للثورة ممثلا في التموين و المساعدات و الصحة و السجون والمحتشدات، و الفئات الاجتماعية التي إلتحقت بالثورة و علاقاتها بالاقتصاد و الزراعة و التعليم والقضاء، كما يمكن للأدباء أن يتناولوا جوانب منها أيضا، كالإنتاج الثقافي عندئذ في أشكاله الأدبية كالقصة و الرواية .... الخ ، فكل أعمال هؤلاء جميعاً ستصبح ذات يوم مادة تاريخية هامة [1].

و عليه فإن سعد الله يرى أن تاريخ أي أمة لا يكتبه إلا أبناؤها، فإذا كتب عنها غير أبنائها كانت كتاباتهم غير صادقة إن صح التعبير، و هذا لا يعني أن المؤرخين إن كتبوا عن غير أممهم لم ينصفوا و لم يقدموا أعمالا مفيدة و هامة، بل نجد أن المؤرخين العرب قديما كتبوا على الشعوب الأخرى و ما تزال كتاباتهم موضع تقدير و احترام، في العصر الأخير كتب الأوروبيين عن الشعوب الأخرى و ما تزال مؤلفاتهم مفيدة و هي مراجع للباحثين من أبناء هذه الشعوب نفسها، و لكن يجب أن يكون هناك نوع من التوازن بين الإنتاجين المحلي و العالمي، يقول سعد الله في هذا الخصوص " يجب أن يكون هناك توازن بين إنتاج مؤرخي الأمة و إنتاج المؤرخين الآخرين عنها، فإذا إختل هذا التوازن ظهرت " الشوفينية " الممقوتة و الذاتية المفرطة في الأمة من جهة أو الإهمال و النسيان من جهة أخرى" .

و لدينا مثال حي عن الحالة الأخيرة السالفة الذكر، و هو أن الفرنسيين هم الذين تولوا كتابة تاريخ الجزائر خلال قرن من الفترة الاستعمارية مما ترتب عليه إهمال و تغيب تاريخ الجزائر لأن الفرنسيين لم يكتبوا إلا بلغتهم و لم يهتموا إلا بإبراز انجازاتهم، وهو الأمر الذي أدى إلى تشويه التاريخ الوطني في جميع مراحله، وبالتالي حان الوقت أن يكتب المؤرخون الجزائريون تاريخهم بأقلامهم، و أن نقف موقف الحذر المتبصر مما يكتبه الآخرون.

من خلال ذلك فإن سعد الله يفرق بين عدة أنواع تتعلق بكتابة تاريخ الثورة : الكتابة الرسمية، و الكتابة الشعبية، و الكتابة العلمية :

[1]- أبو القاسم سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 257.

– الكتابة الرسمية :

وهي التي تقوم بها الدولة نفسها، تطرح من خلالها وجهة نظرها وفقا لتوجهاتها السياسية، و مبادئها الإديولوجية، على ضوء فلسفة الثورة نفسها، و هي ذات أهمية بالنسبة لعامة الشعب في حماية مبادئ الثورة و توحيد الرؤى حولها، حتى تضع حدا للكتابات الأجنبية، الرامية للإستغلال و تشويه مبادئ الثورة، و قدم سعد الله مثالا حول ما كتب عن الثورة الروسية، إذ قامت أجهزة الدولة كل في ميدانه بتأليف الكتب و وضع دوائر المعارف و تاريخ الثورة بالمفهوم الذي تراه هي ، و أصبح عامة الشعب يقرأون تاريخ الثورة الروسية من هذه المصادر ..[1]

– الكتابة الشعبية :

و هي التي يتولاها المثقفون عامة، غير الإختصاصيين أمثال الساسة و الصحفيين و الأدباء، و كتاب الوقائع، الراغبين بكتابة تاريخ الثورة ، و تهدف هذه الكتابة إلى الاشادة بمآثر الثورة و مبادئها حتى و إن كان يغلب عليها الطابع العاطفي فهي توفر لأبناء الوطن ما من شأنه ملء الفراغ القائم في هذا المجال و الوقوف في وجه الكتابات الأجنبية. و تعتبر في هذا المجال رافداً مهما في الإنتاج التاريخي على غرار ما كتب مثلا عن حرب الثورة الفرنسية، فقد أنتجت أعداد ضخمة من الكتاب الذين ينتمون إلى هذا الصنف و لم يكونوا مؤرخين بالمعنى العلمي للاختصاص و لكنهم مع ذلك أنتجوا مئات الكتب و الروايات و الوثائق التي خلدت الثورة و كشفت عن حقيقتها من وجهة نظر شعبية عامة .

– الكتابة العلمية (الأكاديمية) :

و التي تعني البحث الإختصاصي المجرد القائم على دراسة الوثائق و الحكم من خلالها على سير الأحداث التاريخية، و التي يجب أن تتوفر فيها شروط الاختصاص و الوثائق و عامل الزمن، ثم إصدار أحكام تاريخية بناء عليها. و في هذا السياق يرى سعد الله أن الوقت قد حان ، بل أنه قد فات للكتابة في مستوى النوعين الأولين ، و لكنه لم يحن بعد بالنسبة للنوع الثالث و ذلك لعدم توفر المادة التاريخية اللازمة للحكم و الوثائق، خاصة أن تاريخ الثورة لا زالت بعض أطرافه حية، و بعضهم له مواقع في السلطة، و منهم أطراف معنيين في قضايا و حوادث و مواقف لم تتضح معالمها بشكل جيد.

[1]– أبو القاسم سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص 258.

كما أن بعض المثقفين و المؤرخين الذين عايشوا المرحلة سيكونون متأثرين بالأحداث التي عايشوها لأنهم يفتقرون إلى البعد الزمني الكافي لإصدار أحكام تحظى بتجرد و مصداقية، تهدف للوصول إلى الحقيقة العلمية، و لذلك و أمام الفراغ الحالي في الكتابة في تاريخ الثورة، أن تستغل هذه المرحلة في جمع المادة الشفوية و المكتوبة لإستغلالها من جانب الباحثين من جهة، ومن جهة أخرى الشروع فيما يمكن أن نسميه بوضع ' تاريخ شعبي للثورة الجزائرية ' بطريقة ترصد الأحداث و المراحل الكبرى للثورة و مسيرة النضال الشعبي دون التعمق في التفاصيل كإضفاء الألقاب على الأبطال والتنويه بدور جهة دون أخرى[1].

جـــ- شروط الكتابة في تاريخ الثورة :

أما الوسائل الكفيلة في نظر أبي القاسم سعد الله لإنجاح عملية الكتابة في تاريخ الثورة فهي كما يلي :

- **توفير الحرية في التعبير والبحث والنشر** : فحرية التعبير و الكتابة شرط أساسي لظهور الكتابة في هذا المجال، و الحرية في الكتابة لا تعني التمجيد و المدح و الإشادة و لا تعني أيضا القدح و الإساءة و القذف ، و إنما تعني أحكاما متوازنة، بالإضافة إلى روح تقبل النقد، فالمؤرخ لا يمكن أن يرضى جميع الأطراف و لكن من جهة أخرى لا يعني إن لم تعجب آراؤه طرفا ما فإن آراءه تُصادر و يمنع كتابه من التداول.

- **توفير وسائل البحث**: من مكان ملائم و مصورات و خرائط وآلات للقراءة و موظفين مساعدين للكتابة و التصحيح و الفهرسة.

ـــ **تحسين وسائل النشر**: إذ نجد أن الكثير من الأعمال المنتهية، تبقى في إنتظار النشر ثلاثة أو أربع سنوات، و في ذلك مضيعة لمصلحة القارئ و تثبيط لعزائم المؤلفين.

- **التفرغ التام للباحثين المختصين**: حيث يرى سعد الله أنه من المناسب أن يقع التفكير الجدي في تفرغ بعض المؤرخين للقيام بهذه المهمة، ذلك أنه قد لا يتمكن بعض المؤرخين من القيام بأعمالهم الوظيفية العادية في التدريس و غيره، بالإضافة إلى الإسهام في مشروع كتابة التاريخ بطريقة ناجحة وسريعة.

و سعد الله من خلال ما سبق يؤكد أن عدم توفر هذه الشروط و الإمكانات لا تعتبر عائقا، حيث نجد هناك تعليلات كثيرة يسوقها بعضهم لعدم الكتابة، لكن هذا لا يمنع إن وجدت صعوبة في الإصداع بالرأي، فليبقوا آراءهم محفوظة، و لكن مكتوبة لكي يطلع عليها الجيل اللاحق .

[1]- أبو القاسم سعد الله، ابحاث وآراء ...، ج4، المصدر السابق، ص ص (44-46).

و خلاصة القول؛ أن سعد الله وفي إطار تبنيه للبحث التاريخي الموضوعي جعله يؤجل الخوض في كتابة تاريخ الثورة، إلى أن تتهيأ له الظروف بالشكل الذي يرغب فيه ، و المنهج الذي يتوافق مع قناعاته، و جملة الأسباب التي سقناها، دفعته إلى جمع ما توفر من الوثائق في هذا الموضوع، و إنتظار المرحلة المناسبة للشروع في الكتابة التاريخية المبنية على البحث العلمي المجرد، هذا بالرغم من معايشته للكثير من أحداثها، و حرصه الشديد على الكتابه التاريخية البعيدة عن الذاتية، إلا أن وفاءه لمبادئه و رفضه للكتابة من أجل الكتابة أو القيام بعمل مبتور خصوصا في هذا الشأن لم تحن بعد، و في كل الحالات فقد حرمنا من هذا القلم السيال و أحد شواهد مرحلة الثورة، و بما يمتلكه من موضوعية و أكاديمية و خلق عال في الكتابة التاريخية .

4- موقفه من كتابات المدرسة الإستعمارية:

شكلت الدراسات و الأبحاث التي عالجت تاريخ الجزائر من طرف فئة كبيرة من المؤرخين و الباحثين جدلا واسعا إذ يلاحظ على هذه الدراسات أنها في مجملها تحمل تأثيرات مدرسة التأريخ الإستعماري، و متأثرة بالقوالب و الصيغ و الإتجاهات التي أعطتها للدراسات التاريخية في بلادنا، و بالتالي تعرض تاريخ الجزائر الحضاري لكثير من التشويه و التزيف بسبب الطابع الإيدلوجي بالدرجة الأولى قبل الصفة العلمية في أعمالها، و زاد عليه تأثير تلك الحساسيات الخاصة القائمة بين الإسلام و المسيحية من جهة، بعلاقات الجزائر بأوربا و المتوسطية بشكل خاص من جهة ثانية.

لقد عمد مؤرخو المدرسة الإستعمارية إلى محاولة طمس مآثر الشعب الجزائري و أمجاده عبر التاريخ و إنكار وجوده و محاولة تذويبه بكل الطرق. و أمام هذا الوضع اضّلع العديد من المؤرخين الجزائريين المتشبعين بالقيم الروحية و الوطنية لإزالة التشويه و التحريف اللذين ألصقا بتاريخ الجزائر عبر مختلف مراحله و هذا من خلال إعادة النظر فيها ألفه المؤرخون الغربيون و الفرنسيون على الخصوص، لأن غاية هؤلاء من التأليف كانت منصبة لخدمة هدف واحد و هو السياسة الإستعمارية.

و كان سعد الله من أولئك الذين نذروا أنفسهم للرد على إدعاءات المدرسة الاستعمارية، و الوقوف موقف الحذر مما يكتبه هؤلاء عن تاريخنا، و من هذا المنطلق سنحاول التركيز في هذا العنصر على إبراز بعض الآراء و المواقف التي تبناها أبو القاسم سعد الله حول مسألة كتابات المدرسة الاستعمارية الفرنسية لتاريخ الجزائر؟ و كيف إعتمد الموضوعية و المنهج العلمي للرد على تلك الكتابات؟

إن وجهة نظر الكتابات الفرنسية حول تاريخ الجزائر، رغم الهدف الواحد التي تسعى إليه و المتمثل بالخصوص في خدمة الاستعمار، تتصف بتعدد المشارب و تنوع الاهتمامات و إختلاف المستويات الثقافية نظراً لأن هؤلاء الكتاب الفرنسيين كانوا يختلفون من حيث الثقافة و التكوين، خصوصاً في الفترة محل دراستنا (1830-1954م) فمنهم من كان ينتسب إلى سلك القادة العسكريين و منهم من كان من العلماء المختصين:

أ- المؤرخون العسكريين (1830م-1880): يطلق المؤرخ ستيفان غزال (S .Csell)[1] على هذا العهد إسم المدرسة الجزائرية القديمة في كتابه التاريخ ذلك أن الذين تولوا كتابة تاريخ الجزائر الإقتصادي و السياسي و الإداري خلال هذا العهد هم كتاب عسكريون بالمهنة أو تراجمه عسكريون، و قد إعتمد هؤلاء في كتاباتهم على المصادر الأهلية في غالب الأحيان، و هذه المصادر على نوعين مكتوبة و شفوية، ومن المصادر المكتوبة وثائق العائلات الكبيرة، و عقود الملكية و مذكرات رجال العلم الجزائريين، أما المصادر الشفوية التي إعتمدوا عليها أكثر من الأولى، فقد جعلتهم يسجلون قصصاً و أحداثاً من مختلف المشارب و الأنواع[2] .

و قد ساعدت الإدارة الفرنسية هؤلاء الباحثين بجمع ما تفرق من الوثائق، أو بفضل الحملات العسكرية التي كانوا يقومون بها، أو بمساعدة المكاتب العربية، أو عقود الأحوال الشخصية و المعاملات الخاصة وحتى مذكرات رجال العلم و شيوخ الزوايا.

لكن إنعدام التخصص و إعتماد هؤلاء القادة على دافع الهواية الشخصية في تسجيلهم للأحداث و وصف الإنطباعات و التعليق عليها، جعل مثل هذا الإنتاج أقرب إلى الثقافة العامة منه إلى الكتابة التاريخية بالمعنى الصحيح للكلمة، إلا أنها تركت في مجملها أرضية مهمة للمؤرخين اللاحقين لكي يبدأوا منها و منافذ يطلون منها على أحوال الجزائريين الذين لم يكونوا يعرفون عنهم إلا القليل ومن كتّاب هذا العهد كل من

---

[1]- **ستيفان غزال(1864-1932م)**: مؤرخ فرنسي، ولد بباريس من عائلة ألزاسية بروتستانتية، انتقلت للعيش في سويسرا، دخل المدرسة النورمالية سنة 1883م، وتخرج منها سنة 1886 بشهادة لتدريس التاريخ، كان ستيفن غزال ميالا لدراسة التاريخ القديم، فانضم إلى المدرسة الفرنسية في روما و تخصص في التاريخ القديم لإفريقيا الشمالية، كلف بتقديم دروس في علم الآثار في مدرسة الآداب بالجزائر العاصمة، له عدة مؤلفات منها : التاريخ القديم لافريقيا الشمالية، والنقوش اللاتينية في الجزائر ...الخ. للمزيد حوله انظر : E.Albertini, « Stéphane Gsell (1864-1932)», Revue Africaine, vol n°73,année 1932, pp (21-37)

[2]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء...، ج1، المصدر السابق، ص ص (21-22).

"آرنود (Arnoud)"، "استرهازي (Esterhazy)"، "روبان(Robin)"، "فيرو (Feraud)"[1] "رين (Rinn)"، "دوماس (Daumas)"، ديلامار (Delamare)، و غيرهم.

ب- المؤرخون الإختصاصين (1880- 1954م): بتأسيس جامعة الجزائر سنة 1909م بدأ عهد جديد من كتابة تاريخ الجزائر عند الفرنسيين، حيث وجد أساتذة الجامعات كل التسهيلات و التشجيعات المادية و المعنوية سواء أثناء وجودهم على كرسي التدريس أو أثناء تنقلاتهم بحثاً عن المعارف و المصادر، و تعكس الدراسات التي ظهرت خلال هذا العهد مدى تبعية كتابة التاريخ للاستعمار، أو مدى ذاتية المؤرخ عندما يرتبط بمصلحة وطنية، و يضحى في سبيل ذلك بقيم البحث، ذلك أن كتابات هذا العهد كانت تعمل على تبرير الإستعمار و التأريخ له، و عندما حان الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال تجند هؤلاء المؤرخون في اللجان التي كونتها (الحكومة العامة) عندئذ لوضع دراسة تركيبية عن تاريخ الإستعمار في الجزائر، و عن جهود فرنسا الحضارية فيها، مع نظرة نقدية شاملة لما تحقق في ميدان الكتابة التاريخية حتى ذلك العهد.

فقد خرج من هذا الجهد مجموعة من الأبحاث أصبحت تعرف (بمجموعة المائة سنة) و هي تشمل ميادين التاريخ و الآثار و الجغرافيا و الفنون و غيرها، و هذا اللقاء بين المؤرخين الفرنسيين في جامعة الجزائر و بين الحكومة العامة يبرهن من جديد على مدى تواطؤ هؤلاء المؤرخين مع الإدارة الاستعمارية، و خدمتهم لأغراضها، و من الأساتذة الجامعيين الذين برزوا خلال هذا العهد "روني باسي(R.Basset)"[2]، "مارسيه

---

[1]- **فيرو**: مؤرخ فرنسي، وولد بمدينة نيس الفرنسية سنة 1829م، عين كعضو إضافي في الحكومة العامة للجزائر، ثم أصبح عن سن يناهز 19سنة سكرتير للمحافظة العامة، ثم كمترجم تابع للجيش من الدرجة الثانية، شارك فيرو تقريبا في كل حملات الجيش الفرنسي على مقاطعة قسنطينة، و أيضا في الحملة العسكرية على ثورة الشريف بوبغلة، ثم عين كملحق مترجم للعديد من الحكام العامين، وقد أصدر عدة مؤلفات مثل " مترجمو الجيش الإفريقي " للمزيد انظر L.Paysant,Un Président de la Société Historique Algérienne. Laurent-Charles Féraud,(A R.), n°55, pp (5-15) .

[2]- **روني باسي(ت 1924م)**: باحث و مؤرخ فرنسي، تخرج من مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس بدبلوم اتقان اللغتين العربية والفارسية، سنة 1880م عين في الجزائر كمكلف بدروس اللغة العربية في المدرسة العليا للآداب، فدرس الغات الإفريقية وخاصة البربرية، وفي سنة 1894م، عين كمدير لمدرسة الآداب بعد موت المستشرق الفرنسي إيميل ماسكاري، ثم عميد هذه المدرسة بعد أن صبحت جامعة لثلاث مرات متتالية، له عدة مؤلفات تعني بتاريخ المغرب مثل: " الحملات على إفريقية و المغرب (conquetes de l'afrique et du maghrib)" للمزيد أنظر: Alfred Bel, René Basse, (A R.), n°65, pp (12-19) .

(Marcais) "[1]، "ماسكري (Marsquary)"، " ستيفن غزال (Csell) "، "شارل آندري جوليان Julien (ch.A)"،"كانيا (Cagnat)"، "ديل (Diehl)"، "مانصو(Monceaux)"[2].

على أن الشيء الملاحظ هو أنه على اختلاف اختصاصات و تنوع اهتمامات الكتاب الفرنسيين تظل جهودهم غير منسقة و غير مترابطة، كما يؤكده ذلك الأستاذ ناصر الذين سعيدوني، مما أبقى فجوات و ثغرات شبه مجهولة أو مهملة رغم المدة التي استغرقوها و المجالات التي تطرقت لها جهود هؤلاء الكتاب الفرنسيين، و لذلك لا نستغرب أن ينتهي لوتورنو (letournou) إلى القول بأن " البحث التاريخي عن الجزائر المسلمة ما يزال بعيداً عن الانتهاء" و أن ينتهي زميله ياكونو (Yacono) إلى القول بأنه لا توجد دراسة شاملة عن سياسة فرنسا الإسلامية في الجزائر ولا عن التحول الذي أصاب الأهالي بتأثير الإستعمار، و الواقع أن المؤرخين الفرنسيين في الجزائر قد درسوا تاريخ الحملة و الاحتلال و الاستعمار، و لكنهم لم يدرسوا تطور المجتمع الجزائري و لا سياسية بلادهم نحو الجزائريين[3].

و اليوم تبذل مجهودات جادة من المؤرخين الجزائريين لإزالة التشويه و التحريف اللذين ألصقا بتاريخ الجزائر عبر مختلف مراحله، و هذا من خلال إعادة النظر فيما ألفه المؤرخون الغربيون و الفرنسيون على الخصوص حينما كان ميدان التأليف حكرا عليهم، فنحن اليوم في أمس الحاجة إلى نظرة تقيمية لذلك الرصيد من الإنتاج المتنوع و المتشعب لأن هناك مآخذ كثيرة بحاجة إلى تصحيح و غربلة إن صح التعبير حول المساهمة الفرنسية.

ومن خلال هذا سنحاول عرض بعض موافق و آراء المؤرخين الفرنسيين من تاريخ الجزائر، و كيف إعتمد الأستاذ سعد الله الموضوعية و المنهج العلمي للرد على تلك الكتابات بعيداً عن الذاتية المفرطة مدّعِماً إيّاها بالحجج و البراهين، ذلك أن مؤرخنا يدرك جيداً أن الرد على تلك الدراسات لا يتم إلا بوجود الحجج و

---

[1]- **جورج مارسيه(1905– 1946م)** : كاتب و باحث فرنسي، كان أستاذ بجامعة الجزائر، كما شغل منصب مدير متحف ستيفان جسل بالجزائر إلى جانب عضويته بالمعهد الفرنسي، و يعد جورج مارسي من اهم الكتاب الذين اختصوا في القوانين العرفية البربرية، كما له عدة مؤلفات تخص تاريخ المغرب العربي، للمزيد انظر : جورج مارسي، بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الاسلامي في العصور الوسطى، تر: محمود عبد الصمد هيكل، الاسكندرية: منشأة المعارف، 1991م، ص 2 ومايليها.

[2]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء...، ج1، المصدر السابق، ص ص(19-24).

[3]- ناصر الدين سعيوني، ورقات جزائرية، ط2، الجزائر: البصائر للنشر و التوزيع، 2012،ص44.

الدلائل، و نظراً لسعة الموضوع سيقتصر حديثنا على معالجة بعض المؤرخين الفرنسيين فيما يخص بعض القضايا الجوهرية، متبوعة برد الأستاذ سعد الله .

لقد وقف المؤرخون الإستعماريون من الإسلام موقفا مشبوها، فقد صنفوا حامليه بالعدوان و اتّهموا معتنقيه بالتعصب، و قد أكثروا في كتاباتهم من إستعمال عبارات "الإسلام الجزائري" و " الإسلام الجزائري الجديد " ، و هم يعنون بذلك الإسلام كما يمارسه الجزائريون الذين يتهمونهم بأنهم لم يعتنقوه عن وعي و لم يمارسوه عن عقيدة، و إنما هو عندهم نوع من التقاليد الموروثة و الفولكلور الذي يظهر في المناسبات، و يتجلى هذا الموقف من نعت الفتح العربي (بالغزو العربي)، و من التركيز على أحداث تاريخية خاصة حادثة الكاهنة مع حسان بن النعمان، و حادثة كسيلة و عقبة بن نافع، و عندما تحدثوا عن هجرة بني هلال تحدثوا عنها "كغارة ذئاب" حسب تعبير إستيفان غزال، على المغرب قصد فرض لغتهم و دينهم على السكان.

فالجزائر في نظر استيفان غزال عرفت أنواعا من سوء الحظ، فقد كانت سيئة الحظ لأنها لم تتمكن من تمثل القيمة الحضارية للاحتلال الروماني، و سيئة الحظ حين أقبلت على الإسلام و خضعت للغزو الهلالي، كما كانت سيئة الحظ حين تحولت إلى قاعدة للقرصنة العثمانية، و قد تأسف بقوله " أن الرومان قد أخطأوا عندما لم يحولوا السكان في شمال إفريقيا إلى مسيحيين لاتينيين" .

يذكر سعد الله أن هؤلاء المؤرخين حاولوا أن ينالوا من رسالة الإسلام في الجزائر، و أن دخوله إلى الجزائر كان عامل وحدة خالد فيقول عن ذلك: " فقد منح الإسلام للجزائريين العقيدة التي وحدت سلوكهم و اتجاههم و اللغة التي وحدت تفكيرهم و شعورهم، و الإيمان الذي وحد حركتهم و إنفعالهم، كما غرس فيهم مبادئ التضحية و الحرية و الإيثار، و بالتالي فقد أعطى الإسلام للجزائريين حضارة كاملة تقوم على العربية كوسيلة تفكير و تعبير، و على الدين كطريقة حياة و سلوك، و لم يتقبل الجزائريون هذه الحضارة فقط بل أسهموا مساهمة فعالة في تقويتها و تمكينها"[1].

كما ذهب المؤرخون الفرنسيون إلى إنكار وجود شعب و أمة جزائرية قبل الإحتلال الفرنسي و ما وجدوه قبائل متناثرة متنافرة، و أنها لم تجد أرضاً معمورة مُدافعاً عنها و لكنها وجدت أرضاً سائبة من حق كل أمة أجنبية أن تحتلها، فالمؤرخ سودرون.ج يزعم بأن الجزائر عام 1830م، لم تكن تشكل دولة، فما بالك

[1]- أبو القاسم سعد الله، "منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر"، مجلة الأطالة، الجزائر، العدد 14-15، 1973، ص16.

بأمة و أنه لم يكن لها حدود، ونفس الزعم يردده أرون الذي يقول بأن " الجزائر حين وصل الفرنسيون، لم تكن قطرا مستقلا" [1].

إن هذا الإدعاء المغرض يناقض الحقيقة التاريخية، ذلك أن فرنسا نفسها قد أقامت مع الدولة الجزائرية علاقات ديبلوماسية، وخاضت حروب معها، و أمضت معها إتفاقيات و معاهدات منذ القرن السادس عشر، وكذا فيما يخص الحدود، فإن نظرنا إلى خريطة الدولة الجزئرية قبل 1830م، تكفي لبيان أن الجزائر تحت فرنسا قد حافظت على نفس الحدود من جميع الإتجاهات ما عدا من الجنوب حيث كانت الصحراء غير واضحة الحدود.

ويضيف المؤرخ جوليان أن هذه القبائل الجزائرية أو الإتحادات القلبية لم تكن تعرف فكرة القطر الواحد التي تشكل قاعدة الأمة، "و هو يزعم بأن فكرة "الضمير المشترك" بين الجزائريين كانت مفقودة في عهد تحالفهم مع الخلافة[2]. و عليه فإن جوليان يرى بأن " الدولة الجزائرية الحديثة لم تكن إلا بالإسم فقط"، و سعد الله من خلال هذا يرد على المؤرخ جوليان و يؤكد أنه يجب توضيح معنى كلمة الدولة الجزائرية خلال هذه الفترة (1516-1830) " أنه ظهرت إلى الوجود دولة جزائرية تقوم على الوحدة الجغرافية و السياسية و الإقتصادية للبلاد، بالإضافة إلى الوحدة الفكرية و الروحية التي قامت منذ الفتح الإسلامي، كما كانت هذه الدولة مؤيدة من طرف أغلب سكان الجزائر و معززة بجيش بري و أسطول بحري و ذات علم و برلمان و نقد و عاصمة و في نفس الوقت كان للدولة الجزائرية تقاليدها العرفية و الدبلوماسية حسب القانون الدولي المعمول به آنذاك".

والحق أن المؤرخين و المثقفين الفرنسيين أنفسهم قد اعترفوا بوجود الكيان الجزائري، فالمؤرخ بو غافاريل قد قال بأن فرنسا كانت تحارب في الجزائر " أمة" مدفوعة بالدين والوطنية يقول " ان الحرب قد أعلنت ضد أمة كاملة مدفوعة بعصبية ثنائية: الوطنية و الدين ". ويقول المؤرخ ب. ل.بوليو ان فرنسا قد استحوذت عام 1830م، على بلاد مرعية ومحمية ومسكونة بعدد كبير من المخاربين وبسكان لا يستسلمون،

[1]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ص 73.

[2]-أنظر، أبو القاسم سعد الله، " شارل أندري، جوليان و التاريخ الجزائر"، مجلة المعرفة الجزائرية، الجزائر، العدد19، ماي – جوان 1965، ص16.

فالسلالة الجزائرية بناء على رأيهم كانت قد نشأت هناك منذ قرون، متمتعة بحضارة متقدمة و مجتمع منظم، مع عاطفة واضحة بشخصيتها[1].

ويضيف سعد الله أن الدولة العثمانية كانت في هذا الصدد تعمل لمصلحة الجزائريين فقد أخذت على عاتقها الدفاع عن ترابهم الوطني ومعتقداتهم و نظمهم السياسية و كانت إلى جانب ذلك تعقد الصفقات و المعاهدات الدولية باسمهم و تسن القوانين و التشريعات بإرادتهم، فذلك فإن هذه الدولة كانت في الأصل موجودة بإسمهم، و إذن فقد كانت "جزائرية" بكل معنى لهذه الكلمة على الأقل في لغة العصر الذي كانت فيه.

و إذا كان منطق جوليان غريباً فيما يتعلق بجزائرية الدولة الجزائرية، فإن منطقه يظهر أكثر غرابة حين يتناول فكرة ظهور الوطنية الجزائرية، فهو يعزي الثورات التي كانت تقع في عهد التحالف بين الجزائريين و الخلافة كانت تساعد على تقريب الجزائريين من بعضهم بعض "ولكن هذه العاطفة الذاتية لم تتخذ في وقت من الأوقات شكلا قوميا"[2].

من الواضح أن جوليان يتحدث هنا عن الفكرة القومية في الفترة (1516-1830م)، ولكن من المعروف تاريخيا أن القومية بمعناها الحديث لم تظهر إلا في القرن الماضي، وسعد الله يؤكد أن العاطفة الذاتية التي يتحدث عنها جوليان كانت قد توضدت بين الجزائريين نتيجة الوحدة الفكرية و الروحية التي ترعرعت فيهم منذ الفتح العربي الإسلامي في الجزائر، وفيما يخص عدم اتخاذ هذه العاطفة شكلا قوميا أي انفصاليا إقليمياً، فإن سعد الله يرجع ذلك إلى عاملين أساسيين: الأول أن الجزائريين كانوا و مازالوا عربا مسلمين وهم يعرفون أنه لا قومية في الإسلام و لا إقليمية في العروبة، و الثاني أن التجربة العالمية القومية بمفهومها الحديث برهنت على أنها لم تتخذ "الشكل القومي"، إلا إذا كان هناك خطر خارجي على العاطفة الذاتية الجزائرية، إذن لم تتحول إلى شكل قومي في عهد تحالف الجزائر مع الخلافة دليلا على أن الجزائريين لم يشعروا بخطر خارجي على ذاتيتهم و على مقوماتهم الوطنية.

و في موضع آخر فإن جوليان نفسه يعترف بهذه الحقيقة فهو يقر بأن العاطفة الذاتية لدى الجزائريين قد تحولت "بعد زمن طويل من النضج إلى ضمير قومي" ، و قد كان ذلك بناء على رأيه نتيجة للإستعمار

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 2، 71.

[2]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء...، ج1 ،المصدر السابق ص 67.

الفرنسي الذي كان يشكل في نظر الجزائريين خطراً خارجياً على ذاتيتهم لذلك أظهروا تلك الذاتية في شكل قومي عنيف ثائر، أي حركة إنفصالية عن فرنسا الأجنبية، " لا عن الحضارة العربية الإسلامية، التي لا تنفصل أبداً في مفهوم الجزائريين"[1].

و قد حرص رواد المدرسة التاريخية الفرنسية المعاصرون و المحدثون عل إبعاد العنصر الوطني عن المقاومة الجزائرية فهؤلاء المؤرخون يعزون شدة مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي لا إلى الروح الوطنية، و النفور من الحكم الأجنبي و إنما لضيق الأفق و التعصب الديني، و هذا ما أشار إليه ستيفن غزال، و هذا الحكم الذي تبناه المؤرخون الفرنسيون يهدف في المقام الأول على إفراغ المقاومة الوطنية، من محتواها و أهدافها الوطنية، و ذلك بوصف الجزائريين بالتعصب الديني و العرقي فهم في ذلك لا يستطيعون أن يتعايشوا مع الأجانب الأوربيين المسيحيين و لذلك كانوا يثورون بإستمرار و الدليل في إدّعائهم هو كثرة رجال الدين الذين يرتمون في هذه الثورات و يقودونها و يدعَمونها.

و هي دعوى باطلة بالأدلة التاريخية القاطعة، لأن الجاليات الأوربية المسيحية كانت تقطن و تعيش بالجزائر قبل حملة 1830م بقرون عديدة في أمن و سلام و منها الجالية الفرنسية التي تمركزت بالقالة و عنابة منذ تأسيس مراكز صيد المرجان الفرنسية بساحل القالة، و كانت تمارس نشاطها الديني و الاقتصادي بكل حرية طالما إحترمت قوانين البلاد و أعرافها .

كما أن الجزائريون الذين رفعوا السلاح لمقاومة العدوان الأجنبي لم يفعلوا ذلك باسم التعصب الديني و لكن باسم الشرف الذي أهين و الأملاك التي أغتصبت و المساجد التي ديست و الثقافة التي أُنتهكت كما يوضح ذلك سعد الله، و بالتالي فإن أولئك الجزائريين كانوا يحاربون باسم الوطنية لأن هذه في حقيقتها هي الشرف و الملكية و الدين و الثقافة، يقول سعد الله عن ذلك: " ولو فرضنا أن الفرنسيين المعتدين قد إعتنقوا الإسلام، فهل كان الجزائريون سيكفون عن محاربتهم؟ بالطبع لا ذلك أنهم (الفرنسيون) لم يجيئوا مسالمين بل معتدين، و من هنا كانوا، في نظر الجزائريين أجانب لا مواطنين، و المؤرخ المنصف لا يسعه إلى أن يعترف بأن الدين قد لعب دوراً هاماً في حياة الحركة الوطنية الجزائرية، و لكن الذي لا يسعه الاعتراف به هو تفسير هذه الحركة على أنها كانت تعصباً دينياً أو مرابطية"[2].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء...، ج1، ص68.

2- نفسه، ص 76.

و يضيف المؤرخون الاستعماريون أن فكرة الوطنية و الدافع الوطني بعيد عن الجزائريين فهؤلاء يثورون إلا عندما يشتد عليهم الفقر و الجوع و الخصاصة، أما عندما تتحسن أوضاعهم الاقتصادية و ينمو ثراؤهم و غناهم فإنهم يخلدون إلى الهدوء و السكينة ويرضون بحكم الأجانب لهم، و هو إدّعاء إستعماري خطير تبناه معظم من كتبَ عن ثورات الجزائر أمثال: "لويس رين، وروبين، وشاتولي، ولوسياتي، وهيربيون، وبول أزان، و فيرو، و ترومليي، و لاباسي وماقون، وبيليسيه[1]، وغيرهم.

كما يضيف هؤلاء أن هذه الثورات اندلعت بسبب إيحاءات و إيعازات من الخارج من طرف قوة أجنبية فاتهموا المقراني و الحداد و الأمير عبد القادر بعمالتهم للألمان و الدولة العثمانية، و إتهموا الشريف بوشوشة وبن ناصر بن شهرة و الشريف محمد بن عبد الله بعمالتهم للسنوسيين...الخ، و هي نفس الإدعاءات التي حاول الفرنسيون أن يلصقوها بثورة أول نوفمبر 1954م عندما ادعوا أن متزعميها فلاقة وقطاع طرق خارجيون عن القانون.

و على أساس هذا الزعم و تلك الإدعاءات أعدوا مشروع قسنطينة الإقتصادي ليقضوا به على الثورة على أساس أن أسبابها إقتصادية و إجتماعية، و لكن الثورة كذبت إدعاءاتهم بهذا الخصوص و أثبتت للعالم أجمع أن قضية الإستقلال الوطني هي أهم أسباب هذه الثورة و كل ثورات الجزائر الأخرى قبلها و التي كانت طوال القرن التاسع عشر، و قد لعب الدين فيها كلها دوراً فعالاً بإعتباره إحدى الركائز الكبرى القومية للشخصية الوطنية الجزائرية[2].

و لم يكتفِ المؤرخون الفرنسيون من الحط من القيمة العامل الوطني في المقاومة الوطنية، بل تعداه لتشكيك في وطنية العديد من الشخصيات الوطنية و على رأسها الأمير عبد القادر ذلك أن الكتابات التي كتبها الفرنسيون عن الأمير عبد القادر كثيرة، و لكنها لا تخرج في أغلبها عن الحط من دوره الوطني، و جعله شخصاً "متعصباً دينيا في البداية و صديقا لفرسنا في النهاية "، و هذا الموقف يلخصه كتاب بول أزان (Azan)، المسمى " الأمير عبد القادر من التعصب الإسلامي إلى القومية الفرنسية"، و الغريب أن مؤرخاً مثل

---

[1]- **بيليسي(ت 1958)**: أشتهر بكتابته (الحوليات الجزائرية) في جزئين، وبعد أن تولى عدة وظائف في الجزائر، عين قنصلا لبلاده في طرابلس و هايتي وغيرهما . انظر ابو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء...،ج4، السابق المرجع، ص 26.

[2]- يحي بوعزيز، "حروب المقاومة بالجزائر كما صورتها الكتابات الفرنسية"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، العدد 5، 1988م، ص ص(161-162).

جورج إيفير (Yver.G) الذي تناول الأمير و عصره في عدة مناسبات يقول عن الأمير عبد القادر أنه لم يكن بطل جنسية عربية في الجزائر لأنها لم توجد، و لم يكن سياسياً مجدداً يهدف إلى إدخال الحضارة الأوربية على مواطنيه الذين كانوا (نصف برابرة)، و لكنه كان مرابطاً طموحاً أراد أن يحل نفسه محل الأتراك، و إستغل لتحقيق ذلك الهدف غفلة الفرنسيين و نسبه الشريف و شجاعته الشخصية"[1].

و يضيف إيفـــــــير أن الأمير عبد القادر قلد الأتراك في إدارتهم لأنها كانت للأهالي فملأ خزانته بالمال مثلهم و أعتمد على الحكم بالقوة، و قد أخذت فرنسا هذا النظام أيضاً و طبقته على الأهالي و لكنها جعلته أكثر إنسانية، و ينهي ايفير حكمه على الأمير بقوله أنه لم يأخذ من الحضارة الأوربية الوسائل المادية التي تجعله يتخلص بالسهولة من أعدائه المسلمين و المسيحيين على السواء.

و لم يكن بول أزان و أندري وجوليان أقل قسوة في الحكم على الأمير من إيفير فأندري جوليان قد سار في نفس الخط الذي انتهى به إلى التشكيك في وطنية خوجة، وبوضربة، و غيرهما، فرغم أنه لم يعمد إلى إتهام الأمير مباشرة، و ذلك أنه كان عميلا لفرنسا و لكنه نسب إليه ما ينتهي إلى نفس النتيجة "...فهو (جوليان) يزعم بأن الأمير قد وعد فرنسا بعدم رفع السلاح ضدها، و أنه (الأمـــــير) قد خاب أمله في المغرب العربي حتى أنه حين أعلن الجزائريون الثورة مرة أخرى بقيادة المقراني طلب الأمير منهم أن يلقوا السلاح". و الغريب أن جوليان في كتابه لم يذكر المصدر الذي جاء منه بهذا الرأي الخطير.

و جوليان إكتفى بالتركيز على الجانب العسكري من نضال الأمير و إهمال الحديث عن مساهمة الأمير في إنشاء أول حكومة ديمقراطية جزائرية، و عن دوره السياسي و الدبلوماسي، ولا نشاطه و تأثيره في الحياة العربية و الإسلامية في المشرق، فكأن علاقة الأمير بالجزائر إنتهت بإلقائه السلاح، و يؤكد سعد الله في هذا الأمر "أن الحركة الوطنية الجزائرية قد إستفادت من جهاد الأمير العسكري كما غنمت من نشاطه السياسي و الفكري في أوربا و المشرق" [2].

إن إدعاءات و تشكيك المؤرخين الفرنسيين لم يطل الشخصية و الرموز الوطنية فحسب، بل تعداه لتشكيك في قيمة المصادر الأهلية، و اتهموها بالتجريدية و المبالغة، بل نادى بعضهم بعدم الإعتماد عليها، فقد دعى وليام مارسي(Marcais) إلى الإعتماد في كتابة تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني على المصادر الأوربية

[1]- يحي بوعزيز ، المرجع السابق، ص164.

[2]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء...، ج1 ،المصدر السابق ص 74.

و وثائق الأرشيف الرسمية و التجارية و هو في هذا يقتدي برأي دي ســـلان (Deslane) الذي شككّ في صحة أخبار العرب عن المغرب، و وافقه في هذا الإدعاء أيضاً استيفان غزال حيث قال عن العهد الإسلامي (من الفتح العربي إلى 1500) أن الباحث فيه يدخل في ظلام دامس" لعدم وجود الوثائق الصحيحة و المعاصرة" وقد وقف إستيفان غزل نفس الموقف من المصادر الأهلية خلال العهد العثماني، فقال أن المؤلفين العرب لم يكتبوا عن السادة الأتراك و علاقاتهم بالأوربيين و السلطان، لذلك رأى أيضاً الإعتماد لدراسة هذا العهد على الأرشيفات الأوربية، و الأرشيف التركي و الرحلات الأوربية، و لم يشذ المؤرخ دي غرامون (De grammont)، عن هذا الحكم، و الذي رفض في كتابه عن تاريخ الجزائر العثمانية الإعتماد على المصادر الأهلية لعدم الثقة فيها.

ومع هذا الموقف المجحف من المصادر الأهلية، فإن سعد الله يستغرب ترجمتهم للآثار و الوثائق العربية، يقول في ذلك: " فإن الفرنسيين قد عملوا على ترجمة الآثار العربية عن الجزائر في شتى العصور، ولا يكاد يوجد مخطوط رحلة أو وثيقة أو مجموعة رسائل أو سجلات حكومية، إلا ترجموهما كاملة أو مجزأة". و لم يكتف الفرنسيون بما قام به مترجموهم في نشر الدراسات الإسلامية العربية عن الجزائريين، بل ترجموا دراسات بعض المثقفين الجزائريين منهم (تاريخ بشوات الجزائر) لإبن المفتي، و (الزهرة النيرة) للتلمساني، و (الحلل السندسية) و (عجائب الأسفار) لأبي رأس الناصري، و (رحلة الباي محمد الكبير) لإبن هطال...الخ. بالإضافة إلى العديد من الوثائق و الرسائل و الشعر الملحون، و كتب الفقه و النحو و الأصول[1].

وإن كان بعض المؤرخين الفرنسين من أمثال المؤرخ كات قد علق على وضعية هاته المصادر مؤكداً على بديهية ظلت غائبة في العديد من الدراسات الفرنسية حول الجزائر بقوله: "لقد أصبح التاريخ اليوم تراعي فيه الرغبة في البحث مع مراعاة الحقيقة و البحث عنها، و عدم إهمال ذكر المصادر المعتمدة "، و قد عقب الأستاذ منتران (Mantran) كذلك عل نقص المساهمة الفرنسية بقوله: " لا يمكن كتابة تاريخ حقيقي للجزائر في القرون التي عاشتها تحت الحكم التركي إلا بالرجوع إلى الوثائق الأصلية التي ظلت ناقصة"[2].

1- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وأراء...، ج1، ص ص (27-28).

2- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص49.

1- تقييم أبوالقاسم سعد الله للمساهمة الفرنسية:

يتضح مما سبق أن الفرنسيين كانت لهم مساهمة كبيرة في جمع المادة التاريخية، حيث تناولوا تقريبا كل فرع من فروع المعرفة الخاصة بتاريخ الجزائر، و لهم دور كبير في حفظ المادة التاريخية من التلف، إلا أنه ما يمكننا القول عن هؤلاء الكتاب و الباحثين أنهم لم يكونوا مؤرخين بالمعنى الاختصاصي الدقيق للكلمة ذلك أن معظمهم كان من الهواة و من كتاب الثقافة العامة و الانطباعات و المذكرات و التقارير الرسمية، و قد رأينا أنهم في الفترة الأولى كانوا ضباطاً عسكريين يجمعون بحماس شديد كل ما تقع عليه أيديهم من مصادر مكتوبة و شفوية، ومن آثار قديمة و حديثة، و هدفهم من ذلك الوصول إلى فهم السكان الذين يحكمونهم و ليس هدفاً علمياً.

و نفس القول ينطبق على كتاب العهد الثاني، (المؤرخون الإختصاصيون)، فإذا إستثنينا بعض المؤرخين الذين تميزت كتاباتهم بالتحليل و النقد و المقارنة، فإن معظم الذين يطلق عليهم (مؤرخو الجزائر)، لم يكونوا في الواقع مؤرخين و إن كانوا باحثين بالمعنى الواسع للكلمة كما يؤكده سعد الله يقول عن ذلك: " خذ مثلا إيميل قوتي الذي كتب تاريخ الإستعمار الفرنسي حتى سنة 1930م، أنه لم يكن مؤرخاً بالمعنى الدقيق بل كان كاتباً عاماً في قضايا الإستعمار و المستعمرات، و كان أساس إهتمامه الجغرافية و طبقات الأرض و نحو ذلك"[1].

و حتى الأستاذ جوزيف ديبارمي (Desparmet.J) الذي كتب كثيراً عن عادات و تقاليد الشعب الجزائري، أنه لم يكن مؤرخاً أيضا و إنما اهتم أثناء تدريسه بالبليدة، بالنواحي الفولكلورية الجزائرية، فركز على هذا الجانب و جمع منه مواد كثيرة في العقائد الشعبية و الخرافات و نحوها. إلا أن خلاصة القول في تبني هؤلاء البحث التاريخي و ما بذلوه من جهود في هذا المجال هو خدمة المصالح الإستعمارية، لكي تسيطر على مقاليد السلطة بالجزائر، و الدعاية للثقافة و الوجود الفرنسي بين الجزائريين من جهة و بين الأجانب من جهة أخرى[2].

من خلال ذلك حاول سعد الله تقييم أعمال المؤرخين الفرنسيين بالجزائر بإبراز النواحي الإيجابية و السلبية في إسهاماتهم، و يمكن إجمال الجانب الإيجابي في هذه المساهمة فيما يلي:

---

[1]- أبو القاسم سهد الله، أبحاث و آراء..، ج1، المصدر السابق، ص35.

[2]- نفسه، ص36.

أ- جمع المادة التاريخية: حيث توصلوا إلى جمع آثار و مخطوطات ووثائق كثيرة عن الجزائر و حفظهما في المتاحف و المكتبات و الأرشيفات، و إن كان الاستحواذ على هذه الوثائق في الغالب بطرق غير شرعية مثل الوسائل التي استعملها بربروقجي (Berbrugger) في حيازة حوالي 800 مخطوط أثناء مصاحبته للفيلق الثاني الذي دخل مدينة قسنطينة غازيا سنة 1837م، أو التي تستر وراءها البارون دوسلان (le baron de slane) أثناء زيارته للكثير من المكتبات الخاصة بقسنطينة و إطلاعه على أكثر ودائعها، فبفضل نفوذ السلطات الفرنسية الحاكمة بقسنطينة تمكن دوسلان من الإنتفاع من مكتبه، سيدي حمودة من عائلة بن الفقون التي كانت تضم ما يزيد عن 2500 مجلد، و مكتبه، و باش تارزي التي كانت تحتوي على 500مجـــــــلد[1].

كما تذكر بعض المصادر أن الجزائريين كانوا يضطرون إلى بيع مخطوطاتهم و آثارهم و تحفهم أثناء شهر رمضان الذي تكثر فيه المطالب الإقتصادية، و كان بعض الأهالي و تحت ضغط من سلطات المكاتب العربية يقدمون ما عندهم، و لعل بعضهم كان يفعل ذلك تملقا و تقرباً أيضاً، و هكذا توفرت للباحثين الفرنسيين العسكريين مصادر أهلية استفادوا منها كثيراً في حكمهم على الشعب الجزائري.

ب- إستخدام تقنيات البحث الحديث، من حيث تصنيف المادة حسب الإختصاص و التقيد بالفهارس و التبويب و الكاتالوق، و التنظيم الأبجدي و مصطلح الفترات الزمنية و التصدير و ما إلى ذلك.

جـــ- تنشيط الدراسات التاريخية و تشجيع الإنتاج التاريخي: و ذلك بإنشاء الجمعيات العلمية و تشجيع الباحثين على عقد اللقاءات و المؤتمرات التي يكتشفون خلالها عن اكتشافاتهم و يتبادلون الخبرات و المعلومات و يوثقون الصلات فيما بينهم، كما كانت الجامعات و المعاهد الفرنسية في فرنسا تساهم هي الأخرى بإمكانياتها البشرية و العلمية و المعنوية في دفع عجلة البحث الذي يقوم به الفرنسيون بالجزائر، و كانت الحكومة الفرنسية أيضاً تغطّي نشاطهم و تفتح أمامهم مجالات العمل، و تشجع على عمل اللجان و تُحيي مغامرات الأفراد من أجل البحث لأنها في الواقع هي المستفيدة في نهاية المطاف[2].

ويدخل في نطاق تنشيط الدراسات التاريخية إنشاء بعض الصحف كالمرشد الجزائري و الأخبار (1839م) و المبشر (1847م) التي كانت تنشر ما توصلوا إليه من نتائج و ما جمعوه من مواد، و كذا تكوين جمعيات قصد العمل على نشر الإنتاج التاريخي مثل الجمعية التاريخية الجزائرية Société)

[1]- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص45.

[2]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء، ج1، المرجع السابق، ص-ص 23-24.

(d'histoir Algérienne، بوحي من الحاكم العام للجزائر، الجنرال راندون (Randon). ومنذ ذلك الحين دأبت هذه الجمعية على إصدار المجلة الإفريقية (Revue afrircaine) التي ظلت تزخر بالعديد من المقالات و الدراسات و الوثائق، كما شاركت هذه الجمعية في عقد العديد من اللقاءات و المؤتمرات و المجامع التاريخية[1].

د-نقد المصادر و الوقوف منها موقف الشك و التحفظ : و هذه النقطة و إن كان لها محاسنها، إذا نظرنا إليها كظاهرة من ظواهر البحث الحديث، إلا أننا نجدهم قد طبقوها خصوصاً على المصادر العربية الإسلامية فأصبحت كأنها ظاهرة غير علمية في هدفها رغم أن أساسها علمي واضح، فإستخدام منهجية البحث أضر بها في الكثير من الأحيان بسب موقف الشك الذي وقفه الكُتاب الفرنسيون إزاء كثير من المصادر العربية إلا أن ما يحسب لهؤلاء أنهم قد نشروا بعض الآثار العربية الإسلامية في لغتهم، و أحيانا في نصها الأصلي و بذلك ساعدوا على بقائها و مكنوا الباحثين منها[2].

أما الجانب السلبي للمساهمة الفرنسية فنجملها في النقاط التالية:

أ- نلاحظ أن الكُتاب الفرنسيين من خلال دراستهم المغرضة حاولوا التعرض إلى كل الموضوعات تقريباً ما عدا المجتمع الجزائري، الذي لم يسلموا بوجوده، و اعتبار الجزائر منطقة فراغ حضاري تفتقر إلى وجود شعب متماسك و أمة متكاملة فبهذه النظرة لم تكن الجزائر تعدو كونها منطقة جغرافية يتعاقب عليها الحكام، و تنتقل عبرها القبائل المتناثرة و العشائر المتنافرة و الجماعات المتطاحنة التي لا تخضع إلا للقوة. هذه هي فلسفة الفرنسيين في كتاباتهم لتاريخ الجزائـــــر.

ب- إن أغلب الدراسات التاريخية التي تمت على يد المؤرخين الفرنسيين تعتبر دراسات مغرضة، فهي تهدف إلى خدمة الإستعمار الفرنسي في مجال التاريخ بحيث أخضعت منهجية التاريخ و متطلبات البحث إلى واقع الإحتلال و مرامي السياسة الإستعمارية مما يحط من القيمة العلمية، لمثل هذه الدراسات و يترل بها في بعض الأحيان إلى مستوى الدعاية المغرضة، و نستطيع القول أن هؤلاء المؤرخين كانوا أصوات السلطة العسكرية خلال الفترة الممتدة من (1830-1871م) و أصوات الإدارة خلال الفترة المدنية الممتدة من (1871-

[1]- ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، المرجع السابق، ص96.

[2]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء..، ج1، المصدر السابق، ص36.

1954م)، و هذه التبعية للسلطة قد أعمتهم عن الحقيقة و جعلت أعمالهم التاريخية تفتقد روح البحث المجرد و أصبحت تتميز بالطابع الرسمي الضيق.

و هذه الظاهرة جعلتهم يركزون في كتاباتهم على التاريخ الإقتصادي و الإداري و العسكري جريا وراء الإستعمار و الإدارة (عسكرية و مدنية)، و تحركات الجيش و قواده، فإذا ما تناولوا قضية دينية أو قبلية أو نحو ذلك فإنما ذلك من أجل محاولة السيطرة على أصحابها كما فعل دونوفو (Deneveu) بالنسبة للطرق الصوفية مثلاً، وبذلك أهمل تاريخ الجزائريين السياسي و الثقافي و الإجتماعي.

جـــ- إهتم الفرنسيون بالعهد من (1830-1954م) و كتبوا عن رجاله و سياستهم و تغير الحكومات الفرنسية و أثر ذلك على الجزائر و عن الهجرات الأوربية ...الخ . و يأتي في المرتبة الثانية من إهتمامهم بتاريخ الرومان في الجزائر، تاريخ المسيحية، فيها و أخيرا تاريخ البيزنطيين، أما تاريخ العرب و المسلمين تاريخ العهد الذي تحرر فيه السكان من القيود الأجنبية و أصبحوا فيه أحراراً يؤسسون إماراتهم ويديرون شؤونهم بأنفسهم فقد ظل عهدهم "عهد غامضاً"، حسب تعبير قوتيه، و كذلك فعلوا مع العهد العثماني في الجزائر[1].

فالجزائر بهذا المفهوم كان ينظر إليها على أنها جزء من الغرب اغتصب وافتك من طرف الشرق في مناسبتين: الأولى عند فتح الإسلامي (القرن 7م) و الثانية مع ظهور الأتراك و تأسيس دولة الجزائر (القرن 16م). ولقد بلغت هذه الأحكام المتحيزة أوجها مع الذكرى المنوية للإحتلال (1930م) عندما إنعقد في الجزائر المؤتمر الوطني الفرنسي الثاني للعلوم التاريخية تحت شعار تبرير الاستعمار و التأريخ له و العمل على إنجاحه و استمراره بكل الوسائل، و بذلك ضحّى المؤرخ الفرنسي في الجزائر بقيم البحث و أخلاقياته في سبيل مصلحة استعمارية و قضية سياسية غير عادلة.

د- و نضيف مأخذا آخر على المساهمة الفرنسية وهو أن الدراسات التاريخية حول الجزائر ظلت في أغلبها عملا يتصف بقلة العمق و سرعة الأحكام وسطحية التفسير، و هي في هذا الجانب نجد أغلبها تتناول كثير من الموضوعات ولكن بصفة عامة بحيث ظلت هذه الموضوعات، و حتى المتأخرة منها تفتقر إلى العمق المطلوب في الدراسة التاريخية الجادة.

ومن الملاحظ أن هذا الوضع الذي كانت تعاني منه كتابات الفرنسيين حول تاريخ الجزائر قد دفع ببعض المؤرخين إلى تسليط النقد الجارح على بعض الأعمال التاريخية، حيث علق المؤرخ كات على تأليف

[1]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء..، ج1، ص37.

كامي روسي(Camille Roseet) بهذه العبارة " لقد شعرنا بخيبة أمل من نوعية الدراسة التي قدمها السيد (كامي روسي) المنتسب إلى الأكاديمية الفرنسية، إذ بعد مدة طويلة قضاها في تحضير تاريخ احتلال الجزائر فإنه لم يقدم سوى شتاتاً تاريخياً مقتبساً في أغلبه من كتب بيليسي و رانيو و نيتمان، مع كون مهمته كمحافظ لأرشيف وزارة الحرب تسمح له بالإطلاع على هذا النوع من الدراسات"[1].

فمن خلال ما سبق؛ فإن سعد الله يؤكد أن جوانب النقص في عمل المدرسة الإستعمارية لا تنفي قيمة الأعمال التي أنجزتها بصفة مطلقة و يمكن نقول أنها تركت لنا رصيداً لا يستهان به من الدراسات حول تاريخ الجزائر، و هذا في حد ذاته يشكل مساهمة معتبرة في إثراء المعرفة التاريخية خلال فترة الاحتلال هاته، و نضيف إلى هذه الانجازات الكمية الهائلة للمادة الوثائقية المحفوظة، إلا أن نقص المساهمة الفرنسية في كثير من الجوانب خصوصا الجوانب الإجتماعية و الثقافية، و توظيفهم التاريخ في خدمة مصالحهم، قد غطى على قيمة هاته الأعمال، و لهذا السبب و مثله رفض سعد الله الإعتماد بشكل كلي على كتابات هؤلاء رفضا مطلقا من جهة، و من جهة أخرى لطالما دعى المؤرخين الأكاديميين لإعادة النظر في ما كتبه هؤلاء و جمعوه حول تاريخنا لتحريره من إملاءات المدرسة الفرنسية، و كتابة تاريخنا بأقلام وطنية تتوخى الموضوعيه في أعمالها، و بالتالي وضع حجر الأساس لمدرسة تاريخية جزائرية .

و الحق أن عملية تحرير التاريخ عملية شاقة، لأنها تتطلب كفاءات ذات قناعة و إدراك عميق بخطورة المسؤلية التاريخية الملقاة على عاتق الجيل، و تأتي الأعمال التي قام بها مؤرخنا في مجال الكتابة التاريخة لسد هذا الفراغ، و محاولة التأسيس لمدررسة تاريخية جزائرية، و خاصة فيما يتعلق بالجانب الثقافي من تاريخنا الذي يقول عنه :" و كان الهدف هو إنتاج عمل يكشف عن مساهمة الجزائر في الثقافة العربية الاسلامية و الإنسانية عبر العصور، ذلك أن رواد المدرسة الإستعمارية الفرنسية قد بثوا طيلة احتلالهم للجزائر بأنه لم يكن للجزائر ماضي سياسي و لا ثقافي"[2].

و سعد الله في هذا المجال، بالرغم من معرفته الواسعة و إطلاعه الكبير حول ما دون عن تاريخ الجزائر بأقلام وطنية، و كانت له المساهمة الكبيرة في ذلك، و لكنه ظل يؤمن أن هذا العمل كله هو في طريق تراكم المعرفة التاريخية، و المحاولات التي لا ترقى لتأسيس مدرسة تاريخية جزائرية واضحة الأهداف و المعالم والمنهج،

[1] – ناصر الدين سيعيدوني، ورقات جزائرية، ص49.

[2] حنيفي هلايلي،"أبو القاسم سعد الله بين إزدواجية التأليف والترجمة"، مجلة عصور، المرجع السابق، ص 263

و إعتبر ما أنجز في هذا المجال هي أعمال ضمن مرحلة من ردود الأفعال على المدرسة التاريخية الفرنسية التي طالما استأثرت بالكتابة في تاريخ الجزائر، و بالتالي فالمرحلة الحالية مرحلة جدل و حوار و ردود أفعال على الكتّاب الفرنسيين بالدرجة الأولى، و قد شاركه زميل الدرب الأستاذ سعيدوني في هذا الخصوص في " أنها لا ترقى لمصاف مدرسة تاريخية جزائرية لكونها لا تجمع عدد من الباحثين الذين يشتركون في المنهج والخصائص وطبيعة الإنتاج مما يرسم ملامح مدرسة واضحة "[1].

[1]– مقابلة شخصية مع الأستاذ ناصر الدين سعيدوني، بمنزله بالعاصمة يوم الثلاثاء 2017/1/24م

الفصل الخامس

أبو القاسم سعد الله

محققا ومترجما

أولا: أبو القاسم سعد الله محققا

ثانيا: أبو القاسم سعد الله مترجما

أولا:أبو القاسم سعد الله محققا:

1: تحقيق المخطوطات (المصطلح و المفهوم)

أ – تعريف التحقيق:

لغة : التحقيق أصله في اللغة من حق الشئ إذا ثبت صحيحا، فالتحقيق: إثبات و إحكامه، و تصحيحه[1]، و حققت الأمر أو أحققته إذا تحققته وصرت منه على يقين[2].

أما **المدلول الاصطلاحي**: فقد وردت فيه عدة مفاهيم إخترنا منها:

– ورد في معجم مصطلحات المخطوط أن التحقيق هو: " إخراج نص معين في شكل اقرب ما يكون إلى الصورة التي تركها عليه مؤلفه، اعتمادا على المقارنة بين كل النسخ التي بقيت من الكتاب[3].

– و عرفه عبد السلام هارون بأنه : " بذل عناية خاصة بالمخطوطات حتى يمكن التثبت من استيفائها شرائط معينة[4].

ب– تعريف المخطوط:

لـــغة: كلمة مخطوط مشتقة من الفعل خط يخط خطاً أي كتب أو صور اللفظ بحروف هجائية[5]، و يعرفه المعجم الوسيط بـــ " المخطوط هو المكتوب بالخط لا بالطبعة، و جمعه مخطوطات و المخطوطة النسخة المكتوبة باليـــد".[6]

---

[1]–الصادق بن عبد الرحمن الغرياني، تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث، بيروت: منشورات مجمع الفاتح،1989،ص 7

[2]– اسماعيل الجوهري، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار، ج 4، ط4، بيروت لبنان: دار العلم للملايين، 1990م، ص 1461.

[3]– شوقي بنين ومصطفى طوبي، معجم مصطلحات المخطوط العربي، الرباط: الخزانة الحسنية، ص 74.

[4] – عبد السلام هارون، تحقيق النصوص ونشرها، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998، ص 42.

[5]– بطرس البستاني، محيط المحيط،ج10، بيروت: مكتبة لبنان، 1870م،ص563.

[6]–نقلا عن السيد السيد النشار، في المخطوطات العربية، الإسكندرية: دار الثقافة، 1997م، ص05.

إصطلاحا: وردت في التعريف الإصطلاحي لكلمة مخطوط عدة مفاهيم وهناك إجماع بينها على أن المخطوط هو " الكتاب المكتوب بخط اليد لتميزه عن الخطاب أو الورقة أو أي وثيقة أخرى خاصة تلك الكتب التي كتبت قبل عصر الطباعة "[1].

إذن؛ فالمخطوط هو كل ما وصل إلينا مكتوباً بخط اليد في أي علم من العلوم، أو في فن من الفنون، و تكون كتابة المخطوط قد تمت قبل الإنتشار الفعلي لأدوات الطباعة الحديثة، فالمخطوطات هو الكتاب الذي كتب أو خط باليد خلاف الكتاب المطبوع الذي أنجز باستعمال الآلة الطباعة.

و هناك من يضع شروطاً يجب توفرها في المخطوط منها أنه لا يمكن قبول إستعمال لفظ مخطوط إلا إذا ألحق بكلمة كتاب فيقولون الكتاب المخطوط لأنه حسب نظرهم ليس ما كتب باليد يعتبر بالضرورة مخطوطاً، فشواهد القبور و ما نوقش على الأحجار و الصخور لا يمكن إعتبارها مخطوطات، و أن يكون مخطوط باليد، فالمرقون و المطبوع لا يعد مخطوط، و يشترط البعض عمر إفتراضيا للمخطوط يزيد عن 150 سنة حق نقول عنه مخطوط،[2] و تزداد أهمية المخطوط بقدر ما كان قديما، و بقدر المادة و المعلومات التي يحتويها.

و عادة ما يقترن لفظ التحقيق بالمخطوطات أو بلفظ النصوص أو التراث، فيقال تحقيق النصوص أو تحقيق المخطوطات أو تحقيق التراث، و من تم فتحقيق المخطوط يعني أن يظهر المحقق متنه بصدق و أمانة كما وضعه مؤلفا كماً و كيفاً بقدر الإمكان، و ليس معنى تحقيق المخطوط الإرتقاء بأسلوبه، و تلخيص عباراته و فقراته بأن يختار المحقق أسلوبا غير أسلوب المؤلف مثلاً، أو يضع كلمة مكان أخر بدعوى أنها أبلغ أو أجمل و ليس من حقه أيضا أو يوجز في عبارة المؤلف أو غير ذلك، لأن تحقيق المتن أو النص أمانة في الأداء تقتضيها أمانة التاريخ و أمانة العلم.[3]

ج- أنواع المخطوطات:

تنقسم المخطوطات من حيث طبيعتها إلى ستة أقسام:

---

[1]- السيد السيد النشار، في المخطوطات العربية، الإسكندرية: دار الثقافة العلمية، 1997م، ص05

[2]- مبارك جعفري، "التراث الوطني المخطوط وأهميته في الكتابة التاريخية عند الدكتور أبو القاسم سعد الله،" أعمال الملتقى الدولي أو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكر...، المرجع السابق، ص227.

[3]- فهمي سعد، طلال مجذوب، تحقيق المخطوطات بين النظرية و التطبيق، بيروت: عالم الكتب، 1993، ص18.

– **المخطـــــــوط الأصل**: وهو المخطوط الذي كتب بخط مؤلفه، فيكون صحيح النسب، سليمة مادته من الشك لإستقامة الملامح المادية للمخطوط من عنوان الكتاب، و إسم مؤلفه، و جميع مادة الكتاب.

– **المخطوط المنسوب**: و هو المنسوج عن المخطوط الأصل، و هو بنفس الدرجة من الصحة و الأهمية، إذا تم التأكيد من صحته بالمقابلة مع المخطوط الأصل.

– **المخطوط المبهم**: و يعرف أيضا بالمقطوع أو المعيب، ، لإفتقاده لأحد عناصره الأساسية، كفقدان بعض أوراقه، أو قد يكون فيه محو، أو تقديم و تأخير و غيرها من العيوب، و لا بد من تصحيحه بتحليل جميع حروفه بالمقابلة مع المخطوط الأصلي.[1]

– **المخطوط المرحلي**: نقصد بالمقصود المرحلي هو الذي يؤلف على مراحل، فيؤلف أول مرة على شكل، و ينشر بين الناس، ثم يضيق المؤلف أشياء لم تكن في المرحلة الأولى، و قد تكون هناك نسخة ثالثة من المؤلف تزيد على ما في المرحلتين السابقتين، و كمثال على ذلك كتاب وفيات الأعيان لأبن خلكـــــــان.

– **المخطوط المصور**: و يتعلق هذا النوع بالجوانب الفنية بشكل خاص، ففي كثير من الأحيان نجد مخطوطات مصورة، و دراسة هذا النوع من المخطوطات يتطلب خبرة فنية لمعرفة ما تحتويه الصورة من لمسات فنية و تعبيرات كتابية.

– **المخطوط على شكل مجاميع**: توجد مخطوطات كثيرة تدخل ضمن إسم مجموع أو مجاميع و قد يكون المجموع مجلداً يضم عدد من المؤلفات الخطية أو الأجزاء الصغيرة أو الرسائل في هذه الحالة يجب إعتبار كل مؤلف أو رسالة أو جزء في المجموع مخطوط قائم بذاته.[2]

تظل المخطوطات بكل أنواعها إرثاً حضارياً هاماً ما إنفكت الدراسة التاريخية، تنهل من غزير مادته، فهي سبيل الى إدراك الذاكرة التاريخية و الحضارية، و الثقافية و الوقوف على ما تركه سلفنا في مختلف العلوم و الفنون. وقد أقدم أبو القاسم سعد الله على تحقيق وتنقيح العديد من الدراسات، ومن خلال ما سبق ذكره سنحاول التعرف على جهوده في التعريف بالتراث المخطوط، و ما مدى إلتزمه بالمنهج العلمي في تحقيقها ؟

[1] – بوقاعدة البشير، المخطوط الجزائري و دوره في الكتابة التاريخية، مجلة رفوف، العدد3، 2013، ص219.

[2] – فؤاد محمد خليل، المخطوطات العربية، فهرستها علميا و عمليا، عمان: دار جرير للنشر و التوزيع، 2006، ص31.

2 -: جهوده في الكشف والتعريف بالتراث المخطوط:

إن رحلة مؤرخنا في البحث و التنقيب عن كنوز التراث الجزائري لم تكن سهلة، إذ أن جمع هذا الكم الهائل من الوثائق و الرسائل، قد أخذ منه فرائد وقته و أزهي أيام عمره صائلا و جائلا إلى جهات مختلفة، فعملية البحث هاته لم تقتصر على دور الأرشيف و الخزائن الوطنية، بل يجب التأكيد أن هذه العملية قد شملت زيارة العديد من الأماكن كان لازما الإشارة إليها قبل الحديث عن جهوده في التعريف بالتراث المخطوط، لمعرفة مدى جسامة العملية التي أفنى محققنا عمره من أجلها، و عند ذكر رحلات سعد الله لا بد من التَأكيد على أن الهدف الأساسي منها كان في أغلب الأحيان البحث عن المخطوطات الجزائرية.

و أكثر الأماكن التي كان يزورها هي الخزائن، وفي هذا كانت له زيارة إلى **المغرب** سنة 1973م، بحكم ثراء هذا البلد بالتراث الجزائري المخطوط، و لكون الكثير من العلماء الجزائريين قد انتقلوا الى حواضر المغرب كفاس و مكناس، ومراكش، ومن الأماكن التي زارها هناك ' الخزانة العامة ' في المكتبة الوطنية بالرباط، و التي قضى بها معظم وقته و وجد فيها ثروة لا تقدر بثمن بعضها كان قد تعرف عليه لأول مرة، و زار أيضا ' مكتبة الطالب لعبد القادر المكناسي' و ' الخزانة الملكية ' بالرباط[1].

و الرحلة أيضا كانت فرصة للقاء العديد من الباحثين ذوي الإختصاص من أمثال الأستاذ إبراهيم الكتاني و الأستاذ عبد الكريم كريم، و الأستاذ عبد السلام الفاسي و الأستاذ عباس الجراري..الخ. و جميع هؤلاء أصحاب خزائن و لهم باع طويل في مجال المخطوطات، و قد قدموا جميعاً مساعدات جلية لمؤرخنا في رحلة بحثه هذه، و الرحلة التي دونها سعد الله في كتابه تجاربه في الأدب و الرحلة قد ذكر فيها العديد من المخطوطات التي عثر عليها هناك و لا يسع الحديث جميعا لذكرها و نشير فقط إلى أنه قد جمع رحمه الله عليه من هذه الرحلة ما ضاقت الرحلة عن إستيعابه و غنم ما يحتاج إلى مُؤلف مستقل بحد ذاته.

و كانت له أيضاً زيارات عديدة إلى **فرنسا** و خاصة المكتبة الوطنية في باريس، كون الإستعمار الفرنسي قد أخذ الكثير من المخطوطات الجزائرية الى فرنسا، و عثر هناك على مخطوطات لا تعد و لا تحصى من بينها مخطوط " الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني" لإبن سحنون، و مخطوط "لسان الفلك" لمحمد بن عيسى المرصاوي...الخ.

[1]- أبو القاسم سعد الله، تجارب في الأدب و الرحلة، المرجع السابق ص 209.

وكان **لتركيا** أيضاً حظ وافر من هذه الزيارات للبحث في أرشيفها عن تراث الجزائر و كل ما له علاقة بتاريخها، حيث كانت له زيارة الى مكتبة " الحاج محمود أفندى" بالمكتبة السليمانية[1] في إسطنبول، و"مكتبة 'طبكابي' هذه الأخيرة التي عثر فيها على النسخة المسروقة من "تحفه الزائر في مآثر الأمير عبد القادر و أخبار الجزائر" إذ يعود الفضل لمؤرخنا في إكتشافها، و بالتالي أضاف مصدر جديداً و غنياً بالوثائق حول حياة الأمير عبد القادر.

كما كان أبو القاسم سعد الله كثير التردد على **مصر** " بحكم موقعها العلمي و الثقافي في العالمين العربي و الإسلامي، و بحكم أنها كانت ملاذاً للكثير من العلماء الجزائريين الذين استقروا بها بصفة مؤقتة أو دائمة أو الذين درسوا بجامع الأزهر كما أنها كانت محطة مهمة لركاب الحجيج"، و بالتالي تواجد عدد كبير من المخطوطات و بما أن دراسة مؤرخنا قد كانت بالقاهرة، و بالتالي كان على إطلاع واسع عما تضمنته مكتباتها، و قد تمكن سعد الله من العثور على كثير من المخطوطات منها "رسالة الشيخ عبد الرحمان الثعالبي في الجهاد"، "و مخطوط معالم الإستبصار" لمحمد بن علي الشلاطي... و غيرها[2].

أما **أمريكا** فكانت ملازماً لخلوته البحثية، فقد كان كثير التردد على جامعاتها متفرغاً من جامعة الجزائر كأستاذ باحث إلى غاية سنوات عمره الأخيرة، و قد إستغل وجوده هناك و حصل على كثير من المخطوطات الجزائرية في مكتباتها منها مكتبة جامعة برنستون التي وجد بها مخطوط " رسالة الغريب إلى الحبيب لأحمد أبو عصيدة البجائي" و مكتبة الكونغرس على مخطوط "معالم الاستطار بتفصيل الأزمان و منافع البوادي و الأمطار" لإبن علي الشلاطي. و مجموعة وثائق عن الجزائر وجدها بمكتبة جيمس فورد بيل (j.f.bell) بجامعة مينيسوتا[3].

وفي مجال المخطوطات أيضاً كانت له زيارات إلى مكتبات ودور الوثائق **بألمانيا و بريطانيا**، و **تونس** و **السعودية**، و غيرها من البلدان، و حسْبنا ما أشرنا إليه، و ذلك لمعرفة عناء و مشقة العمل الذي كابده مؤرخنا في البحث و التنقيب عن التراث الجزائري، و كتابه تاريخ الجزائر الثقافي مرآة عاكسة لما أنشده في هذا المجال من مخطوطات، فهو عالم لا يشق له غبار في منهج كتابة التاريخ و خدمة التراث و التعامل معه، و نحن من خلال هذه الإطلالة حول رحلاته العلمية من أجل رصد التراث المخطوط ما هو إلا تأكيد على الهمة و

[1]- أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج3، ص 234.

[2]-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 الصدر السابق، ص409.

[3]- للمزيد انظر، ابحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج3، ص 173.

النفس الطويلة في العمل لمحققنا، لأن إنجازاته في هذا المجال تعجز عنها العصبة من الرجال، بل و مؤسسات بحثية بأكملها أنجزها هو بمجهوداته الفردية!!!.

و قبل الحديث عن جهود أبو القاسم سعد الله في تحقيق النصوص التراثية و إخراجها، سنحاول التعريج على جهوده الجبارة في الكشف عن العديد من المخطوطات، فكثيراً ما كانت تقع بين يديه وثائق نادرة في موضوعات تاريخية و أدبية خلال بحثه في دور الأرشيف و المكتبات و الخزائن، و لإستحالة دراسة هاته الوثائق دراسة علمية دقيقة لكثرة مشاريعه و أبحاثه، فكان سعد الله ينشر ما تيسر له منها مكتفيا بتعليق بسيط وتقديم قصير تاركا فهم العصر و دراسة المؤلف و تحليل النص و إصدار الأحكام إلى حينها، أو التعريف بها، و وضعها أمام الباحثين للإستفادة منها، و سنحاول التطرق إلى نماذج من جهوده في هذا المجال ولتنوع موضوعات هاته النصوص سنحاول تقسيمها إلى 3 أقسام وهي كما كما يلي:

2-1: مخطوط الرحلة: تعد كتب الرحلة من بين أهم المصادر التاريخية التي تؤرخ لمختلف جوانب الحياة السياسية و الإقتصادية و الثقافية و الإجتماعية و الدينية...الخ. لأن صاحبها يروي لنا مشاهداته و ملاحظاته حول المناطق التي زارها و عاينها أثناء الرحلة و قد كان للدكتور سعد الله الفضل في الكشف عن الكثير من الرحلات خاصة في العهد العثماني، نذكر من بينها:

رحلة البوني المسماة ' الروضة الشهية في الرحلة الحجازية' لصاحبها 'أحمد بن قاسم بم محمد ساسي البوني' وتعتبر هذه الرحلة اليوم مفقودة، إلا أن سعد الله يؤكد على قيمة هذه الرحلة وأهميتها كما جاء على لسان إبنه المعروف بأحمد الزورق البوني بقوله " فعليك به (يعني التأليف) فإن فيه طرفا و ظرفا". و تمكن أهمية الرحلة في أن البوني قد حج و تجول بالمشرق حسب ما ذكر في مصادر أخرى، ولا شك أنه وصف فيها الحياة و أنماطها هناك كما شاهدها هو بنفسه و ذكر العديد من شيوخه...الخ. إلا أن ضياعها قد حرمنا من معرفة ما إحتوت عليه بالضبط.

و هناك رحلة أخرى كتبها المفتي أحمد بن عمار الجزائري المسماة (نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب)، و قد قسم إبن عمار رحلته هذه الى ثلاثة أقسام : مقدمة و عرض مقصود (و هو الرحلة) و خاتمة. و في المقدمة – و هي القسم الموجود و المطبوع أيضا من هذه الرحلة – وصف إبن عمار أشواقه الى الحرمين و إلى الرسول و تحدث بالمناسبة عن شعر الموشحات المولدية و المدائح النبوية و عادات أهل الجزائر أثناء الإحتفال بالمولد النبوي. و قد تناول في القسم الثاني، أي الغرض المقصود عن رحلته من الجزائر عبر تونس و

طرابلس و مصر و الحجاز . كما أن الخاتمة التي جعلها 'فيما نشأ عن ذلك (يعني السفر) بعد السكون وانضم إليه' إلا أن هذان القسمان مفقودان.

و أيضا كشفه رحلة بعض العلماء منها رحلة عاشور بن موسى القسنطيني ، حيث شد الرحال لطلب العلم في عدة بلدان و طالت غيبته عن بلاده نحو عشرين سنة، أين سمحت له بالاطلاع و الملاحظة و حذق لهجات و معرفة قبائل و شعوب و بلدان، و من هذه البلدان التي قصدها تلمسان و المغرب الأقصى و تونس .

علاوة على هذه الرحلات، كشف الأستاذ سعد الله عن رحلات مدونة شعرا منها ما نظمه عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي رحلته من مجاجة الى مكة المكرمة في قصيدة مطولة فصيحة سنة 1063م. مطلعها على النحو التالي:

نشق الفيافي فدفدا بعد فدفد جبالا و أوعاراً و ارضاً وطية

و في هذا المجال يضيف أبو القاسم سعد الله عن الرحلة الشعرية بأن الجزائريين لم يدونوا رحلاتهم الشعرية باللغة العربية الفصحى فحسب، و إنما إستعان البعض منهم بالشعر الملحون أيضا، و لنذكر في هذا الإطار قصيدة لـــ 'محمد بن مسائب التلمساني في القرن الثاني عشر، فقد نظم قصيدة قص فيها رحلته من تلمسان إلى مكة المكرمة عبر مدن و قرى الجزائر من غربها الى شرقها مرورا بطرابلس فمصر، حيث وصف فيها الأماكن التي مر بها سواء المؤدية الى الحجاز أو داخل الجزيرة العربية.

2-2 : الرسائل و الوثائق:

أ- **رسائل الشيخ عبد الرحمان الثعالبي في الجهاد**: من بين المخطوطات الجزائرية التي يعود الفضل لأبي القاسم سعد الله في الكشف عنها هي رسالة الشيخ الثعالبي في الجهاد، و قد عثر عليها في دار الكتب المصرية، ضمن مخطوط جزائري يعود تاريخه نسخه إلى القرن 18م، و قام بنسخها ' يخلف ابن محمد' و الرسالة موجهة إلى 'محمد بن أحمد بن يوسف الكفيف'، الذي كان تلميذاً للثعالبي أو أحد من أتباعه المقربين، و تمكن أهمية الرسالة في كونها تكشف النقاب عن موقف الثعالبي من أحداث عصره السياسية، أو إبراز الدور السياسي للثعالبي، فالرجل يعرفه الكثير كرجل دين و إصلاح و زهد وتصوف، بينما تبرز الرسالة دور غير معرف بنظرنا و هو كعالم جهاد أو زعيم سياسي.

ورسالة الثعالبي في الجهاد هذه تكشف عدة أمور تستحق الدراسة و هي موقفة من أحداث عصره، و دعوته الجهادية في ظل الخطر الصليبي في مدينة بجاية، كما تكشف من جهة أخرى خبرة الثعالبي الدقيقة بشؤون الأسلحة الموجودة في عصره و كيفية إستعمالها، كما تسلط بعض الأضواء على عصره من الوجهة السياسية و الإجتماعية[1].

ب – الكشف عن وثائق خاصة بثورة الأمير عبد المالك الجزائري: من بين المخطوطات التي كشف عنها الأستاذ سعد الله هي الوثائق الخاصة بثورة 'عبد المالك الجزائري' ابن الأمير عبد القادر في المغرب 1914-1924م، وقد وجدها عند ابنه 'الأمير حسن' أثناء زيارته لسورية في صيف 1968م، حيث أجرى معه مقابلة عن ثورة والده في المغرب، و الوثائق عبارة عن ستة رسائل للأمير عبد المالك و قصيدة شعرية، إحتوت على معلومات مهمة عن حروب الأمير عبد المالك و مفاوضاته مع الفرنسيين من جهة، و من جهة أخرى تكشف عن علاقاته بأصداقائه (العثمانيين و الألمان) و بأعدائه (الفرنسيين)، و الوثائق المشار إليها مرتبة كما يلي.

– رسالة من الأمير عبد المالك إلى أخيه الأمير علي بتاريخ 16 نوفمبر 1914م، بالعربية.

– رسالة من الأمير عبد المالك إلى ابن أخته سيدي مصطفى بتاريخ 4 صفر 1334هـ (1915م)، بالعربية.

– رسالة من ممثلي الدولتين العثمانية، و الألمانية بمدريد بتاريخ 25 مايو 1916م بالعربية.

– شعر للأمير عبد المالك إلى أسرته الأمير عبد القادر بالشام، بتاريخ 14 ربيع الثاني 1338هـ (1919م) بالعربية.

– رسالة من خليل حذي قائم بأعمال الدولة العثمانية بمدريد إلى الأمير عبد المالك، بتاريخ 10 ديسمبر 1920م بالفرنسية.[2]

جـ– وثيقة تونسية لابن مرزوق التلمساني: لم يكتف سعد الله بالكشف و التعريف بالوثائق التي تتعلق بالثقافة الجزائرية فحسب، بل نجده يشير إلى عديد الوثائق التي كان يعثر عليها وتخص مورث ثقافي لدولة أخرى، و في

[1]– أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج2، المصدر السابق، ص201.

[2]– أبو القاسم سعد الله، "وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب، " المجلة التاريخية المغربية، العدد1، جانفي1974م، ص-ص(52-54).

هذا نجده يعرف بوثيقة تونسية، ' لإبن مرزوق التلمساني' الذي زار تونس سنة 828هـ، و قد وجد نص الوثيقة في مكتبة السيد ' الصادق قطايم الملاك' بمدينة قمار، و هي مذكورة في آخر نسخة خطية في (شرح جوهرة التوجيه) 'لإبراهيم اللقاني الملكي المصري'، و هي وثيقة مهمة للمهتمين بحياة ابن مرزوق، كما أن المهتمين بالعلاقات العلمية بين مثقفي الجزائر و تونس سيجدون فيها دليلاً آخر على رسوخ العلاقات بين القطرين.

و نجده أيضا يكشف عن مخطوط آخر ليبي بعنوان "ري الغليل في أخبار بني عبد الجليل" لمحمد بن عبد الجليل الفزاني وهو يقع في 103 صفحة، و المخطوط لا يضم فقط تاريخ أو أخبار بني عبد الجليل،كما يشير عنوانه و لكنه يتناول موضوعات شتى،كما نلاحظ أن أكثر من نصفه تقريباً مخصص لأخبار القطر الجزائري.

و من خلال ذلك نلاحظ أنّ اهتمام أبو القاسم سعد الله بالكشف و التعريف بالمخطوطات لم يقتصر على المخطوطات المتعلقة بتاريخ الجزائر فحسب، بل تعداها إلى التعريف و الإشارة الى عدد كبير من المخطوطات المغاربية و العربية النادرة للباحثين المهتمين في هذا المجال خدمة منه للتعريف بالتاريخ العربي الإسلامي، و هناك العديد من الوثائق التي قام الأستاذ سعد الله بالتعريف بها و حسبنا ما أشرنا من نماذج لهاته الوثائق و التي كان يصادفها في بحثه عن المخطوطات.

2-3:التعريف بالمؤلفين الجزائريين و تتبع آثارهم:

لم يكتف سعد الله بالكشف و التعريف بالمخطوطات الجزائرية، بل ساهم أيضاً في التعريف بالمؤلفين الجزائريين و تتبع آثارهم و التعريف بها للقراء، خصوصاً أن التعريف بهؤلاء، ظل مغموراً و ظلت مؤلفاتهم حبيسة المكتبات، و من هنا أسهم سعد الله بعمل كبير في تتبع آثارهم و إبراز إسهاماتهم الفكرية و العلمية، و إبراز دورهم الريادي في العديد من القضايا كإبن العنابي الذي على حد قوله سبق علماء العربية و الإسلام في طرح قضية التجديد و الإصلاح الاجتماعي و السياسي، إلا أن جهل الجزائريين بعلمائهم جعل المؤرخين المشارقة ينسبون ذلك إلى علمائهم، و هذا ما حدى بالأستاذ سعد الله إلى التعريف بهم و ذكر إسهاماتهم " فليس للجزائر أن تفتخر إلا بقائمة الشهداء الطويلة لأن لها أيضا في قائمة العلماء و المثقفين مفخرة !!! ".

و سنحاول الإكتفاء بثلاثة نماذج في هذا المجال و يتعلق الأمر بكل من إبن العنابي و أبي ابن الناصر، و إبن الفكون:

أ- **عبد الكريم الفكون**: (**1580-1662م**): هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحي الفكون، من عائلة أشتهرت بالعلم و الصلاح، أنجبت الكثير من العلماء منهم 'عبد الكريم الفكون' الجد الأول إمام و خطيب الجامع الكبير بقسنطينة، و ابن الحكم العثماني أول من تولى وظيفة القضاء، في نفس العهد من عائلته وهو ' قاسم الفكون ' و أول من تولى ركب الحجيج هو مترجمنا، و قد ظلت الوظائف الثلاثة تتوارث في العائلة إلى لغاية دخول الفرنسيين لقسنطينة سنة 1838م، و قد جمع مترجمنا بين الوظائف الثلاثة.

و قد أفرد سعد الله دراسة خاصة عنوانها "شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية "، و قام أيضا بإخراج و تحقيق كتابه منشور الهداية في حال من أدعى العلم و الولاية[1].

عاش مترجمنا خلال القرن 11هـ/17م، في الوقت الذي اشتدت فيه القطيعة بين العالم الإسلامي و العالم الأوربي، و أزدهر فيه التّصوف المزعوم و الدروشة و الأمية و التخلف العقلي في المجتمعات الإسلامية، في هذا الوضع كان الفكون سابقا لعصره في الثورة على التخلف الذي أصاب المجتمع الإسلامي، و لو وَجد الفكون حكاماً مخلصين و علماء متنورين، و شعباً واعياً لأحدث حركة اجتماعية وسياسية و عقلية ذات أبعاد عظيمة، و لسبقت حركته ما عرفه العالم الإسلامي من حركات إصلاحية، و سلفية في آخر القرن 19/18م، و هو ما حذى بمؤرخنا بالتعريف بهاته الشخصية و بدورها و تتبع آثارها، إذ ترك الفكون مؤلفات كثيرة سعى الأستاذ سعد الله في الكشف و التعريف بها في كتابه الذي خصه به منها:

- منشور الهداية في كشف حال من أدعى العلم و الولاية.
- محمد السنان في نحور إخوان الدخان.
- ديوان شعري في المديح النبوي.
- فتح اللطيف في النحو و الصرف.
- نظام الدرر على شرح المختصر ...الخ.[2]

---

[1]- الفكون عبد الكريم ، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله ، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011، ص 7 وما يليها.

[2]- للمزيد أنظر، أبو القاسم سعد الله، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون داعية السلفية الجزائر،الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص-ص(145-146).

ب- محمد بن العنابي (1189هـ -1267هـ): وهو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري، وشهرته العنابي أو ابن العنابي و أسرته عريقة في تاريخ الجزائر، أنجبت الكثير من العلماء و تولي أفرادها الكثير من الوظائف منهم جده محمد بن حسين العنابي مفتي الحنفية في الجزائر... إلخ، درس على يد والده و جده و مفتي المالكية ابن عبد القادر بن الأمين و غيرهم من مشايخ الجزائر، و تقلد عدة مناصب منها القضاء الحنفي في عهد الداي' أحمد باشا (1805-1808م)' و في عهد الداي 'على' و الدي 'حسين'، و كان مبعوثا دبلوماسيا و سفير لعدة دول حينها، كما ولاه محمد علي باشا والي مصر قضاء الحنفية في مدينة الإسكندرية بعد نفيه من الجزائر من طرف الإحتلال الفرنسي [1].

أفرد الأستاذ سعد الله لهاته الشخصية دراسة كاملة بالاعتماد على كتابة (السعي المحمود في نظام الجنود)، و لعل سبب إهتمام سعد الله بهاته الشخصية هو الإجحاف الذي وقع في حق هذا الرجل، فإبن العنابي من أوائل العلماء الذين طرحوا قضية التجديد في النظم الإسلامية، أوائل القرن 19م قبل أن يطرحها كل من الطهطاوي و الأفغاني و محمد عبده، إلا أن كتابه الذي ظل محفوظاً في مكتبات مصر و إسطنبول بقي الرجل و عمله غير معروفين للباحثين.

و ما يهمنا هنا هو التراث المخطوط الذي خلفه ابن العنابي و تتبعه سعد الله في الجزائر و مصر و إسطنبول و غيرها من دور الأرشيق منها عثوره على كتابة (السعي المحمود في نظام الجنود) في المكتبات المصرية، و هي النسخة التي اعتمدها سعد الله في دراسته لهاته الشخصية، و التعريف بها، و بآثارها، بالإضافة إلى كشف العديد من المؤلفات التي قام ابن العنابي بتأليفها نذكر منها:

- صيانة الرياسة ببيان القضاء و السياسة.
- بلوغ المقصود في إختصار السعي المحمود.
- شرح كتاب الدار المختار.
- التحقيقات الاعجازية بشرح نظام العلاقات المجازية.
- العقد الفريدة في التجديد.
- لمعان البيان في بيان أخذ الأجرة على القرآن.
- مجموعة فتاوى في مسائل مختلفة.

[1]- للمزيد أنظر، أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي، الجزائر، دار عالم المعرفة، 2011، ص ص(22-23).

- مجموعة أشعار وتقاريض و نصوص أدبية...إلخ.[1]

جـ- أبو راس الناصر (ت1823م): من العلماء الذين كشف عن مساهمتهم في الحركة الثقافية عامة والكتابة التاريخية بوجه خاص هو (أبي راس الناصر) و هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد الناصر الجليلي المعسكري المعروف بأبي راس الناصر، هو من العلماء الجزائريين الذين أكثروا من الترحال و الكتابة، حيث كان كثير الإطلاع إذ يعتبر من أهم المؤلفين في الجزائر العثمانية، فقد كتب في التفسير و الأسانيد و المذاهب و التوحيد و النصوص و النحو و البيان و المنطق و اللغة و الأدب ...وغيرها ، فتنوع موضوعات كتبه يدل على تنوع ثقافته و غزارة مادته و قد أماط سعد الله اللثام عن هاته الشخصية، وكشف عن مؤلفاته و مخطوطاته منها:

- زهرة الشماريخ في عالم التاريخ.
- در السحابة فيمن دخل المغرب من الصحابة.
- درء الشقاوة في حرب درقاوة.
- الوسائل في معرفة القبائل.
- الحلل السندسية في شأن وهران و الجزيرة الأندلسية.
- حلتي و نحلتي في تعداد رحلتي.
- فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته.
- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار.
- ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس.
- الزمردة الوردية في الملوك الوردية...الخ.[2]

3:جهوده في إخراج و تحقيق التراث المخطوط: :

إن تحقيق مخطوط قديم عمل فني وهادف في نفس الوقت، فهو عمل فني لأنه يقوم على قواعد أساسية ويتطلب مهارة و إخلاصاً و تجرداً، و قليل من الناس فقط يستطيعون القيام بهذه المهمة الشاقة الدقيقة، فكونه

[1]- أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي، المصدر السابق، ص ص (12-13).

[2]- للمزيد أنظر، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، ج1، المصدر السابق، ص-ص (91-92).

عملاً هادفاً فلأن بعث المخطوط يخدم فكرة، و بالتالي مصلحة وطنية و إنسانية، و لعل هاته من الحالات النادرة التي يجمع فيها المرء بين إخلاصه لفنه و إخلاصه لهدفه الإنساني.

و الذين يعرفون الأستاذ سعد الله يدركون ما أعني، فقد بذل أنفس أوقات عمره معتنيا بمخطوطات علماء الجزائر، إما دراساً أو محققاً أو معلقاً عليها، وقد أسفرت محاولاته الجادة في تحقيق 7 مخطوطات نفيسة سنحاول التطرق من خلالها إلى جهوده في إخراجها و تحقيقها:

أ- منشور الهداية في كشف حال من أدعى العلم و الولاية :

مُؤلَّف منشور الهداية هو لعبد الكريم الفكون، يذكر المحقق أن المؤلِّف ألف الكتاب على فترات في شكل مذكرات، و يستدل سعد الله على ذلك، لما يوجد به من تكرار و إستطراد مواضيع متداخلة في الموضوع الواحد، ثم الإنقطاع و العودة إلى الموضوع من جديد و كثرة التراجم التي تعرض إليها، و لم ينته من تأليفه إلا في سنة 1635م و هي السنة التي توفي فيها والده.

يحتوي الكتاب على معلومات هامة حول الحياة الإجتماعية في الإقليم القسنطيني بما فيها من علاقات العائلات بعضها ببعض و علاقة هذه العائلات بالسلطة المحلية و الوطنية، و المناصب المفتوحة أمام العلماء، و الوظائف المخزنية و نحوها، و هو بهذا الصدد يذكر الفتن التي شهدتها المدينة و امتحانات السلطة للعلماء و أرباب الوظائف، و يحوي كذلك إشارات هامة لصلات بين المدينة و الريف، و كذا الحديث عن بعض علماء المغرب و علماء تونس و المشرف في الجزائر.

و قد قسم الفكون عمله الى مقدمة و ثلاثة فصول و خاتمة، فجعل الفصل الأول للحديث عن العلماء و الحكام الذين لقيهم و سمع عنهم، أما الفصل الثاني فقد خصصه للمتشبهين بالعلماء، و أما الثالث فقد تحدث فيه عن المبتدعة الذين أطال في الحديث عنهم، و الخاتمة كانت عبارة عن فصل رابع تحدث فيه عن تسميتهم إخوان العصر، أي أولئك الذين عايشهم وعاصرهم من العلماء و الحكام.[1]

وقد بذل الأستاذ سعد الله جهداً كبيرً من أجل تحقيق و إخراج هذا العمل، فبرغم أنه حققه من نسخة وحيدة مصورة عن نسخة الشيخ 'المهدي البوعبدلي' و ' الشيخ حبة' إلا أن تحقيقه كان عملا جليلا إذ حاول سعد الله جاهداً الوصول إلى نسخة أخرى من المخطوط فسعى حثيثاً بالبحث و التنقيب على المؤلفات التي

[1]- عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص 15و مايليها.

نقلت عن الفكون في منشوره حتى يتسنى ربما الوصول الى نسخة لكنه لم يوفق و رغم أن الحظ لم يحالفه فإنه استطاع أن يتتبع مجمل من له دراية به أو كتب أو نقل عنه، فكان ذلك وجهاً آخر من أوجه التفاني التي تميز بها محققنا في تحقيقه لهذا المؤلف.[1]

و هكذا بعد جهد مضن و شاق، و رغم كل العراقيل و كل المثبطات التي وقفت حجر عثرة، إلا أنه لم يضق ذرعاً بذلك و استطاع إتمام المهمة و بنجاح، و هو ما عبر عنه " و هكذا كانت حصيلتي من كل الجهد نسخة مصورة من منشورة الهداية، هي نسخة المهدي البوعبدلي و نسخة أخرى مصورة أيضا هي نسخة الشيخ حبة...و إننا نرجوا أن نكون بإقدامنا على نشره رغم كل المثبطات، قد أدينا خدمة للمؤلف"[2].

ب- كتاب لسان المقال في النبأ عن النسب و الحسب و حال، أو المسماه (رحلة ابن حمادوش):

الرحلة من تأليف عبد الرزاق بن محمد المعروف بإبن حمادوش، تعتبر الرحلة من المصادر المهمة للتعرف على الحياة السياسية و الاجتماعية و الثقافية، للجزائر و المغرب في القرن 12هـ/18م، كما أنها مصدر مهم لحياة المؤلف نفسه، بعد أن ضاعت مؤلفاته الأخرى فهي مرآة حياته و نشاطه وتفكيره، كما أنها فن نادر من نوعه في أدب الرحلة الجزائري، إذ لم يبق لنا الزمن سوى عدد ضئيل جداً من الرحلات الجزائرية التي تعود إلى العهد العثماني.

و يشهد على أهميتها إهتمام الكثير من المؤرخين الأوربيين أمثال لوسيان ليكيرك و غبريال كولان، وكذا جواخير دي جونزاليز الذي ذكره من بين مصادره الأساسية في رسالته المعروفة بإسم "مشاهير مسلمي مدينة الجزائر"، كما كانت شخصية ابن حمادوش محل إهتمام مؤرخين مغاربة أمثال 'الكتاني' في فهرس الفهارس و 'محمد بن داود' في تاريخ تطوان، و رغم الإهتمام الكبير للمؤرخين و المغاربة و بعض الجزائريين، إلا أن رحلة ابن حمادوش بقية مقبورة مطمورة في رفوف خزائن المخطوطات[3]. و في هذا الإطار كان جل إهتمام مؤرخنا من أجل تحقيق هذه الرحلة رغم توفر الجزء الثاني منها فقط و في نسخة فريدة، حيث عثر عليها في مكتبة الخزانة العامة بالرباط، رغم محاولاته جاهداً للحصول على نسخة أخرى.

---

[1]- عبد الحق شرف، جهود الدكتور أبو القاسم سعد الله في تحقيق التراث،:نماذج مختارة"،مجلة عصور الجديدة، المرجع السابق، ص306.

[2]- عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص24.

[3]- عبد الرزاق ابن حمادوش، المصدر السابق، ص11.

و لم تكن المهمة سهلة على مؤرخنا، إذ كانت الحصيلة عشر سنوات من البحث و التنقيب و التحقيق، و هو ما عبر عنه عند طبع الكتاب لأول مرة سنة 1983م " لو قيل لي عن التعب الذي سيصادفني من جراء تحقيق هذه المخطوطة قبل الإقدام عليه لما صدقته أو لما أقدمت عليه أصلا و على كل حال فقد أصبحت لا أغبط المحققين للنصوص القديمة، تحقيقا علمياً لأنهم بدون شك يعانون كثيراً و يربحون القليل"[1].

و لعل الصعوبة التي واجهت محققنا في تحقيقه لهاته الرحلة تمكن في أمرين: أولهما تعدد موضوعات نص الرحلة، ذلك أن رحلة ابن حمادوش حوت موضوعات كثيرة غير مترابطة، و هو معطى يحتم على محققها أن يكون مؤرخنا و فقيها و عالم في التوحيد و التصوف و الرياضيات، و الأسانيد و نحوها، و قد كان هذا أكثر ما أرّق مؤرخنا و أتعبه بشكل كبير حيث يعبر عن ذلك قائلا "و كان هذا في الواقع مصدر تعبي الشديد، فقد كان علي أن أعود إلى كتب كثيرة و أن أراسل بشأن مسائل متعددة بعض العلماء في الجزائر و خارجها، و أن أكرر التدقيق و التحري"[2].

أما العامل الثاني فهو عدم توفر نسخة أخرى للمخطوط بالرغم من تأخره في نشره و إستغراقه البحث فيه قرابة العشر سنوات إلا أنه لم يهتد لنسخة أخرى و هو عائق آخر يُضاف إلى سلسلة العوائق و الأعباء التي تحملها المحقق، ذلك أن عملية التحقيق تقتضي الحصول على أكثر من نسخة تفاديا للتصحيف و التحريف، و غير ذلك من مقتضيات التحقيق العلمي الأكاديمـــــــــي[3].

و مع وجود هذا الكم الهائل من الصعوبات التي إعترضت محققنا، و مع ذلك فقط أثمرت محاولته الجادة في إخراج هذا النص و إتاحته للقراء للإفادة منه مع أن عملاً من هذا القبيل ليس متاحاً و لا سهلاً.

ج- كتاب رسالة الغريب إلى الحبيب:

لمؤلفها أبو العصيدة أحمد البجاني من أدباء الجزائر في القرن 9هـــ، يُعد كتابه هذا من نوادر المخطوطات في الأدب و الرحلة، و هو عبارة عن مراسلة مطولة بعث بها من الحجاز إلى صديقه' أبي الفضل المشدالي' الذي كان عندئذٍ بمصر، و فيها تحدث أبو عصيدة عن رحيله من مصر الى الحجاز و أحواله بها و حجاته السابقة و سفره الى تونس و مصر، و إشتياقه الى صديقه المشدالي و معاتبته على عدم الرد، و كل ما

[1]- عبد الرزاق ابن حمادوش، المصدر السابق ، ص19.
[2]- نفسه، ص ص (20-21).
[3]- عبد الحق شرف، المرجع السابق، ص309.

وقع له منذ افترقا من مصر، و تضمنت الرحلة أيضا معلومات عن عائلة المشدالي و مكانتها العلمية ببجاية، و ضمنها كذلك طرائف أدبية و شذرات علمية و وصف كل ما جاء في الرحلة، كما أنه عرض فيها لكتاب آخر له سماه " آنس الغريب و روض الأديب" و هو الآن مفقود[1].

و قد حصل الأستاذ سعد الله على هذا المخطوط من مكتبه جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية سنة 1978م، و لولا جهود أبو القاسم سعد الله في تحقيق هذه المخطوطة لما كان بالإمكان أن نعرف عن البجائي شيئاً، إذ لا نكاد نجد ترجمة لأبي عصيدة البجائي في كتب التراجم و الطبقات، بالرغم من شهرته لدى بعض علماء تونس و مصر و الحجاز و الشام، و مع ذلك لم يترجم مؤرخو الرحلات و الأدب لهاته الشخصية ، و ما كان من معلومات عن حياته و مؤلفات إستقاها سعد الله من النسخة الوحيدة لمخطوط (رسالة الغريب الى الحبيب)، و هو مجهود جبار يضاف إلى رصيد محققنا في نفض الغبار عن التراث العربي الإسلامي للجزائر في مناطق أخرى من العالم [2].

د–كتاب أعيان من المشارقة و المغاربة (تاريخ عبد الحميد بيك):

مؤلف الكتاب هو عبد الحميد بك أحد أعيان مصر خلال القرن (19م/1413ه) يذكر سعد الله أن عنوان الكتاب الغامض كان سببا في الإطلاع عليه ضمن فهرس المخطوطات الشرقية في جامعة ليدن بأمريكا، و المخطوط عبارة عن قاموس أعلام أو مجموعة تراجم و الخاص بأعيان القرن الثالث عشر، و الظاهر أن عبد الحميد قد ألف كتابين أو كتاب واحد في حزئين تناول في أحدهما تراجم أعيان القرن الثاني عشر و في الآخر أعيان القرن الثالث عشر حسب ما جاء في ترجمته لمحمد أمين الزللي حيث قال " ونقلت منه (أي الزللي) جملة من تراجم أعيان القرن الثاني عشر في تاريخي الذي رتبته فيه، و الثالث عشر هذا أسأل الله إتمامه"[3].

كان الجزء الذي بين أيدين أو الخاص بأعيان الثالث عشر، هو عمل غير مرتب و غير تام، لتداخل التراجم، بعضها يقع في عدة صفحات غير مرتبة من الكتاب مع تكرارها في عدة صفحات، و هو معطى حتم على مؤرخنا جمع ما تفرق عن الواحدة في مختلف صفحات المخطوط. و هناك ثانيا بياضات متروكة لبعض

[1]– – أحمد بن أبي عصيدة البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011، ص 15.

[2]– نفسه، ص ص (5-8).

[3]– عبد الحميد بك أعيان من المشارقة و المغاربة، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2004م، ص9.

التراجم قصد تسويدها متى توفرت المعلومات، فكان عمل محققنا التكاملي هو التعليق على ما أمكن من الأعلام و الحوادث و التعريف بها.

و تراجم الأعلام التي وردت في المخطوط ليست خاصة بتراجم المصريين و لا بتراجم المشرقيين، بل شمل مجموعة من أعيان العالم الإسلامي مشرقه و مغربه، و قد أحصى سعد الله عدد التراجم المغاربية فيه فوجد 9 من المغرب الأقصى و 7 من الجزائر و 6 من تونس، و قد إستفادة منه سعد الله كثير في ترجمة بعض الأعلام الجزائرية مثل الكبابطي و ابن العنابي و غيرهم[1].

هـ–كتاب مختارات مجهولة من الشعر العربي:

الكتاب عبارة عن مجموعة من الأشعار اختارها صاحبها المفتي محمد بن علي من أدباء عصره و العصر السابق له، ثم اختارها المفتي أحمد بن عمار من مختارات أستاذه ابن علي، و المخطوط يسمى "أشعار جزائرية مختلفة" تضمنت قصائد لشعراء جزائريين في القرن 17/11م والقرن 18/12م، حصل عليها محققنا بواسطة صديقه الباحث عباس الجراري أستاذ الأدب بجامعة محمد الخامس بالرباط و المخطوط موجود من الخزانة العامة بالرباط.

و قد ظهرت الطبعة الأولى للكتاب بعنوان أشعار جزائرية مختلفة، و حين عزم محققنا على نشرها مرة أخرى إختار لها عنواناً جديداً هو (مختارات مجهولة من الشعر العربي)، إذ ظلت هذه الأشعار لحوالي ثلاثة قرون مجهولة لدى القراء العرب، و هو ما حمل مؤرخنا على دراستها و تقديمها للقراء كشواهد جديدة على رقي الأدب العربي في الجزائر العثمانية – خاصة بسبب النقد الذي يوجهه الكتاب دائما لهذا العهد– و كأداة للباحثين و الدّارسين ليستفيدوا مها في أعمالهم بدل بقائها مطمورة في دهاليز المكتبات.

و بالإضافة الى الأهمية الأدبية للمخطوط فإن له أهمية تاريخية أيضا إذ تضمن المخطوط بعض القصائد تناولت العلاقات بين الجزائر و اسطنبول عندئذٍ[2].

---

[1]–للمزيد أنظر، عبد الحميد بك أعيان من المشارقة و المغاربة، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2004م، ص121.

[2]– للمزيد انظر، أ حمد بن عمار، مختارات من الشعر العربي، تحقيق: ابوالقاسم سعد الله، الجزائر: دار عالم المعرفة ،2011، ص ص(13-14).

و-كتاب حكاية العشاق في الحب و الإشتياق:

الكتاب عبارة عن رواية أدبية تاريخية، لمؤلفها مصطفى باشا، أحد أعيان حضّر مدينة الجزائر و أمرائها في العهد العثماني، و الراوية تروي مغامرات عاطفية جرت بين إبن الملك و زهرة الأنس بنت التاجر، و قد عثر محققنا على المخطوط في المكتبة الوطنية بالجزائر.

و كان الغرض من إخراجها و تحقيقها هو الكشف عن الرصيد الثقافي الأدبي الجزائري، و منها القصة التي بين أيدينا و مقارنتها بالقصص العربية، إذ تعتبر القصة من أوائل الفن القصصي في الجزائر، و حسب رأي محققنا فإنها قصة جديرة بالعناية من الباحثين و الدارسين لوضعها في مكانها من التراث الجزائري الشعبي، من جهة، ومن جهة أخرى فهي متروكة للنقاد لتقييمها من جهة الإنتاج العربي القومي، و قد خرج بعضهم في هذا الإطار برأي مفاده أن رواية حكاية العشاق "تعد أول راوية عربية بالمعنى الحديث أي قبل رواية (زينب) المصرية التي يؤرخ بها النقاد في العادة لظهور الرواية العربية الحديثة و القارق الزمني بين (حكاية العشاق...) و (زينب) أكثر من نصف قرن)"[1].

و كان لمحققنا دور كبير في الكشف عنها، و أبو القاسم سعد الله يؤكد على أن تاريخ الجزائر الثقافي مليئ بالنماذج و الشواهد، مازالت تحتاج الى البحث و التنقيب للكشف عنها و إتاحتها أمام الباحثين للإستفادة منها و دراستها و تقدمها.

ز- كتاب تاريخ العـــــــدواني:

لصاحبه محمد بن محمد بن عمر القسنطيني المعروف بالعدواني و ما يلاحظه القارئ هو أن المخطوط مكتوب بأسلوب يكاد يكون عامياً أو هو أقرب الى العامية منه إلى الفصيح، و هو في طليعة الأسباب التي حذت بالباحثين إلى العزوف عن تحقيقه و إخراجه، رغم تعدد نسخة إذ أحصى الأستاذ سعد الله أكثر من 10 نسخ للمخطوط، هذا فضلا عن قيمته العلمية، إذ يعتبر من المصادر المهمة التي احتوت أخباراً مهمة عن الجزائر و تونس و ليبيا و حتى المشرق العربي، و أيضا حوى معلومات مهمة تخص التاريخ المحلي فهو يؤرخ لحياة

[1]- مصطفى بن إبراهيم باشا، حكاية العشاق في الحب والاشتياق، تحقيق أبو القاسم سعد الله، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011، ص 10 وما يليها.

القبائل التي استوطنت الجنوب الشرقي من الجزائر و الجنوب الغربي من تونس، و أصولها العربية و مسيرها من المشرق إلى المغرب و صراعها ضد الحكام من الحفصيين و عثمانيين...إلخ.

و في هذا الإطار تساءل سعد الله عن أسباب عزوف الباحثين عن تحقيقه رغم قيمته التاريخية و الأدبية، و رغم شهرته بين الناس لا تكاد توجد ترجمة وافية للعدواني أو قل إنعدامها حيث نجده يتساءل " لماذا لم ينشر تاريخ العدواني على الناس؟ و لماذا بقي حبيسا في بعض الخزائن الخاصة يجهله عامة الناس و يحتج به البعض، وينسب إليه آخرين ما ليس فيه؟ و قلت في نفسي أيضا إن هناك مخطوطات و وثائق أقل منه قيمة رأت النور و نشرت بإسم التراث الشعبي تارة و بإسم التراث المحلي ثارة أخرى"[1].

و من هذا المنطلق عزم محقننا عل دراسته و إخراجه رغم ما في المهمة من مشقة كبيرة، خاصة إذا أخذنا في الحسبان اللغة العامية التي كتب بها، و هذا الأمر أرق مؤرخنا كثيراً، أينشر المخطوط بأسلوبه و لغته العامية أم ينشره نصا معرباً؟ فالجهد المضاعف الذي قام به مؤرخنا في إعادة رسم العديد من الكلمات و تصحيح التراكيب النحوية أو الصرفية، المضطربة...إلخ ، ليس بالعمل السهل.

إن تأخر تحقيقه و نشره ليدل دلالة واضحة على ذلك، و رغم ذلك إنه لا ينفي قيمة الكتاب و أهميته بالرغم من الإنتقادات التي وجهت إليه " .. في رأينا إن تاريخ العدواني، رغم كل النقد الذي يوجه إليه، يعتبر وثيقة حيّة عن الحالة الإجتماعية و السياسية التي كانت عليها تونس، و الجزائر و طرابلس في القرنين العاشر و الحادي عشر الهجريين، و كفاه ذلك أهمـــــــية "[2].

4-: منهجية أبو القاسم سعد الله في تحقيق التراث:

إن الخطوات التي اتبعها سعد الله في تحقيق المخطوطات مستلهمة من المبادئ الأساسية التي يعتمدها علم التحقيق، و في هذا سنحاول تقسيم عمله إلى مرحلتين:

4-1: المرحلة الأولى: مرحلة التحقيق و التعليق:

أول ما يعني به الباحث في تحقيق المخطوط هو أن يحصل على جميع نسخه المختلفة بقدر الإمكان، و بعد حصوله على نسخة يجب عليه التأكد من وجود نسخة بخط المؤلف نفسه أو إملائه على أحد مريديه و

[1]- محمد العدواني، تاريخ العدواني، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، دار عالم المعرفة، 2011، ص 20.
[2]- نفسه، ص50.

تكون هذه النسخة حينئذ هي أصل النسخ و أساس التحقيق، فإذا لم توجد نسخة بخط المؤلف أو إملائه يبحث عن أقدم النسخ أو أقربها للمؤلف فأقربها للمؤلف زمانا و مكانا لتكون أصلا لتحقيق، و تجري عملية تصحيح و استكمال المخطوط الرئيسي بمعاونة النسخ الأخرى، فالكلمة الناقصة أو المبهمة و الصفحات الغير واضحة تستكمل أولا بمساعدة النسخ المتعددة.

و كانت تلك هي الخطوة الأولى التي قام بها سعد الله، إلا أنه لم يسعفه الحظ في العثور على نسخ أخرى كما هو الحال مع كتاب (رحلة ابن حمادوش الجزائري) ،التي بحث عنها كثيرا و لم يجدها، وكذا كتاب (منشور الهداية...). الذي سعى جاهدا للحصول على نسخة ثانية لأنه لم يوفق في ذلك، و مع ذلك فإنه سعى حثيثا إلى البحث و التنقيب عن المؤلفات التي نقلت عن المؤلفين حتى يتسنى له ربما الوصول إلى نسخ أخرى للمخطوط، فنجده في رحلة ابن حمادوش، يراسل عدداً من علماء الأنساب، بعد إطلاعه على نقل المؤرخ الأسباني جواخيم خونزاليز إلا أنه لم يظفر بطائل بخصوصها[1].

و في (منشور الهداية...) حاول الإطلاع عن ما كتبه الكاتب الفرنسي الآخر "شيربونو" الذي كتب عن قسنطينة، في العهد العثماني، و كتاب أبو القاسم الحفناوي "تعريف الخلق برجال السلف"، و كتاب آخر للكتاب الفرنسي (فايست) في كتابه"تاريخ بايات قسنطينة"، على نسخة إضافية، و بعد رحلة طويلة و متعبة وشاقة نجد محققنا يعبر و بكل موضوعية عن أسفه الشديد في عدم الحصول على نسخ أخرى للمخطوط قائلاً: "و هكذا كانت حصيلتي مع كل الجهد الذي بذلته نسخة مصورة من منشور الهداية هي نسخة الشيخ المهدي البوعبدلي و نسخة أخرى نفسها مصورة أيضا هي نسخة الشيخ حبة[2]، فكان ذلك وجها آخر من أوجه الثقافي التي تميز بها، أبو القاسم سعد الله في عملية تحقيقه للمخطوطات عموماً.

– حدود عمل المحقق مع النص:

يهدف علم التحقيق الى تقديم نص صحيح مطابق لما كتبه مؤلفه و العناية بضبطه، وحين بدأ العرب يُعنون بتحقيق المخطوطات العربية و نشرها ظهر رأيان في الطريقة التي يتعين إتباعها عند نشر مخطوط مـــــا:

[1]– عبد الرزاق ابن حمادوش، رحلة ابن حمادوش،تح: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011 ص ص(20-21).

[2]– عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من إدعى العلم و الولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، الجزائر، دار عالم المعرفة، 2011، ص ص(19-20).

الأول: يرى الإقتصار على إخراج النص مصححاً مجرداً من كل تعليق.

الثاني: يرى أن الواجب يقتضي توضيح النص بالهوامش و التعليقات و إثبات الإختلافات بين النسخ و التعريف بالإعلام و شرح ما يحتاج إلى شرح و توضيح.[1]

و الحق أنه كما أن ضبط النص وتحقيقه و إخراجه أقرب ما يكون الى الصورة التي أرادها المؤلف ضرورية، فإن التعليق عليه ضروري كذلك، لأن الغاية من التعليق يجب أن تتجه نحو خدمة ضبط النص و توضيحه ورفع كل غموض و إبهام عنه، و هذا ما قام به مؤرخنا فيما يلـــــــي:

أ-كتابه النص وضبطه بالطريقة الحديثة:

لم يكن المؤلفون و النساخ في عصر المخطوطات يعنون في أغلب الأحيان بتنظيم النص، و إنما توجد كنص واحد متصل بدون عناوين ولا فقرات أحيانا، و هذا ما يصّعب عمل المحقق الذي يتكبد عناء تقسيم النص إلى فقرات، ثم وضع عناوين لكل فكرة يعالجها المخطوط، كما يجب على المحقق مراعات قواعد الرسم الإملائي المعاصر، من حيث بداية الفقرات، و وضع النقط عند إنتهاء المعاني و الفواصل و غير ذلك،[2] و هذا ما نجده قد إلتزم به سعد الله في جميع المخطوطات التي حققها، و فيما يتعلق بتقسيم النص إلى فقرات، فقد إلتزم محققنا بهذا المنهج أيضا و هذا ما يتضح جليا من خلال:

- (تاريخ العدواني) الصفحة 1 من المخطوط ←——— وما يقابلها من المطبوع الصفحة 78: قسمها الى ثماني فقرات.

- (منشور الهداية..) الصفحة 10 من المخطوط ←——— وما يقابلها من المطبوع الصفحة (39-40) قسمها الى 3 فقرات.

وفي تحقيقه للنص كثيراً ما تعترض المحقق مسألة الإنحرافات اللغوية و الإملائية و الكتابة بالعامية التي لا تخضع لأي ضابط نحوى أو صرفي، مما يصعب على المحقق مهمة التدقيق و الفحص اللغوي، وما يلاحظه القارئ لكتاب العدواني هو أن المخطوط مكتوب بأسلوب يكاد يكون عامياً، أو هو أقرب الى العامية منه الى

[1]- بشار معروف، في تحقيق النص، لبنان: دار الغرب الإسلامي، 2004، ص341.

[2]- حسان حلاق، مناهج الفكر و البحث التاريخي، بيروت، لبنان: دار النهضة العربية، 2004، ص147.

الفصيح[1] و لذلك نجده في تحقيق الأستاذ سعد الله للكتاب يقف متسائلاً ماذا يقرر حيال هذا النص " و قد كان أن نقرر حيال هذا النص، إما أن نتركه على ما هو عليه حفظاً للأمانة و التنبيه العام على ما فيه و الطريقة التي يجب أن يقرأ بها، و إما أن نلجأ إلى إعرابه كلّه أو جزئيه...و حفظاً للأمانة تركنا النص على ما هو عليه وقمنا بالتنبيه العام في أول عملنا ليعرف القارئ أي نص يقرأ، و إذا رأينا أن المعنى سيتوقف على تدخلنا و أشرنا إلى ذلك بأسفل الصفحة، و هذه الطريقة ليست بالسهلة"[2].

و المتتبع لأعمال سعد الله في مجال التحقيق يلاحظ أنه كثير ما كان يدقق في هذه المسألة بحثاً عن مصادرها، كأن يبحث عن أصل الخطأ أهو نتيجة جهل صاحب المخطوط نفسه بقواعد الإملاء أم من النساخ، فالتركيز على هذه الظاهرة و محاولة البحث عن مصادرها في تاريخ العدواني و حكاية العشاق في الحب و الاشتياق لمحمد بن إبراهيم وحتى رحلة ابن حمادوش الجزائري، "كشف عن شيوع ظاهرة الأسلوب المتصفح أي الأسلوب الذي ساد في القرنين السابع و الثامن عشر في الجزائر وتحتاج هذه الظاهرة وحدها إلى دراسة أكاديمية جادة"[3] بالإضافة إلى التدقيق الإملائي و اللغوي، ثم لفت الانتباه إلى أخطاء في كتابة بعض الكلمات كما جاء في (حكاية العشاق...) :

الخطـــــــأ		الصواب
غـــــــداً	←	غدي
حيـــــات	←	حياة
عضـــــيم	←	عظيم
أتـــا	←	أتى

وحسما لهذه المسائل اللغوية و الإملائية، كان المحقق يلجأ كل مرة الى رسم جدول يوضح فيه الخطأ و صوابه يقول: "وقد فكرت طويلاً في أفضل طريقة لمعالجة هذا الموضوع، فبدأ لي مرة أن أصحح النص ولكني عدلت عن ذلك لأنني لو فعلت لكان تدخلا مني في نص...ثم بدا لي أن أترك الأخطاء كما هي في النص لكي

[1]– عبد القادر شرشال أبو القاسم سعد الله محققاً و ناقداً، مجلة النور اللندنية، العدد 154

[2]. محمد العدواني، المصدر السابق،27.

[3]. عبد القادر شرشار، المرجع السابق.

أنبه على كل منها في الهامش مع وضع الكلمة أو العبارة الصحيحة المقابلة لها و لكني عدلت عن ذلك أيضا لأن نفس الخطأ موجه عدة مرات في الصفحة الواحدة...لذلك إخترت أن أضع قائمة في أول الكتاب بأهم الأخطاء منبها عليها دفعة واحدة"[1]. و في أحيانا كثيرة حين تدخله في النص بشكل من الأشكال ينبه على ذلك بعبارة. كذا في الأصل في الهامش و أمثلة ذلك في (مختارات مجهولة..):

هامش الصفحة 117 ⟵ كذا في الأصل (أسلوا).

هامش الصفحة 79 ⟵ كذا في الأصل (الكـــرا).

هامش الصفحة 88 ⟵ كذا في الأصل (الدجا).

وكذلك كان ينبه على الزيادة أو التدخل في النص بوضعها قوسين ومن أمثلة ذلك في كتاب (تاريخ العدواني):

هامش الصفحة 106 ⟵ ما بين القوسين زيادة منا.

هامش الصفحة 118 ⟵ ما بين القوسين زيادة من (ب).

أما علامات الحذف في النص فهي ثلاثة نقط هكذا (...)، و كثير ما كان المحقق يقوم بحذف بعض العبارات و الإستطرادات، كما جاء في مخطوط (رسالة الغريب إلى الحبيب)، إذ أن المؤلف استطرد كثيراً فجاء بالأشعار الوفيرة، و النثر الفضفاض و العبارات المكررة المعنى، فالحذف هنا يكون عند الإستطراد بالشعر لتأكيد نفس المعنى، أو الإستطراد بالنثر المسجوع ومن ثمة يكون المحذوف شطره أو أكثر من السجع.[2]

كما عمل المحقق على حذف بعض العبارات أو الألفاظ الغير مناسبة لذوق من وجهة نظره، حيث فضل الإستغناء عنها وتعويضها بنقاط، و هذا ما فعله في مناسبتين فـــي (تاريخ العدواني) الأولى عند ذكر كلمة (الكـــــلاب) و الثانية عن وصف (الرافضة)، و يذكر سعد الله أنه إحتار في الإبقاء على الكلمة أو حذفها فإختار حذفها "و قد كنا نحن بين الإبقاء على الكلمة و حذفها ثم تصرفنا معها كما ذكرنا".[3]مع العلم أن ترجمته "فيرو" لتاريخ العدواني أبقت على كلمة (الكلاب) كما هي، إلا أنه من المتفق علمياً و حفاظاً على

[1]- محمد بن إبراهيم، المصدر السابق، ص12. و أنظر الجدول، ص ص (20-21).

[2]- أحمد أبو عصيدة البجائي، المصدر السابق، ص41.

[3]- محمد العدواني، المصدر السابق، ص33.

الأمانة العلمية، أن المحقق ليس من مهامه الدفاع عن جهة معنية أو الوقوف ضد جهة أخرى، بل يكتفي بالإشارة و التنبيه لها في الهامش إلى ما يساعد على قراءته و فهمه حسب السياق مع الإبقاء على أصل النسخة حفاظاً للأمانة العلمية.

كما قام المحقق بوضع القوسين المزهرتين﴿﴾ لحصر الآيات القرآنية و الشولتين« » عند ذكر الأحاديث النبوية الشريفة، إضافة إلى إعتنائه بوضع الخط المائل (/) في متن الكتاب قبل أول كلمة من كل صفحة من المخطوط، مع وضع الرقم الذي يمثل صفحة المخطوط على يمين الصفحة المحققة، إذ إلتزم بذلك المحقق طوال تحقيقه لمخطوط(حكاية العشاق...) ومخطوط (رحلة ابن حمادوش) غير أننا نلاحظ أن هذا الترقيم يختلف في مخطوط (منشور الهداية...) إذ نجده مرة يضعه على يمين الصفحة و مرة على يسارها.

ب- التعـــــليق:

يأتي التعليق في المرتبة الثانية، و هو ما يقوم به أي محقق في الحواشي، إذ تعتبر هذه الأخيرة عملاً نقدياً و علمياً يتطلب مهارة و علم فالهوامش التي يتطلبها التعليق تضفى على عمل المحقق قيمة كبيرة تدل على مقدرته على سعة الإطلاع، كما تدل على بذل جهد في الإستعانة بالمصادر الأصلية و الثانوية و الإفادة منها.

فالحواشي إذن لا غنى عنها، فهي شرح مفصل للأماكن و الأعلام، وشرح المصطلحات و الألفاظ الغريبة أو تعريف مبهم، و مقارنة الأحداث التاريخية بنظيرتها في المصادر الأخرى و تحليلها، وتخريج الآيات و الأحاديث.[1] و من حصاد الإطلاع على عمل محققنا في جميع أعماله يظهر منذ الوهلة الأولى أن يولي لهذا الجزء من منهجية التحقيق، إهتماماً كبيراً لإدراكه لأهمية ذلك في إماطة اللثام عن تلك الإفتراضات الكامنة في المخطوطات، و سنحاول تقديم نماذج منها، لتتبين منهجية محققنا في هذا الميدان:

- تراجم الأعلام:

عادة عندما يقوم سعد الله بالترجمة لعلم من الأعلام يذكر ميلاد و وفاة المترجم له، و أهم مؤلفاته، ثم يلتزم بذكر المرجع الذي اعتمده لهذه الترجمة، من أمثلة ذلك:

[1] - محمد بوشريط "منهجية التحقيق عند يحي بو عزيز، طلوع سعد السعود نموذجا"، مجلة الناصرية للبحوث الإجتماعية و التاريخية، العدد الأول، 2004، ص81.

كتاب (رحلة ابن حمادوش)⟵ هامش الصفحة 157: يترجم فيه لداود ابن عمر الأنطاكي " عالم بالطب و الأدب، و كان ضريراً، ولد في إنطاكية و هاجر الى القاهرة ثم مكة و بها توفي، من تآليفه (تذكرة أولى الألباب) في الطب و الحكمة و هو مطبوع، و له مؤلفات أخرى في الطب و الفلسفة و الشعر و الأدب، و قد توفي سنة 1008، الأعلام9/3 ".

و في بعض الأحيان عندما لا يتعرف على ترجمة علم من الأعلام يشير له في الهامش بعبارة "لم نعثر له على ترجمة" ، من أمثلة ذلك.

-كتاب (منشور الهداية...) ⟵ هامش الصفحة 61: إذ لم يجد ترجمة لشخصية، "الشريف النجار".

و عندما يكون قد ترجم لشخصية ما وردت في المخطوط من قبل، فإنه يكتفي بإحالة القارئ لموضوع الترجمة، من أمثلة ذلك:

-كتاب (مختارات مجهولة...) ⟵هامش الصفحة 120: في ترجمته لسعيد قدورة "هو سعيد قدورة الذي تولى فتوى المالكية، مدة طويلة توفي سنة 1066م أنظر ترجمته في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص364).

أو يحيل القارئ إلى كتب أخرى ترجمة لنفس الشخصية من أمثلة ذلك:

-كتاب (مختارات مجهولة...) ⟵ هامش الصفحة 118: "و عن محمد الشاباح أنظر مقدمة هذا الكتاب و كذلك كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) 331/2 و المهدي البوعبدلي و ناصر الدين سعيدوني (الجزائر في التاريخ)، ج4، ص205 ".

- الأعلام الجغرافية:

ما قيل عن الأعلام ينسحب على الأماكن الجغرافية الواردة في تعليقات المحقق، إلا أن المحقق اكتفى بالتعريف بالأماكن الجغرافية القديمة، وما يقابل تسميتها في العصر الحديث من أمثلة ذلك:

- كتاب (منشور الهداية...) ⟵ هامش الصفحة 37: يقوم بذكر موقع الكدية " كانت ضاحية، من قسنطينة القديمة و هي الآن جزء من المدينة، و موقعها مرتفع".

- كتاب (أعيان من المشارقة والمغاربة...) ⟵ هامش الصفحة 88: يقوم بذكر موقع أشقودرة " وهي مدينة تقع إلى أقصى الجهة الغربية من ألبانيا، وكانت مركزاً و ولاية عثمانية ".

- كتاب (مختارات من الشعر...) ⟵ هامش الصفحة 147: ورد في التعليق كلمة إسلام بول، و قام بذكر ما يرادفها في العصر الحالي " أي: إسطنبول".

- نفسه ⟵ هامش الصفحة 84: وردت في التعليق كلمة (تلاملي)، حيث قام بذكر موقعها بقوله: " تلاملي: كانت ضاحية جبلية من ضواحي مدينة الجزائر، و هي الآن جزء من المدينة".

- تفسير ما غمض من ألفاظ و مفردات و مصطلحات:

قام سعد الله بشرح المصطلحات و المفردات التي تحتاج إلى بيان، بالرجوع إلى مظانها و التعريف بها، من أمثلة ذلك:

- كتاب (أعيان من المشارقة و المغاربة...) ⟵ هامش الصفحة 43: شرح كلمة جفتلكا: " تعني الإطيان(الفدادين) التي كانت تعطى للعائلة الخيدوية، و ربما تكتب أيضا جفلك وجفالك".

-كتاب (رحلة ابن حمادوش) ⟵ هامش الصفحة 205: شرح كلمة " الرضيق: اللبن المغلي بحجر".

- نفسه ⟵ هامش الصفحة 239 : " تطلق كلمة (فرد) على الثور و على المسيسة (أو السوار الذهبي) التي تضعها المرأة في يدها. و الظاهر هنا المقصود النوع الثاني".

-كتاب (حكاية العشاق...) ⟵ ورد هامش الصفحة 230: كلمة "الأذفر و هو المسك ذو الرائحة الشديدة".

- تصحيح الأخطاء الواردة في المخطوط:

نجد سعد الله في هذا العنصر من منهجية التحقيق يوليه أهمية كبيرة، فالقارئ لنصوص التي حققها قلما تجد صفحة لا تخلو من تصحيح كلمة، أو التنبيه على معانيها في مكانها من النص، و هي أكثر من العدّ و الحصر. أما الأخطاء التاريخية فقد قام بتصحيح ذلك في عدة مواضع من ذلك:

- كتاب (رحلة ابن حمادوش) ⟵ يذكر المؤلف في الصفحة 188 : أن حسن باشا ابن خير الدين، فيقوم المحقق بتصحيح ذلك في الهامش " الظاهر أنه يعني صالح رايس، وهو ليس إبنا لخير الدين".

- كتاب (أعيان من المشارقة و المغاربة...) ⟵ يذكر المؤلف في الصفحة 32: أن خروج الفرنسيين من مصر كان بسبب الوباء " هلكوا بالوباء وماتوا جميعا...). فيصحح ذلك في الهامش بقوله "خروج الفرنسيين من مصر كان لأسباب عسكرية وسياسية و ليس للوباء، و يبدو أن ذلك كان إشاعة راجت بين الناس".

- تخريج الآيات و الأحاديث وضبط القصائد الشعرية:

وردت في المخطوطات التي حققها سعد الله آيات قرآنية، فكان لزاماً عليه تخريجها بوضع إسم السورة ورقمها، وهذا ما قام به محققا في تخريج بعض الآيات و تصحيحها، وقد اكتفى بالتخريج فقط دون تشكيلها، من أمثلة ذلك:

-كتاب(منشور الهداية...) ⟵ الصفحة الصفحة 89: وردت في النص الآية الكريمة {ومن يضلل الله فماله من هاد}، قام بتخريجها بالهامش: " سورة (الزمر)، الآية 36، وكذلك سورة (غافر)، الآية 33 ". كما أنه وضع لها فهرسا في أخر الكتاب.

-كتاب (حكاية العشاق...) ⟵ الصفحة 177: ورد الرسم الخاطئ للآية الكريمة في النص { ولا تلقوا بأنفسكم إلى التهلكة}، فقام بتصحيحها في الهامش، كذا لكن الآية الكريمة هي: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾.

أما في يخص الأحاديث فلم يقوم سعد الله بتخريجها في ذكر مصدر التخريج، بل إكتفى بوضعها بين شولتين في النص، أنظر (منشور الهداية...) ⟵ الصفحة 138، كما قام ايضا بوضع فهرس يخص الأحاديث الشريفة في آخر الكتاب.

أما عن القصائد الشعرية الواردة في النص المُحقق فكان المؤلف يعزوها لمصادرها إن لم تكن من نسج المؤلف من أمثلة ذلك:

-كتاب (رحلة ابن حمادوش) ⟵ وردت أبيات شعرية في الصفحة 138: فقام المحقق بذكر قائلها، يقول في الهامش " هذا الشعر لسحنون بن عثمان الذي يبتدئ من (أيا ملغزا أهل المدارس...).

-كتاب (منشور الهداية...) ⟵ وردت أبيات شعرية في الصفحة 101: فقام المحقق بذكر قائلها، "هذان البيتان ينسبان الى عمرو بن علي بن بحر الفلاس المتوفي سنة 249هـ.

ونجد سعد الله في تشكيله للأبيات يلتزم بذلك أحيانا، كما نجده في كتاب (منشور الهداية...) قد التزم بتشكيلها، وضع لها فهرس للقوافي الشعرية.

أما فيما يخص تخريج الأمثال و الحكم الواردة في النص فقد إكتفى المحقق بوضعها بين شولتين دون الإشارة إلى مظانها، و كان أحياناً يضع لها فهرس الأمثال و الحكم الواردة في النص، كما جاء في كتاب (حكاية العشاق...) ←── الصفحة 163.

4-2: المرحلة الثانية:

بعد انتهاء المحقق من تحقيق النص، ينتقل الى مرحلة ثانية، و التي تشتمل على خطوتين:

أ- التقـــــديم:

و فيه يبرز أهمية المخطوط، و ما تناوله من مادة علمية تغطي الفترة المعالجة، و قد إشتملت جميع المخطوطات التي قام بتحقيقها على منهجية واحدة فيما يخص العناصر التي يبرزها المحقق في التقديم وهو يشمل ما يلـــــــي:

- **التعريف بالمؤلف:** ويشمل هذا العنصر التعريف بمؤلف المخطوط من حيث مولد و نشأته و أسرته و شيوخه و مؤلفاته، و التعريف بالعصر الذي عاش فيه و المناصب التي تولاها.

- **وصف المخطوط:** يقوم المحقق في هذا العنصر بوصف المخطوط وصفاً دقيقاً، يذكر مكان تواجد النسخ، و عددها، و عدد صفحات المخطوط، و أسطره ونوع الخط المكتوب به، و بنوع من التفصيل يعطي المحقق للمخطوط بطاقة فنية، تحيط بالمواضيع التي تطرق لها المؤلف، يجعل فيها القارئ على علم بمحتوياته حتى قبل أن يطّلِع على النص المحقق، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على اجتهاد المحقق في التعريف بالمخطوط أيما اجتهاد و القارئ للنصوص التي حققها سعد الله سيرى مدى اهتمامه في إبراز هذا العنصر للقارئ.

- **طريقة التحقيق:** يعرج بعدها سعد الله إلى ذكر الطريقة التي إعتمدها في تحقيق المخطوط و ذلك بمراجعته عدة مرات مستفيداً و محققاً و مقارناً ومصححاً لعمل الراقن، قد تصل إلى عشرات المرات على حد قوله في

تحقيقه لكتاب (منشور الهداية...) "ليس غريباً أن يقول أحد المحققين أنه قرأ المخطوط الذي يحققه عدة مرات قد تصل إلى العشر، ذلك أنني شخصيا قرأت (منشور الهداية) ربما أكثر من ذلك"[1].

و يذكر سعد الله في هذا العنصر طريقة التعامل مع نص المخطوط، في تقسيمه لفقرات يقتضيها المعنى و إستخداماته للهامش، و كيفية التعامل مع الأخطاء النحوية و الإملائية مع الإحالة إلى بعض منها.

- **قيمة الموضوع:** يركز سعد الله في هذا العنصر على ذكر أهمية المخطوط، الذي يقوم بتحقيقه، ثم الهدف الذي يرجوه من هذا العمل الذي يتناوله.

- **مصادر و مراجع البحث:** يذكر سعد الله في هذا العنصر المصادر و المراجع التي أفاد منها، و كانت له خير معين على إخراج العمل بصورته النهائية، و يبرز من خلالها المعلومات التي أخذها من هذه الأخيرة لتساعده على فهم ما تضمنه هذا المخطوط، و نجده في الإشارة إلى المصادر قد أشار إليها فقط عند تحقيقه لكتاب(رحلة ابن حمادوش) لتعدد موضوعات هذه الأخيرة، فلابد أن تكون مصادرها كثيرة ومتنوعة فقام المحقق بذكر بعضها.

ب- الملاحق و الفهارس والمصادر: أما بالنسبة للملاحق فنلاحظ أن سعد الله يدرجها بعد التقديم مباشرة، و غالبا ما تكون صفحات من المخطوط الأصلي، وبالرغم من أهمية الملاحق بالنسبة للمخطوط إننا لا نجد سعد الله يوليها أهمية بالغة، فمن الممكن أنه كان يمكن أن يفيدنا مثلا بخريطة للمناطق التي كانت مجال حل و ترحال ابن حمادوش في رحلته.

أما الفهارس العامة، فهي من الأهمية بمكان لكل دراسة من الدراسات لذا كان سعد الله حريص على وضع فهارس في آخر الدراسة، و هذا طبعاً لا يتعلق بالمخطوطات التي حققها فحسب، بل نجد الفهارس العامة في جميع أعماله التي قام بنشرها لإدراكه مدى أهميتها في تسهيل عملية الإستفادة مما في الكتاب المنشور وجعل ما في داخله في متناول كل باحث، وهي تضم عادة فهارس للموضوعات المتناولة في المخطوط، و فهارس الأعلام و الأماكن، و القبائل و الأجناس، كما قام بإضافة بعض الفهارس مثل فهرس ' آي الذكر الحكيم' و فهرس ' الأحاديث النبوية ' ، و فهرس ' القوافي الشعرية ' ، و فهرس ' الكتب الواردة في المخطوط (أنظر

[1]- عبد الكريم الفكون، المصدر السابق، ص 22.

منشور الهداية)، و كذا فهرس' التعابير الحضارية' ، فهرس' الحكم و الأمثال'، فهرس ' التعابير السياسية '، (أنظر حكاية العشاق).

بالإضافة إلى ذكر ثبت عام لمصادر و مراجع البحث التي ساعدت على تحقيق المخطوط.

إن التحقيق أمر جليل و يحتاج من الجهد و العناية الى أكثر ما يحتاج إليه التأليف، و قديماً قال الجاحظ "ولربما أراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيفاً أو كلمة ساقطة، فيكون إنشاء عشر ورقات من حر اللفظ و شريف المعاني أيسر عليه من إتمام ذلك النقص حتى يرده إلى موضعه من اتصال الكلام"، و الحق أن الجهد المضاعف الذي بذله المؤرخ أبو القاسم سعد الله في إخراج هذه النصوص من أصعب المهمات العلمية، التي أرهقته وهو يعبر عن ذلك في تحقيقه لرحلة ابن حمادوش قائلاً "لو قيل عن التعب الذي سيصادفني من جراء تحقيق هذه المخطوطة قبل الإقدام عليه لماصادقته أو لما أقدمت عليه أصلا، و على كل حال فقد أصبحت الآن لا أغبط المحققين للنصوص القديمة تحقيقاً علمياً، لأنهم بدون شك يعانون الكثير ويربحون القليل، وكل جزائهم فيما يبدو هو رضى النفس و الوفاء لصاحب النص وراحة الأجيال"[1].

وقد استطاع سعد الله من خلال تحقيقه لهاته المخطوطات من التقيد بقواعد التحقيق و إتباع الضوابط العلمية في منهجيته، و ذلك بإخراج النص كما وضعه صاحبه، أو على نص أقرب ما يكون الى نص المؤلف على قدر المستطاع، و هذه هي المهمة الحقيقية للمحقق، و هذا المنهج الذي إتّبعه محققنا نجده لا يختلف عن المناهج المتبعة من طرف محققي التراث المخطوط سواء تعلق الأمر بالمستشرفين أو بالمؤرخين العرب، و هذا ما خلصنا له من خلال تقديمنا للمنهج العلمي الذي إتبعه في التحقيق.

[1]– عبد الرزاق بن حمادوش، المصدر السابق، ص 19.

ثانيا: أبو القاسم سعد الله مترجما:

1- الترجمة (المصطلح والمفهوم):

إن الترجمة كسلوك لغوي و نشاط حضاري يهدف إلى التواصل، جعلها تضلع على مر العصور بدور هام في التبادل الثقافي بين الشعوب متوخية بذلك نقل المعرفة من أمة إلى اخرى فأضحت قناة تواصل بين مجتمعات ذات لغات مختلفة تعود عليها بالنفع الكثير، حيث نقلت أفكار و إبتكارات و مخترعات ...الخ، وجعلت بذلك العالم ينفتح على بعضه بعض أسهمت بقسط كبير في الإزدهار العلمي و الحضاري.

أ- مفهوم الترجمة:

- **لغة:** ورد في التعريف اللغوي المعجمي عدة تعاريف نورد منها:

جاء في لسان العرب لابن منظور " ترجم كلامه إذا فسره بلسان آخر، و منه الترجمان و الجمع تراجم "[1].

و في قاموس المحيط للفيروز أبادي وردت كلمة ترجمان في باب الميم فصل التاء " أن الترجمان هو المفسر للسان "[2] .

و في تعريف آخر " ترجم الكلام أي فسره بلسان آخر فهو ترجمان "[3].

- **إصطلاحا:** لقد عرفت الترجمة بصور مختلفة سنقتصر على إبراز الأهم منها:

جاء موسوعة الترجمان المحترف: أن الترجمة هي " هي التعير عن ما هو مكتوب في لغة أولى (هي لغة المصدر) إلى اللغة الثانية وهي (اللغة الهدف) أي أن الترجمة هي التعبير عن فكرة واحدة أو عدة أفكار بواسطة الكلمات "[4].

---

[1]- إبن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، بيروت: دار الجيل، دار لسان العرب، 1988م، ص 316.

[2]- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، قاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، ط8، لبنان: الرسالة للطباعة و النشر، 2005، ص 1692.

[3]- المنجد في اللغة العربية المعاصرة، ط2، لبنان: دار المشرق، 2001، ص 60.

[4]- مشلب ر، موسوعة الترجمان المحترف: صناعة الترجمة و أصولها، بيروت: دار الراتب الجامعية (د،س)، ص 25.

كما جاء في كتاب روجر. ت بيل(Roger.T.bell): " أن الترجمة هي التعبير بلغة أخرى أو لغة الهدف عما عبر عنه بأخرى لغة المصدر مع الإحتفاظ بالتكافؤات الدلالية و الأسلوبية "[1].

و من هذه المنطلقات يمكن أن نصور الترجمة على أنها عملية يتم فيها نقل المعنى المراد ترجمته من اللغة المصدر إلى اللغة الهدف بشرط التحكم في كلتيهما (المصدر ، الهدف) وإدراك ثقافة هاتين اللغتين، فهي لا تعني الانتقال من لغة إلى لغة اخرى فحسب بل من ثقافة إلى ثقافة أخرى .

و يعتبر المترجم عنصرا جوهريا و طرفا فعالا في عملية الترجمة فهو يقوم بدور الوسيط بين لغتين وثقافتين و يبذل جهدا كبير في نقل المعلومات من النص المصدر إلى القارئ المستهدف، و في نفس الوقت يحرص على أن يحدث النص المترجم أثرا مماثلا قد يحدثه النص الأصل، و ذلك من خلال جملة من الإجراءات التي يتبعها لنقل النص المصدر إلى اللغة الهدف بكل دقة و أمانة.

ب- أنواع الترجمة:

يمكن التميز بصفة عامة بين قسمين أساسيين لترجمة:

أ- الترجمة التحريرية: و هي ترجمة النصوص المكتوبة و على الرغم مما يعتبره الكثيرون من أنها أسهل أنواع الترجمة، ذلك أنها لا تتقيد بمعنى معين يجب أن تتم خلاله، إلا أنها تعد في نفس الوقت من أكثر أنواع الترجمة صعوبة حيث يجب على المترجم أن يلتزم بالدقة و التأني. و يندرج تحت هذا النوع العديد من الأصناف منها (الترجمة الحرفية- الترجمة التفسيرية- الترجمة بتصرف- الترجمة التلخيصية)[2].

ب- الترجمة الشفهية: و نعني بها النقل مشافهة، إذ يبدأ دور المترجم بعد الإنتهاء من إلقاء محتوى الرسالة، و هنا تكمن صعوبتها في أنها تلتزم بمعنى معين وهو الزمن الذي تقال فيه الرسالة الأصلية، و لكنها لا تلتزم بنفس الدقة بل يكتفي المترجم بنقل محتوى الرسالة فقط، و يمكن إدراج نوعين أو صنفين لهذا النوع(الترجمة التعاقبية أو التتابعية، و الترجمة الفورية)[3].

---

[1]- روجر.ت.بيل، الترجمة و عملياتها النظرية والتطبيق، تر: محي الدين حميدي، الرياض مكتبة العبيكان،2001، ص 42

[2]- عز الدين محمد نجيب، أسس الترجمة، ط5، القاهرة: مكتبة ابن سينا لطباعة والنشر، 2005م، ص 17.

[3]- نفسه، ص ص (18-19).

و لعل دراستنا في هذا الجانب ستندرج في النوع الأول و هي' الترجمة التحريرية' و التي خصص لها مؤرخنا جانب من أبحاثه، فمن خلال المعطيات التي سقناها حول مفهوم الترجمة سنحاول دراسة الفعل الترجمي بعيون مترجمنا؛ و عليه فما هي الإجراءات و الضوابط العلمية التي قام بها مترجمنا في تعامله مع النصوص المترجمة ؟ و إلى اي مدى التزم بالأطر العامة لعملية الترجمة؟

2- جهود أبو القاسم سعد الله في حقل الترجمة:

إنّ الترجمة بإعتبارها حقلا علميا قائما بذاته، قد خصص لها الأستاذ سعد الله حيزا معتبراً من نشاطه الموسوعي، فإلى جانب إهتمامه بالدراسات التاريخية سنكتشف عبقرية أخرى أبدع فيها، و هي النقل من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية، أو نشاطه الترجمي إن صح التعبير، و الترجمة كما لا يخفي على أحد، فعل أو عمل شاق يتطلب من المترجم ثقافة موسوعية، و جهداً فكرياً مركزاً و مؤهلات ثقافية خاصة على رأسها التّضلع في اللغة الأصلية التي ينقل إليها أو ينقل منها، فضلاً عن ذوق فني مرهق يلتمس مواطن البلاغة و السلاسة و الجمال في اللغتين.

وسنحاول دراسة نص الترجمة بعيون المترجم، أي كيفية تعامل الأستاذ سعد الله مع مختلف النصوص، و كيف إستطاع التخلص من الصعوبات التي واجهته مع النص، و قبل ذلك سنحاول دراسة جهوده في الترجمة، فللأستاذ سعد الله زخم ترجمي معتبر تراوح بين عدد من الكتب و المقالات و البحوث و المحاضرات...إلخ، و بلغات و ثقافات متعددة، فهو لم يترجم عبثاً و لم يعلق تسلية وإ نما لرسالة يصرح بها أحيانا و يتركها أحيانا أخرى، و هذا ما سنخلص إليه من خلال أعماله الترجمية و التي سنقسمها الى ثلاثة أقسام و هي كما يلـــــــــــي:

2-1: الكتـــــــــب:

أ- كتاب حياة الأمير عبد القادر:

و هو كتاب للعقيد شارلز هنري تشرشال (Charles Henry Churchil) نقله أبو القاسم سعد الله من اللغة الإنجليزية، و الكتاب أول عمل مطول لمترجمنا، إذ تعود صلته بموضوع الكتاب إلى أيام الطلب

بجامعة مينيسوتا حينئذٍ عزم على نقله إلى العربية لإقتناعه بأهميته،[1] إذ يذكر سعد الله أنه و مع وجود العديد من الترجمات لحياة الأمير عبد القادر، فإن ترجمة تشرشال للأمير يختلف عما سبق ذكره يقول في هذا "إن عمله الذي جاء نتيجة تعارف و صداقة بينه وبين الأمير دامت حوالي عشر سنوات، يعتبر من أفضل ما كتب عن الأمير حتى الآن".[2]

و تكمن أهمية الكتاب في أن عمل تشرشال جاء جامعا لجوانب إيجابية أخرى تفتقر إليها الأعمال الأخرى حول الأمير، سواء كانت عربية أم فرنسية، و لا سيما هذه الأخيرة، فالفرنسيون الذين إهتموا بالأمير و الذين يملكون عنه أكثر من غيرهم وثائق أساسية عن حياته و علاقاته و مجالات تفكيره، لم تكن كتاباتهم بقيمة العمل الذي قدمه تشرشال، فهي أولا تجمع إلى الحوادث السياسية و العسكرية، و الإجتماعية، كما أنها تهتم بالبحث لذاته، كما أن المؤلف قد جمع فيه وثائق أصلية يبدو أنه حصل عليها من الأمير نفسه أو من عائلته مباشرة نظرا لعلاقة الصداقة التي جمعتهم يضيف قائلاً "و الأهم من ذلك هو أنه كتبه كما يقول من إملاء الأمير نفسه، فهو حينئذٍ نوع من الترجمة الذاتية"[3].

و نظرا لأهمية الكِتاب جعلت الكُتَاب يتنافسون على محاكاته أو نقله إلى الفرنسية مرة و إلى اللغة العربية أخرى، فكان فضل السبق للأستاذ سعد الله في ترجمته للعربية، و الكتاب يعد مصدراً مهما لكل من يكتب حول تاريخ الجزائر كفترة الإحتفال بالذكرى السنوية لإحتلال الجزائر و الذكرى المئوية لنهاية مقاومة الأمير، و هو ما حدى بالأستاذ سعد الله إلى ترجمته بالرغم من الصعوبات التي إعترضته أثناء الترجمة خصوصاً في إعادة رسم الكثير من أسماء الأعلام و القبائل و الأماكن الواردة في الكتاب إلى أصلها العربي لأن معظمها لم يعد مستعملاً في حين ترجمته للكتاب.

فلولا زيارة المترجم للمنطقة (معسكر) التي كانت مسرحاً لحياة و الأحداث التي وقعت فيها إضافة، إلى معرفته بالعامية الجزائرية لكان فهم النص الأصلي أصعب من ترجمته، كما أن بعد المؤلف عن البيئة الجزائرية زاد من تحريف الكثير من الأسماء و أيضاً بسبب خضوعها لمقاييس نطق اللغة الفرنسية، لأن ضباط المكاتب العربية كانوا من الفرنسيين، لهذا كان تنقله للمنطقة مسرح الأحداث و الإتصال بأهالي المنطقة و الإستفسار

---

[1]- لونيسي ابرهيم، "أبو القاسم سعد الله ونصف قرن في صحبة الامير عبد القادر"، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، عدد 1، جوان 2015 ، ص 321.

[2]- شارلز هنري تشرشال، المصدر السابق، ص53.

[3]- نفسه، ص26.

عن بعض الوقائع و التأكد من سلامة نطق الكثير من أسماء الأماكن، و هذا ما يدل على جدية الأستاذ سعد الله المعهودة، و دقته في البحث و التنقيب[1].

ب–كتاب الجزائر و أوربا:

لمؤلفه البروفيسور جون بايتيست وولف (John Baptist Wolf)، و قد كان هذا الأخير أستاذا لمترجمنا بجامعة مينيسوتا، و يُعد بابتيست آنذاك من المؤرخين البارزين علماً وهيبة بجامعة مينيسوتا، هذا فضلاً عن عديد الدراسات الأكاديمية الجادة خصوصا في الحضارة الأوربية و تاريخ فرنسا، فكتاب عن الجزائر بقلم البروفيسور وولف يعتبر في حد ذاته حدثا هاما حسب قول سعد الله، كما أن الكتاب من جهة أخرى هو آخر ما ألفه البروفيسور وولف في حياته، و من ثمة فهو يمثل عصارة فكره و حصيلة تجارية في الدراسات التاريخية، و هو ما حذا بمترجمنا لإقتنائه، ثم شاءت الأقدار بعد حوالي 30 سنة أن يجمع بينهما عمل مشترك، يتمثل في ترجمته لهذا الكتاب إلى اللغة العربية.

و قد تفضل المترجم بإبراز نقاط القوة في هذا الكتاب التي تعطيه بل تضيف إليه قيمة منها أن الكتاب يعالج العلاقات الأوربية الجزائرية في حجمها الدولي، و في محتواها الإقتصادي، و السياسي بينما عالجها السابقون في الغالب معالجة دينية أو وطنية، ضيقة كما أوضح دور المنافسة الأوربية و أثرها في العلاقات الجزائرية و أبرز دور هذا التنافس على التجارة، و التكتل العسكري و المكانة الإستراتيجية و لاسيما بين فرنسا و بريطانيا وهولندا و غيرها من الأحداث التاريخية الهامة في تاريخ الجزائر العثمانية[2] .

و كأي عمل علمي جاد لا يخلو من صعوبات، فنجد المترجم يذكر في مقدمته للكتاب، تناول أهم الصعوبات التي واجهها أثناء ترجمته للكتاب منها التحكم في المصطلحات المقابلة خصوصاً و أن بعضها قد إستعملها المؤلف بكل حرية و بدون انتظام كـــ (المغرب و شمال إفريقيا، و الجزائر و غيرها) ويمكن للباحث العودة إليها مفصلة في مقدمة المترجم للكتاب. وكذا نبه المترجم القارئ أن المؤرخ جون وولف ما هو إلا إمتداد للمدرسة الكاتوليكية الفرنسية الإستعمارية، و ذلك أثناء دراسته للمجتمع الجزائري و الحط من قيمة العمل الجزائري العثماني و التشكيك في قدراته و شرعيته و أهدافه، و بالمقابل إضفاء الشرعية على تصرفات

[1]– شارلز هنري تشرشال، المصدر السابق، ص25.

[2]– جون وولف، المصدر السابق، ص13.

الساسة الأوربيين، و مثل هذه التفاسير تكررت مراراً في كتاب وولف و قد نبه إلى ذلك المترجم أيضا في الهامش و محاولة مترجمنا في كثير من الأحيان الرد و نقدها بالحجة العلمية[1].

و ختم مترجمنا قوله أن هذا الكتاب الذي ختم به البروفيسور وولف حياته العلمية سيحوز على إهتمام كبير لدى القراء العرب لكونه يحتوي على ثروة كبيرة من المعلومات و الأحكام و التفاسير الجديرة بالنظر و الإعتبار و يكفي أنه إعترف له قائلاً " نحن أول مرة أمام عمل جاد من باحث محايد إلى حد كبير، كرس حياته بخدمة التاريخ تعليقا و تأليفاً "، كما تعد النسخة العربية المترجمة التي قام بها مترجمنا من أهم ما أنتجه الأستاذ سعد الله في مجال الترجمة، لما نال من ذيوع صيت لدى القارئ الجزائري لأنه يعد مرجعا هاما لتاريخ الجزائر العثمانية، لا يستغني عنه أي باحث في هاته الفترة الهامة من التاريخ الحديث[2] .

جـــ- الحركة الوطنية الجزائرية: (1900-1930م)

هذا الكتاب هو عبارة عن رسالة دكتوراه تقدم بها الأستاذ أبو القاسم سعد الله لنيل شهادة الدكتوراه سنة 1965م، و ثم صدوره سنة 1969 وهو الجزء الثاني حاليا في سلسلة الحركة الوطنية الجزائرية بعد أن أضاف له الأستاذ سعد الله الأجزاء الباقية، و ورد في مقدمة الطبعة الثانية للكتاب أنّ سبب ترجمته و تقديمه للقراء أنه كان يرى أن ذلك سيسُد فراغا هائلاً في المكتبة التاريخية العربية، فيصل بذلك إلى القارئ العربي بعد أن وصل للقارئ الأجنبي، و في الترجمة العربية للكتاب لم يشأ سعد الله أن يغير من أصله شيئا و إنما قام بتنقيح و تصحيح بعض الأخطاء التاريخية و أثرى هوامشه بمراجع و أفكار جديدة و عاد بالنقد إلى النص نفسه فشذب و هذب ما وسعته المعرفة و الذوق، لأن العمل المترجم ليس كالعمل الموضوع، مع ملاحظة أنه غالبا ما إستعمل النطق الانجليزي و تهجية الأسماء الأجنبية، أما قسم البيلوغرافية فقد فضل الإبقاء على جميع المراجع كما هي حتى يسهل على القارئ المهتم الرجوع إليها في لغتها الأصلية بإستثناء المراجع العربية التي ظهرت في الأطروحة بالإنجليزية حيث أرجعها إلى لغتها الأصلية في قائمة خاصة و نشير هنا فقط أنه قام بإختصار أسماء الدوريات الطويلة لتسهيل البحث [3].

---

[1]- عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق، ص ص (107-108).

[2]- عبد المجيد قدور، "أبو القاسم سعد الله و تاريخ الجزائر المنقول عن الانجليزية"، المجلة العالمية للترجمة، منشورات مخبر اللغات و الترجمة، قسنطينة، العدد5، ص23.

[3]- للمزيد انظر:

و قد أختار الأستاذ سعد الله هذه الفترة (1900-1930) لأنها غالبا ما أهملت ممن أرخوا للحركة الوطنية الجزائرية، و سيجد القارئ في الكتاب معلومات ضرورية تتناول هذه الحركة في فصول الكتاب السبعة ،يعرج سعد الله في بداية الكتاب و كقاعدة بمدخل حقائقي عن السياسة الفرنسية في الفترة المعنية، ثم تليه دراسة مفصلة عن رد الفعل الجزائري لهذه السياسة، فدراسة الحركة الوطنية قد جاءت من خلال تعبيرها الثقافي و نضالها السياسي و نشاطاتها الإجتماعية، و مقاومتها العسكرية، كما أن كل حزب سياسي أو هيئة اجتماعية قد درست على حدى، كما أضاف الأستاذ سعد الله إلى ذلك تأثيرات الحركة الوطنية بالمذاهب المعاصرة لجامعة الإسلامية، و الشيوعية و الديمقراطية...الخ و مناقشة العلاقة بينهم، بالإضافة إلى مجموعة من الملاحق أدرجها المؤلف في آخر الكتاب[1] .

ويؤكد سعد الله أن العمل لم يأت لنقد الحكم الفرنسي بالجزائر، و إن كان يبدو كذلك للبعض "... فليس ذلك إلا نتيجة لطبيعة المشكل و فذاذة الوضع"، كما يؤكد أن الباحث مهما بلغ من التجرد لا يستطيع أن ينفصل عن زمانه و مكانه، عن مشاعره و ميوله الثقافية و السياسية ولاسيما إذا كانت تلك المشاعر ة الميول قد ولدت نتيجة هزة قوية تاريخية في حياته.

د- كتاب شعوب و قوميات:

كتاب شعوب و قوميات عبارة عن أبحاث مترجمة عن اللغة الإنجليزية تقدم بها مترجمنا إلى عدد من الأساتذة بجامعة مينيسوتا ليبدوا عليها ملاحظاتهم، و بعد مضي نحو 20 سنة قام سعد الله بترجمتها إلى العربية لعرضها للقراء الذين يهمهم أمر المسلمين في مختلف أنحاء العالم مثل أندونيسيا و تركيا..؟ وغيرهم، لأن الأبحاث تضمنت صراع الشرق و المغرب في القديم و الحديث، و كذا صراع الإيديولوجيات المعاصرة.

و قد ركز سعد الله في هذه الأبحاث على عناصر الصراع القومي، سواء كان الحديث عن حملة إسكندر الأكبر ضد الهند و فارس، أو عن آراء بوليبياس في الحضارة و القومة المحركة للتاريخ و غيرها، أو كان الحديث عن العلاقات، كالعلاقات البريطانية الهندية ثم الهولندية الأندونيسية، أو كان الحديث عن المعسكرين

-Aboul-kassem Saadallah,La montee du nationalisme en algerie, Traduit:Nevine Fawzy-Hemiry,N° 1, alger: (عالم المعرفة), 2015.P P (5-6)

[1]- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، المصدر السابق، ص-ص (7-12).

الغربي و الشرقي، و على العموم فإن خط سير هذه الأبحاث واحد و هو مسيرة الشعوب نحو التحرر و الإنعتاق من جهة، و تسلط القوميات بعضها على بعض من جهة أخرى.

ويؤكد سعد الله أنه لم يترجم كل ما عنده من أبحاث، فما يزال هناك العديد منها تنتظر الوقت المناسب لترجمتها و إضافتها إلى المجموعة، كما يؤكد سعد الله أن بعض الآراء الواردة في ثنايا الكتاب قد تحتاج إلى تعديل، نظراً إلى إكتشاف وثائق و قراءات جديدة جعلتها تحتاج إلى تعديل من ذلك مثلا آراءه حول مصطفى كمال أتاتورك، و حول السلطان عبد الحميد الثاني، و هناك بعض القضايا الأخرى التي ينقصها العمق و التوسع في الإطلاع مثل الحرب الأهلية الروسية و مسيرة الشيوعية في الصين...إلخ، و كان بإمكانه مراجعة ما جاء في هذه الأبحاث على ضوء ما وجد من نتائج، و لكنه عدل عن ذلك لأنه لو فعل لكان الأولى أن ينشر أبحاثه في كتب مستقلة بدل تنقيح هذه الأبحاث[1].

هـ – كتاب مع الأمير عبد القادر: رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837–1838م):

مؤلف الكتاب هو بيربروجير، و الكتاب عبارة عن رحلة أو بالأحرى تقرير إستخباراتي لما شاهده المؤلف و عاينه أثناء رحلته مع وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة، و جاء الوفد لإستطلاع نوايا الأمير يعد التنازع حول تفسير إحدى بنود معاهدة تافنة و المتعلق بالحدود الشرقية، فبينما رأى الأمير أن لديه الحق في إقليم قسنطينة إلى حدود تونس، فإن الفرنسيين توقفوا عند عبارة "وادي قدارة إلى قدام"، التي فسروها بأن الحق للأمير في شرقي العاصمة إنطلاقا من بودواو حاليا، و حتى يضع الأمير أعداءه أمام الأمر الواقع فقد قام مع جيشه بدخول قسنطينة و عسكر في برج حمزة نواحي البويرة و جبى الضرائب[2]، و نصّب خلفاءه على النواحي الشرقية مثل سطيف و الخصة و الزيبان...إلخ و هنا أحس الفرنسيون بالخطر، فقرروا إرسال وفد لإستطلاع نوايا الأمير في الجهة الشرقية.

وقد تألف الوفد من حوالي سبعة أوروبيين منهم بيربروجير– مؤلف الرحلة– و قرافيني[3] و ثلاثة جزائريين من الحضر إضافة إلى يهوديين من مدينة الجزائر (منها ابن داوران)، و يذكر سعد الله أن هذا الوفد في ظاهر الأمر غير عسكري و غير سياسي، فهو مُؤَلف من علماء و شخصيات مدنية مهتمة بالطب و الفن و

[1]– أبو القاسم سعد الله، شعوب وقوميات، المصدر السابق، ص–ص 09–10.

[2]– يعد جَبي الضرائب علامة على البيعة و الطاعة من أهل المنطقة.

[3]– **قرافيني**: كان قنصل الأمير لدى الفرنسيين، و الذي رفضوا الإعتراف به.

القانون، و لكن مهمة الوفد في حقيقتها مهمة سياسية إستخبارية تتمثل في جمع ما أمكن حول نوايا الأمير و إمكانات جيشيه و نفوذه وسط شعبه، و هنا تكمن أهمية الرحلة، كما تكمن أهميتها في كونها بقلم خبير شؤون الإستعمار، فمؤلفها هو أدريان بيريروجير و هو سياسي و مؤرخ و جاسوس و مستشرق فرنسي، و الذي يتأمل وصف الطبيعة و السكان و المشاعر و الطرقات و تفاصيل العادات و التقاليد في الرحلة سيدرك لا محالة أن مهمة بيربروجير غير عادية، و ليست هي كتابة رحلة من النوع الذي يعبّر فيه المسافر أو المشاهد عن مشاعره[1].

وهو ما حمل أبو القاسم سعد الله على ترجمتها، فالدارس الحصيف يكتشف لا محالة نوايا المؤلف الإستعمارية من جهة ومن جهة أخرى تلقي الضوء على كثير من الجوانب الدقيقة بغض النظر عن أهدافها، فهي تقرير مفصل عن وضع السكان الإقتصادي و السياسي و العسكري، و طبيعة الأرض و الطرقات التي مر بها الوفد. كما تصف حالة جيش الأمير النظامي و الإحتياطي، و خططه في توحيد البلاد، كما نعرف من هذه الرحلة تفاصيل هامة عن شخصية الأمير نفسه و عن شخصيات أخرى أمثال الحاج سيدي السعدي، و البركاني و عبد السلام مقراني،...إلخ كل هذا و ذاك حمل أبو القاسم سعد الله على ترجمته الكتاب و تقديمه للقراء.

2-2: المقالات وملخصات الكتب:

لم تقتصر الترجمة عند الأستاذ أبي القاسم سعد الله على ترجمة الكتب فحسب، بل ترجم العديد من المقالات و البحوث أيضاً، منها مقالات من تأليفه و أخرى من تأليف غيره، آثر ترجمتها لإستفادة القارئ المهتم منها، و نضيف إليها أيضا ملخصات بعض الكتب الأجنبية التي قدمها للقارئ، لأن تلخيص محتوى كتاب أجنبي لا يتم إلا بعد قراءته و التمعن في الأفكار الواردة فيه، لهذا ما قام به الأستاذ سعد الله يندرج في هذا المقام.

و سنكتفي هنا إلى الإشارة لها عبر قائمة فحسب، لأن التعرض لمحتواها يأخذ حيزاً كبيراً من الرسالة أو الرسالة بأكملها لأننا أمام رجل لم يترجم مقال أو مقالين بل عشرات المقالات، و كان بودنا إدراجها مع القائمة البيلوغرافية لمقالات الأستاذ سعد الله، إلا أننا عدلنا عن ذلك لأننا رأينا في ذلك هضم لتعب الأستاذ في

[1] – أدريان بيربروجير، مع الأمير عبد القادر، رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837-1838م)، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الجزائر: عالم المعرفة، 2014، ص ص(8-19).

ترجمتها لأن الثبت العام لمقالاته لا يوضح المقال المترجم من المقال الذي كتبه الشيخ في مختلف المجالات خصوصاً إذا علمنا أن الأستاذ سعد الله قد نشر العديد من هاته المقالات في المجلات و الجرائد، بالإضافة إلى كتبه ومن ثم لا يتضح المقال المترجم من عدمه إلا إذا قام الباحث أو القارئ بقراءة نص الترجمة.

و عليه ليسهل على القارئ معرفة مكان نشر المقال و الإطلاع عليه قمنا بإدراج جدول يتضمن جميع المقالات و الكتب التي قام بها الأستاذ سعد الله بترجمتها، و مكان نشرها و هي موضحة كما يلـــــــي:

أ- المقالات و الأبحاث:

عنوان المقال	إسم المـــؤلـــف	لغة الترجمة	مكان نشر (الكتاب)	مكان النشر (المجلة / الجريدة)	سنة النشر
ألبيركامو و الثورة الجزائرية	جورج ج جوايو	الإنجليزية	منطلقات فكرية	مجلة الثقافة	نوفمبر 1971
ثورة العالم الثالث	أبو القاسم سعد الله			مجلة الآداب البيروتية	مارس 1967
الثورة الثقافية في الصين	أ.ل ويلرايت	الانجليزية		مجلة المجاهد الثقافي	1967م
الحركة الوطنية الجزائرية 1930-19000	أبو القاسم سعد الله	الانجليزية	أبحاث و آراء في التاريخ الجزائر (الجزء الأول)	مجلة ديسيرتيشن أستراكتتر	1966م
إنغيلز و إحتلال الجزائر	فريد يك أنغليز	الانجليزية		جريدة الشعب	1976م
أول اتصال للأمير عبد القادر بالبريطانيين و الأمريكيين	رافائيل دانزيقر	الانجليزية		مجلة الغرب الإسلامي	1974م
الجزائر و الحملة الفرنسية 1830	أبو القاسم سعد الله	الانجليزية		مجلة الجيش	نوفمبر 1970م
العلاقات الدبلوماسية بين أمريكا و دول المغرب العربي	ري و.ارفينغ	الانجليزية		مجلة المجاهد الثقافي	1969م
الدولة و المجتمع في افريقية الشمالية	ليون س براون	الانجليزية		مجلة الدراسات الإفريقية الحديثة المجاهد الثقافي	1967 يناير 1968م
فرنسا وبريطانيا و احتلال الجزائر 1830-1948م	ج.سوين	الانجليزية		/	/
العلاقات الجزائرية الأمريكية 1830-1976م	أبو القاسم سعد الله	الانجليزية		مجلة المعرفة الجزائرية	نوفمبر 1964م

عريضة الأمير خالد إلى الرئيس الأمريكي ويلسون 1919م	الأمير خالد	الانجليزية	أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر (الجزء الثاني)	مجلة التاريخ	1981م
سياسة فرنسا نحو الجزائر في القرن 19	أبو القاسم سعد الله	الانجليزية		/	/
موفق أمريكا و الجامعة العربية من حوادث 8 ماي 1945م	أرشيف الو.م.أ	الانجليزية		مجلة التربية	جويلية-أوت 1982م
رحلة الأغواطي في شمال إفريقيا و السودان و الدرعية	الحاج ابن الدين الأغواطي ترجمة ويليام ب.هودسون	الانجليزية		مجلة التاريخ	1982م
نجم الشمال الإفريقي و جذور الحركة الوطنية	إيمانويل سيفان	الانجليزية	أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر (الجزء الثالث)	جريدة الشعب	ديسمبر1987م
نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري	أبو القاسم سعد الله			جريدة الشعب	مارس 1987
ترجمة كتاب الجزائر تمرد و ثورة	جون غلسباي	الانجليزية			
وثائق عن الجزائر في مكتبة جامعة مينيسوتا	وثائق	الانجليزية		مجلة الدراسات التاريخية	
رحلة تاسكا الايطالي سنة 1966م	تاسكا	الانجليزية			
المعاهدات الجزائر – هولندا سنوات1713/680-1757-1726م		الانجليزية		/	/
معاهدات الجزائر –انكلترا 1678-1671				مجلة الشرطة	1987م
زيارة الداي حسين باشا لباريس 1831	أوغستين جال	الفرنسية			
رسالة من الشيخ العنتري الفلسطيني إلى المترجم فيرو	العنتري أحمد	الفرنسية	أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر	مجلة الدراسات التاريخية	1986م

الاستعمار و الثقافة الشعبية في الجزائر	إيمانيول سيفان	الانجليزية	(الجزء الرابع)	جريدة الســـــلام	1991م
انتفاضة 8 مايو 1945م	مانفريد هالبيرن	الانجليزية		جريدة المجاهـــــد	أبريل 1990م
حولة رحلة ابن طوير الجنة	نوريس	الانجليزية	تجارب في الأدب والرحلة	مجلة مجمع اللغة العربية	/
رحلة الأمير الألماني موسكاو في عنابة	بوكلر موسكاو	الانجليزية		مجلة الثقافة	1977م

ب- تلخيص محتوى الكتب:

عنوان الكتاب	المؤلف	لغة الترجمة	مكان نشر الكتاب	مكان نشر المجلة	سنة النشر
أثر الجزائر في الأدب الامريكي: الجاسوس الجزائري في بنسلفانيا	بتر ماركو	الانجليزية	أفكـــار جامـحـة	مجلة الثقافة	مارس- أفريل 1985م
أســـــير الجزائر	ريال تولر	الانجليزية			
مؤلفات وليام هودسون عن اللغة البربرية	وليام هودسون	الانجليزية			
مأساة بربرية	جون براون	الانجليزية			
الأستاذ جوليان و التاريخ الجزائري	شارل أندري جوليان	الانجليزية	أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر (الجزء الأول)	مجلة المعرفة	ماي – جوان1965
الجزائر في مؤلف انجليزي قديم سنة 1731م	جوزيف مرقان	الانجليزية		مجلة الأصالة	ماي – يونيو 1972
عصر التجارة الذهبي بين المغرب العربي و افريقية السوداء	أ.و. بوفيل	الانجليزية		المجاهد الثقافي	يونيو 1969م
حول مذكرات الحاج أحمد باي قسنطينة	أحمد باي	الفرنسية		/	/
تاريخ الثورة الجزائرية او كتاب (حرب وحشية للسلام	اليستير هورن	الانجليزية	أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر	مجلة التاريخ	1982

الجزائري 1954-1962)			الجزء الثاني		

تطرقنا من خلال ما سبق إلى جهود أبي القاسم سعد الله في ترجمة الدراسات الأجنبية، و لعل السمة الغالبية عليها أو تكاد تكون كاملة هي الترجمة من اللغة الإنجليزية بالمقارنة مع الفرنسية و هي قفزة نوعية لما تعوده المترجمون الجزائريون الذين ينقلون في العادة من اللغة الفرنسية فترجمتها من اللغة الانجليزية مكسبا بالنظر إلى قيمة ما ترجم و أهميته في دراسة تاريخ الجزائر، بالإضافة إلى ما ترجمه من وثائق و معاهدات كانت خير شاهد على حقب تاريخية فلو لم يترجم أعمالها الأستاذ سعد الله لاكتسحها طي النسيان، و من هنا يبرز المجهود الذي قام به مترجمنا في نقل هاته الدراسات إلى اللغة الأم، و إتاحتها أمام القراء و طلاب العلم للإستفادة منها.

ثالثا:منهجية و خصائص الترجمة عند أبي القاسم سعد الله :

1- منهجيته في الترجمة:

سنحاول في هذا العنصر تقصي منهجية الأستاذ سعد الله في الترجمة ، و لتبيان ذلك سنركز بالدراسة على كتابيه المترجمين إلى الإنجليزية، "الجزائر و أوربا" لجون بايتيست وولف، و كتاب "حياة الأمير عبد القادر" لشارلز هنري تشرشال، وللتذكير فقط؛ فإن لأبي القاسم سعد الله عددا كبيرا من الأعمال المترجمة، شملت بحوث و مقالات ...إلخ. و تركيزنا على النموذجين أعلاه لأنهما من بين أهم الأعمال المطولة و الجادة في الترجمة عند أبي القاسم سعد الله و بالتالي وضوح أكثر لمنهجية سعد الله في الترجمة، كما أن للكتابين قيمة علمية كبيرة لدراسة تاريخ الجزائر، فآثرنا إختيارها لتوضيح منهجه ، و لعل من بين أهم النقاط التي إستطعنا الخروج بها من خلال ذلك نوردها فيما يلي:

1-1: أسلوب الترجمة:

يجمع الدارسون في حقل الترجمة على أن من أعظم مشاكل الترجمة هي عجز المترجم في توصيل المعنى الدقيق لأية مفردة في النص الذي يريد نقله الى لغة أخرى، إذ أن لكل لغة طابع خاص في تركيب الجمل و ترتيب مفرداتها، فمثلا اللغة العربية تحمل في طياتها الجملة الأسمية و الجملة الفعلية، بينما لا توجد الجملة الأسمية في اللغة الإنجليزية، و بالتالي فإن إختلاف التراكيب القواعدية للغات و عدم وجود مقاييس واضحة لنقل

التراكيب يزيد من مشاكل الترجمة فعلى المترجم الكفء الاختيار الناجح للكلمة، و إختيار المرادف المناسب ذو المعنى القريب[1].

و هذا ما يمكن أن نلمسه في صياغة الأستاذ سعد الله لنصوصه المترجمة فقد تمكن إلى حد كبير من إنتقاء عبارات و ألفاظ مناسبة، مع قدرته على التنسيق بين معاني الجمل و التعبير على معنى الكلمة الأجنبية بكلمة عربية مطلقة، و من ثم صياغتها بأسلوب شيق يمكن القارئ لها من فهمها دون صعوبة، فيبدو النص المترجم و كأنه نص أصيل لا تظهر عليه آثار الترجمة سواء في ألفاظه و تراكيبه أو معانيه و أسلوبه، و هذا لا يتأتي إلا بالقراءة المتكررة و المتأنية لمادة الترجمة مع تحكم و إتقان جيدين للغتين المنقول إليها (اللغة العربية) و المنقول منها (اللغة الانجليزية)، فبقدر ما يكون المترجم متمكنا من لغات عمله و عارفاً بالخصائص المميزة لكل منهما وواعيا بالتأثيرات التي قد تسلطها إحداهما على الأخرى يضمن لنفسه أكثر ما يمكن من حظوظ النجاح في صياغة نصه صياغة متينة[2].

أضف إلى ذلك أن كل لغة لابد أنها تنتهي إلى ثقافة معينة و بالتالي فإن المترجم قد ينقل الكلمة إلى لغة أخرى و لكنه لا يستطيع أن ينقل ثقافة هذه الكلمة بشكل فعال، و عليه كان من الضروري أن ينسجم كل مترجم محترف مع ما يترجمه من فكر انسجاماً مادياً و معنوياً، أي من حيث دراسة البيئة التي أتيح فيها النص الأصيل و كذا معرفة الخلفية الثقافية التي تمثل مرجعية المؤلف نفسه، فالأستاذ سعد الله لا يكتفي بالقراءة الصطحية للنص و إنما يقرأه قراءة عميقة لإدراك مراميه و مقاصده في ثقافته الأصلية لينقل ذلك الفهم الدقيق إلى جمهور المتلقين بأمانة علمية، تراعي مضمون النص الأصلي من جهة، و لكنها لا تغفل أو تجاري ذاتية النص أو إنحراف أفكاره جزئياً أو كلياً، فسعد الله من خلال النص المترجم يقوم بتدقيق و نقد و تصحيح دون المساس في أصل المادة بل يضيف ما يضيقه إلى ذلك بعيداً عن تشويه المادة العلمية الأصلية للنص[3].

---

[1]- فيليب صايغ، جان عقل، أوضح الأساليب في الترجمة والتعريب، ط5، لبنان: مكتبة لبنان ناشرون، 2005، ص ص (6-7).

[2]- محمد شوشاني عبيدي، الأستاذ أبو القاسم سعد الله مترجما، أعمال الملتقي الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا و مفكراً، ...المرجع السابق، ص 401.

[3]- زين الدين بن موسى "شخصية المترجم كيف يجب أن تكون من خلال بعض أعمال أبي القاسم سعد الله، المجلة العالمية، للترجمة، المرجع السابق، ص34.

و فيما يلي نورد بعض الأمثلة من كتاب تشرشال عن حياة الأمير عبد القادر ، متبوعة بترجمة الأستاذ سعد الله لإبراز أسلوب الأستاذ سعد الله في الترجمة و آلية تغلبه عن بعض الصعوبات اللغوية التي تنتشر في مختلف صفحات الكتاب.

مثال1: النص الأصلي: الصفحة (26-27):

"Just as the sun s slanting rays peered over the heights of Djebel Nusmut, lighting up this scene as if by magic brightness, the shrill cries of the women, the shouts of the men, and incessant crashes of musketry, announced the approach of the royal cavalcade. First came a chosen band, escorting the standard of the Djehad. Then followed the chiefs of the Beni Amer , the Beni Mejaher , the Beni Yacoub ,the Beni Abbas , on their high-mettled steeds, with their brilliant equipments, and well-burnished arms. Now appeared Abdel Kader – a plain, unornamented, red burnous flung over his shoulders, riding his favourite black charger. The chiefs of the Beni Hashem, his own tribe, brought up the rear of the splendid cortège" [1] .

الترجـــمـــــة:

"و في اللحظة التي بدأت فيها أشعة الشمس المائلة تنبسط على جبل مسمط مضيئة هذا المشهد كما لو كانت لألاء سحريا، كانت زغاريد النساء و تهاليل الرجال وطلقات البنادق التي لا تنقطع تعلن قدوم الموكب الرسمي، تقدمت أولا كوكبة من الفرسان حاملة راية الجهاد، ثم تلا ذلك رؤساء بني عامر و بني مجاهر، وبني يعقوب، وبني عباس، على صهوات خيولهم المندفعة بعتادهم اللامع و أسلحتهم المصقولة ، ثم ظهر عبد القادر الذي كان بسيطا بلا زينة، يغطي كتفيه برنس أحمر، و ممتطيا صهوة جواده الأسود المفضل، و كان رؤساء بني هاشم، قبيلته هو، في مؤخرة الموكب العظيم".[2]

[1] -Colonel Churchill ,The life of Abdel Kader, ex-sultan of the Arabs of Algeria; written from his own dictation, and compiled. from other authentic sources. Chapman and Hall 193 Piccadilly .London 1867 ,p p (26-27).

[2]- شارلز هنري تشرشال، المصدر السابق، ص84.

مـــلاحظات:

نشير هنا إلى براعة مترجمنا في حرصه على أحداث نفس الأثر الذي تركه المشهد التصويري خلال وصفه قدوم الأمير عبد القادر، أما شكله في موكب ملكي يضاهي الملوك و الرؤساء، فنلاحظ براعة و صف تشرشال لهذا الفصل من حياة الأمير و القبائل تتدافع عليه و الناس يهتفون بإسمه و يهللون له، ويمكن له إذا ما حاولنا مقارنتها بالترجمة فنلاحظ براعة أخرى و خلق جديد و كأن الأستاذ المترجم هو من كتب الكتاب. و في أول سطر ورد اسم جبل نسموط (Wusmut) الذي لم يجده المترجم إلا بعد التأكد بنفسه عند زيارته للمنطقة، وسؤال أهلها وهو غير الاسم الأصلي (جبل مسمط)، وهي رسالة بعث بها الأستاذ سعد الله لكل مشتغل بهذا المجال بضرورة التثبيت من المفاهيم و أسماء الأماكن و المدن...الخ. حتى تكتمل الصورة و تتضح المادة المكتوبة للمتلقي[1].

كذلك في إراده وصف صرخات النساء الحادة (Shrill cries) و عويل الرجال وصراخهم (Shouts)، لا يوكب وصف الموكب الذي يسير فيه أمير من الأمراء إذا ما إلتزم المترجم بحرفية الترجمة و قدم المقابل اللغوي لكل كلمة، فالأستاذ سعد الله ترجمها بالزغاريد و التهاليل المبشرة التي تعبر عن الفرحة و السرور عند الرعية بقدوم أميرهم، كما أنه لجأ إلى الترجمة بالمعنى و حذف كلمات من الأصل، ثم أبدلها بكلمات أخرى تؤدي معناها فليست الصفة Royal(رسمي) باللغة العربية هي ملكي (كلمة المترجم)، و (Chosen band) ليست فرسانا و إنما مجموعة منتقاة و مختارة، و لكن المجموعة التي تحمل راية الجهاد هي مجموعة الفرسان التي تتضمن بالفروسية و المهارة الحربية[2].

– ترجمة العناوين:

إن القارئ لترجمات الأستاذ سعد الله للعناوين التي إختارها يلاحظ بأن أغلبها تتميز بتغيير في العناوين لأسباب متعددة تتعلق بآراء المترجم نفسه أو لأهداف مدروسة تفرضها الحاجة أحيانا، و ما يُلاحظ في ترجمة تلك العناوين هو الأسلوب البليغ الذي يجذب القارئ المتصفح للكتاب، فعنوان الكتاب كما شبهه الأستاذ بن عبد الله الأخضر " بالإشهارية المضيئة المعلقة أعلى بيوتات التجارة بغية اقتناص النظر و مغنطة الحواس...و المترجم بدوره لا بد له من إحضار ذلك التلألؤ والبريق و الإصرار على عدم الإضرار لا يبعده الدلالي ولا

[1]– محمد شوشاني عبيدي، المرجع السابق، ص396

[2]– نفسه، ص 397.

الجمالي"[1]. لذلك نجد مؤرخنا قد شزب وهذب وغيّر بعض العناوين، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن إشكالية ترجمة العناوين من أصعب المهمات التي تواجه المترجم في ترجمته للكتاب، فهو صورة لما تضمنه النص و صورة للقارئ، إما أن يكون نقطة جذب أو نفور، و ذلك فقط من خلال عنوانه و هنا تكمن صعوبة ترجمته في الغالب، وهو معطى لا يمكن إدراكه دون قراءة النص و إستيعاب معانيه، و في الكتابين محل الدراسة نجده قد أبدل بعضها و أختصر الآخر و هما كما يلـــــــــــي:

- **كتاب جون بايتست وولف:**

– **العنوان الأصلي**: The barbary Cost.Algiers Under The Turki155-1830

– **الترجمة الحرفية**: الساحل البربري: الجزائر تحت الأتـــــــراك.

– **ترجمة المترجم** : الجزائر و أروبا (1500-1830م)،

نلاحظ أن عنوان المترجم مغاير تماما للعنوان الأصلي، ذلك أن المؤلف حسب سعد الله من خلال عمله حكم حكما على الجزائر و إتهامها بالضعف و التبعية، و المترجم دفاعاً عنها و لغيرته على وطنه، غير العنوان بما يوحي بالنديه ليحفظ لبلده مكاتنها و لكي لا يشعر قارئ النسخة العربية بالسوء[2].

- **كتاب شارلز هنري تشرشال:**

– **العنوان الأصلي للكتاب**: The life of Abdel Kader, ex-sultan of the Arabs of Algeria; written from his own dictation, and comp. from other authentic sources. By Colonel Churchill

– **الترجمة الحرفية**: حياة الأمير عبد القادر السلطان السابق لعرب الجزائر، كتب من مذكراته و جمع من مصادر موثوقة أخرى من طرف الكولونيل تشرشال.

– **ترجمة المترجم**: حياة الأمير عبد القادر.

[1] – الأخضر بن عبد الله، "إشكالية ترجمة العنوان ، قراءة في عناوين" جريدة المؤتمر، العدد 2983 ليوم حزيران 2014م

2- جون وولف، الجزائر وأوروبا، ترجمة: أبو القاسم سعدالله، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م، ص 7.

و الملاحظ أن المترجم قد قام بتقليص جملة كاملة في الأصل إلى ثلاثة كلمات، مرد ذلك في نظره أن الكتاب يتكلم بالأساس عن حياة الأمير عبد القادر، الذي هو أشهر من علم في تاريخ الجزائر بصفة خاصة و العالم العربي عامة، فلا حاجة لإعلامه بأنه سلطان عرب الجزائر، فهو أميرهم و قائد ثورتهم اتجاه المستعمر.

1-2: العتبات الترجمية:

يقصد بالعتبات الترجمية الموضع الذي يمارس فيه فعل التأطير في ترجمات الكتب و المقالات، وهي ما يستخدمه المترجمون و الناشرون بالشرح و التعليق و النقد، ودحض بعض أفكار النص المترجم أحيانا، أو للتعليقات و التوضيحات و تصحيح المعلومات و الأخطاء الواردة في المتن أو النص الأصلي المترجم، و تشمل صورة الغلاف و كلمة الناشر و المقدمة و التصدير وا لهوامش...وغيرها ، و قد وظفها مترجمنا توظيفا واسعا ليسهل على القارئ فهم النص المترجم، أو لينبهه إلى المزالق و الإنحرافات و هي كما يلي:

2-1: إحالات و تعليقات المترجم:

ساهم أبو القاسم سعد الله إلى حد كبير في إثراء الترجمة التي قام بها في الهامش قصد شرح و توضيح ما من شأنه أن يكون حائلا دون فهم المعنى المقصود، و قد تعددت أشكال الإحالة في هذا المجال، كتعليقه على إستعمال مصطلحات فمرة يؤول المعنى الذي قصده الكاتب أو يفسر مصطلحا ورد في النص أو بديل للمصطلح الذي استعمله الكاتب، أو تصحيحه آية و تخريجها، و سنعمد إلى إدراج بعض الأمثلة التي أشار لها المترجم و دورها في تجلية الكثير من الأفكار التي وردت في المتن، فلولا وجود ما يوضحها في الهامش لإلتبس الأمر على الكثير من الباحثين .

أ- ترجمة الأعلام:

استطاع أبو القاسم سعد الله أن يميط اللثام عن جملة من الأعلام للتعريف بها عند الحديث عنها في المتن، أو توضيح محلها من الحدث التاريخي أو من الشخصية محل الدراسة...، و كثيراً ما اكتفى المترجم بالإحالة لها عبر ذكر المناصب التي تولتها، دون الإشارة إلى تاريخ ميلادها أو وفاتها في أغلب الأحيان، ومن أمثلة ذلك:

يقول المؤلف: "إنَّ أعدادك كثيرون وقد خفت أن تقع في يدي داي الجزائر الذي قد دخلت ترابه بطريقة أعرف أثارت شكوكه".

يشير أبو القاسم سعد الله في الهامش إلى اسم الداي الذي أشار إليه المؤلف، ففي مثل هذا الموضع يكون لقب الداي عامةً نظراً لكثرة الدايات الذين تعاقبوا على الجزائر أثناء حكم العثماني، فأشار سعد الله إلى اسمه كاملا و فترة حكمه يقول في الإحالة "هو حسين باشا داي الجزائر عند دخول الفرنسيين سنة 1830م"[1].

يقول المؤلف: "فإقليم وهران قد قسم إلى منطقتين كبيرتين وضعتا تحت قسم خليفتين، منطقة الشرق مقسمة بدورها إلى سبع نواحي كل ناحية تحت آغا و كان خليفته عليها ابن صهره مصطفى بن التهامي ".

عند ترجمة سعد الله لشخصية بن التهامي، أشار إلى قرابتها من شخصية الأمير، فلولا الإبانة التي عقّب بها المترجم لما اتضح بأنه من عائلة الأمير و ذلك كما جاء في هامش المترجم: "كان ابن عمة الأمير و قد ولاه عدة مناصب منها خليفته على معسكر و قائد دائرته بعد هزيمة الزمالة، و كان في نفس الوقت من كتاب العصر"[2].

يقول المؤلف "و بغزو غوستاف أدولف G.Adolph لألمانيا ثم موته و تفكك التحالف البروتستانتي من قبل الفرنسيين، من معركة نوردلنغين Nourdlingen إلى سلام براغ".

قام المترجم بترجمة لـــ غوستاف أدولن في الهامش بقوله: "غوستاف أدوف هو ملك السويد عندئذٍ"[3].

و نجد المترجم في بعض الأحيان يحيل القارئ لترجمة الشخصية في إحدى دراساته السابقة خصوصاً كتابة تاريخ الجزائر الثقافي مثال ذلك:

يقول المؤلف "و كان يسود الجزائر عندئذٍ الخوف من الغزو، فأمر يوسف باشا بضريبة خاصة لتحصين أسوار المدينة ".

يحيل سعد الله القارئ لترجمته يوسف باشا بقوله " تولى يوسف باشا السلطة في الجزائر عدة مرات، أنظر عنه كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي)، ج1. أنظر عنه كذلك (أربع رسائل من بشوات الجزائر و علماء عنابة) في كتابنا (تجارب في الأدب و الرحلة)"[1].

---

[1]- انظر هنري تشرشال، المصدر السابق، ص67.

[2]- نفسه، ص86.

[3]- انظر جون وولف، المصدر السابق، ص288.

ب- ترجمة المصطلحات:

لقد واجه سعد الله العديد من الصعوبات في ترجمة المصطلحات، نظراً لصعوبة التعامل مع الحروف اللاتينية، لا سيما عند كتابة أسماء الأماكن و القبائل و أسماء الأعلام حال دون يسر الترجمة، يقول الأستاذ سعد الله في ذلك " فنقل الكتاب من لغة أجنبية إلى العربية يستلزم إعادة كثير من الألفاظ و المصطلحات إلى أصلها العربي نطقاً و كتابة و إنّ نقل النص من لغة ذات حروف لاتينية الى أخرى مماثلة ليس فيه مشقة البحث عن أصول الكلمات العربية كالتي يواجهها من ينقل من لغة ذات حروف لاتينية إلى العربية"[2].

فنجده عند ترجمته لكتاب "حياة الأمير عبد القادر" و من أجل التدقيق في بعض الأسماء تحمل مشاق و عناء التنقل إلى مدينة معسكر التي كانت مسرحاً لحياة الأمير و الأحداث التي وقعت فيها، و خالط اهلها و سألهم عن كثير من المصطلحات و كيفية نطقها ليتأكد من الكتابة الصحيحة لتلك المفاهيم و المصطلحات، و هذا ما يؤكد على قيمة النص المترجم إن كان صاحبه ممن عايش مسرح الأحداث أو أنه عاينها عن قرب، عالما بالخصوصيات الثقافية لهوية الحدث التاريخي محل الترجمة[3].

و بذاك أثرى الأستاذ سعد الله المكتبة المعجمية العربية بكم هائل من المصطلحات و المفاهيم، إذ علق على إستعمال المصطحات بتصحيحه لها أو تفسير محلها من الصياغة أو تقديم بديل للمصطلح الذي إستعمله الكاتب أو حتى تقديم تأويل للمعنى الذي قصده الأخير و الأمثلة كثيرة سنحاول إبراز بعضها و دور المترجم في الإحالة لها:

- **إقتراح مصطلح:**

لا تخلو تقريبا أي ترجمة لكتاب من إقتراح مصطلحات كبديل للمصطلحات التي إستعملها الكاتب أو تصحيح لخطأ إستعمال تلك المصطلحات، و نجد المترجم قد اقترح العديد من المصطلحات في الكتابين محل الدراسة منها:

---

[1]- جون وولف، المصدر السابق، ص289

[2]- هنري تشرشال، المصدر السابق، ص ص (25-26).

[3]- لونيسي ابراهيم، أبو القاسم سعد الله و نصف قرن ...، المرجع السابق ، ص 324.

-كتاب حياة الأمير عبد القادر:

يقول المؤلف "... المسلمون الذين كانوا يسكنون المدن الساحلية و الذين فروا من الفرنسيين، كانوا مشردين في ذعر و يأسٍ مع عائلاتهم و كان **العرب** يقطعون عنهم الطريق وينهبونهم بدون رحمة".

يقترح المترجم المصطلح المقصود في صياغة الجملة بقوله: " يبدو أن المؤلف يقصد (الأعراب) لأنه يستعمل لفظ العرب في مناسبات أخرى في غير هذا المعنى و هذا الاستعمال شائع في الكتاب"[1].

-كتاب الجزائر و أوربا:

يذكر سعد الله أن المُولَف قد احتوى على مصطلحات معروفة، و لكن المؤلِف لا يسير عليها بانتظام مثل الجزائر Algiers التي تعني المدينة، ولكن المؤلف يقصد بها القطر الجزائري في أحيان كثيرة، و مثل المغرب The Maghrib الذي يستعمله المؤلف في هذا المعنى المغرب العربي اليوم و شمال إفريقية، بل أحيانا يطلقه على الجزائر فقط، أما كلمة بربارية Barbary التي تعني شمال إفريقيا عند الأروبيين[2].

و عليه فإن المترجم يشير الى أنه خلال البحث كله ترجم كلمة :

المغرب العربي ⟵ Maghrib .

مراكش ⟵ Morouceo.

شمال إفريقية ⟵ North africaو Barbary Cost [3]

كما أن المؤلف في مواضع كثيرة لا يفرق بين القبائل أهل زواوة و بين القبائل البدوية، فقام الأستاذ سعد الله بترجمة عبارة Kabylie بأهل زواوة، و عبارة Tribesmen بالقبائل البدوية، أو أهل الريف[4].

- **تصحيح مصطلح:**

و في ما يخص تصحيحه لبعض المصطلحات الواردة في المتن من أمثلة ذلك:

---

[1]- انظر ، هنري تشرشال، المصدر السابق، ص77.

[2]- انظر، جون وولف، المصدر السابق، ص09..

[3]- نفسه، ص17.

[4]- نفسه، ص27..

-كتاب الجزائر و أوربا:

في متن الصفحة 174، كتب المؤلف كلمة daskarats ⟵ فصححها المترجم في الهامش: يقصد دشرات و ليس دسكرات.

في متن الصفحة 182،كتب المؤلف كلمة Moors يقصد بها الحضر ⟵ فصححها المترجم في الهامش: بـــ المغاربة و ليس الحضر لأن المؤلف كان في سياق الكلام يتحدث عن بعض أصل سكان الأندلس.

-كتاب حياة الأمير عبد القادر:

يقول المؤلف: " لا تكاد تقارن الأعمال التي قامت بها والدة السلطان لاللا الزهرة تلك المرأة الوديعة المهذبة".

قد وقع المؤلف في تحريف عند ذكره لإسم ' لاللا '، حيث أورده في مواضيع كثيرة بكاتبة إسم ليلى (leila) و الإسم المذكور له خصوصية إجتماعية في المجتمع الجزائري لا يدرك فحواها إلا من عايش المجتمع الجزائري[1].

يقول المؤلف:"و في عمق الليل أسرع فارس تركي و ترجل عند خيمة محي الدين، لقد كان يحمل خطاباً من **حسين باي** وهران".

أورد المؤلف إسماً لأحد البايات بقوله ' حسن' بينما صوابه كان ' حسين' وهو آخر بايات الغرب الوهراني، فلولا الضبط الدقيق من المترجم للاسم لما ظهر الفرق بين الحسن و الحسين، فهو من الأسماء التي قلما يهتدي المؤلف الى تحديد الفرق بينهما[2].

- **شرح مصطلح:**

آثر الأستاذ سعد الله شرح بعض المصطلحات التي من شأنها توضيح معناها لدى القارئ الجزائري بصفة خاصة و العربي بصفة عامة ليكتمل فهم سياق المعنى العام لها من أمثلة ذلك:

---

[1]- انظر، هنري تشرشال، المصدر السابق، ص264.

[2]- نفسه، ص 144.

-كتاب حياة الأمير:

يقول المؤلف:"فالكتب التي أحضرتها من كل أجزاء الشرق لهذه المكتبة أخذت مني عندما إستولى ابن الملك على زمالتي".

قام المترجم بشرح كلمة الزمالة: جمعها (زمول) مجموعة من القبائل المتنقلة.[1]

يقول المؤلف: "و بعد أن وجدوا أنفسهم مهاجمين من الأمام و مهددين من الخلف ترددوا و إنحلت عزيمتهم و فروا و إنقض لاموسيير بقوات الزواف التي معه".

يعرف المترجم كلمة قوات الزواف: بأنها فرقة من الأهالي و الفرنسيين، و أصلها الزواويون نسبة الى الزواوة"[2].

-كتاب الجزائر و أروبا:

في كتاب الجزائر و أروبا نجد المترجم قد إستغنى عن شرح الكلمات و اكتفى بما أورده المؤلف فقط، فرأيه أن القيام بشرح العمل الذي ترجمه المؤلف ليس من إختصاصه ؟؟ و إذا كان غير ذلك فإنه يفضل أن يؤلف كتاباً من عنده ويريح المؤلف الاصلي و القراء معاً.[3]

جـــ- إحالاته على الأحداث التاريخية:

لا تقل اهمية هذه الإحالات عن سابقتها، حيث حوى النص المترجم بعض الأحداث التاريخية، أشار لها المترجم من امثلة ذلك:

-كتاب حياة الأمير:

يقول المؤلف:" و قد إجتاز عبد القادر وادي الشلف و سار نحو المدية، متبوعاً بكل فرق فرسان وهران، بفرقتين من جيش المشاة النظاميين، و بأربع قطع من المدفعية، إن قيصر قد اجتاز الروبيكون Rubicon ".

---

[1]- هنري تشرشال، المصدر السابق ، ص184.

[2]- نفسه، ص243.

[3]- انظر جون وولف، المصدر السابق، ص11.

حوى النص إشارة جغرافية تدل على نهر في أروبا (Rubicon)، إستطاع من خلالها المترجم أن يحيل القارئ إلى حادثة تاريخية قبل الميلاد لها علاقة بإسم النهر بقوله: " الروبيكون نهر صغير في شمال إيطاليا إجتازه قيصر سنة 49 ق.م إتجاه رومة و بذلك بدأت الحرب الأهلية بينه و بين خصمه بومبي Pompey[1].

يقول المؤلف: " فإذا كانت هذه الوثيقة الشهيرة التي دعاها بسخرية من لا يعرف شيئاً عن السياسة في الشرق ماقنه كارته Magna charta مسيحي الشرق ستنفذ بحذافيرها فإن مكانة الترك و المسيحيين كمجموعة من الدول العثمانية ستنقلب في الوقت المناسب...".

تعد وثيقة المناقنة كارتة من أشهر الوثائق التاريخية و السياسية التي تضمنت الإعتراف ببعض حقوق الشعوب في الحريات المدنية و السياسية، و قد تمكن الأستاذ سعد الله من منحها البعد التاريخي الذي يوضح للقارئ خلفيتها السياسية حيث يحيل لها قائلاً: "الماقنة كارتة عبارة تعني الميثاق العظيم الذي أعلنه الملك جون الإنكليزي بتاريخ 15 جوان(يونيو) سنة 1925م، و الذي إعترف ببعض الحريات المدنية و السياسية للشعب"[2] .

هذا بالإضافة الى أن أبي القاسم سعد الله سعى أيضاً الى تصويب بعض الأخطاء التاريخية، نذكر على سبيل الحصر:

يقول المؤلف: "و بعد هذه المراسلة مع الحاكم الفرنسي أمر عبد القادر خليفته على مليانة، إبن البركاني أن يجمع قواته و أن يزحف على بسكرة".

استطاع المترجم تصويب الخطأ الذي صدر عن المؤلف بأن جعل ابن البركاني خليفة الأمير عبد القادر على مليانة في حين أنه كان خليفته على المدية[3].

-كتاب الجزائر و أوربا:

يقول المؤلف: "و كانت هذه المستشفيات مدعمة جزئيا بضريبة صغيرة تطوعية على البضائع المباعة من قبل التجار الأوروبين في الجزائر و هي الضريبة التي أصبحت إجبارية بمرسوم من الداي شعبان سنة1794" .

---

[1]-انظر هنري تشرشال، المصدر السابق، ص125.

[2]- زين الدين موسى، المرجع السابق، ص36.

[3]- انظر هنري تشرشال، المصدر السابق، ص213.

يشير الأستاذ سعد الله إلى الخطأ التاريخي المذكور إذ يذكر " أن شعبان باشا حكم أواخر القرن السابع عشر و ليس الثامن عشر، فالتاريخ المقصود إذن هو 1694م"[1].

يقول المؤلف: "فكان أن أغتيل بوشناق سنة 1805 وهو يغادر القصر و سارع الداي حسن بالاعتراف بأن العمل الذي قام به القاتل كان في صالح الدولة...".

يصحح الأستاذ سعد الله ذلك بأن الداي المعني بالأمر هنا هو مصطفى باشا و ليس الداي حسن كما ذكر المؤلف.[2]

د- تعقيبات المترجم على المؤلف:

لا يمكن أن يكون نص الـــمُـــؤلَّف ملكاً لصاحبه فحسب فإنتماؤه لمن ألفه لا يتعدى حقّه في قيمة أفكاره التي سجلها في ما كتب، فالقارئ هنا له أن يقبل أو يرفض ما وجده فيما قرأه و هذه الخاصية غامضة عند جمهور القراء حينما يرتبط ذلك بالذوق في المنتج الفكري، أما حينما يكون القارئ شخصية علمية، فإنه حتماً سيقدم لصاحب الكتاب خدمة من شأنها أن تضيف قيمة علمية أخرى للكتاب، كما هو الحال مع مترجمنا الذي لم يسلّم بجميع معطيات النص الأصيل، بل تعقب كلامه و أردف عليه زيادات أضفت قيمة علمية على الكتاب الأصل بحكم عمق الإختصاص في الجوانب التاريخية، و علاقته بالبيئة التي صوّرت مشاهدها في الكتاب، وهو معطى مكّن من تقديم و تعديل بعض الحقائق فشكلت بذلك جملة من الإعتراضات كادت أن ترتقي الى النقد الإيجابي لأن المترجم لم يكتف بالإشارة الى مواضع الزلل فحسب بل بيّن صوابها على نية المشاركة في تشييد الحقيقة العلمية، كما يجب أن تكون[3]. و قد حاولنا أن نرصد بعض ذلك الإعتراضات التي سجلها المترجم في الكتابين من بينها:

-كتاب الجزائر و أروبا:

يقول المؤلف: "...يمكن أن يقدم صورة لمجتمع جعلت أنماطه الإجتماعية التقليدية العريقة، ذات التنوع الكبير جعلت من الصعب إن لم يكن من المستحيل على أي حاكم أن يؤسس مجموعة متناقسة و متماسكة".

---

[1]- انظر جون وولف، المصدر السابق، ص234.

[2]- نفسه، ص442.

[3]- زين الدين بن موسى، المرجع السابق، ص-ص(38-39).

ينبه المترجم في هذا الخصوص القارئ العربي بصفة عامة و القارئ الجزائري بصفة أخص، أن المؤرخ الأمريكي جون وولف ما هو إلا إمتداد للمدرسة الفرنسية الإستعمارية، و ذلك أثناء دراسته للمجتمع الجزائري بتبرير فكرة عدم وجود وحدة سياسية قبل الإحتلال، وهذا ما يوضحه سعد الله في تعقيبه على ما صرح به المؤلف جون ولف :"يدل تحليل المؤلف هنا على أنه إنساق مع التحليل الفرنسي الإستعماري الذي كان يهدف إلى نفي وجود وحدة سياسية و تماسك إجتماعي للجزائيين قبل الإحتلال الفرنسي، و هو التحليل الذي كان منظّروا الفرنسيين يهدفون من ورائه إلى طرح نظرية، الإندماج من جهة و مقاومة تيار الحركة الوطنية من جهة أخرى"[1].

يقول المؤلف: " و ليس هناك أحد يزور المستعمرات الفرنسية القديمة اليوم و لا يرى الحقيقة، و هي أن فرنسا قد أعطت الكثير لهذه الشعوب خلال سنوات حكمها لهم".

فالمؤلف كما أشرنا آنفاً ما هو إلا إمتداد للمدرسة الاستعمارية في تمجيدها للإستعمار و الحط من قيمة الشعب الجزائري، يقول عن ذلك سعد الله: " تبنى المؤلف آراء المدرسة الفرنسية الإستعمارية ...حول نتائج الإستعمار و فوائده، و لاسيما مبدأ المهمة الحضارية الفرنسية-كما تتبنى الإمبريالية عمل الرجل الأبيض- و لو درس بموضوعية لعرف أن التعليم الذي أشار إليه كان أسطورة فقط و أن المهمة الحضارية لم تكن سوى مهمة تدمير حضارة أخرى بالعنف، رغم أننا لا ننازع في بعض النتائج التي أشار إليها"[2].

إن كتاب جون وولف ملئ بالتفاسير التي تحاول الحط من قيمة العمل الجزائري و العثماني و إضفاء الشرعية على تصرفات الساسة الأوروبين، و ملئ بالتعصب الديني و النزعة العنصرية و قد وفق المترجم إلى حد كبير في الرد و تعقيب على ما ورد في النص، و نحن إكتفينا بإعطاء نموذجين لذلك، و على القارئ المهتم الرجوع إلى ذلك في الكتاب لرصد الإعتراضات التي ساقها المترجم على مؤلِف الكتاب جون وولف.

-كتاب حياة الأمير عبد القادر:

يقول المؤلف: "و ليس هناك من كان يفهم طبيعة البلاد التي كانت موضوع النقاش، بل أن القلائل فقط هم الذين كلفوا أنفسهم عناء التعرف على هذا البلد، فكلهم كانوا يعلمون أن الجزائر كانت عشا للقرصنة أو أن حكامها كانوا أتراكاً متوحشين، و أن أهلها كانوا عرباً منحطين ".

[1]- جون وولف، المصدر السابق، ص178.

[2]- نفسه، ص455.

ما قلناه من قبل عن المؤلف جون وولف ينطبق عن المؤلف تشرشال في آرائه و تفسيراته و نظرة الأوربيين عموماً للجزائر .إذ نجد المترجم ينبه على ما ورد في نص المؤلف من سلبية الحكم ليفهم القارئ أي نص يقرأ. **يقول المؤلف:**"رغم أن هذه الفكرة قد تظهر في بادئ الأمر بعيدة المنال و لا يمكن أن نقدرها حق قدرها سلالة إعتادت منذ قرون على مد رقابها إلى النير الأجنبي و إختفت فيها منذ أمد طويل جميع مبادئ الوطنية"[1].

ينبه المؤلف القارئ بقوله " كلام المؤلف يشعرُ القارئ بأن هناك نوع من التحامل على أمّة العرب عموماً و الجزائريين خاصةً، كشفت بشكل و اضح تأثره بأصوله الأجنبية".

ه-إحالاته على النصوص الدينية:

في ترجمته الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية، نجد أن الأستاذ سعد الله يُترجمها أو يعيد رسمها في المثنى و أحيانا يشير إليها في الهامش حيث برز دور المترجم في تخريجها أو تصحيح تصحيفها، أو تبيان وجود الإقتباس و التضمين فيها ومن أمثلة ذلك:

- كتاب حياة الأمير عبد القادر:

إن المؤلف تشرشال في كتابه حياة الأمير عبد القادر لم يذكر مكان العديد من السور القرآنية، و إكتفى بالكتابة الإنجليزية القديمة التي يكتب بها الكتاب المقدس عندهم، ليوحي بقداسة النص و قدمه، و في كثير من الأحيان كان يأخذها مشافهة عن الأمير نفسه الذي خصه بلقاءات تحدث له فيها عن حياته من أمثلة ذلك:

يقول المؤلف على لسان الأمير عبد القادر "ولكنكم إذا اخترتم أن تسيروا في الطريق الذي سار فيه هؤلاء، فإن الله قادر على نصرنا على أعدائنا و على كل أولئك الذين يريدون أن يتعرضوا لنا بالظلم و العدوان فقد قال الله تعالى: "دع الظلم يسقط على رأس صاحبه، و قال أيضا من الأفضل أن تكون مظلوماً من أن تكون ظالماً ".

تضمن هذا ما يحيل إلى معنين أولهما نص الآية القرآنية، الأقرب إلى هذا المعنى قاربها المترجم في الهامش بقـــــوله تعالى﴿ولا يحيق المكرا السئ إلا بأهله﴾- فاطر43. وثانيهما لم يهتدي المترجم إلى أصل

[1]- زين الدين موسى، المرجع السابق، ص 38.

معناه، فقايسه على ما يناسبه من نصوص الحديث الشريف التي تتحدث عن الظلم، فأورد المترجم أقرب معنى لذلك قوله صلى الله عليه وسلم بالمعنى "لأن تلقي إليه مظلوماً خير من أن تلقاه ظالما"[1].

– **يقول المؤلف** على لسان الأمير في موضع آخر: " وإذا قلتم لي أن الشرق أقوى من الغرب، فإن جوابي هو أن الله قد بعث لي بالنصر لوضوح الأهداف التي تقودني و توجهني، و إلى جانب ذلك فأنتم تعلمون ما نص عليه القرآن الكريم من أن النمل يغلب الفيلة و أن الجرذان تقتل الأسود " .

يقول المترجم أنه لم يهتد إلى أصل هذا الكلام الذي يقول عنه المؤلف إنه من القرآن، و أن هناك آيات متعددة تتحدث عن البعوضة و النمل و الذباب و لكن ليس في هذا المعنى الذي أورده، غير أنه منحه معنى يقربه للذهن من خلال قوله تعالى: "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله "، و قوله تعالى: "و إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب و المطلوب".[2]

– **يقول المؤلف:** قال النبي " تزوج شاباً فإن الزواج يغض نظرة الرجل وينظم سلوك الفتاة".

فعبارة المؤلف تحيل على أكثر من معنى في الشريعة الإسلامية التي تحضّ على كبح جماح النفس و غرائزها و تهذيب أخلاق الفرد، إلا أن المترجم قارب المعنى الأصلي إلى أقرب نص يمكن أن يشرحه بقوله: "لعل تشرشال يشير بهذا الى الحديث " يا معشر الشباب من إستطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أحصن للفرج الخ...." [3].

1–3: التقـــديم:

في ترجمة الأستاذ سعد الله للنصوص غالبا ما يقدم للقارئ نصه المترجم، أو ما يمكن أن نسميه مدخلاً هو عبارة عن مقدمة أو تصدير يلقي فيهما الضوء على السياق الذي يحيط بالنص المترجم، بدءا بتعريف مؤلفه مروراً بالظروف السياسية و الثقافية، و الإجتماعية التي ظهر فيها النص، انتهاء بلفت انتباه القارئ إلى قيمة الكتاب أو إلى الأفكار المنحرفة التي تضمنها، و إلى الغاية و الأهداف التي يتواخاها من ترجمته للكتاب، و هو ما عرّج عليه في تقديمه للكتابين على الدراسة محل الدراسة، ذلك أنه تحدث في مقدمة كتاب جون وولف عن أهمية هذا المترجم و عن الآثار العلمية الجادة التي قرأها له سابقاً، و عن أهمية كتابه (ساحل شمال إفريقية الجزائر

[1]– انظر هنري تشرشال، المصدر السابق، ص218.

[2]– نفسه، ص198.

[3]– نفسه، ص 65.

تحت الأتراك 1500-1830م) إذ يعتبر آخر إصدارات البروفيسور وولف، و من ثمة فهو يمثل عصارة فكره و حصيلة تجاربه في الدراسات التاريخية، كما أن هناك نقطة هامة يبرزها الكتاب تضفي عليه قيمة خاصة و هي معالجته العلاقات الأوربية الجزائرية في حجمها الدولي و في محتواها الاقتصادي السياسي بينما عالج المؤلفون الآخرون هذا الموضوع في الغالب معالجة دينية أو وطنية ضيقة.

إلا أن المترجم في الوقت نفسه يبنه القارئ إلى بعض الحقائق التاريخية التي نقلها له، منتقداً الأفكار الإستعمارية الخاطئة التي صورها، فالمؤلف ما هو إلا إمتداد للمدرسة الفرنسية الإستعمارية في نظرتها الى سكان شمال إفريقيا، كما أن دراسة العلاقات بين الجزائر و أوروبا التي كانت محور الموضوع كانت مجالا لتحامل الكاتب على الجزائر بالمقابل تمجيد العمل الأوربي و إضفاء الشرعية على تصرفات الساسة الأوربيين...إلخ.

و نفس الشئ أشار إليه عند حديثه عن كتاب هنري تشرشال فكتابه الذي جاء على كل حال جامعاً لعدة جوانب إيجابية تفتقر إليها الأعمال الأخرى في الترجمة الشخصية للأمير سواء كانت عربية، أم فرنسية و مهما كان الهدف السياسي لتشرشال من كتابه سيرة شخصية للأمير، فإن عمله الذي جاء نتيجة تعارف و صداقة بينه و بين الأمير دامت حوالي عشر سنوات يعتبر من أفضل ما كتب عن الأمير.

و عليه يمكن القول إن المعطيات التي ساقها المترجم في المقدمة يمكن أن تكون إعادة توجيه خارجية للنصوص المترجمة نحو نوع مخالف من القراءة في بيئة لغوية و ثقافية مغايرة.

1-4: الفهارس و الملاحق:

ما يلاحظه القارئ أن المترجم وضع ثبتاً عاما على النسق العربي في آخر الكتابين ليسهل على لقارئ معرفة الأعلام و الأسماء و الأماكن و القبائل و الدول، و هو ما يؤكد حرص مترجمنا على التوثيق. و مثل هذا العمل جدير بالاهتمام في أعمال الترجمة.

و أهم تلك الفهارس التي ذيل بها الكتاب: فهرس الأعلام و الجماعات و الشعوب و القبائل ، و فهرس للأماكن و البلدان، كما زود كتاب تشرشال أيضا بفهرس لأسماء الأحداث و المعاهدات، و فهرس لأسماء الكتب و المجلات، كما أدرج المترجم في الجزء الخاص بالملاحق في نفس الكتاب عدة نصوص لمعاهدات و رسائل كانت بين الأمير و نظرائه من الفرنسيين منها: رسالة الأمير إلى هنري تشرشال و التي إجتهد المترجم في البحث عن نصها الأصلي باللغة العربية، لكي يقرأها المؤلف نفسه.

ففي هذا النموذج كان بوسع المترجم الاكتفاء بإرادها مترجمة بأسلوبها، و هو الذي جمع بين اللغتين العربية و الإنجليزية، إلا أنه نهج نهج الأمانة العلمية و أدرج النص بلغته الأصلية، يضاف إلى ذلك معاهدة التافنة التي نقلها الأستاذ سعد الله من المجلة الأفريقية، كما ترجمها برينسي(Bresnir)، و هناك أيضا معاهدة ديمشال التي نقلها من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية، معتمداً في ذلك على كتاب (معاهدة ديمشال لمؤلفه شارل كنكبورت)، كما إشتملت الملاحق على رسالتين للأمير بعث بهما إلى كل من الوزير برنار و السلطان العثماني عبد المجيد الثاني.

بقي في الأخير أن نشير إلى أن المترجم إعتمد على بعض المراجع و المصادر في توثيق مادته العلمية، و قد أحال لها في ثنايا الكتابين محل الدراسة.

2- خصائص الترجمة عند أبي القاسم سعد الله:

بعد محاولتنا تقصي منهجية الأستاذ سعد الله في الترجمة، سنحاول في هذا العنصر تبيين الخصائص التي ميّزت أعمال سعد الله المترجمة، و لعل المتصفح الممحص لأعماله الترجمية المتنوعة يلاحظ أنها تتميز بمجموعة من الخصائص سنحاول أن نجملها في النقاط التالية:

أ - **إتقان اللغة المنقول (منها) والمنقول (اليها)** : مما يلاحظه الدارس في الإعمال التي قام الأستاذ سعد الله بترجمتها هو تعمقه في جميع خصائص اللغة العربية، فلا يمكن للمشتغل بالترجمة في هذا الخصوص أن يقدم مولوداً جديد منفصلا عن الأصل، مكتوباً بلغة قومه و ثقافتهم إذ لم يتقن لغته الأصلية و في هذا السياق يشير الجاحظ في كتابه ' الحيوان ' إلى ضرورة التمكن أولا من اللغة المنقول إليها بنفس المستوى مع المنقول منها، يقول في ذلك: "لابد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة، في وزن عمله في نفس المعرفة، وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة و المنقول إليها حتى يكون فيها سواء و غاية"[1] .

فالترجمة تحتاج إلى ثقافة واسعة باللغتين المنقول إليها و المنقول منها، و قد تمكن الأستاذ سعد الله من إحراز السبق في هذا المجال فقد حصَّل نظريا خمس لغات، و حَذْق جيد للغة الإنجليزية التي ترجم منها عدة أعمال، منها العملين المعنيين بالدراسة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى أبان الفعل الترجمي لسعد الله عن رصيده الثقافي و المعرفي فحقل الترجمة يستوجب إجتماع أكثر من علم قصد تأهيل المترجم الذي يسعى إلى

[1]- أبو عثمان الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، بيروت، دار الجبل، 1999، ص-ص 76-77.

نقل ثقافة من محيطها الأصلي إلى محيط آخر، فأحادية العلم في أي إختصاص لا تسمح بتكوين مترجم فاعل يفهم فكرة غيره و حاجة من يترجم لهم فالمعجم اللغوي وحده غير كافٍ لتحقيق فعل الترجمة، بل لا بد من التزود بثروة معرفية قاعدية تكون ضمانا للمترجم لكي لا ينقاد وراء إنغلاق المفردات في معانيها فهو أقدر على ربط مفهومها جملة بالواقع الذي أنتجت فيه[1]، فتعدد مجالات المعرفة الواسعة جعل مترجمنا يكون قادراً على يقدم للمكتبة العربية و العلمية أعمالا علمية ذات قيمة كبيرة في محتواها.

ب- الصياغة اللغوية لنص الترجمة: فقد حرص المترجم على صياغة نص الترجمة صياغة متينة، حيث وفق إلى حد كبير في تبيين حقيقة المعنى المطلوب، و إيجاد المصطلح الموافق إلى جانب قدرته على التنسيق و الربط بين المعاني و الجمل و التعبير عن معنى الكلمة الأعجمية بكلمة عربية مطابقة نصا و روحاً، فهو إنطلاقا من تكوينه التراثي المتين، و كونه أدبيا و شاعرا موسوعي الثقافة، فإنه يتحسس جماليات الأسلوب في لغة النص الأصلية فيبدو هذا الأخير و كأنه نص إبداعي أصيل لا تظهر عليه آثار الترجمة، إن كان في ألفاظه و تراكيبه أو في معانيه و أسلوبه، فيصبح بذلك نصاً فصيحاً بليغاً يشُّد القارئ شداً قوياً فلا يكاد يتركه إلا مع نقطة النهاية[2].

جـ- الإختصاص في موضوع الترجمة: و هذا ما يمكن أن يلاحظه القارئ من خلال تعامل المترجم مع مادة الترجمة هو عمق التخصص في موضوع الترجمة، فالمترجم الذي لا علاقة له بالتخصص الذي يترجم له، لا يمكنه التفاعل مع المادة المترجمة، ومن ثم القارئ، فهو ناقل لا يحس بإحساس الباحث، و من ثمة تضيع المادة المترجمة، و يغيب تأثيرها و الفائدة المرجوة منها، يقول سعد الله في هذا: "إن من بين مهلكات الترجمة هو كثرة النصوص للمادة الواحدة مما يؤدي الى كثرة التفاسير و الاختلاف حول التفاصيل، و من ثم الترجمات، و هنا لا يمكن للمترجم غير المتخصص إدراك أي النصوص أصح، و أي المواد أنسب للترجمة"[3].

ثم إن لكل فرع من فروع المعرفة لغة خاصة و مصطلحات خاصة أيضا تقتضي من المترجم إتقانها و التحكم فيها، فلا يستطيع دارس التاريخ أن يترجم أدباً، و لا دارس الترجمة أن يترجم شعراً دون أن يتخصص في المادة التي يترجم منها و إليها، و هذا السياق أيضا قد يصادف المترجم إشكالية ترجمة الأعلام و أسماء المدن

---

[1]- زين الدين موسى، المرجع السابق، ص ص (33-34).

2- يحي بعطيش، "خصائص الفعل الترجمي عند أبي القاسم سعد الله"، المجلة العالمية للترجمة، منشورات مختبر اللغات و الترجمة، العدد 4، سنة 2010، ص30.

[3]- أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، المصدرالسابق، 142.

و المصطلحات التي لها علاقة مباشرة بموضوع الترجمة و التي خصصت لها معاجم و مؤلفات متعددة تصنفها و تحدد مقابلاتها، يقول عنها الأستاذ سعد الله بأنها من بين الصعوبات الترجمة التي تلزم صاحبها كثرة الإطلاع و التخصص في العمل المترجم، و تفرض عليه أحيانا السفر لها و مخالطة أهلها كما أشرنا في كتاب جون وولف، و في نفس الكتاب استطاع المترجم إعادة رسم العديد من الكلمات وفق معناها الحالي الذي ينطبق مع مدلولها و قد أشرنا إلى بعضها كذلك، ومن هنا تبرز أهمية الاشتغال بمجال معين من البحث، فلو لم يكن الأستاذ المترجم متخصصا في الدراسات التاريخية، لما تمكن من إيضاح اللبس الذي قد يشوب معطيات تاريخية متعددة[1].

د- مراعاة أصول الترجمة العامة: و تتمثل في حرصه على نقل النص المترجم بأمانة دون تحريف أو تزييف للمتن المترجم، فمهمة المترجم حسب سعد الله ليست شرح العمل و وضع حواش له لا قيمة لها، ولو فعل ذلك لكان الأفضل أن يؤلف كتاباً من عنده ويريح المؤلف الأصلي و القراء معاً، فمهمته تقتصر على نقل النص بأمانة ثم التنبيه على ما يجب التنبيه عليه و الحفاظ على روح المؤلف الأصلي و أسلوبه و تقديم المؤلف للقارئ دون أن يترك تعبيراً خاصاً و لا علامات تعجب في المتن. فالمترجم حسب ماريان لوديرير يهدف إلى تحقيق وظيفة النص في ترجمته، فلا يبحث عن نقل اللغة الأصل، و إنما أيضا التأثير الذي أراده الكاتب إنتاجه باستخدام هذه اللغة.[2]

وهذا ما اشتهر به الأستاذ سعد الله في ترجماته فقد كان يترجم بأمانة و إلتزام غير مخل بالأصل، لكنه اتبع منهجية خاصة أو ما يعرف في الترجمة بترشيح النص الأصلي للمترجم بوضع مصفاة تنقية مما علق فيه من الأفكار و الآراء و الأحكام الذاتية أو الإيديولوجية المتعارضة مع ثقافة المترجم، و ذلك من خلال إحالة القارئ على ما من شأنه أن يزيد في ثقافته حول النص المترجم، و هذا ما تتبعه من خلال أعماله المترجمة، لأن احترافية المترجم تنأى به عن الإنسياب في خصوصية النص المترجم دون النظر إليه من الخارج و نقده و تقويمه، فلا يستحوذ النص الأصيل على شخصية المترجم ويسيطر على فكره بما يمكن أن يسلبه الرؤية الصحيحة للحقائق خاصة إذا كان النص مشتملاً على بعض المثالب المعرفية و الأخطاء الدينية و التاريخية و الاجتماعية و اللغوية[3].

---

[1]- محمد شوشاني عبيدي، المرجع السابق، ص-ص(394-395).

[2]- ماريان لوديرير، الترجمة النموذج التأويلي، ترجمة فايزة القاسم، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2012. ص ص (17-38).

[3]- زين الدين بن موسى، المرجع السابق، ص 50.

و لتحقيق ذلك اعتمد على توظيف العتبات الترجمية توظيفاً واسعاً، فقد وظف كل أنواع العتبات المتمثلة في المقدمة الهوامش، التصدير ...الخ. مما يُمكِن للمترجم فيه دحض الأفكار التي يراها مضرة بترجمته،كما أنها وسيلة ترشد المتلقي أو القارئ إلى فهم النص المترجم من جهة، و إثارة انتباهه إلى بعض التناقضات أو التجاوزات التي قد يكون مصدرها الثقافة العامة لمؤلف النص الأصلي، أو إيديولوجيته الخاصة.

و على هذا الأساس كان المترجم سعد الله محيطاً بالأحداث التاريخية و مدققاً و مصححاً للكثير من المعطيات التاريخية دون الطعن في أصل المادة بل يضيف ما يضيفه بعيدا عن تشوية المادة العلمية الأصلية للنص لأن الهدف تحقيق نفس المعنى و التأثير الذي حققه الأصل في المتلقي، و هو يسعى من خلال ذلك على حد قول حافظ البريني إلى تحقيق مبدأ الجودة في الأداء الترجمي والوصول بالمادة المترجمة إلى مصاف الأصلية[1].

ه- مراعاته للموضوعات الترجمة: و تتجسد في إختياره للموضوعات المتميزة التي تسهم في إثراء و إغناء الثقافة المحلية و العالمية و بما تحمله من أفكار و تحليلات جديدة في مجالات الفكر و الأدب و الثقافة بصفة عامة، و في مجال الدراسات التاريخية مجال تخصصه الدقيق بصفة خاصة، فهو مترجم موضوعي يحسن إختيار ما يخدم قراءه عندما ينقل نصوصاً من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، من جهة أخرى، فالموضوعات أو المادة التي قام الأستاذ سعد الله بترجمتها لم تقتصر على مجال تخصصه و هو الدراسات التاريخية، بل كان موسوعة في الترجمة، فهو يترجم الأدب مثل "أدب اللسان الفرنسي لشمال إفريقيا" لجورج جوايو، التي تبرز دور أدباء شمال إفريقيا المكتوب باللغة الفرنسية خاصة الأدب الجزائري في إثراء الأدب الفرنسي المعاصر[2].

و من خلال ترجماته المختلفة يلاحظ القارئ بأنها جاءت في أغلبها تتمحور حول صون الثقافة الوطنية و حفظ الموروث الوطني، فالترجمة في نظر سعد الله تحتاج إلى غيرة وطنية و إلى هدف محدد و هو خدمة اللغة المنقول إليها و أهلها يقول عن ذلك: "...معظم المترجمين عندنا قد فهموا أن الترجمة وسيلة من وسائل أكل الخبز و تدبير الرزق، و لم يفهموها على أنها إبداع و فن و رسالة حضارية سامية"[3].

و من جهة أخرى تظهر علاقة الأستاذ سعد الله بمضمون النص الأصلي للموضوعات المختارة، فلا يترك المثقف العربي بصفة عامة، و الجزائري خاصة تحت تأثير رؤى و قناعات الثقافة الأصلية لموضوع الترجمة

---

[1]- أنظر حافظ البريني، مقاييس الجودة في الترجمة، تونس، مركز النشر الجامعي، سنة 2010، ص 7 .

[2]- يحي بعطيش، المرجع السابق، ص ص (30-31).

[3]- مراد وزناجي، حديث صريح...، المصدر السابق، ص197.

أو من يترجم له، و التي قد تكون مخالفة لثقافته و حضارته، و خاصة ذاتية المؤلف أو إيديولوجيته المتعارضة مع ثقافة جمهور المتلقين لذلك نجده يلجأ إلى ما يمكن أن نسميه توظيف العتبات الترجمية كما أسلفنا، من خلال المداخل المختلفة الهوامش، المقدمات...إلخ التي وضّح فيها لمتلقيه الأفكار النيرة التي ينقلها لهم أو يُبصّرهم بزيفها و إنحرافاتها و خطورتها....

كما يضيف الأستاذ يحي بعطيش خاصية أخرى تميز الترجمة عند الأستاذ أبو القاسم سعد الله و تتجسد في إنتقائه لمؤلفي النصوص التي يترجمها سواء تعلق الأمر بنص مقالة أو كتاب "فكان لا يترجم لمن هب و دب" و إنما يختار من يترجم عنهم، حيث نجده غالبا ما يختار شخصيات عالمية ذات الصيت الواسع ساسة أوقادة عسكريون أمثال تشارلز هنري تشارشال، و أدريان بيير بروجير و أدباء و كتاب كبار أمثال ألبيير كامي و أساتذة جامعيون و أكاديميون أمثال جورج جوايو، و ويلرايت، وإيمانويل سيفان،[1]جون وولف هذا الأخير الذي يقول عنه سعد الله : "و لعل الذي جعلني أقدم أيضاً على شراء الكتاب هو ما قرأته للمؤلف من الآثار العلمية الجادة، فكتاب عن الجزائر بقلم البروفيسور وولف يعتبر في حد ذاته حدثاً هاماً[2] .

كما يضيف الأستاذ محمد شوشاني عبيدي أن ترجمات الأستاذ سعد الله في هذا المجال جاءت مقصودة و ليست عبثية أو عفوية كما يفعل الكثير، إذ أنها ترتبط حسب مزاج المرحلة التاريخية التي عايشتها و حسب ارتباطها بإصدار أو بحث يقوم بـــــه[3].

لقد سعينا فيما سبق الى تقصي منهجية الأستاذ سعد الله و تبيين خصائصها، و شخصية سعد الله كمترجم بارع تبدو واضحة جلية في النص المترجم، سواء بتعليقاته المتنوعة على كل صغيرة و كبيرة في النص، أو بفصاحة أسلوبه، فيحُس القارئ و كأنه مع نص إبداعي جديد، كما أن المتفحص لأعمال سعد الله الترجمية، يدرك لا محالة بأنه ينادي بتحقيق مبدأ الجودة في الترجمة و الوصول بالمادة المترجمة إلى مصاف الأصلية، و هو من خلال ذلك يبرز أهمية الإشتغال بهذا الحقل المعرفي للنهوض بالأمة و ترسيخ أركانها و لا يكون ذلك إلا إذا إهتمت بحركتي الترجمة من و إلى اللغة الوطنية.

---

[1]- يحي بعطيش، المرجع السابق، ص30.

[2]- جون وولف، المصدر السابق، ص08.

[3]- محمد شوشاني عبيدي، المرجع السابق، ص400.

الفصل السادس

قضايا و مواقف و آراء

أولا: القضايا السياسية

1- قضايا وطنية

2- قضايا عربية

ثانيا: القضايا الثقافية

أولا: القضـــايـــا السياسيـــــــــة

1- قضايا وطنية:

على مدار عطائه الفكري تطرق أبو القاسم سعد الله إلى الحديث وإبداء رأيه في جملة من القضايا العامة الداخلية في الجزائر الفكرية و السياسية، وسنحاول في هذا العنصر التركيز على الموضوعات أو القضايا التي تخص الشأن السياسي ، وإن كان معروفا عن الاستاذ سعد الله هو تجنبه الكتابة في الموضوعات السياسية أو الحديث فيها إلا نادرا، وتجنب سعد الله الكتابة في الموضوعات السياسية لم يمنعه أحيانا من أن يبث بعض أفكاره ومواقفه السياسية، ونحن من خلال هذا العنصر سنحاول إبراز آراء و مواقف سعد الله السياسية والتي عالج فيها بعض القضايا والموضوعات المطروحة على الساحة الوطنية بالخصوص.

أ- الديمقراطية:

قدم لنا سعد لله في كتابه مجادلة الآخر رأيه في الديمقراطية في الجزائر و مدى فعالية اشراك الشعب في الأمور و القرارات الهامة التي يجب أن يقول فيها الشعب كلمته بحرية و اقتناع، لأنها تتعلق بمصيره و مصير الوطن الذي يعيش فيه. فإذا اردنا الحديث عن الديمقراطية في الجزائر حسب سعد الله فإنها ما زالت مجرد شعار تتردد صباح مساء لا غير، فإذا استثنينا حدثين أو ثلاثة فإن الشعب غائب من الاستشارة و الاستفتاء في قضايا مصيرية عديدة أعطى أمثلة عن ذلك فيما يخص مثلا معاهدة الصداقة مع فرنسا، أو انضام الجزائر الى المنظمة العالمية للتّجارة أو ارتباطها بالحلف الاطلسي... و نحو ذلك من القرارت[1].

و هذا خلافا لما هو سائد في الغرب فيما يخص قضاياهم المصيرية، فهم يسنُّون القوانين و يتحرون المصلحة العامة ثم يعرضون الأمر على شعوبهم للاستفتاء و أبداء الرأي بالموافقة أو عدمه قبل الاقدام على التوقيع و التنفيذ و ربط مصير الشعب بمصير مجهول العواقب، أما نحن في هذا الخصوص فلأفكار و المشاريع تقدم لنا ثم يأتي مسؤول و يعلن أن الامر قد انتهى و أصبح ملزما للجهات المعنية لتنفيذ " الأمر لا

[1]- أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق، ص 9.

يتعلق برأي الشعب ولكن برأي و مزاج مسؤول أو مجموعة من المسؤولين و إلزام الشعب به وبالتالي لا كلمة لشعب فيما يعلن بإسمه و أنه غائب عن ساحة القرار و التأثير فيها"[1].

فالغرب نفسه اليوم أصبح يعرف أسلوبنا في التعامل مع مصالح بلادنا لذلك سهل عليهم التدخل في شؤوننا، فهو يعرف أن مصالح البلاد لا تقاس كما عنده برأي الشعب، ولكن برأي مجموعة من الأطراف تحكم بأسمه فمن السهل عليه في هذه الحالة أن يتدخل في شؤون بلد ما فيحقق مبتغاه على أيدي المسؤول الواحد أو مجموعة من المسؤولين العاملين في الخفاء يقول سعد الله عن ذلك " والغرب يعرف أن الأمر لن يخرج إلى الفور للمناقشة و لن يتوقف على الإستفتاء وإحتمالات الرفض، لذلك يتجه مباشرة إلى الجهة التي يعرف إنها صاحبة القرار و يعرف أنها مستبدة بالرأي و أنها لا ترد له طلبا وغاية ما تبديه هو تكيف القرار و الإعداد لتبريره و إعلانه و إلزام الشعب به.

فسعد الله يرى أن الحديث عن ' شعار' الديمقراطية في الجزائر هو في لحظة سياسية واحدة و هي موسم الإنتخابات، فإذا انتهت هذه الأخيرة عادت الديمقراطية إلى نقطة الصفر بعد أن أُستعملت جميع الوسائل حتى لا تطبق في الميدان، و في هذا الخصوص يذكر سعد الله أن الجزائر شهدت تجربة ديمقراطية ناجحة حين تعلق الأمر بالاستفتاء على المصالحة الوطنية، فلقد ساهمت سياسة الوئام المدني في استعادة الأمن و في العودة إلى قيم التسامح و الحوار العريقة لدى الشعب الجزائري.

فقد كان هذا الأخير نموذجا كان على الجزائر أن تحتدي به في كل الامور المصيرية الهامة، لأن في الإستفتاء ممارسة لصالح الوطن و الشعب و حماية للمسئولين و الإلتزام من جميع الأطراف، و الأمر نفسه يتعلق بالنسبة للعلاقات مع الخارج و في التعاون مع الدول الكبرى و في كل ما يربط الجزائر بالقضايا الدولية ذات التداعيات السياسية و الاقتصادية و الثقافية على مستقبل البلاد.

و في هذا الإطار يرى سعد الله أننا بحاجة اليوم إلى تعميم هذه التجربة في إصلاح نظامنا التعليمي و التربوي، و لا يمنع ذلك من الإستعانة بتجارب ناجحة في هذا المجال و بالإستعانة بالخبراء أو أهل الإختصاص، و قبل ذلك يجب أن يناقش الموضوع على أوسع نطاق للأستفتاء لأن مصير الإصلاح يمس كل الشعب و يؤثر على كل الأجيال يقول في ذلك " ومن حق أي قادر على الإدلاء بالرأي من الموضوع أن يبديه دون إقصاء، و لكن إذا صيغ البرنامج ووافق عليه الشعب فإنه يكون ملزما للجميع عن رضا و

[1]– أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق، ص 10.

حماس... ثم إن الإصلاح يحتاج بعد الموافقة عليه إلى مجلس أعلى للمتابعة و الإرشاد، و لا يترك للخونة و المفسدين و لو قالوا أنهم علماء و مصلحون "[1].

فالغاية عند سعد الله أن يحترم الآخرون كل الشعب الجزائري و ليس مسؤولية فقط، كما أن الديمقراطية في هذا المجال ليست حكرا على جنس أو دين أو بلد و إنما هي ممارسة صالحة للجميع إذا احترموها و عرفت الطريق الصحيح لتطبيقها .

ب- قضايا الثورية و الإصلاح

في خضم الظروف الاقتصادية و الاجتماعية الصعبة التي عاشتها الجزائر خاصة مع منتصف الثمانينات، شهدت هذه الأخيرة مجموعة من الإصلاحات السياسية شكلت أحداث أكتوبر 1988م مدخلا لها، فكانت لهذه الأخيرة إنعكاسات على النظام السايسي الذي أعلن عن مجموعة من الإصلاحات السياسية و الإقتصادية و الثقافية، قصد التّكيف مع الظروف و الأوضاع الطارئة، في هذا الإطار سنتطرق الى موقف مؤرخنا من هاته الإصلاحات ؟ و إلى أي مدى ساهمت في رأيه في ترسيخ مبادئ الديمقراطية و الحريات العامة للشعب الجزائري ؟

" **عجبا للجزائر تحولت بين عشية و ضحاها من الثورية الى الإصلاح و الكل يدق طنبوره و يضغط مدحا في الإصلاحات و قدحا في الثوريات**"[2]. تلك هي العبارة التي استهل بها سعد الله حديثه عن قضايا الثورية و الإصلاح في الجزائر، و سعد الله يستغرب كيف لأولئك الذين يحسبون على اليسار المعارض الذي من طبيعيته رفض الإصلاحات راح يرحب بها و يمجدها.

و قبل ذلك يتطرق سعد الله لشرح مفهوم كلمة ' إصلاح ' بقوله " إن كلمة إصلاح ذات مدلول ظرفي فهي ممدوحة إذا ظهر عالم أو سياسي في قومه و أراد إصلاح الأحوال الفاسدة التي هم عليها في السياسة و الدين و الإجتماع و الإقتصاد"[3]. و على هذا الأساس سميت التغيرات التي حدثت في أروبا بالاصلاحية، كما هو الحال في روسيا أين يوصف بطرس الأكبر بأنه القيصر المصلح، و توصف كاثرين الثانية بأنها الحاكمة المتنورة و المصلحة، وفي ألمانيا يوصف مارتن لوثر بأنه مصلح عظيم ... و هكذا.

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق ، ص12.

[2]- أبو القاسم سعد الله، "من الثورية إلى الإصلاح إلى ..."، جريدة الشعب، 13مارس 1990م.

[3]- أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق، ص 78.

و في العهد القريب أخذ مدلول الإصلاح أشكال وتحولات تأخذ أسماء مختلفة و لكنها في جوهرها واحدة، فعندما حدث انقلاب جوان 1965م أطلق عليه إسم التصحيح الثوري، و عندما وقع ما يشبهه في مصر أوائل السبعينات سمي بـــ " ثورة التصحيح " و ما حدث في تونس سنة 1987م، أطلق عليه إسم " حركة التغير"، و يدخل في هذا الإطار ايضا الإصلاحات التي عرفتها الجزائر منذ اكتوبر 1988م.

و بالعودة إلى مصطلحي الثورية و الإصلاح، فيذكر سعد الله أننا في المجال التاريخي ما زلنا لم نحل عقدة مستعصية و هي " من هم الثوريون و من هم المصلحون في الحركة الوطنية "، فالمعروف تاريخيا أن وصف الثوريين ينطبق أساسا على من نادوا بإستقلال الجزائر، و أن وصف المصلحين ينطبق على من قبلوا بالتعايش مع الإستعمار و وجدوا لذلك شتى المبررات، لذلك وصِفَ أعضاء اللجنة المركزية لحزب الشعب (1953م) بالإصلاحيين لأنهم في نظر خصومهم تعاونوا مع الإدارة الفرنسية، ورفضوا زعامة مصالي الحاج، و حين انفجرت الثورة كانت الحرب ضد الإتجاه الإصلاحي خوفا من أن يقبل بالتعايش مع الفرنسيين و يرضى بإتفاقيات وسطية (إصلاحية) لا تشرف كفاح الجزائر.

و يضيف سعد الله أن هناك عقدة أخرى ما زالت تعيش في أدبيات الرحة الوطنية أيضا، و هي" أن الثورية تتطلب العمل السياسي المباشر و أن الإصلاحية تتكيف مع الواقع و تجاريه و تجامله، و لذلك تَبنّى الإتجاه الثوري (سياسة) الأفغاني، و رفض (عقلانية، إصلاحية) محمد عبده، و من ثمة كانت حركة ابن باديس إصلاحية لا ثورية في نظر هؤلاء، و هي عقلانية- إصلاحية و ليست سياسية أو كما يقولون أحيانا عبدوية لا أفغانية "[1].

و سعد من هذا المنطلق يفضح المتآمرين على الثورة، و على رأسهم أولئك الذين تحولوا بين عشية و ضحاها من ثوريين إلى إصلاحيين بناء على ما أفرزته الساحة السياسة من إصلاحات في مختلف الجوانب يقول عن ذلك " ... إن دعاة الحركة الثورية و السياسية عندنا بالأمس أصبحوا اليوم من أنصار الدعوة الإصلاحية في حد ذاتها لأنهم أيدوها دون أن يستوعبوها في الواقع و يعرفوا معالمها السياسية و الاقتصادية و الثقافية، و يبدو أن (إصلاحاتنا) متولدة عن العجز عن مواجهة المسؤليات و التحديات، و هي في نفس الوقت تفتقر إلى التصور المسبق للأمور و تحديد الأهداف البعيدة من ورائها، إنها فقط في نظرنا إستجابة

[1]- أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق، ص ص (79-80).

ظرفية لضغوط ظرفية ، داخلية و خارجية...فكيف ارتمى ثوريو الأمس في أحضان الدعوة الإصلاحية ..."[1].

و بناء على بعض المفاهيم التي سقناها، فإن الإصلاحات قد تكون هي ثورة نفسها، تنبع من تطور فكري للمجتمع أو من أزمة سياسية أو فلسفية أو اقتصادية، و قبل ذلك يكون مسبوقا و متبوعا بمخطط تبنته مؤسسات و أعتنقته جماعات و توفرت له أسباب النجاح، فمثلا المدرسة الليبرالية هي مدرسة إصلاحية بالنسبة لمدرسة المحافظين، و الإشتراكية مذهب إصلاحي في المنظومة الليبرالية، رغم إدعاء معتنقيها بالثورية، كما أن المدرسة الأفغانية في المشرق الإسلامي في هذا الخصوص كانت إصلاحية حتى أثناء إتهامها بالعنف السياسي كالإغتيال، فالنظم السياسية في مصر والدولة العثمانية و إيران كانت أنظمة متعفنة وفاسدة.

و من هنا جاءت الإصلاحات كبديل للتعفن و الظلم و الفساد، و من ثمة فإن المصلحين هم الذين يخلفون المفسدين، و سعد الله من خلال هذا يطرح تساؤلا جوهريا مفاده " هل عانت الجزائر من الفساد و الظلم و التعفن حتى دعت الحاجة إلى الإصلاحات؟ و إذا كان الأمر كذلك، فهل خلف المصلحون المفسدين، وهل حل الزهاء محل المتعفنين؟"[2].

إن الحاجة إلى الإصلاحات التي عرفتها بعض الشعوب الغربية قد أستمدت من قيم و مبادئ و مرجعيات تاريخية، فعندما يصلح الإنجليز مجتمعهم فإنهم يرجعون في ذلك إلى قيم مجتمعهم و نظمهم المتعاقبة من المسيحية إلى الانكليكية إلى نظام الحزبين إلى التقاليد الملكية، الى أفكار جون لوك ..الخ. و عندما يصلح الأمريكيون أنفسهم فإنهم يستمدون فلسفتهم في الإصلاح من أفكار جيرفسون و فرنكلين، و ديمقراطية جاكسون ومواد الدستور ..الخ. كما هو الحال أيضا مع فرنسا التي لم تستمد إصلاحاتها فقط من تصريح حقوق الأنسان و المواطن و المبادئ التي قامت عليها الثورة ولكنها إستمدتها أيضا من علمائها المتنورين من أمثال جان دارك، وفولتير...الخ. وقس على ذلك الشعوب الأخرى التي عرفت الإصلاحات بعد التعفن والفساد [3].

---

[1]- عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق، ص 166.

[2]- أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق، ص 81.

[3]- ناصر الدين سعيدوني، دراسات و شهادات مهداة...، المرجع السابق، ص ص (40-41).

فإذا انتقلنا إلى منبع الإصلاحات التي شهدتها الجزائر منذ أكتوبر 1988م، فإن سعد الله يتساءل عن مرجعية هذه الإصلاحات يقول " لكن ماذا عنا نحن ؟ من أين نبعت إصلاحاتنا ؟ هل نبعت من مواثيق الحركة الوطنية ابتداء من تعاليم الأمير عبد القادر إلى قوانين المنظمة الخاصة و مبادئ ابن باديس في الإصلاح؟ هل نبعت من مواثيق الثورة الجزائرية إبتداء من بيان أول نوفمبر و مرورا بمثاق طرابلس و الميثاق المغضوب عليه (1964م)؟ إن ذلك كله أصبح على ما يظهر خارج قواعد اللعبة "[1].

فالجانب السياسي من الإصلاحات أعطى للجزائر منذ الإستقلال توجها سياسيا جديدا يختلف عن التوجه السياسي السابق، بمنع احتكار الحياة السياسية من طرف الحزب الواحد. ففتح مجال التعددية الحزبية بلا حدود في نظر سعد الله قد أفرز عدة تحزبات عرقية و دينية و طائفية و جهوية أوضح مما كان عليه الحال أيام الحزب الواحد، و هو أيضا عاجز عن وضع مسار واضح لمبدأ الديمقراطية مما جعل معظم الأحزاب تهدد الدستور نفسه لأنه يقف حجر عثرة في وجه الفوضى و العبثية، بل أن هناك من إنتقد الدستور صراحة بدل ان يعمل على إحترامه، وهناك من مس مواد دستورية و مع ذلك كان في حصانة من أمره[2].

أما إذا نظرنا إلى الجانب الاقتصادي من الإصلاحات؛ فالأزمة الحادة التي شهدها الأقتصاد الجزائري إثر الأزمة النفطية المعاكسة و تأثيرها السلبي على الإقتصاد، دفع إلى تبني الدولة خيار إقتصاد السوق كبديل للإقتصاد الموجه، أو تبني الخيار الليبرالي الذي يذكر سعد الله أنه لحد ما غير معلن و غير محدد يقول في ذلك: " أما الجانب الاقتصادي من الإصلاحات فالكل يلاحظ أنه غير معلن وغير محدد ... فإذا كان الجانب السياسي قد تقيد إلى حد ما بالدستور، فإن الجانب الإقتصادي ظل رهن الأشخاص و الظروف، و قد يكون رهن الإشارات و التعليمات الخارجية، و لو صيغت وثيقة للمسار الإقتصادي على غرار المسار السياسي لنظر إليها الناس ربما كبديل للتجارب السابقة التي يبدو أنها فشلت في إنتظار أن تأتي أكلها أو تفشل هي أيضا"[3].

أما الجانب الثقافي؛ فإن سعد الله يؤكد عدم وجود مشروع مستقبلي واضح و لا حتى احترام المشروع الموروث، و في ظل غياب المشروع المستقبلي، أخذت الفؤوس تتهاوى على كل الثوابت من دين

---

[1]– – أبو القاسم سعد الله، "من الثورية إلى الإصلاح إلى ..."، جريدة الشعب، 13مارس 1990م

[2]– أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق، ص 82.

[3]– نفسه، ص 83.

ولغة و تقاليد و تاريخ و تراث حضاري مشترك، فظهرت الخصوصيات الثقافية، والتعددية اللغوية و اللائكية، و تمكين اللغة الفرنسية على حساب اللغة العربية .

و بعد تحليل سعد الله لقضايا الثورية و الإصلاح بجوانبها السياسية و الاقتصادية و الثقافية، يخلص الى أن هذه الاخيرة لم تنبع من مورثنا الحضاري ولا من تجاربنا السياسية ولا من حاجاتنا و معاملاتنا الإقتصادية، و إنما هي مجرد شعارات أكثر منها مخططات، و هي على حد قوله شعارات مستعارة من الآخرين " ... استعرنا في الماضي شعارات من تجارب الآخرين منذ الإستقلال، و لم نطبقها في الواقع لأنها غريبة عنا، فكم من مرة تغنينيا بالإشتراكية حتى الثمالة وها نحن نتغنى بالديمقراطية حتى الوجد"[1].

و عليه فإن سعد الله يرى أن العملية الإصلاحية إن لم تأتي من محاسبة شديدة لأنفسنا و أنظمتنا و كفاءاتنا، فإن إصلاحاتنا ستظل شعاراً أجوف نعيش به زمنا معينا ثم سنبحث عن غيره، و سنظل دائما عالة على الآخرين يتحكمون فينا تحت عدة مسميات و يصدرون لنا الشعارات لإستهلاكها.

جـــ- الإستعمار : تمجيد أو تجريم

في خضم ما قد يسمى معركة تمجيد الإستعمار أو تجريمة لم يعد الجزائريون يجدون صعوبة بالغة في تفكيك معالم التناقض في سلوك مسئوليهم تجاه مستعمريهم السابقين، فهم يبدون مواقف رسمية تظهر سيادة مفرطة أحيانا كلما تعلق بموضوع يمس العلاقات بين البلدين، و لكن سلوكهم الشخصي يفضح تمجيدهم لكل ما هو فرنسي، فالسلطات الجزائرية أثبتت في السنوات القليلة الفارطة في تعاملها مع موضوع ' تجريم الإستعمار' أن ما يعبر عنه المسؤولون من إستياء تجاه فرنسا ليس هو ما يعتقدونه، و تفضحهم في ذلك دائما تصرفاتهم التي تعكس في الغالب تأصيل الثقافة الفرنسية. في هذا الصدد سنحاول التعرف على موقف مؤرخنا من معركة تمجيد و تجريم الإستعمار في الجزائر؟

لقد شكل صدور القانون الفرنسي الصادر بتاريخ 23 فبراير 2005م ' الممجد للاستعمار' و المشيد بالدور الإيجابي الذي لعبه الحضور الفرنسي في ما وراء البحار، و بخاصة في شمال أفريقيا، قد أثار التصديق على القانون عاصفة من الغضب و ردود الأفعال الساخطة لدى الجزائريين خاصة بعد سلسلة الجرائم الجماعية بالجزائر طيلة نصف قرن من الإستعمار.

[1]- عبد الكريم بوصفصاف، المرجع السابق، ص 166.

و يبدو أن قانون تمجيد الإستعمار نكأ جروح الجزائريين التي لم تندمل رغم مرور أكثر من 50 سنة من إستقلال بلدهم، فصور المجازر و التعذيب و التنكيل الذي كانت تمارسه فرنسا ضد الثوار و الشعب لا تزال ماثلة في الأذهان، وجاء هذا القانون ليضع الملح على الجراح مجدداً، فلم تكتف الأسرة الثورية من مجاهدين و أبناء شهداء و وطنيين مخلصين بإلغاء " معاهدة الصداقة " التي كان مزمع إجراءها في تلك الفترة، بل رفعو سقف مطالبهم إلى ضرورة إعتراف الدولة الفرنسية بجرائم الإستعمار ضد الجزائريين طيلة 132 سنة و الإعتذار الصريح عنها، وكذا تقديم تعويضات مادية للجزائريين عن هذه الجرائم[1].

و رغم تصاعد أصوات المنادين بتفعيل مقترح قانون ' تجريم الإستعمار ' ، رداً على قانون 'تمجيد الاستعمار'، هذا المقترح الذي يهدف إلى تجريم ما اقترفه الاستعمار من أعمال شنيعة في حق الجزائريين و مطالبة فرنسا بالاعتذار و التعويض، ثم تأسيس محكمة جنائية خاصة بهذه الانتهاكات، ناهيك عن رهن مستقبل العلاقات الجزائرية الفرنسية بمدى إعترافها بجرائمها.

إلا أن القانون المقترح لم يعرف طريقه القانونية، لتبرز بعض الوجوه السياسية تتفوه بكلام غير مسؤول يدل على تدني ولائهم الوطني و ضعف معرفتهم بمسيرة التاريخ يقول سعد الله عنهم " فأنت تراهم يصدرون تصريحات فيها إستهتار بذاكرة الأمة و مصيرها، ترى من وكلهم ليتحدثوا بإسم ضحايا الجريمة الاستعمارية أو بتمجيد رسالة فرنسا الحضارية؟"[2].

ثم تذهب بعدها هذه الأصوات بعيدا، لطلب التخلي مطلقا عن موضوع التجريم، و كأن به الموضوع و ما فيه هو ملك لفرد أو حزب، كما أن جرائم الاستعمار مؤرخة و مصنفة في وثائق مرتكبيها و لا تحتاج حسب سعد الله إلى فلسفة سقراط و لا قانون حمو رابي، فلماذا اللف و الدوران و التقدم و التراجع من طرف المسؤولين، فما علينا إلا أن نراجع سجل الاحتلال على أرضنا و محطات الابادة و القمع و المخططات الاستراتيجية لإلغاء الشعب من الخريطة لنكشف أسرار وأهداف المأساة.

و في مقابل تخاذل السياسيين فإن سعد الله يرى أن الضحية سيصبح هو المجرم، و أصبح جيش الاحتلال هو رافع الحضارة و التقدم في الجزائر، وما دام أجدادنا لم يستقبلوا هذا الجيش بالورود و

---

[1] – حسان حويشة، "قانون فرنسي لتمجيد الحركى و السفاحين خلال الثورة"، الشروق اليومي ليوم 2016/04/07م

[2] – أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص 71.

الأحضان و السجود بالطريقة التي رسم بها الفرنسيون ركوع قسنطينة عند أقدام الضابط دي لاموسيير، فإن على أحفادهم ألا يطالبوا بحق الاعتذار و لا التعويض و لا برد الاعتبار و أن ينسوا تفجيرات رقان و ضحايا خط موريس و شال و غيرها[1].

يذكر سعد الله أننا اليوم في ميدان معركة، و لكل طرف الحق في إستعمال السلاح المناسب، و مهما كان السلاح" فإن الحكمة تقول أن الهجوم خير من الدفاع"، وقد بدأ الفرنسيون بالهجوم فلم يبقى أمامنا إلا الدفاع أو الفناء، فنجده يقول متسائلا في هذا " لماذا لم نبدأ الهجوم و لدينا كل الحق و كل المنطق ... و لماذا سكتنا على الاحتلال سكوتاً مخجلا منذ إتفاقيات إيفيان ؟"[2].

فالتاريخ قد سجل أننا أول من وقع عليه الفعل الإستعماري، و أن مسألة المروحة ليست إلا خرافة تشبه خرافة أسلحة الدمار الشامل اليوم في العراق، و قد أثبت الجزائريون عبر تاريخهم مع الاستعمار أنهم لم يستسلموا لمنطق الغالب و المغلوب و أن السلام الروماني- الفرنسي لم يستتب و لم تعرفه الأرض الجزائرية، و لكن سكوتنا منذ اتفاقيات ايفيان سكوت أهل المقابر على السجل الفظيع للاحتلال و كأن صفحته قد طويت، و هو ما جعل الفرنسيين اليوم يتطاولون علينا و يتباهون بأنهم كانو في بلادنا يقومون بأداء رسالة حضارية، فبسكوتنا أعطيناهم سلاح الهجوم، و لو تمسكنا بحقوقنا التاريخية و بمواقفنا التي تلخصت في ثورة نوفمبر للزم الفرنسيون حدودهم و لطلبوا منا الغفران على ما ارتكبوه في حقنا من جرائم.

لقد بقى مرتكبو هذه الجرائم دون محاسبة، فهم إلى الآن لم يطلبوا الدولة التي احتلتهم لا بالتعويض ولا بالإعتذار، فإذا كان النواب الفرنسيون يشيدون بفضائل إحتلالهم لبلادنا فعملاؤهم في الجزائر يشيدون بتلك الفضائل و برموز الثقافة الفرنسية، وينشرون ثقافة التسامح و الغفران و المصالحة مع من شوه تاريخنا، والعجيب أن بعض الجزائريين الذين يحسنون الصيد في الماء العكر احتفلوا وما يزالون يحتفلون بمآثر الإحتلال و أمجاده، و أي تمجيد أرقى من هذا التمجيد لاحتلال؟

و سعد الله في هذا الأمر لا يلقي باللوم على المشرعين الفرنسين على تشريعهم و لا بافتخارهم بحضاراتهم، لأن هذا من شأنهم و لإنهم لا يتوقعون منا رد فعل تهدد مصالحهم، كما أنهم يعرفون أن

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، المصدر السابق، ص 72.

[2]- أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق، ص 69.

طابورهم في الجزائر سيدافع عنهم سراً و علانية و أنه سيمرر قانونهم عندنا بعد تعبيد الطريق أمامه بوسائله المختلفة التي حذقها طيلة عهدي الإحتلال و الإستقلال[1].

كما أن الفرنسيين أنفسهم سبق أن شرعوا لنا قوانين ضد هويتنا وديننا ومع ذلك وجدوا منا من ساند تلك القوانين وبررها و حرص على تطبيقها، إلا أن الشئ الذي لم يكن في الحسبان أن كيف لهؤلاء العملاء والجهلة كما أطلق عليهم سعد الله أن نجدهم بيننا بعد ثورة أول نوفمبر يتصدرون المجالس و يتقدمون الصفوف السياسية و الثقافية و الإعلامية و يديرون دفة الأمور الاقتصادية، ويتوزعون الأدوار في جمعيات و أحزاب و خلايا مهتمة بمحاربة الحس الوطني على عدة جبهات، تعمل على تثبيت قواعد الفرنسية وتبيض صفحات الاحتلال السوداء، وتغييب من تسول له نفسه الكشف عنها بالقلم أو اللسان.

فليس غريب إذن بعد الترابط الذي شهدته العلاقة الفرنسية الجزائرية، و الذي شمل مختلف المجلات و كل القطاعات يأتي الحديث عن معاهدة الصداقة من جهة و قانون تمجيد الاستعمار من جهة أخرى، إن قانون تمجيد الاستعمار يعني التنازل عن كرامتنا و حقوقنا في سبيل صداقة زائفة مع فرنسا، فإذا كان النواب الفرنسيون يتعالون علينا بإسم الرسالة الحضارية المستحقة لقانون الفضائل أو التمجيد، أما نحن فقد ظهرت عندنا أصوات تخفف من حدة ردود أفعالنا قائلة "أن هذا القانون شأن فرنسي وتارة هو قانون لا يمثل الرأي العام الفرنسي أو هو قانون لا يمنع فرنسا الرسمية من الاعتذار للجزائر"[2].

في الواقع أن هناك تناقض مع أنفسنا في مواقفنا الرسمية و الشعبية من إدعاءات الفرنسين عن هذا يقول سعد الله " فإذا كنا نرفض إدعاءهم الفخر و التباهي باستعمارهم فقد كان علينا أن نبرهن على رفضنا بالأفعال لا بالأقوال، فمن جهة نحن نقدم لغتهم على سائر اللغات، بما فيها الوطنية والرسمية، لقد قدمنا لغتهم لتزاحم لغتنا في السنة الثانية من مدارسنا الابتدائية و أجبرنا أطفالنا على أن يرطنوا بها قبل أن يتقنوا أبجدية لغتهم وما ذلك إلا من إحساس الآباء بعقدة النقص أمام الثقافة الفرنسية، فكيف لا يستأسد الفرنسيون علينا و لا ينظرون إلينا نظرة الازدراء كما كانوا يفعلون في عهد الاحتلال؟ و هل قام الفرنسيون باحترام لغتنا و ثقافتنا كما تقتضي أصول المبادلة و الندية ؟"[3].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق ، ص 71.

[2]- نفسه، ص 72.

[3]- نفسه، ص 74.

و عليه فإن سعد الله يرى أن الجزائر يجب أن تضع شروطاً و تحدد مطالبها في التعامل المستقبلي مع فرنسا طبقا لمبدأ " السياسة الواقعية البسماركية "و هي السياسة التي تضع فرنسا في الزاوية بالإصرار على أنها أجرمت في حقنا سياسيا و إجتماعيا و إقتصاديا و ثقافيا و انسانيا منذ 1830م. و كل محور من هذه المحاور يجب أن يكون فصلا في الكتاب الاسود الذي يحتفظ به كل جزائري حتى إذا حاول نواب فرنسا إخفاءه عن الشمس بتمرير قوانينهم، فالجزائريون اليوم حسب سعد الله سعد الله ليسو " بحاجة إلى توقيع (إيفيان) ثانية و لو كتبت بلغتين "[1].

ما يمكننا قوله في الأخير؛ أن غياب الإرادة السياسية للضغط على الطرف الفرنسي من أجل الاعتراف بجرائمه هو الذي سمح بتمادي المحتل و سنه لقانون فيفري 2005 الممجد لماضيه الاستعماري في الجزائر، و يبقى مطلب الاعتراف و الاعتذار مجرد خطابات موجهة للاستهلاك من طرف عدد من الجمعيات و المؤسسات التي تعنى بالقضايا التاريخية، و لو أنه ليس من المبالغة الإشارة إلى أن مثل هذه الملفات المتعلقة بالتاريخ لم تؤثر على الإطلاق على المسار الطبيعي للتعاون الاقتصادي بين البلدين الذي عرف استقراراً، و بقيت فرنسا في ريادة البلدان الشريك للجزائر، فالصداقة و الترابط الذي يسعى له المسئولون الجزائريون بالدولة الفرنسية مرهون في نهاية المطاف بتغيير في طريقة التعامل مع عدد من القضايا التي تتسم بالحساسية خاصة فيما يتعلق بتحديد المسؤوليات التي تمهد الطريق نحو تقديم الاعتذار.

2- قضايا عربية:

2-1: القضية الفلسطينية:

لقد كان سعد الله من طينة المؤرخين و المفكرين الكبار الذين شغلتهم هموم أمتهم و قضاياها، فهو لا يتردد في إبداء آرائه و مواقفه و تحديد رؤيتة من قضايا الساعة، فالثابت الوحيد الذي يجب أن يكون محل الرعاية الدائمة و الاهتمام المستمر في قاموسه هو مصلحة الأمة لا غير، سواء كان النشاط يتناول قضية أدبية أو قضية دينية أو قضية سياسية، كان ذلك كله حاضراً و بقوة لدى سعد الله المؤرخ و المفكـــــــــــر.

[1]- أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق ، ص 76.

و مع إهتمام سعد الله الكبير بقضايا وطنه الجزائر، فإنه لم يكُن بمعزل عن قضايا أمته العربية الإسلامية، إذ لم يكن مستوى و حجم إهتمامه بها بأقل من اهتمامه بقضايا الوطن، و يأتي على رأس هذه القضايا قضية فلسطين و مأساتها مع الإحتلال الصهيوني، فقد خص القضية من بين العديد من القضايا العربية الإسلامية، بإهتمام خاص نظراً لما تحمله من بعد قومي و ديني، فما مدى حضور القضية الفلسطينية، في فكر أبي القاسم سعد الله و ما موقفه منها؟ وما تصوره لمستقبلها و الطريق الصحيح لحلها؟

أ- طبيعة الإحتلال الصهيوني من منظور سعد الله:

إن موقف سعد الله الداعم و المساند للقضية الفلسطينية، بإعتبارها قضية العرب و المسلمين الأولى، و المركزية، و كذا لعمق نظرته الفكرية و التاريخية، و ملكته البحثية، في أغوار الوثائق و الأحداث و معايشته الدقيقة و الفاحصة لأحداث القضية، جعله ينتبه مبكراً للخطر الصهيوني على المنطقة، بل على العالم أجمع و أكد مراراً أنه يأتي في مقدمة أعداد الأمة الذين ينبغي مواجهتهم، و أن اليهود الصهاينة هم وراء أغلب الأحداث الكبرى في العالم في هذا العصر و ليس في المنطقة فحسب، حيث أن الأحداث الأخيرة كان أغلبها من صنع و تحريك هؤلاء الذين تعاونوا مع القوى الخارجية لتحقيق حلمهم وهو العودة إلى أرض الميعاد حسب زعمهم [1].

و يعتبر سعد الله الحركة الماسونية و وليدتها الحركة الصهيونية هما أخطر القوى الغامضة التي تمخض عنها القرن 20، فقد نجحت الحركتان في تفتيت الإمبراطورية العثمانية، بل إن الإمبراطورية الأمريكية، نفسها إذا لم تسر مع الحركتين في وئام و إنسجام، فإن مصيرها سيكون التفتيت و الاسقاط أيضاً لذلك فإن المسار الصهيوني/ الماسوني و المسار الأمريكي متلازمان و يتحركان جنباً إلى جنب على إيقاع واحـــــد[2].

يحلل سعد الله طبيعة الإحتلال الصهيوني لفلسطين ويقارنه ببعض تجارب الإحتلال المعاصر في ممارساته و جرائمه، بل قد تفوق عليها في جزء كبير منها، و إقتدى بها و إستفاد من تجربتها، فيؤكد وجود تشابه بين ما حدث في الجزائر أيام "المارشال بوجو" (BUJEAUD) و ما يحدث في فلسطين اليوم يقول

[1]- جمال أحمد زواوي ، نظرة أبو القاسم سعد الله لقضايا الأمة و موقفه منها...، أعمال الملتقى الدولي أ بو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا ..، المرجع السابق، ص344.

[2]- أبو القاسم سعد الله، خارج السرب، المصدر السابق، ص-ص93-94.

عن ذلك: " و قد قادني إلى ذلك ما علمته من أن الصهاينة كانوا يستفيدون في عمليات الإستيطان من تجربة الفرنسيين في الجزائر، حين كانوا يجبرون الجزائريين بشتى أنواع الضغط و الحيل ليستولوا على أراضيهم ثم يقيمون عليها المستوطنات للأوربيين، بل حتى العقاب الجماعي و نسف البيوت و الطرد من الوطن، كل ذلك كان أسلوبا مارسته الإدارة الإستعمارية عندنا، ومن جهة أخرى فإن مصطلح الإرهاب الذي يطلقه الصهيانة على المقاومين الفلسطينيين، قد أطلقه الإستعمار الفرنسي في الجزائر على كل الثوار الوطنيين خلال فترة الإحتلال من عبارات الفلاقة و المفتّنين و المتشيطنين و المتعصبين...إلخ "[1].

كما ربط سعد الله بين النظام الصهيوني المحتل لفلسطين و بين الميز العنصري السابق في جنوب أفريقيا(الأبرتايد) حيث أن الصهيونية تقوم تقريبا على نفس القاعدة التي قامت عليها جنوب إفريقيا العنصرية، أي الميز العنصري و الإيمان بالتفوق على الآخرين، و إذا كان الضحايا في إفريقيا هم الأفارقة السود، فإن الضحايا في إسرائيل و الأجزاء المختلفة من البلاد العربية، هم الفلسطينيين، ولكن الفرق بين النظامين هو أن نظام جنوب إفريقيا يؤمن بالتفوق اللـــــوني و العرقي، أما الإسرائيلي الصهيوني فيؤمن بالتفوق الديني و التاريخي، و إذا كان النظام في جنوب إفريقيا يكره أن يسوي بين الأبيض و الأسود، فإن النظام الإسرائيلي يكره أن يسوي بين اليهودي و العربـــــي.

و إذا كان سعد الله يشبه الاحتلال الصهيوني الفلسطيني في بعض مظاهره بالإحتلال الفرنسي للجزائر و بنظام جنوب أفريقيا العنصري، فإنه يحدد طبيعته بإعتباره حوصلة لكل أنواع الإستعمار التي حدثت في الدنيا يقول: بشأن ذلك " إن من سوء حظ الفلسطينيين أنهم أبتلوا باستعمار من نوع جديد لم يعرفه العالم من قبل في الكثير من أعماله و ممارساته و جرائمه، فقد جرب العالم كل أنواع الاستعمار، الإستيطاني و الاقتصادي، و الإنتدابي، و الحمائي، و العسكري، و حتى العنصري، و لكن الإستعمار الصهيوني أصبح نوعاً فريداً، لعله يشكل خلاصة كل تلك الأنواع مضافاً إليها الأساليب التاريخية و الفاشستية مجتمعة، و مضافا إليها أيضا المخترعات العلمية التي تريد من بشاعته و آثاره المدمرة على الإنسان و العمران"[2].

أما موقفه من داعمي الصهيونية فكثيراً ما أشار إلى الموقف الأمريكي و الأوربي المنحاز بشكل كامل للصهاينة و إسرائيل و داعم لها على حساب الحق الفلسطيني و العربي، فيقول عن الموقف الأمريكي

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص251

[2]- نفسه، ص266.

على سبيل المثال "نحن الذين درسنا في الجامعات الأمريكية نحس بالتناقض الصارخ بين ما تعلمناه عن المبادئ الأمريكية، وبين تطبيقات الإدارة الأمريكية نحو الأمة العربية، و بالخصوص القضية الفلسطينية، إننا حقاً أمام تناقض صارخ بين المثالية و الواقعية في سياسة الإدارة الأمريكية، نحو القومية العربية عامة و القضية الفلسطينية خاصة، فهل نصدق ما تعلمناه في الجامعات الأمريكية من مثل عليا في الحرية و العدل و تقرير المصير، أو نصدق ما تعيشه قضيتنا الأولى (فلسطين) من ممارسات أمريكية، قوامها التعسف و التجاهل مصادقة العدو بلا حدود؟"[1].

و نجد سعد الله في تناوله للحركة الصهيونية يستعمل مصطلح اليهود الصهاينة لأنه يفرق بين اليهودية و الصهيونية، فهو لا يعتبر كل اليهود صهاينة، و إن كان أغلبهم كذلك، ورغم بعض القضايا الدينية الحساسة بين المسلمين و اليهود فقد عاش هؤلاء بأمان تحت جناح الدولة الإسلامية، بإعتبارهم أهل الذمة و لم يجدو الأمن و الإطمئنان إلا في حماية الحضارة العربية الإسلامية بينما اضطهدتهم الحضارة الرومانية المسيحية، ثم الحضارة الأوربية العلمية المتأخرة.

وسعد الله في موقفه من الحركة الصهيونية يفرق بين اليهود و الصهاينة ذلك أنه ليس كل اليهود كانوا يطمحون إلى تنفيذ المخطط العالمي السري للحركة الصهيونية، و ليس كلهم على قلب واحد في تنفيذ المخططات الإستراتيجية الكبرى للحركة الصهيونية، و من هؤلاء مثلا بعض الجاليات في البلاد العربية، و هم يسمون باليهود الشرقيين، فبعض هؤلاء جرتهم الظروف السياسية الدولية إلى إعتناق العقيدة الصهيونية رغم أنهم بذلك فقدوا كثيراً من العلاقات الإنسانية في المحيط الذي يتفاعلون معه[2].

و هو الموقف الذي نلمس فيه الكثير من روح الإعتدال، فرغم موقفه الصارم من الحركة الصهيونية و مشروعها، لكنه لا يحمل جرائمهم لكل اليهود و لا اليهودية كدين، وهو الموقف الذي يؤكده الأستاذ أحمد زواوي و الذي يقول عنه أنه: "ينسجم مع موافق أغلب علماء و مفكري الأمة الكبار و منهم الإمام عبد الحميد بن باديس مثلا الذي يقول عن الموضوع في كلمات شبيهة للكلمات سعد الله، ليست

[1]- أبو القاسم سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص267.

[2]- أبو القاسم سعد الله، حاطب أوراق، المصدر السابق، ص99،

الخصوصة بين كل عرب فلسطين و يهودها، و لا بين كل منهم ويهودي على وجه الأرض، بل الخصومة بين الصهيونية و الإستعمار الإنجليزي من جهة، و الإسلام و العرب من جهة"[1].

ب- أسباب ضياع فلسطين حسب سعد الله:

يحدد سعد الله أسباب ضياع فلسطين في أربعة عوامل كبرى، ساهمت مجتمعة في ضياع فلسطين و هي:

- عـــــــدم إدراك خطورة الحركة الصهيونية مبكراً:

حيث يذكر سعد الله أن الإستخفاف بدور و نشاط الحركة الصهيونية و عدم إدراك خطورة مشروعها على المنطقة مبكرا هو الذي أضاع فلسطين، و ما يزال يضيعها إلى اليوم، وهو الذي حقق إنتصارات الحركة الصهيونية على حساب العرب و قضيتهم المركزية، فقد كان لليهود مخططات مبكرة لتهويد القدس، ترجع إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث كانت الجالية اليهودية في القدس نشطة و منظمة و فعالة، و أنشأوا المطبعة و الصحافة و المكتبات و المجلات المتخصصة، و المدارس الدينية و غيرها، و أخذوا يحيون اللغة العربية ويعمموها بشكل ملحوظ، و يشترون الأراضي في القدس و ما حولها، و يشجعون الهجرة بالمال و الدعم المادي و المعنوي[2].

إضافة إلى دور الحركة الصهيونية الفاعل في تمزيق الدولة العثمانية و ذلك بإحتواء يهود الدونمة و تنفّذها في حركة تركيا الفتاة لتفتيت الإمبراطورية العثمانية، و تقسيمها تمهيداً لإقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين، خاصة بعض رفض السلطان عبد الحميد الثاني بيع فلسطين وتسليمها لهم بعد مساومتها له عليها وقد استعملوا كافة أنواع النقود و الابتزاز لذلك من مال و إعلام و إختراق أيدلوجي و سياسي.

- الدعم الأمريكي و الأوربي لإسرائيل:

لقد كان التآمر بين الحلفاء و يهود العالم منذ 1917م حين و عدت بريطانيا الحركة الصهيونية بوطن قومي لليهود في فلسطين، و يؤكد سعد الله أن الوعد البريطاني قد سبقه الوعد الفرنسي الذي كان في 04 جوان 1917 من طرف جون كامبون (J.Cambon) حسب ما جاء في الوثائق الفرنسية التي

---

[1]- نقلا عن جمال أحمد زواوي، المرجع السابق، ص 344 .

[2]- نفسه، ص345.

ترجع إلى الحرب العالمية الأولى، و قد كشف الوعد أن تعاطف كل من فرنسا و بريطانيا على إنشاء وطن قومي لليهود و بعث الدولة العبرية.

كما ارتبطت أمريكا بالحركة الصهيونية منذ الحرب العالمية الثانية، و أصبحت تنفذ سياسة إسرائيل في المنطقة العربية، و الدلائل على ذلك كثيرة لا تحتاج إلى بيان، فالنفوذ الصهيوني في أمريكا نفسها معترف به رسميا و علنيا، و التنسيق السياسي و العسكري و الأمني و الإستراتيجي بين أمريكا و إسرائيل معلن جهاراً و نهاراً و بتبجح وتحد أيضاً، و أمريكا الداعمة لإسرائيل بشكل مطلق تعلم أن الذي يكبح جماح إسرائيل و يجعلها تخضع للأمر الواقع هو القوة العربية الإسلامية لا غير، و يشير سعد الله إلى إتفاقية كامب ديفيد و كيف قضت عليها، كما ظهرت هذه القوة في الجزائر فطمستها بتدجين ثورتها و ربطها باتفاقيات إيفيان و سياسة الحزب الاشتراكي الفرنسي، ثم تمثلت في العراق و لكن أمريكا و بالتعاون مع إسرائيل و حلفائها من العرب حطمت قوة العراق فإختل التوازن و أصبحت إسرائيل في موضع قوة بدون منازع، و إذا بقيت أمريكا على تحالفها مع الكيان الصهيوني "فإن خريطة الوطن العربي نفسها لن تبقى في العشرين سنة القادمة على ما هي عليه، و إن الأخطبوط الصهيوني قد لا يحده إلا المحيط الأطلسي"[1].

– التخاذل العربي الرسمي:

يقول سعد الله "أن في الكثير من الأحيان ينتصر العدو لا لأنه قوي و لكن لأن خصمه ضعيف و متخاذل"، و هو الذي حدث بين العرب و الكيان الصهيوني، فلم ينجح الصهاينة في إقتلاع فلسطين و ما جاورها إلا لأن الطرف الآخر (العرب) في منتهي الضعف و الانقسام و التخاذل و الهوان، فالأمة العربية تخاذلت عن نصرة القضية و المقاومة الفلسطينية و تخلت عن إمدادها بالمال و السلاح، مع الإكتفاء بالاستنكار اللفظي (إن وجد) الذي لا يملأ أحزمة المقاومة الفلسطينية بالرصاص.

بل قد تطور الأمر في الفترة الأخيرة إلى تدفق موارد العرب الطبيعية (النفط و الغاز) على الدول المتحالفة، صراحة مع العدو الصهيوني (أمريكا و أوربا)، و الأكثر من ذلك تدفق إلى إسرائيل نفسها، يجعلها يعود على المنطقة و على فلسطين قذائف و حمم محرقة و مدمرة، حيث يقتل الصهاينة الشعب

[1]– أبو القاسم سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص270.

الفلسطيني بأسلحة ممولة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة من نفط العرب و غازهم و أموالهم الموصدة في البنوك الأمريكية و الأوربية"[1].

– الانقسام العربي و الفلسطيني:

لقد ساهم الإنقسام العربي الفلسطيني في ضياع فلسطين، و مكن الصهاينة من بسط سيطرتهم و نفذهم المنطقة، و قد تنبهت الحركة الصهيونية مبكراً لهذا العامل المهم في إستقرار مشروعها في فلسطين، فعملت على محاربة و إفشال كل مشاريع و مبادرات الوحدة عربيا و فلسطينيا، و لازالت تعمل ليل و نهار على تمزيق الوطن العربي الإسلامي، و ذلك بتشجيع الخلافات المذهبية و الإثنية و الطائفية ...الخ، و خلق مشاكل داخلية في كل قطر و تشجيع الأقليات إذا كانت موجودة و بعثها.

ومن مظاهر الإنقسام الفلسطيني الذي كان له الأثر البالغ على القضية، هي الفصائلية، المتصارعة، و تصرف كل فصيل بمعزل عن بقية الفصائل الفلسطينية الموجودة في ساحة العمل الوطني الفلسطيني بل و المواجهة المباشرة بين بعضها بدل التوحد و تنسيق الموقف و الحركة لمواجهة عدوهم، حتى أن بعضهم ينسق مع عدوه ضد أخيه الفلسطيني، دون أن يعتبروا من جيرانهم الصهاينة، الذين توحدوا بعد فرقة رغم تعدد طوائفهم من أجل محاربتهم بقبضة واحدة[2].

جـــ– تصور سعد الله لحل القضية الفلسطينية:

يؤكد الأستاذ سعد الله أن العالم إستطاع أن يجد الحل لمعظم القضايا المعقدة، و أن يصُب الماء البارد على معظم البؤر الساخنة الإقليمية منها و الإيديولوجية من عنصرية جنوب إفريقيا إلى شيوعية الإتحاد السوفياتي، و من النزاع الكمبودي إلى الحرب الأنغولية...إلى غيرها من القضايا كلها حُلت إلا القضية الفلسطينية، و يرجع سبب ذلك إلى أن كل القضايا قد حلت لصالح (الاتحاد السوفياتي، شرق أوربا، إثيوبيا ...إلخ. أما قضية فلسطين فهي لم تحل لأن وراءها مصالح الصهيونية، و إسرائيل[3].

و المتتبع لكتابات سعد الله حول القضية الفلسطينية يجده يقدم تصوره لحل القضية وفق أربع خطوات كبرى و هـــــي:

---

[1]– أحمد زواوي، المرجع السابق، ص346.

[2]– نفسه، ص348.

[3]– أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق، ص136.

– الرفض المطلق للتطبيع مع إسرائيل:

يشدد سعد الله على ضرورة رفض التطبيع مع الصهاينة و إسرائيل مهما كان شكله سياسي كان أو إقتصادي أو ثقافي أو غيره، حيث يعقب على تصريحات السفير الصهيوني في باريس التي يطالب فيها و يتمنى تطبيع العلاقات مع العرب بقوله: " أجرت إحدى قنوات التلفزة الفرنسية حديثا مع السفير الإسرائيلي في باريس، فإفتتح حديثة بالتباكي و التمنيات بأن يزول الجدار الذي أقامه العرب ضدا إسرائيل، و نحن لا نريد أن نسأل من الذي أقام هذا الجدار؟ ".

فسعد الله حساس جدا لموضوع التطبيع مع إسرائيل و الصهاينة إلى الحد الذي جعله يرى أن محاولات تغير العطلة الأسبوعية من الجمعة إلى السبت و الأحد صورة من صور التطبيع المرفوضة مع إسرائيل، فيذكر أن هذا المقترح قد راعى قداسة السبت مع الأحد، لأن رضا اليهود أصبح هدف كل نظام العالم، فقد أوعزوا لجميع الأنظمة أن يوم السبت يوم مقدس فلا يجوز لأي دولة أن تتجاوزه، و قداسته خط أحمر عند اليهود، و على الجميع أن ينسجم مع النظام الصهيوني اليهودي العالمي الموحد في عطلة نهاية الأسبوع[1].

و لعل من الموافق العَملية لسعد الله الرافضة للتطبيع مع إسرائيل أن أحد طلبته بجامعة مينيسوتا عندما كان أستاذا زائراً وذلك في تقرير سري يكتبه عنه إليها بواسطة مكتبها بنيويورك وهو تقليد معمول به عندهم، فرفض أن يكتب للجامعة، المذكورة أو أن يتواصل معها ولو بتزكية، وبعد إلحاحه و رفعاً للحرج مع إدارة الجامعة، كان أقصى ما فعل مع هو كتابة تزكية عامة غير موجهة إلى أي وجهة ليضعها في ملفه[2].

– معارضة السلام القائم على التفريط في الحقوق:

يرفض سعد الله السلام مع إسرائيل الهاضم للحقوق و المفرط في المقدسات و يرى أن القبول به ما هو إلا تفريط في القضية، برمتها و تضيع القدس، حيث يذكر موقفه بعد توقيع إتفاق السلام بين منظمة التحرير الفلسطينية و إسرائيل في البيت الأبيض سنة 1993، "شعرت أن هناك عرسا و مأتماً، عرس للغرب و مأتم للعرب و المسلمين، أي حفل، و أي فرح، إنها السخرية بعينها" .

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، مصدر سابق، ص–ص (26–28).

[2]– أبو القاسم سعد الله، مسار قلم، ج6، المصدر السابق، ص158.

و في موضع آخر يخاطب الفلسطينيين بمناسبة انعقاد مؤتمر السلام بمدريد بقوله: " قلت لكم اليوم نعم للسلام المعروض عليكم في مزلق يؤدي إلى المزيد من ضياع قضيتكم و رفضكم له يؤدي إلى كشف الأطراف المتآمرة على القضية كلها، فإنزعوا الأقنعة عن الوجوه التي ستجلس حول المائدة مع إسرائيل لتأكل لحم الفلسطينيين بشوكات صهونية و سكاكين أمريكية "[1].

– ضرورة الوحدة الفلسطينية:

يعتقد سعد الله أن أهم ما يجب أن يتسلح به الفلسطينيين ضد المحتل الغاصب و مناصريه هو خيار الوحدة الوطنية الفلسطينية و الإبتعاد عن النعرات و نبذ الخلافات السياسية و الفكرية و الإيديولوجية و الفصائلية و التخلي عن أهواء النفس و حب الزعامة و أن يتعلموا من الثورة الجزائرية درسا خالدا، و هو أن لا بطل إلا الشعب، ولا زعيم إلا السلاح ولا وسيلة إلا القوة و الوحدة و يتعلموا درسا آخر من الواقع المر، و هو أن وطننا العربي ملئ بالزعامات و لكنها مزيفة لأنها لا تخيف عدواً ولا تسند صديقاً[2].

و لما سأل سعد الله في أحد حواراته عن أحلامه التي لم تتحقق ويتمنى تحقيقها ذكرها منها.

– صوت واحد للعرب في المحافل القومية و الدولية و ليس اثنين و عشرين صوتا كما هو الحال الآن.

– سكوت الفلسطينيين عن التباهي بأسماء فصائلهم و شهدائهم، و تعلمهم من عدوهم العمل الصامت الذي تظهر آثاره دون معرفة فاعليه و إدراكهم أن الأسماء لا تضيع و أن ذكر الفصائل في وقت الشدة علامة ضعف و ليس علامة قوة[3].

– المقاومة المسلحة:

يـــــرى سعد الله ضرورة تبني الفلسطينيين المقاومة المسلحة كأي قضية تحرر وطني في العالم، حيث يؤمن إيمانا راسخا بأن المقاومة و القوة و السلاح هو الذي يحرر فلسطين و ليس الإستجداء السياسي و السلام المزعوم والتنازلات المفرطة في الحق و الأرض، و يؤكد أن الفلسطينيين هم أولى الناس بأن يعرفوا أن المطالبة، بالحق عن طريق الإستجداء في الأمم المتحدة و غيرها لن يجعل عدوهم ينحني و يرضخ، فقد جرب الفلسطينيين ذلك ربع قرن أو يزيد دون جدوى يقول " جربوه في الملاجئ و منظمات الغوث و

[1]– أحمد زواوي، المرجع السابق، ص35.

[2]– أبو القاسم سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص 265.

[3]– أبو القاسم سعد الله، حوارات، المصدر السابق، ص205.

محافل العالم، فلم يجدوا منه إلا الشفقة من البعض و الإحتقار من الآخرين، أما المقاومة و الإنتفاضة فهي التي ستجلب إليهم إحترام العالم و تعيد إليهم حقهم المغتصب"[1].

و في الأخير لا يسع مثقف و مفكر كسعد الله إلا أن يبارك نضال المقاومة الفلسطينية التي بعثت الأمل في النفوس بالنصر مهما طال الزمن، كما برهنت أنها تمثل إرادة شعب مؤمن بحقه في الحياة، و مصمم على إفتكاك هذا الحق مهما كان الثمن، و جعلت هذه المقاومة العالم أجمع يعرف أن جهادها ضد المحتل و مقاومتها له و ثورتها عليه هي قبل كل شـــيء ثورة و مقاومة شعب لا ثورة زعماء و ثورة أرض و عرض لا ثورة صالونات و أن الذي يقف على أرضه و بيده سلاح من حجارة أفضل ألف مرة ممن بيده منشور سياسي يتجول ويتسول به في المحافل الدولية، تلك هي نظرة مؤرخنا للقضية الفلسطينية التي عاشها بوجدانه و فكره وقلمه إلى أن وافاه الأجل و هو على ذلك ينتظر أملا قريبا.

2- القضية العراقية:

لم يختلف حضور القضية العراقية في فكر أبي القاسم سعد الله عن سابقتها القضية الفلسطينة، فقد عايش مؤرخنا تداعياتها و واكب أحداثها بقلمه، على مدى أكثر من ثمانين سنة، و القضية التي عايشها مؤرخنا، كانت هي الأخرى تمثل سلسلة الإنهيارات والتمزقات الذي أصابت الأمة العربية مع بداية العقد الأخير من القرن العشرين، و بالتالي إنهيار الحلم العربي الكبير أمام التمزقات التي كانت بين الحكام و الدور الأمريكي- الغربي في تحطيم هذا الحلم؛ في هذا الإطار سنتطرق إلى موقف مؤرخنا من هاته القضية و تداعياتها؟

النزاع العراقي- الكويتي أو ما عُرف بحرب الخليج الثانية، حرب خاضه تحالف دولي بقيادة أمريكا إثر غزو النظام العراقي بزعامة صدام حسين للكويت 1990م، بعد إتهامه لها بسرقة نفطه و التآمر ضده، خرجت على إثرها القوات العراقية من الكويت و تدمير القدرات العسكرية و الإقتصادية، و فرض حصار قاس على البلاد سبب مأساة إنسانية كبيرة دامت لسنوات.

[1]- أبو القاسم سعد الله، في الجدال الثقافي، المصدر السابق، 205.

أ- أسباب التحالف الغربي على العراق من منظور سعد الله:

عمدت الو.م.أ للعمل بشتى الوسائل لفرض هيمنتها على الساحة الدولية، و لكي تضفي المشروعية على تصرفاتها و سلوكها المنافي للشرعية الدولية[1]، عمدت إلى إستغلال الأمم المتحدة وتسخيرها كواحدة من الآليات المهمة في إدارة الصراعات الدولية بدل تسخيرها لحل النزعات الدولية، و هذا الأمر تجسد بوضوح في هيمنتها على العراق، و بأن هذا الأخير قد إعتدى على الشرعية الدولية في إحتلاله للكويت.

أما سعد الله فيرى أن المبررات التي ساقتها الإدارة الأمريكية لعدوانها على العراق، بحكم إعتدائه على الشرعية الدولية، ما هي إلا مبررات واهية، و أن وراء ذلك عدة أسباب مدروسة يحددها فيما يلي:

إن إكتساب العراق للتكنولوجيا و ظهوره بمظاهر الواثق من نفسه على الساحة الدولية، لا سيما بعد خروج العراق شبه منتصر في الحرب العراقية- الإيرانية، (1980-1988م)، و إمتلاكه أثناءها خبرات علمية و عسكرية صناعية قد تقوده في المستقبل إلى حيازة برنامج تسليح متطور يهدد المصالح الأمريكية بالمنطقة، فالسياسة الأمريكية ترتكز على منع إنتشار الأسلحة النووية و الحيلولة دون إمتلاكها بواسطة دول إضافية بحجة أن هذا الإنتشار يهدد السلام العالمي، ذلك أن غير العرب و المسلمون يحسن إستعمال أسلحة الدمار بينما لا يحسن العرب و المسلمون إستعمالها في نظرهم، و إذا إمتلكها هؤلاء سيحدث عدم التوازن في المنطقة، فالقضاء على المصالح الغربية و إبادة إسرائيل إلى عودة الخطر العربي و الإسلامي في العالم...إلخ، كل هذا الترابط بين إمتلاك التكنولوجيا و مصير المنطقة، لا يقبل الغرب أن يتسامح معه[2].

يضيف سعد الله سبباً آخر للعدوان الأمريكي على العراق و هو الطابع الصليبي- العنصري، ذلك أن معظم أصحاب القرار في الأمم المتحدة كانوا من الغرب المسيحي، و لذلك كانت القرارات الصادرة ضد العراق تتميز بطابعها الغربي المسيحي، ففي نظر سعد الله أن دافع الشرعية الدولية و المصالح الإقتصادية لا ينفي أبداً وجود الصفة الصليبية للحرب و حتى بوجود أطراف إسلامية في التحالف يقول في ذلك: " إن الحرب الصليبية لا تنفي وجود تعاون بعض المسلمين أو ما يعطون لأنفسهم صفة المسلمين مع أطراف غير

---

[1]- **الشرعية الدولية** : يعني مصطلح الشرعية الدولية الإلتزام بمجموعة المبادئ و القوانين التي تحكم و توجه العلاقات الدولية من خلال هيئة الأمم المتحدة وبما تصدره هيئاتها المكلفة بحفظ الأمن والسلام العالميين. للمزيد أنظر: عماد هادي الربيعي، العراق و التحالف الغربي، 1991- 2003، عمان، دار زهران، 2014، ص 36.

[2]- أبو القاسم سعد الله، "مع العراق القوي"، جريدة الشعب 1999/5م.

إسلامية، فقد عرفت الحروب الصليبية المعروفة مثل هذا التعاون أيضا و عرفت ساحتنا ذلك أيضاً في عدة أمثلة أيام الاستعمار الحديث[1].

فالشعوب الغربية ما تزال تعيش على رواسب الصليبية، و الحرب على العراق تدخل في هذا الإطار أو كما سماها بعضهم "الحرب الثامنة من الحروب الصليبية " فهي تشترك في كثير من دوافعها مع الحروب الصليبية التاريخية في الهيمنة على الشرق أو العالم العربي، و كبح جماح أية نهضة أو تَحد فية، و من ثمة نزع فتيل أي حركة استقلالية عن الغرب. و لا شك أن حلفاء اليوم ليس لهم في العراق هدف ديني كالذي كان لأجدادهم في القدس، و لكن العراق هو بمثابة رمز فقط، فلو إنتصر العراق لاسترد القدس لا محالة، و إسترداد القدس يعني طرد اليهود و النصارى و إعادتها إلى حماية الدولة الإسلامية، و هذا الحل بالطبع لا يُرضى اليهود، كما لا يُرضى حلفاءهم الأقربين (أمريكا، بريطانيا، فرنسا)، و لذلك ظهرت الصليبية اليوم شريكة لليهودية على خلاف ما وقع في العصور الوسطى، حيث كان اليهود مستهدفين أيضا بالقتل و طرد المسلمين، فالحرب التي شنت على العراق إذن هي حرب يهودية مسيحية (غربية)، لأنها كما هو واضح للجميع تخدم أهداف أمريكا و أوربا و إسرائيل في الوطن العربي و الإسلامي.

كما يشير سعد الله إلى جانب العنصري في عملية العدوان على العراق ذلك أن العراق دولة عربية و إسلامية، و قد علمنا الغرب المسيحي أنه مستهتر بالقوانين الدولية، كلما كان الأمر لا يتعلق به هو يقول سعد الله في هذا الشأن "لاشك أن العالم الثالث لن ينسى معاملة الغرب المسيحي له منذ القرن التاسع عشر أثناء الهيمنة الإستعمارية، فقد كان الغرب خلال ذلك يطبق قوانين عادية في بلاده و قوانين إستثنائية في المستعمرات و منه ذلك (قانون الأهالي) العنصري في الجزائر و القوانين الإستثنائية العنصرية في الهنـــــد"[2].

و يظهر الطابع العنصري حسب سعد الله حتى في الإسم أو الرمز الذي أطلق على التدخل الأجنبي في الأراضي العربية بإسم الأمم المتحدة، فقد أطلقوا على التدخل عملية "درع الصحراء" و الصحراء في المفهوم العام تعني الخلاء و البداوة، و كان علماء الإستشراق و الدعاية الإستعمارية و القساوسة يربطون بين الصحراء و الإسلام و بين العربي و الجمل و إن للمصطلح دلالات بعيدة المعنى يقول سعد الله عن ذلك: " وقد يستغرب الذين وضعوا هذا الرمز (درع الصراع) أنفسهم من هذا و قد يقولون إننا لم نفكر

[1]- أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق، ص109.

[2]-نفسه، ص112.

أبداً فيه عندما أطلقناه على العملية، ولكننا قلنا أن القضية تتجاوز الشعور إلى اللاشعور و تقفز من الحاضر إلى الغابر ".

و يدخل في هذا الإستعمال العنصري أيضا عملية العدوان على العراق التي أطلقوا عليها اسم (عاصفة الصحراء) مع ملاحظة أننا هنا مع كلمة جديدة و هي (العاصفة) و التي تعني الخراب و الدمار و التلف ضد كل ما بناه الإنسان من حضارة، و كذلك كان الحال، فقد مرت (عاصفة الصحراء) على العراق فدمرته و عاثت في الكويت دمار و خرابا، و البقية حسب سعد الله ستأتي لأن روح العنصرية لعاصفة الصحراء لم تُفرغ كل أحقادها على المنطقة و تتجلى الآن عنصريتها و عنصرية القانون الغربي-المسيحي في معاملة العراق على مستوى مجلس الأمن " فقد أصدروا هناك ضد العراق أكثر من عشرة قرارات ثم أتبعوا كل قرا بشروط تقود إلى قرارات جديدة، ثم أتبعوا كل قرار بشروط إضافية تقاس على قدر إضفاء روح التشفي و العنصرية و الصليبية الراسبة في أغوار الجهات المقترحة للقرار ثم المتبنية له بالتصويب و نحوه"[1].

و يضيف سعد الله الدافع الإقتصادي أيضا في عملية العدوان الأمريكي الغربي على العراق، وهو السيطرة على منابع النفط و التحكم بمصادر الطاقة في العالم و التأثير في شرايين الإقتصاد العالمي يقول عن ذلك " إن ما نعرفه هو أن أمريكا و حلفاءها من الغربيين لم يأتوا إلى الخليج للترهة، و إنما جاؤوا لتحقيق هدف يقولون عنه أنه "نظام دولي جديد" و معنى ذلك في نظرنا أنهم خططوا لإحتلال منابع البترول"[2]، و يؤكد نعوم تشومسكي أن الهدف الأساسي من الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط هو السيطرة على إحتياطات الطاقة الهائلة الموجودة في العراق و هذا أمر لا جدل فيه، و يعتبر مصدر للقوة الإستراتيجية، الأمريكية[3]. و يضيف فريدمان توماس " إن النفط هو أحد أسباب الإعداد للحرب ضد العراق و إذا حاول أي شخص أن يقنعنا بغير ذلك فإنه قطعاً لا يحترم عقولنا" [4].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق ،ص 213.

[2]-أنظر: أبو القاسم سعد الله، " عذرا يا عراق !"، جريدة السلام 1991/1/26م.

[3]- نعوم تشومسكاي، " إحتلال العراق يرفع خطر الإرهاب و أسلحة الدمار معا"، مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد 300، فيفري 2004، ص119.

[4]- أحمد منصور، قصة سقوط بغداد الحقيقية بالوثائق، بيروت: الدار العربية للعلوم، دار ابن حزم 2004، ص72

و عليه يمكن القول أن النفط كان عاملا أساسياً و مؤثراً في السياسة الأمريكية اتجاه العراق، فالعراق يمثل ثاني أكبر احتياطي في العالم و بالتالي الوسيلة الأنجح للولايات المتحدة الأمريكية للسيطرة على النظام الإقتصادي العالمي.

و هناك أيضا سبب آخر للتّحالف و الحروب التي شُنت ضد العراق سنة 1991 يضيفها سعد الله، وهو حماية الكيان الصهيوني و ضمان أمنه، بإعتبار أن إسرائيل بالنسبة للغرب أكثر الأنظمة الموالية للغرب في المنطقة و الأقرب إلى مصالحه الحيوية، فخروج العراق منتصراً من الحرب مع إيران مدعماً بخبرات عسكرية و إمكانات تسليحية و علمية، و صناعية شكلت مصدر قلق و تحسب لدى الكيان الصهيوني لما بات يشكله النظام السياسي العراقي بتوجيهاته و طروحاته القومية من خطر على أمن إسرائيل، فإضعاف العراق كدولة لها وزنها و قوتها في المنطقة يعزز من قوة إسرائيل التي أثبتت فعاليتها كحليف للولايات المتحدة الأمريكية[1].

إن الإلتزام الأمريكي بأمن الكيان الصهيوني هدف ووسيلة يحددها الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون بقوله "إن إلتزامنا بإسرائيل نابع من مصلحتنا الأخلاقية و الإيديولوجية وأننا نجد أنفسنا بما يقارب اليقين مشاركين في نزاع مستقبلي في الشرق الأوسط ولن يسمح أي رئيس للولايات المتحدة الأمريكية بأن تتهم إسرائيل "[2].

و طبعا المستفيد من نتائج العدوان على العراق سيكون الكيان الصهيوني ومن وراءه الولايات المتحدة الأمريكية لتجسيد مخطط إعادة هيكلة المنطقة لما يخدم المصالح الأمريكية و الإسرائيلية، و عليه فإن أمن إسرائيل يعتبر مصلحة أمريكية و أنها الأداة السياسية للتعامل مع الدول العربية، المحيط بها يقول سعد الله في ذلك: ""يجب أن نتفق ... على أن التحالف الذي يضرب العراق اليوم هو من صنع الصهيونية و ليس من صنعكم أنتم (أمريكا)، و إنما أنتم تملكون في التحالف أسلحة مصانعكم المتطورة و الفيتو الدولي، و إلى حد ما تملكون أيضا العصا الغليظة، أما التخطيط و التموين للتحالف المذكور فتأكد ... أنه ليس من صنع

[1] – عماد هادي الربيعي، المرجع السابق، ص63.

[2] – ريتشارد نيكسون، أمريكا والفرصة التاريخية، ترجمة: محمد زكريا إسماعيل، بيروت: مكتبة بيسان، 1992م، ص 203.

أيديكم ولا من عبقريتكم و أن المستفيد الأول سيكون في الأساس هو المخطط للتحالف و ليس الممول له و لا صاحب العصا الغليظة"[1].

وعليه يتضح مما سبق ، أن الشرعية الدولية التي ساقتها الو.م.أ لعدوانها على العراق قد غيبتها و جعلتها لافتة تتستر وراءها لتجنب المعارضة، و لإضفاء المشروعية على مساعيها في الحرب على العراق، خارقة بذلك كل القيم و المبادئ اللأخلاقية التي تتشدق بها، فالعمليات و الفعاليات العسكرية التي نفذتها القوات الأمريكية و القوات المتحالفة معها كانت حسب سعد الله عدوانا تنطبق عليه كافة شروط العدوان الواردة بتعريف الجمعية العامة للأمم المتحدة، لأنه كان خروجا عن قواعد الشرعية الدوليه و مبادئ حقوق الإنسان التي أفرزتها العهود و المواثيق و الاتفاقات الدولية.

ب- التخـــاذل العـــــــربي الرسمي:

عبر سعد الله مرار في مقالته التي نشرها عقب التحالف على العراق، بموقفه الصريح مع الجانب العراقي و رفضه التدخل الأجنبي في المنطقة، وهو ما اعتبرته بعض الأطراف أو الأنظمة المتحالفة موقفاً معاديا ضدها دفاعا عن السياسية العراقية، و قد قال سعد الله عن هذه الأنظمة " متحالفين مع دول موجودة مجازا لا حقيقة مسكتين هذه بالمساعدات الاقتصادية، و تلك بغنائم ما بعد الحرب، و انجرت إليهم نظم عربية، و ما هي بعربية في الصميم، كانت من قبل تدور في فلكهم فإذا هي تساق كخراف العيد إلى حيث مذابحها دون أن تملك لمصيرها قرار أو تدرك لذبحها معنى"[2].

فقد هاله سعد الله سكوت و تواطؤ الأنظمة العربية العميلة على حد قوله على هذا التحالف الغربي- الصهيوني على العراق، و التخاذل لنجدة العراق، و عملت الأنظمة العربية في هذا الاطار تحويل عساكرها في نظره إلى أدوات لحماية نفسها لا للدّفاع عن شرف الأمة و الحدود القومية يقول في ذلك: " إن الجيوش العربية جيوش ثكنان لا جيوش معارك و هي الآن أحلاس قصور لا فوارس ميدان، و هي حامية نظام لا حامية، ضمار أنت وحدك يا عراق فلم يحدث في الساحة العربية ما توقعته أنتَ الآن، فالشارع العربي لم يسقط حكومة، ول م يجبر نظاماً على مقاطعة المعتمدين عليك "[3].

---

[1]-أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، المصدر السابق، ص121.

[2]- أنظر: أبو القاسم سعد الله، " عذرا يا عراق !"، جريدة السلام 1991/1/26م

[3]- نفسه.

وسعد الله يستغرب موقف الدول العربية المتحالف مع الجيوش الأجنبية التي جاءت لتحتل أراضي عربية، بغض النظر عن التعليلات التي تستند عليها لتدخل، و كأن بها هاته المناطق لم تجرب معاول الإحتلال من قبل " و إذا كان هناك من البلاد العربية، من يجرب الآن لأول مرة الاحتلال الأجنبي المباشر لكل أو لجزء من أرضه، فإننا لا نفهم كيف ترضى البلاد العربية، الأخرى التي جربت الإحتلال الفرنسي و الاحتلال الإنجليزي من قبل بهذا التحالف".

ويؤكد سعد الله أن السيناريو الذي نفذ على العراق اليوم سيكون ضحيته بلد أخر من الوطن العربي المستهدف، يوجه له الإتهام في اللحظة التي يكون فيها معزولا عن النجدة، و تبني التهمة على أساس دولي، ثم إستخدام مجلس الأمن كأداة تنفيذ، و النتيجة هي تحطيم الشموخ العربي، و تمزيق الأمة العربية ، ثم هيمنة الغرب و الصهيونية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية على أساس دولي، ثم إستخدام مجلس الأمن كأداة تنفيذ، و النتيجة هي تحطيم الشموخ العربي، و تمزيق الأمة العربية، ثم هيمنة الغرب و الصهيونية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية[1].

و إذا كان اليوم المنطق العسكري قد يحكم بهزيمة العراق ذات يوم لأنه وفق وحده ضد تحالف عدواني بزعامة أكبر دولة في العالم، فإنه يكون في نظر سعد الله فد حقق انتصاراً ساحقاً يقول في ذلك: ""إن العراق رغم ذلك قد إنتصر إنما إنتصار، إنه انتصر يوم مثل إرادة العرب في الصمود مهما كانت الضغوط و العواصف و انتصر يوم فهم روح العصر فوظف العلم و التكنولوجيا و برهن على أن العقل العربي و الإسلامي قادر على تحقيق المعجزات، إذا رفع عنه الحجر الذي وضعه الإستعمار و التحالف منذ قرون، و إنتصر العراق تحدى القرارات الجائرة الصادرة عن إدارتكم تحت غطاء مجلس الأمن الدولي، ... وانتصر لأنه جعل كل جيوشكم الخاصة و الحليفة تعيد حساباتها و مخططاتها العسكرية و الإقتصادية و السياسية و حتى النفسية"[2].

أما الهزيمة الحقيقية في نظره فستكون لأولئك الذين خذلوا أنفسهم بخذلانهم للعراق، و طأطأوا رؤوسهم يوم حاول العراق أن يشمخ بها، ولكن رغم هذا التمزق الذي أصاب الوطن العربي، و رغم تنازل الحكام عن واجبهم و انحراف الجيوش العربية عن رسالتها، فإن سعد الله يرى أن بريق الأمل مزال موجوداً، و ما يزال في الضمائر بقايا من الأنفة و النخوة و الكرامة، و في التاريخ العربي ما تزال هناك

[1]- أبو القاسم سعد الله، " مع الشعب الليبي"، جريد الشعب 1990/4/7.

[2]- نفسه، ص126

رؤوس تميد بالوعي الذاتي، و قد عرفنا ذلك أيام وقفت جيوش المغرب العربي مع ثورة الجزائرية المجيدة، و عرفنا أيام وقعت الجزائر مع الشعب المصري أثناء العدوان الثلاثي (1956)، و إذن فإن الإنسان العربي قادر على أن يؤثر و أن يكون فاعلا رغم كل التهديدات من الغرب و الصهيونية، ومن الحكام المتخاذلين.

3- الوحدة المغاربية:

يمكن أن ننظر في وحدة المغرب العربي حسب الأستاذ سعد الله من ثلاثة زوايا الماضي و الحاضر و المستقبل، ولكل زاوية ميزة تميزها، لذلك أن الظروف التاريخية و الدولية و المعطيات الإجتماعية و الإقتصادية، ليست دائما واحدة، و بالتالي لا يمكن قياس الحاضر على الماضي و لا قياس المستقبل على الحاضر.

إن الإسلام وحَّد جميع سكان المغرب العربي بما جاء به من تعاليم توحيدية و تشريعية و إجتماعية...إلخ، يقول سعد الله عن ذلك " لقد عجن الإسلام السكان في بوتقة واحدة، فبعد أن كانوا يعيشون على حياة القبلية أصبحوا يعيشون حياة الجماعة، و بعد أن كانوا في حروب مستمرة من أجل العيش و الغلبة، أصبحت حروبهم ضد عدو دينهم و حضارتهم المشتركة، أي أصبحوا أقوياء بعد أن كانوا ضعفاء "[1]،كما أن الإسلام قد حرر السكان نهائيا من التبعية لأروبا المسيحية، وربطهم بأصولهم المشرقية السامية.

لكن محاولات التوحيد السياسي للمغرب العربي في العصور الإسلامية، كانت على حساب الحكم المركزي، (حكم الخلافة)، ذلك أن ضعف مركز الدولة الإسلامية و طموحات بعض الولاة أدت إلى نشأة و إستقلال الدويلات، فظهور الأدارسة و الرستمين، و الفاطمين، و الأمويين بالأندلس، إنما جاء نتيجة ضعف المركز و تآمر الولاة أصحاب المذاهب المخالفة، أي أولئك الذين رفضوا الإنصياع إلى حكم الأغلبية، أو الذين نظروا إلى الحكم كقضية مجد عائلي أو شخصي لكان سرعان ما فتئت هذه الدويلات القائمة على التمذهب أو العائلة أو الطموح الشخصي، تواجه مشاكل داخلية، و خارجية كان عليها أن تتغلب عليها لكي تعيش.

[1]- أبو القاسم سعد الله، في الجدل الثقافي، ص175.

ومن ثمة تفسر قصر المدة التي كانت تعيشها كل دويلة لأن أعداءها في الداخل و الخارج سرعان ما يتآمرون عليها و يقوضونها ، إما بالتحالف مع بعضهم، أو بالتحالف مع العدو ضدها، وقد عاش ابن خلدون هذا العصر وصور لنا أحسن تصوير، بل أنه خرج منه بنظريات حول قيام و إزدهار ثم انحلال الدول و الأسباب و العوامل التي تقود إلى ذلك، و خرج أيضاً بنظرية العصبية، التي تمثل الحافز وراء ذلك كله، و هي النظرية التي حيرت الكثير من المؤرخين المحدثين و ذهبوا في تفسيرها ، فهل هي القومية بمفهوم اليوم، أو الدين بالمفهوم القديم، أو الرابطة القبلية ...إلخ.

إن المحاولة التي قام بها المرابطون و من بعدهم الموحدون كانت دليلا على أنه لا يمكن لعدة دويلات أن تتعايش في المغرب العربي، و أنه لا بد أن تتغلب أحداها على البقية، و ذلك أن الساحة الجغرافية، لا تسمح بوجود دولة مستقلة ذات حدود طبيعية، فقد يحدث ذلك مؤقتاً بحكم تدخل عوامل خارجية، كالخوف من تدخل دولة أجنبية، فسيكون وقتها نداء الوحدة هو المتغلب في النهاية و هو ما حدث أيام الدويلات الثلاث المتعاصرة الزيانية، و المرينية، و الحفصية، إذ حاولت كل منها التغلب على الأخرى، عندما أضعفت تلك الدويلات نفسها بالحروب الداخلية و عجزت تحقيق الوحدة جاء الخطر من الخارج، من إسبانيا، و البرتغال وغيرهم، و كان لا بد من الإتجاه نحو المشرق من جديد، فكان الدور العثماني الذي حمل راية الخلافة الإسلامية و طلائع الإنقاذ.

هكذا دخلت ليبيا و تونس و الجزائر في وحدة مفروضة من الخارج، -حـــكم البيايلاربيات-، ورغم أن المغرب الاقصى بقي في عزلة عن ذلك إلا أنه استفادة من المظلة العثمانية في البحر المتوسط، و عندما ضعف الخطر الخارجي (خصوصا الإسبان و البرتغال) بتوجيه طاقاته إلى أمريكا اللاتينية و الشرق الأقصى، رجعت روح الإستقلال إلى المغرب العربي فظهرت ولايات (إيالات) سرعان ما تكرست مع الزمن في شكل دويلات، ذات حدود إقليمية.

و هكذا أيمكننا القول بأن دويلات المغرب العربي الحديثة إنما هي تركة موروثة عن العهد العثماني، فالحدود السياسية لهذه الأجزاء قد رسمت في الواقع أثناء الوجود العثماني، كما أن المغرب الأقصى تشكلت حدوده أثناء هذا الوجود بالرغم أنه كان خارجا عن إطار الدولة العثمانية و حين سلط الإستعمار الغربي على منطقة المغرب العربي زاد في تكريس الحدود القائمة.

و إذا كان هناك جديد جاء مع الإستعمار الغربي، فإنه يتمثل في ظهور الوعي السياسي المضاد للحكم الأجنبي، و الشعور بضرورة الوحدة و إزالة الحواجز الإقليمية المفروضة بخدمة مصالح الدول الأجنبية، يقول سعد الله في ذلك: "أما الوعي السياسي فقد تمثل ذلك في إستيعاب كل إقليم للاجئين من الأقاليم الأخرى، و في مشاركة أهله بكل الطاقات المتوفرة، ثم بالتنسيق المشترك على مستوى القيادات السياسية و الثقافية، عندما تصاعد الوعي إلى هذا المستوى رأينا ذلك عندما أحتلت فرنسا الجزائر وشاركت نكبتها جيرانها في الأقطار الأخرى، – و أنا هنا أتكلم عن السكان لا على النظام– و وقع ذلك أيضا عندما امتدت أيدي الإحتلال إلى هذه الأقطار بالنسبة للجـــــزائر"[1].

أما مرحلة التنسيق السياسي و التي كانت نتيجة تصاعد الوعي في الأقطار كلها، فقد بدأت بالخصوص أثناء الحرب العالمية الأولى، أو قبل ذلك بسنة في حرب طرابلس سنة 1911م و الذي كان ملتقى المناضلين من أقطار المغرب العربي كلها يقول سعد الله في هذا الشأن: " إننا نذكر هنا دور علي باش حانبه و أخيه محمد في تبني فضية المغرب العربي خلال الرحب العالمية الأولى، و دور إسماعيل الصفايحي و صالح الشريف، وكلهم من تونس"[2].

ثم كانت النواة هي مجلة المغرب 1918 التي صدرت بجنيف و طالبت بتقرير المصير لبلدان المغرب العربي قبل أن ينعقد مؤتمر الصلح بفرساي، ثم في ظهور النجوم 1926 و في الحركات الطلابية 1920، و 1927 ثم توالت الأحداث و تأسس جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا 1944، و هي الجبهة التي كانت نواة لمكتب تحرير المغرب العربي بالقاهرة[3]، الذي جمع العناصر الفاعلة عند إنشائه سنة 1947 من الحركات الوطنية في المغرب العربي، و تأتي الأحداث الموحدة كاستقلال ليبيا و نفي الملك محمد الخامس و ثورة تونس، ثم تكون ثورة الجزائر أعلى قمة التضامن في المغرب العربي إذ تحول التضامن إلى مشاركة فعلية و إلى

---

[1]– أبو القاسم سعد الله، في الجدل الثقافي ، ص 177.

[2]– أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية ، المصدر السابق، ص 55.

[3]– **لجنة تحرير المغرب العربي** : تأسست بالقاهرة في ديسمبر1947م من جزائريين ومغاربة و تونسيين، تحت رئاسة محمد بن عبد الكريم الخطابي و أمينها العام الحبيب بورقيبة، و كان الهدف منها خدمة قضايا المغرب العربي ، و قد لعبت دور فعال في توحيد مناهج العمل الثوري و السياسي بين دول المغرب العربي. للمزيد انظر: عبد الحليم مرجي، قضايا تحرير المغرب العربي عند محمد البشير الإبراهيمي وعلال الفاسي، مذكرة لينيل شهادة الماجستير في التاريخ، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2015/2014م، ص 28.

قناعة تلقائية من جماهير الأقطار الأخرى، و كان آخرها مؤتمر طنجة 1958،[1] الذي أعطى مضموناً واضحاً لفكرة المغرب العربي.

غير أن الظروف السياسية تغيرت اليوم، و تشابكت المصالح، فالجمود الذي تشهده مسيرة الإتحاد بسبب سوء التفاهم بين الجزائر و المغرب حول مصير الصحراء الغربية، و أحيانا بسبب توتر علاقات بين مسؤولين من هذا البلد أو ذاك، و نزوات فردية و علاقات شخصية بين المسؤولين تؤدي الى قطع العلاقات أو تجميدها و كأن مصير المنطقة أصبح بيد هؤلاء بينما الشعب لا أحد يأخذه في الإعتبار و كأنه غير معني بما يفعلون.

ويذكر سعد الله أننا اليوم بحاجة إلى حركات جماعية، مدنية، وسياسية، و فكرية، تضغط بإتجاه العمل الوحدوي في المنطقة، و بخاصة المثقفون الذين يفترض فيهم الحكمة و القيادة و الإرشاد إلى المصلحة العامة، و التنبيه على نقاط الخطر، و إبداء الرأي فيما يخص مسيرة الوحدة و التقدم في المنطقة، ولا يتم ذلك في نظر سعد الله " إلا إذا تسلح المثقفون بالشجاعة على قول الحق أمام الحاكم إذا جار، و كانت لهم مؤسسة تجمع شملهم و توحد صوتهم و تنزههم عن السفه الذي يجعل منهم بدل الشموع أبواقا"[2].

فلهذه الفئة حسب سعد الله دور كبير في دفع هذه الأطراف إلى التلاقي و التداول و الخروج بنتيجة لصالح الجميع و ليس لصالح طرف على حساب الآخر، "إذا كانت قضية الصحراء حقا حجر عثرة في طريق بعث إتحاد المغرب العربي فلنبحث لها عن حل، فإذا كان المفتاح في يد المغرب و البوليزاريو فلنساعدهما على التوصل إلى حل يرضى الطرفين و ينهي النزاع، و إذا كان المفتاح في يد المغرب و الجزائر فلنسع لكي يتوصلا إلى إتفاق يفتح آفاق الإتحاد و يعيد المياه إلى مجاريها بين شعبين شقيقين، و إذا كان الحل بين جميع أطراف الاتحاد فليكن للمثقفين دور في دفع هذه الأطراف إلى التلاقي "[3].

---

[1]- **مؤتمر طنجة** : عقد هذا المؤتمر بالمغرب ما بين 27 و 30 أفريل 1958 م، وهو يعد من أهم المؤتمرات التي عرفتها منطقة المغرب العربي خلال الخمسينات، وقد أقرت خلاله الأحزاب المغاربية الرئيسية(حزب الاستقلال المغربي، الحزب الدستوري الحر التونسي، جبهة التحرير الجزائرية) خطة مشتركة للتضامن مع الجزائر و لبناء وحدة مغاربية. للمزيد حوله انظ عبد الحليم مرجي، المرجع السابق، ص 30.

[2]- أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق، ص24.

[3]- نفسه، ص213.

أما الدعوة لتدخل الخارجي لحل قضاياه فيعتبره سعد الله ذلك إنحرافا غير مقبول، بل قد يزيد ذلك من توسيع الهوة بين الطرفين " لقد حلت الدول الناضجة حضاريا قضايا أكثر تعقيداً من قضية الصحراء دون تدخل أية جهة أجنبية، فلماذا ننتظر نحن فرض حل علينا ليس في صالحنا بالتأكيد، لأنه قد يؤدي إلى زيادة التباعد لا التقارب، و تكون فيه مجرد أدوات لتنفيذ مخطط ليس في صالح شعوبنا".

وسعد الله في هذا السياق يبرز تعلق مثقفينا بالأمس البعيد بالوحدة المغاربية، و كيف جعلوا منها

عقيدة عاشوا وتمثلوا بها، كما فعل عبد الحميد بن باديس و عبد العزيز الثعالبي و عبد الكريم الخطابي[1] وسليمان الباروني ...إلخ،[2] يقول عن ذلك "و هناك أيضا حلم الوحدة التي آمن بها أجدادنا و عمل من أجلها جيل المخضرمين من أهلنا و لا أذهب بعيداً، فقد وحدتنا الآلام و الآمال منذ عشرات السنين و اشتراك طلابنا و زعمائنا في صياغة المستقبل المشترك، من ينسى إستقبال تونس لعشرات الجزائريين طلابا ولاجئين ؟ و من منا ينسى إندماج النخبة التونسية و الجزائرية و المغربية، في جامعة الجزائر والقروين و في الزيتونة؟ و من منا ينسى مؤتمرات جمعية طلبة شمال إفريقية، التي كانت قد أدت فعلا إلى إعادة الكثير من النخبة الجزائرية إلى حضارتها العربية الإسلامية، فقد أثر المنجلي سليم و الحبيب ثامر و علال الفاسي، و محمد الفاسي، و أحمد بلافريج على فرحات عباس و قدور ساطور و غيرهم من دعاة الإندماج الجزائريين، و كانت لقاءات عبد الحميد بن باديس و عبد العزيز الثعالبي و التنسيق الحزبي بين مصالي الحاج و الحبيب بورقيبة قد أدّت إلى تكوين رؤية موحدة لمستقبل المغرب العربي، و مواجهة المد الاستعماري بعزيمة قوية "[3].

وفي هذا الصدد يذكر سعد الله أنه عاش هذه التجربة بكل جوارحه أيام الطلب في الزيتونة بقوله: "كنا في حلقات جامع الزيتونة نجلس الركبة حذو الركبة مع أبناء تونس، نفكر نفس التفكير و نلبس عين اللباس و نطمح إلى نفس المستقبل و نحس بذات التاريخ، و قد كان شيوخنا يشجعوننا على هذه الأخوة المهنية ستصبح في نظرهم أخوة وحدوية، ، ومن جهة أخرى كانت خلايا الحزب الحر الدستوري في المدارس تنظم مسيرات للطلبة عبر شوارع العاصمة، فكنا نشترك في هذه المسيرات و ننشد (حماة الحمى)،

---

[1]- **عبد الكريم الخطابي** (1881- 1963م): زعيم ثورة الريف بالمغرب، ولد بقرية أغادير، درس بالقرويين، تولى مهنة القضاء بمدينة مليلة، خاض معارك طاحنة مع الاستعمار الاسباني حين توسعه بالشمال، اعتقلته السلطات الفرنسية سنة 1926و قامت بنفيه الى جزيرة ريونيون، و بعد السماح له بالعودة لوطنه قرر اللجوء الى القاهرة و التي استقر بها إلى غاية وفاته. للمزيد أنظر: مير البصري، أعلام الوطنية و القومية العربية، لندن: دار الحكمة، 1999، ص ص (118-120).

[2]- احمدد بن نعمان، المرجع السابق، ص 498.

[3]- أبو القاسم سعد الله،هموم حضارية، المصدر السابق، ص-ص212-213.

في حماس و اندفاع دون أنفكر أن هذا النشيد ليس لنا أو لا يعبر عن آمالنا و إحساسنا، حتى إذا وصل الإنشاد إلى عبارة "إلى عز تونس"، إنطلقت الحناجر بالهتاف و الأيدي بالتصفيق دون أن نحس أيضا بأن هذا الهتاف و التصفيق لا يعتبر عما يجيش في نفوسنا"[1].

و في رأي سعد الله أن الظروف التاريخية و الشروط الموضوعية كلها مهيأة لهذه الوحدة، و تبقى الإرادة الفاعلة لا الإرادة السلبية لتحقيق ذلك، إذ لا يكفي أن تردد شعارات الوحدة ولكن لا نفعل من أجلها شيئاً و كل ما يخشاه الأستاذ سعد الله في هذا هو أننا إذا لم نطبق الإرادة في الوحدة من تلقاء أنفسنا، فستجبرنا الحوادث و ربما دول أخرى على التوحد،، و لكننا في هذه الحالة سنفقد الكثير من خصائصنا و سنضحي بكرامتنا و قيمنا، كما حدث لنا في عدة مناسبات تاريخية قديمة، كما أشرنا إلى ذلك: "كما أن هذه الوحدة لا يمكن أن تتحق و أن تثمر إذ لم تكن قائمة على إيمان عميق و تربية شعبية، و فردية طويلة الأمد"[2].

ذلك أن التجارب دلت على أن سكان المغرب العربي فرديون جداً أي أنانين إلى درجة التضحية بالمصالح الجماعية يقول سعد الله في ذلك: " قد كتب الكثير عن حب العرب و البربر للحرية و الديمقراطية و عدم خضوعهم للسلطة و هي ظاهرة من ظواهر البداوة طبعا، و إذا كان العرب و البربر قد توحدوا بالإسلام و إندمجوا بالثقافة العربية، فإن رواسب الفردية و الأنانية ظلت قائمة لأن التربية على المبادئ الجماعية، لم تعمل عملها فتحدث الفورة باسم الجهاد أو الشرف ثم تنطفئ".

و في اعتقاد مؤرخنا أن أهل المغرب العربي اليوم، بحاجة أن يعوا الظواهر المستنبطة من سيرهم و تاريخهم حتى يستفيدوا منها لمستقبلهم إذا كانوا فعلا عازمين على تدارك ما فاتهم في المسيرة الحضارية، و إذا لم يفعلوا ذلك فإن تحركاتهم الوحدوية ستكون فقط فورة من فورات قصيرة الأمد عديمة الفائدة خصوصا و أن حولهم دائماً خصوم يتربصون بهم، و طامعون في أرضهم و ثرواتهم.

لذلك فإن سعد الله يرى أن حوافز الوحدة بين أجزاء المغرب العربي اليوم كثيرة، أهمها الخوف من الآخرين، و مخاطر الأزمة الإقتصادية و الضغط الشعبي و التحدي التكنولوجي، يقول سعد الله في هذا الشأن " "لقد ظهر للجميع رؤساء ومرؤوسين أن الوحدة ولو كانت شكلية، إتحادية أو إندماجية هي

[1] – أبو القاسم سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص170.

[2] – نفسه، ص 178.

السبيل إلى البقاء في خصم الأحلاف المجاورة و الأسواق المشتركة و النظام الإتحادية القائمة أو التي ستقوم غير بعيد منا"[1].

و بالتالي فإن وحدة المغرب العربي ستحقق في إعتقاده القوة السياسية التي تحفظ المواطنين و ترهب الأعداد و ستوفر الأمن الإقتصادي و تفجر طاقات الإنتاج عن طريق التكامل و ستؤدي إلى ثورة علمية، إيداعية يسهم بها أهل المغرب في الحضارة الإنسانية.

و في سياق متصل يؤكد سعد الله أن وحدة المغرب العربي لا يمكن أن تنجح إذا لم تحاول أن تمتد إلى المشرق، و ذلك هو بعدها الحضاري و الجغرافي الطبيعي، أو إذ لم تدعمها وحدة قوية مماثلة من المشرق، كما فعلنا في العصور السابقة، فالحديث عن وحدة المغرب العربي في نظره نوع من التجزئة المكروهة، و هي التجزئة المحببة للإمبريالية و الصهيونية، ذلك أن عوامل الوحدة، و هي التاريخ و اللغة و الدين و المصير قائمة بيننا و بين المشرق العربي، و عليه فإن رؤيتنا الحضارية يجب أن تكون وحدوية قومية و ليست إقليمية، و ذلك لضمان المستقبل، أما التكتلات الصغيرة الحجم فمآلها الفشل لأنه يكون من السهل على أعدائنا إحتواؤها و القضاء عليها[2].

و في الأخير فإن سعد الله يرى فيها سبق ذكره أن وحدة المغرب العربي قائمة عمليا و تلقائيا تاريخياً ولغوياً و ديننا و مصيريا و القرار السياسي هو السبب في تعطيل مسار إتحاد المغرب العربي، فهو إذا شاء أحضرها و إذا شاء غيّبها، و في حاله إحضارها لا يحتاج الأمر إلى أكثر من رفع الحواجز السياسية القائمة و المصطنعة، ويؤكد على دور مثقفي المغرب في كل المشاريع ذات الهدف الوحدوي و الإستراتيجي و المتجه إلى جمع الشمل و العمل المشترك بخدمة شعوب المنطقة لتحقيق وحدة مغاربية، شاملة، و هذا في إطار رؤية حضارية وحدوية قومية بين المشرق و المغرب و ليست إقليمية من أجل بناء وحدة الأمة العربية.

ثانيا: القضايا الثقافية

1- التراث الأمازيغي:

[1]- أبو القاسم سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق ، ص-ص(162-163).

[2]- نفسه، ص ص(167-168).

"المازيغية" هو الإسم البديل الذي إقترحه مؤرخنا لتسمية الأمازيغ، بإعتبارها هي التسمية الصحيحة لإسم "مـــــــازيغ" ، و إذا أخذنا في الاعتبار أن الأمازيغية منسوبة إلى إسم الجمع- الأمازيغ- و أن معنى الأمازيغ هو الأحرار، فإن المعنى يُصبح لغة الأحرار أو الأحرارية، و يذكر النسابة: أن جد البربر إسمه مازيغ و بذلك تكون التسمية هي "المازيغية"، التي تعني لغة الحر و الحرية[1].

كان تكريس لغة جامعة توحد الجزائريين هاجسا أرق مؤرخنا سعد الله ولا يمكن أن تتجسد هذه اللغة الجامعة إلا في اللغة العربية، لذلك أشتهر مؤرخنا بموقفه المتشدد إزاء اللهجات الأمازيغية، فالمتمعن في موقفه من هذه الأخيرة الذي طبع بداية مساره سيلاحظ أن شخصية سعد الله المناضل من أجل القومية العربية قد جعلته يقصي البعد الأمازيغي في تشكيل الشخصية الوطنية الجزائرية، لأنه كان يرى أن الشخصية الجزائرية تشكلت و إكتملت بفضل الفتح الإسلامي و ما كان أبعد من ذلك تاريخيا فهو جاهليه، يجب تجاوزها لذا أدرج التراث الأمازيغي في بداية مساره ضمن المعوقات المعرقلة في نظره للوحدة الوطنية و العربية.

و أقول هنا في بداية مساره لأن موقفه المتشدد من الثقافة الأمازيغية سيصبح أكثر ليونة و إنصافا و عدلا، و هو ما عبر عنه الأستاذ أرزقي فراد بوصفه بثنائية "الإجحاف و الإنصاف للقضية الأمازيغية في موقف سعد الله" لأسباب عديدة و مختلفة سيأتي الحديث عنها عرضا[2]. فكيف كان موقف سعد الله من التراث الأمازيغي ؟ وما هي العوامل التي دفعته لتغير موقفه إزاءها؟

أبان سعد الله موقفه المقصى للأمازيغية بأسلوب شديد اللهجة في مقال له بعنوان " حدثونا عن الوحدة"[3]، فبعد أن تأسف على إسقاط مشروع الوحدة العربية من حسابات الدولة الجزائرية، و ما نجم عنه من تباعد مع الأشقاء في العالم العربي بشقيه المشرقي و المغربي، جاء ضمن العنوان الفرعي " أعداد الوحدة" قوله "...لكل هذه العوامل في نظري آثار سلبية على فكرة الوحدة الوطنية و المغربية، و الإسلامية، ذلك أنه بقدر ما كانت الجزائر تبتعد عن هذه الفكرة، بقدر ما كان أعداؤها يستغلون ذلك الشعور السلبي لأنفسهم وسط المهاجرين و الطلبة النازحين و كانت وسائلها تصل أيضا إلى الجزائر مباشرة و غير

[1]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء، ج3، المصدر السابق، ص228.

[2]- أرزقي فراد، المؤرخ أبو القاسم سعد الله و الأمازيغية، الجزائر: الحبر لنشر، 2016، ص09.

[3]- أنظر المقال في المجاهد الأسبوعي، "حدثونا عن الوحدة"، بتاريخ 26 جوان 1981م.

مباشرة... وكان مركز (لاكراب) مجمعا تلتقي فيه عناصر معروفة عندنا بميولها الفرنكفونية والبربرية، وتزعم أنها تبحث عن أصل سكان الجزائر وتنتقل في أقاصي الجبال وأطراف الصحاري لنفس الغرض..."[1].

فمن منطوق الفقرة فإن سعد الله قد أدرج أنصار الأمازيغية ضمن أعداد الوحدة الوطنية و في سياق متصل إنتقد أيضا نشاط مركز لاكراب(CRAPE)[2] المختص في الدراسات ما قبل التاريخ و في الأنثروبولوجية الذي كان يشرف عليه آنذاك الأستاذ مولود معمري منذ 1969م، على أن هذا المركز كان مرتبطا بالمركز الفرنسي (CWPS) الذي كان ينشط في المجال نفسه يقول في هذا الشأن عن مركز لاكراب " و كان هذا المركز هو الذي يوجه بعثات البحث في أنحاء القطر و كان مديره في ذلك الوقت[3]، يعلم (اللهجة البربرية، بالفرنسية، في الجامعة بعد إصلاح التعليم العالي و عندما إعترض عليه بعضهم في ذلك من أنه كان يدرس لهجة غير مقررة، قيل أنه إستظهر برخصة صادرة من جهة رسمية "[4].

و في سياق متصل أعتبر مؤرخنا أن الجهود العلمية الرامية إلى إعادة الإعتبار للفترات التاريخية ما قبل القتح الإسلامي مجرد نبش في التاريخ يعيدنا إلى عهد القبيلة والذي كان من طرف ممن وصفهم سعد الله بأصحاب القرابة و الدم في اللسان و الوطنية، يقول:" ومن هؤلاء من تفلسف في تاريخ الجزائر فلسفة تثير الغموض في روابطها العربية و الإسلامية... فمنهم القائل بأن سكان الجزائر ليسوا عرباً أقحاحاً، و ليسوا أمازيغ أقحاحاً، و إنما هم مزيج من الأمازيغية و العرب و قد دافع صاحب هذا الرأي عن الإزدواجية العرقية لسكان الجزائر....ومن هؤلاء من مجد يوغرطة و عهده و إعتبر المجتمع الجزائري إستمرارا لمجتمع عهد يوغرطه....و نؤكد نحن أن مقولة هؤلاء تتفق مع مقولة كتاب مصر القائلين بالفرعونية، و كتاب لبنان القائلين بالفينيقية، و كتاب العراق القائلين بالأشورية، و جميع هؤلاء المقولات تتفق في أن المجتمعات المذكورة لا تبدأ من الإسلام و إذ كان دعاة الفرعونية و الفينيقية و الأشورية لهم مبررات دينية (و هي الوقوف ضد الإسلام و العربية)، فما مبررات دعاة "الجـــــــزائر" ما قبل الإسلام؟"[5].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المصدر السابق، ص10.

[2]- لا كراب centre de recherche anthropologique Réhistosciques). Ethnographique)

[3]- قصد سعد الله هنا الأستاذ مولود معمري الذي رخص له وزير التربية والتعليم في عقد الستينات من القرن الماضي أحمد طالب الإبراهيمي، تدريس الأمازيغية في كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

[4]- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المصدر السابق، ص10، ص14.

[5]- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المصدر السابق، ص16.

و في نظر سعد الله فإن وحدة الشعب الجزائري لا تنعقد على رمز يوغرطة و لكنها تتعقد على رمز عقبة بن نافع " إن رمز يوغرطة يفرق بيننا في المكان لأن الجزائر لم تكن موجودة في عهده بهذا الإسم ولا بهذا الحجم، و لم يكن هو يستعمل إسم الجزائر و لا كان يحارب الرومان بإسمها الجغرافي" أما عقبة في نظره فهو على النقيض من ذلك "، فهو يمثل العقيدة التي ندين بها، و اللغة التي تربطنا بالعقيدة، و التاريخ الذي يربطنا بإخواننا في الشمال و الجنوب و الشرق و الغرب في المساحة التي سماها أجدادنا "المغرب الأوسط" و التي نطلق عليها منذ العثمانيين الجـــــــزائر، ثم إن عقبة رمز حضارة بينما يوغرطة رمز جاهلية، و عقبة رمز وحدة وطنية، و مغربية و إسلامية، أما يوغرطة فهو رمز إنفصال و قبلية و وثنية"[1].

وهـــــــذه المفاصلة بين الشخصيتين و التي عمل سعد الله على من خلالها على الحط من قيمة شخصية يوغرطه، و التنويه بمكانه الفاتح عقبة تبدوا أقرب إلى الخطاب السياسي الحماسي منه إلى الكتابة التاريخية المشبعة بالموضوعية العلمية، من وجهة نظر الأستاذ أرزقي فراد يقول في هذا الشأن" وما من شك أن الإنفعال البادي بوضوح هنا هو الذي جعله يغمط حق يوغرطه و ما يمثله من مجد طالما إستلهم منه رواد الحركة الوطنية، و قادة الحركة الإصلاحية الدروس و العبر في كفاحهم من أجل نهضة الجزائر و إستقلالها". كما يضيف أن سعد الله نفسه فيما سبق كان معجبا بالشخصيات المغاربية السابقة للفتح الإسلامي من وزن يوغرطة " لقد كنت شخصيا مغرما بحياة جنبعل و يوغرطة و الكاهنة طبعا فيما كتب عنهم بالعربية"[2].

ومن العوامل المحددة أيضا للموقف المتشدد لسعد الله من القضية الأمازيغية هو خوفة من توظيف الإستعمار الفرنسي للعهد الأمازيغي في إطار سياسته المبنية، على شعار " فرق تسد" يقول في ذلك: "و منذ أوائل الأربعينات من القرن الماضي (ق19) أخذ الفرنسيون يكتشفون سلاحاً آخر، و هو أن في الجزائر عنصراً بربريا ليس ككل البربر و بنوا على ذلك نظريات و أجروا بحوثاً إنتهت في نظرهم إلى أن هذا العصر من الجنس الآري، أو الهند الأوربي، و أنه لا علاقة به بالجنس السامي، و بعد أن كانوا يعاملون

---

[1]- نفسه، ص17.

[2]- أرزقي فراد، المرجع السابق، ص14.

كل السكان عن أنهم عرب مسلمون وشرقيون بدأوا يعاملونهم معاملة مختلفة فبعضهم عرب و بعضهم بربر، و البربر بعضهم من الجنس الآري و بعضهم من الجنس الحامي"[1].

و في هذا الإطار فلقد حاولت مخابر الاستعمار الفرنسي تشتيت الجزائريين بالدعوة إلى تدريس الأمازيغية، للأمازيغ و العربية الدراجة للعرب، و في هذا الخصوص طالب د.وارنييه الحكومة الفرنسية ، بوقف التعريب لأن في الجزائر شعبين و ليس شعباً و احداً، و كذلك طالب بالإعتراف بثلاثة لغات فيها و هي البربرية للبربر الخلص، و الجزائرية للبربر المتعربين، و العربية الدارجة للعرب"[2].

كل هاته العوامل مجتمعة حددت موقف مؤرخنا السلبي من القضية الامازيغية، و ساهمت بقسط معين في دفعه إلى تبني موقف إيديولوجي إقصائي للمكنون الأمازيغي، و بعد تعاقب السنوات و البحث في التراث الوطني، جاء موقف سعد الله الايجابي اتجاه القضية الأمازيغية، و المتمثل في إعادة النظر في موقفه إزاءها حيث ساهمت في ذلك عدة أسباب نذكر منها:

- تواصله المباشر مع الثقافة الأمازيغية في سياق أبحاثه الأكاديمية فلقد إهتم سعد الله بمنطقة زواوة في إطار جهوده العلمية لإنجاز كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، الأمر الذي مكنه من زيارة العديد من أماكنها و الإتصال بعلمائها، و الإطلاع على تراث امازيغي مرتبط بالحضارة العربية الإسلامية كالفقه المالكي و الشعر الديني بعضه شفوي و بعضه الآخر مدون باللغة الأمازيغية المكتوبة الحروف العربية.

- إطلاعه الواسع على تراث الثقافة الأمازيغية حتى في المغرب الأقصى ومن إشاراته الدالة على ذلك قوله:" و رغم إنتشار اللغة العربية بين البربر و تقديسهم لها بإعتبارها لغة دينهم، فإن بعضهم قد عبّر عن خواطره أحيانا بالبربرية، ولكن بحروف عربية، و كان هذا شائعاً بين المتعلمين منهم، أي أولئك الذين يريدون أن يوصلوا معلوماتهم إلى قرّائهم بالبربرية، "[3]، و أعطى سعد الله مثالين على المؤلفات الأمازيغية المكتوبة بالحروف العربية، كتاب أعز ما يطلب لإبن تومرت، و كتاب الحوض لمحمد السويسي المغربي (ق18م) في الفقه في شكل مدونة الشعرية.

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، المصدر السابق، ص304.

[2]- نفسه، ص313.

[3]- أرزقي فراد، المرجع السابق، ص145.

وبذلك بدأت المرونة تجد طريقها في موقف مؤرخنا، خاصة بعد أحداث أكتوبر 1988م و ما نجم عنها من إنفتاح سياسي و ثقافي فبدأ يتحدث عن التعايش بين اللغتين العربية و الأمازيغية، بقوله: "تثبت الدراسات التاريخية أن العربية و البربرية تعايشتا و إستعارتا من بعضها و تقاسمتا حياة الإزدهار و الإنحطاط، فهل ذلك يعود إلى أصولها الواحدة أو إلى دور الإسلام؟ إن الدراسين ما يزاولون لا يجدون تفسير علميا لسرعة إستجابة البربر للإسلام و إتخاذ العربية لسانا لهم". و ذهب سعد الله إلى أبعد من ذلك بالتحدث عن التكامل بينهما " إن العربية و البربرية تكمل إحداهما الأخر في كل العهود"[1].

و منه جاء الإعتراف الصريح لمؤرخنا بالمكوّن الأمازيغي للشخصية الجزائرية من خلال مقاله الموسوم " هينة مغاربية للغة البربرية"، ميزته الجرأة في دعوة الحكومات المغاربية إلى التكفل بالقضية الأمازيغية حتى لا تتلاعب بها الأيدي الأجنبية مستقبلا و في ثانيا المقال قدم سعد الله عرضا تاريخيا مستفيضا لهذه القضية، أشار فيه إلى الأسماء المختلفة التي أطلقت على سكان شمال إفريقيا، مع ذكر تطور القضية الأمازيغية غبر التاريخ مشيرا الى مساعي الفرنسيين الرامية لتوظيفها قصد تمزيق وحدة الجزائريين[2].

و جاء مقترحه القاضي بإنشاء هيئة علمية للأمازيغية لتحقيق الأهداف التالية:

- إقرار المصطلحات العلمية و اللغوية المستمدة من التراث العريق لسكان بلاد المغرب القدماء.

- تبني أبجدية، منسجمة مع المنظومة التربوية في المنطقة المغاربية من جهة، و مع التراث المكتوب الذي تركه البربر أو المازيغيون أنفسهم عبر مئات السنين من جهة أخرى.

- جمع التراث و تصنيفه و المحافظة عليه و الإستفادة منه في الوقت الحاضر، و إثراء اللغة العربية به سيما وقد ثبت أن الأصول اللغوية و العرقية للبربر و العرب واحدة.

- وضع برنامج لفتح الدروس، و حلقات البحث، و إصدار النشرات العلمية عند الضرورة بالبربرية- المازيغية[3].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، في الجدل الثقافي، المصدر السابق، ص145

[2]- أرزقي فراد، المرجع السابق، ص 147.

[3]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث و آراء ..، ج5، المصدر السابق، ص229.

لاشك أن تأسيس هيئة علمية مغاربية للأمازيغية، كما جاء في إقتراح مؤرخنا سيجعل المكوّن الأمازيغي عامل دعم للوحدة المغربية، المنتظرة منذ عقود، ومن باب الوفاء للتراث الأمازيغي الغزير المرتبط بوعاء الحضارة العربية الإسلامية، أن تكتب الامازيغية بالحروف العربية، رغم الجهود الجبارة التي بذلتها المخابر الكولونيالية من أجل استبدالها بالحروف اللاتينية

و أخيراً يمكن القول أن موقف أبو القاسم سعد الله إزاء القضية الأمازيغية قد طبعه موقف سلبي في بداية مساره الأكاديمي بإقصاء المكون الأمازيغي في تشكيل الشخصية الوطنية الجزائرية لأسباب عديدة حددت موقفه على رأسها دفاع التيار الفرانكفوني عن الثقافة الأمازيغية بطريقة تصادمية، مع الثقافة العربية الإسلامية و محاولة الإستعمار الفرنسي توظيفها لضرب عرى المجتمع الجزائري.كلها عوامل دفعته إلى تبني موقف إيديولوجي إقصائي للقضية، و بعد مرور سنوات على الموقف السابق الذكر صحح فيه مؤرخنا موقفه السلبي إزاء الأمازيغية إلى ما هو أنصف و أعدل ولا شك أن هذا التحول الإيجابي لم يكن بالأمر اليسير فكان الواقع الثقافي الأمازيغي الذي إكتشفه في الميدان و تواصله المباشر معه جعله يغير موقفه من السلبية إلى الإيجابية.

2- المثقف و الجامعة :

إن التعريف الشائع للجامعة " هو أنها مؤسسة للتعليم العالي و البحث العلمي، تضم عدة كليات و معاهد، و تمنح الدرجات العلمية و هدفها هو أن تستجيب و تحقق حاجات البلاد، و أن تكون همزة الوصل أو المركز الرابط بين جميع الدراسات العليا في البلاد"[1]. و بالتالي فللجامعة في هذا الصدد وظيفتنان أساسيتان هما: التعليم و البحث، أما التعليم فيشاركها فيه غيرها من المؤسسات، ولكن يظل التعليم الجامعي هو الذي يوصف بالعالي لا لأنه آخر مراحل المنظومة التربوية، و لكن لأن مستواه يجب أن يكون رفيعا و عميقا و عقلانيا. أما البحث فهو الوظيفة التي تكاد تقتصر على الجامعة و هو الظاهرة المميزة للأستاذ الجامعي من غيره.

ونتيجة لظروف تاريخية و إجتماعية – سقناها من قبل- إهتمت الجامعة الجزائرية منذ الإستقلال بالتعليم أكثر من البحث، فهناك قضية العرض و الطلب أو الحاجة الوطنية و الإنتاج الجامعي، و هناك مشكلة المستوى و المادة والإطارات و البرامج عامة وغيرها من المشاكل ، من هذا حاولت القيادة استدراك

[1]- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، المصدر السابق، ص 171.

ذلك مع الإصلاح الجامعي سنة 1971م، أين ظهرت فكرة زرع جامعة في كل ولاية، فبعد جامعة واحدة سنة 1962م، أصبح لدينا بعد أربعين سنة من الاستقلال عشرات الجامعات، و هي جامعات متنوعة منها ما هو شامل لمختلف التخصصات وما هو خاص بتخصص معين، و منها ماهو مبتدئ في بعض التخصصات و يطمح لإستكمالها[1].

و يبدو أن إنشاء الجامعات على هذا النحو في نظر سعد الله لم يخضع لخطة استراتيجية مدروسة سياسيا و اقتصاديا و علميا، و إنما خضع لرغبات أصحاب النفوذ يقول عن ذلك " لقد نشأت معظم جامعاتنا في صمت بقرارات ارتجالية بعد إتصالات شخصية من جماعة الضغط في الولاية المعنية، أو في مواقع النفوذ في السلطة وهم في الواقع لا يعرفون من الجامعة إلا أنها مؤسسة للسمعة و الإشهار، وبداية الطريق إلى الاستقلال المنشود "[2]. و هو الامر الذي في نظره سببا في المحنة التي عانى وسيعاني منها الوطن إذ لم يتدارك الأمر، قبل أن تصبح الأحياء الجامعية ميادين لإعلان الحركات الإنفصالية إستقلالها عن السلطة المركزية.

فهؤلاء ينظرون إلى الجامعة لحظة إنشائها على أنها مؤسسة تساعد التجارة و النقل و تحرك إقتصاد الولاية و الإفراد المستفيدين، دون النظر إلى الركائز الأساسية التي تحتاج إليها الجامعة في إنشاء جامعة، فتفتح أقسام ذات تخصصات علمية لا توجد لها معدات ضرورية فلا مختبرات ولا مكتبات، ولا مستشفيات تطبيقية...الخ، فلا تجد من يسأل عليها في هذه المرحلة، فيكفي أن تلتقي مصلحة هؤلاء بمصلحة السلطة .

ففتح جامعات بهذا الشكل حسب سعد الله يعفي السلطة من توفير الإقامات الجامعية للطلبة، كما يوفر المباني التي تبدأ بها الدروس، ولو كانت في شكل مدارس ابتدائية، كما أن بقاء الطلبة في ولايتهم يضمن للسلطة السيطرة على مجموعة صغيرة من الطلبة ذوي ذهنية محلية، في منطقة نائية أسهل من السيطرة عليها في مدينة مكتظة بالسكان مفتوحة على التيارات الفكرية و السياسية و الإعلامية، و في ذلك تضحية كبيرة بأحد مبادئ التعليم العالي و هو الإنفتاح على المدن و العلم.

و من ثمة كانت معظم جامعاتنا ليس لها في الحقيقة من الجامعة إلا الاسم، فأصلها قد يكون مدرسة ثانوية، أو معهد تكنولوجيا أو ثكنة عسكرية، و السلطة في هذا الأمر لا تتعب نفسها سوى بتعين موظفين

[1]- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المصدر السابق، ص 164.

[2]- أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، ص ص (67-68).

طموحين على رأس هذه الجامعات، و هم موظفون في أغلبهم لهم علاقة واهية بالتعليم الجامعي، و لا يتعاطون مع الجامعة إلا كمؤسسة للمحافظة على الأمن و الإستقرار و تضخيم السمعة، و لا يتعامل هؤلاء مع الجامعة بإعتبارها مركز إشعاع فكري يهتم بالبحث العلمي و بالتدريس[1].

و أول ضحايا هذه المنظومة سيكون من الطلبة في الجامعة أو مثقفينا، في عدم تلقى التعليم العالي و التجارب البحثية الجديدة، فالجامعات بالشكل الذي سقناه قد يؤثر سلبا على مثقفينا، فهي بالأساس لا تقوم على المواصفات المطلوبة، فهي تفتح في مكان غير مؤهل، ثم تستقبلهم في ذلك هيئة إدارية لا تفهم من الإدارة سوى الصعود إلى منصب يتولاه صاحبه بمرسوم ويضمن له المكانة و المال و المعاش، وقد لا تكون له علاقة بالحياة الأكاديمية مطلقا.

كما أن أغلب المثقفين اليوم في الجامعات الجزائرية حسب سعد الله يعانون الفراغ الفكري، فيملؤنه بذلك ببهرج السياسة المحلية و الجهوية الضيقة، التي شتت أذهانهم و تعطلهم على دراستهم فيصبحون أبواقا لهذا الحزب أو ذلك، يقول في هذا الخصوص " أما جامعاتنا فتملأ فراغ الطالب بالسياسة المحلية التي تشتت و لا توحد... و قد يدخلون في صراعات حزبية أو جهوية أو عشائرية أو فكرية هم في غنى عنها وقت الدراسة"[2].

و بهذه الطريقة يتحول الطلبة الضعاف إلى نقابين يساومون الأساتذة الضعاف على زيادة النقاط و انجاحهم بشتى الطرق، فيخضع هؤلاء الأساتذة لتلك المساومات لجهلهم بالمقاييس العلمية و التربوية و إنغماسهم أيضا في وحل الجهوية و العشائرية و الضغوط المحلية (لأنهم جميعا من منطقة واحد بفضل الجامعة الولائية الواحدة التي يعرف فيها الناس بعضهم بعض) و هو عمل يعد جناية في نظر سعد الله بحق مثقفينا.

فمن المفروض أن تكون الجامعة ملازا للمثقفين من أبناء الوطن للدراسة و المطالعة و النشاط المكمل كإرتياد النوادي الأدبية و الثقافية و الفنية، مما يساعد على الترفيه و التعلم و يشجع على الإبداع و التنافس الحر في مختلف المجالات، أما الممارسة الحزبية الضيقة فيجب أن تكون خارج رحاب الجامعة، فالطالب الجامعي في نظره الحق في إنشاء إتحاد واحد (و ليس اتحادات) لكي يتعاملوا مع سلطة الجامعة فيما يخص مطالبهم، و يكون الإتحاد هو الواسطة بينها و بينهم، و يضم الإتحاد الطلبة بقطع النظر عن اتجاهاتهم

[1] – أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق ، ص 69.

[2] – نفسه، ص 71.

و ميمولهم الفكرية، لأن مصالحهم الجامعية واحدة، و هكذا تصبح الجامعة عنصر توحيد و ليس عنصر تفريق و تمزيق، و مكان لتحصيل العلم و التفوق و الإبداع فيه لأداء المهمة التي ينتظرها منهم مجتمعهم.

هذا عن الجانب السياسي و الإستراتيجي في الموضوع؛ أما عن الجانب العلمي، فإن وزارة التعليم العالي و البحث العلمي تتجه في كل مرة للتعاقد مع أساتذة أجانب للعمل في الجامعات الجزائرية من أجل تغطية النقص في عدد من الإطارات الوطنية المؤهلة في بعض التخصصات، و إن كانت للخطوة جانب ايجابي يدل على إهتمام الوزارة الوصية بالتعليم الجامعي، و توفير أفضل الأساتذة لهم و الإنفتاح على البحث العلمي عند الدول المتقدمة في عصر العولمة.

إلا أن هذه الخطوة في نظر سعد الله تحتاج إستعداد خاص من جانب الوزارة، لا يعتقد أن الجزائر في الوقت الحاضر تتوفر عليه لعدة إعتبارات، ذلك أن الحياة الجامعية المتعاقدة يجب أن تكون حياة مستقرة بنظامها التربوي و إدارتها و أن تسير وقف أجندة معروفة لنجاح الموسم الجامعي، من خلال الإنضباط داخل الحرم الجامعي يشمل جميع المؤطرين، من أجل تحقيق التفوق وجودة العمل و حسن السمعة، و تتوفر كذا على إمكانات النشر في المجلات المتخصصة المحكمة ، المخابر، المؤتمرات و الندوات العلمية، ففي في هذه الحالة يكون على الأستاذ الأجنبي أن يسهم في ترقية الجامعة ببحوثه و محاضراته و إشرافه على رسائل الطلبة ...الخ[1].

كما أن ملف التعاقد في حد ذاته يحتاج في نظره إلى دراسة جادة، ذلك أن الجزائر من البلدان القلائل التي لا تدقق في إختيار المتعاونين عند التعاقد معهم، فلا تشترط في أغلب الأحيان سوى الشهادة العليا، أما سلوك المتعاون أو أخلاقياته وتجربته في التدريس و أبحاثه و أيديولوجيته، و قيمة الجامعة التي منحت الشهادة فكلها لا إعتبار لها عند التعاقد.

و في هذا الإطار أيضا للجزائر تجربة لا تذكر بخير مع مثقفيها و المتعاونين في ما مضى، فقد تكونت مجموعة من مثقفينا عل ايدي متعاونين، و بعد حصولهم على الشهادة العليا فضلو الهجرة إلى الخارج على البقاء في خدمة الجامعة الوطنية، لأسباب معظمها أمنية و مادية، وفي ضوء ذلك من يضمن

[1]- أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق ، ص ص (62-64).

كذلك أن الطلبة الذين سيتكونون على أيدي الأساتذة المتعاونين الجدد لا يهاجرون أيضا كما فعل أسلافهم ويتركون الجامعات الجزائرية فارغة أو في عهدة متعاونين أجانب[1].

و هكذا فإن موضوع التكوين و المتعاونين و هجرة المثقفين من الجزائريين لم يأخذ حظه من العناية حتى الآن رغم خطورته، فالأمر بحاجة إلى دراسة معمقة لدراسة الأسباب و محاولة التوصل إلى صيغة ربما ترضي الجميع و تسد الفراغ الذي تعانيه الجامعات و تضمن تقدم البحث العلمي فيها و تغني عن المتعاونين الأجانب.

أمام هذا الوضع فإن سعد الله يقدم في هذا الخصوص عدة إقتراحات للنّهوض بالجامعة الجزائرية، كمؤسسة ثقافية عالية تخدم و تلبي حاجاتنا الوطنية، و المساهمة في تكوين جيل من المثقفين ذوي كفاءات عالية للإرتقاء بالبحث العلمي إلى درجة الإختراع و التجديد و مواكبة البحث في الجامعات المتقدمة في العالم، و عليه فإنه يقدم بعض الاقتراحات و هي كما يلي:

1- تخصيص الجامعة الجديدة في دراسات معينة لا توجد في غيرها، ولذلك تصبح مقصد كل مواطن راغب في ذلك التخصص، وهكذا تكون الجامعة الجديدة مفتوحة أمام جمع أكبر من المثقفين.

2- دمج هيئة التدريس في بعضها و إجتثاثها من البئة المحلية و إبعادها عن التفكير القبلي و الإنتماء الضيق، ذلك بتوزيع هيئة التدريس بطريقة مدروسة بدقة على نطاق وطني أوسع موزعين عبر مختلف جامعات الوطن.

3- تشجيع الحركة بين الجامعات في اطار الطلاب و الأساتذة لإثراء التجربة الجامعية.

4- الوصاية على المركز الجامعي الجديد، فللمركز الجامعي أن يسيّر شؤونه الإدارية بإمكانياته و لكن لا بد من وصاية على برنامجه و شهاداته و إمتحاناته، فلا يعقل أن يستقل أحد هذه المراكز الجامعية بإطار غير مجرب ما يزال معظمه في أول الطريق وقد تكون الوصاية هذه بإشراف أحد الجامعات الجهوية التي أصبحت لها الآن تجربة واسعة[2].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، المصدر السابق، ص 168.

[2]- نفسه، ص ص (166-167).

4- ضبط إختيار المتعاونين عند التعاقد معهم و توزيعهم حسب خريطة مدروسة، حتى لا تستأثر بهم جامعة أو جهة معينة ، مع الإكتفاء بالتعاقد مع عدد محدود من الخبراء الأجانب في ميادين معينة تحتاجها البلاد، و في المقابل التعاقد مع الكفاءات الوطنية في الخارج كمتعاونين لترغيبهم في العودة بالتدرج إلى الوطن، و لِصب خبراتهم و مهاراتهم المكتسبة في مشاريع وطنية تخص البحث العلمي الجاد[1].

من خلال ما سبق فإن سعد الله قد أعطى لموضوع الجامعة و دورها في تخريج كفاءات وطنية كفأة إهتماما خاصا، و هو ما عبر عنه نضاله في سبيلها فيما أسلفنا من قبل، و موقف سعد الله هذا نابع من إيمانه بدور الجامعة في النهوض بالبحث العلمي و الوصول به إلى الغاية المنشودة، و هي الإرتقاء به إلى درجة الإختراع و التجديد و مواكبة البحث على غرار الجامعات الكبرى المتقدمة.

3 – العولمة و الثقافة العربية:

يتميز مفهوم العولمة في عمومه بالغموض و التعقيد، فليس هناك حسب علمنا تعريف جامع مانع لظاهرة العولمة، لأن أصحابها أنفسهم ربما أرادوا أن تكون غامضة المدلول حتى تلوها الأقلام و يحتدم حولها النقاش، فتعاريفها متعددة بتعدد أبعادها و مستوياتها و هي تعنـــــي لغة: (clobalztion) المشتقة من (Clobal)، و المقصود منها الكرة الأرضية، أو الكوكب الذي تعيش البشرية على سطحه، فمعنى العولمة من حيث الإشتقاق حسب المصادر الأوربية، يدور حول جعل الشيء ما على مستوى عالمي [2] .

أما تعريف العولمة كمصطلح يعرفها الأستاذ جلال أمين في كتابه العولمة و التنمية العربية، " ظاهرة متعددة الجاونب تشمل تسارع معدل التجارة الدولية و تدفق العمالة ورأس المال و التكنولوجيا، فضلا عن تسارع معدل إنتقال الأفكار و أنماط الحياة و يختلف أثر هذه الجوانب في التنمية البشرية"[3].

ويعرفها الباحث الإنجليزي "أنتوني جيذنز": "بأنها مرحلة جديدة من مراحل الحداثة و تطورها، تتكاثف فيها العلاقات الإجتماعية، على الصعيد العالمي، و حدوث تلاحم بين الداخل و الخارج و ربط بين المحلي و العالمي بروابط إقتصادية وسياسية و ثقافية و إنسانية"[1].

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، حصاد الخريف، المصدر السابق، 66.

[2]- جلال أمين، العولمة و التنمية العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1999، ص30.

[3]- عبد القادر تومي، العولمة الفكر و الدور و الخطر، أعمال الملتقى الدولي، التربية و العولمة الفرص و التحديات، المدرسة العليا للأستاذ، مخبر التربية و الإبستمولوجيا ، يومي 09-10 ديسمبر، 2012، ص37.

وقد يكون التعريف الأقرب للعولمة في نظر سعد الله هو القول" بأنها مذهب سياسي و إقتصادي و ثقافي و تكنولوجي يعني الهيمنة الأمريكية (السلام الأمريكي Pax Americana على غرار السلام الروماني Pax Romana) على الشعوب و ثرواتها و إدخالها في البوتقة الأمريكية- الغربية، بمختلف الوسائل الشرعية و غير الشرعية) "[2].

أما ثقافيا فمصطلح العولمة حسب رأيه أنه " صبغ الثقافات السائدة اليوم بلون الثقافة الأمريكية المتميزة بالعلم و التكنولوجيا وسيطرة اللغة الإنجليزية و آدابها و فلسفتها، و بذلك تتحول ثقافات العالم إلى عنصر داعم للسلام العالمي الأمريكي الذي تختفي في ظلاله القوميات و المعالم الحضارية الخاصة "[3].

إن العولمة في هذا السياق تهدف إلى وحدة العالم سياسيا و ثقافيا، بحيث ينشأ في النهاية نظام دولي واحد ترعاه الولايات المتحدة الأمريكية تكون لها مرجعية واحد و ثقافة واحد والتي هي نتاج القلب و العقل الأمريكي، فهكذا يكون صراع العولمة صراعا من أجل البقاء للأصلح، أي من باب التحدي للآخر الذي عليه أن ينتصر أو يفنى.

و العولمة بهذا المفهوم ليست جديدة، فسعد الله يذكر أن المنطقة العربية و الإسلامية عاشت ظاهرة العولمة في هيمنة القرطاجين و الرومان و الفرس و الروم في الأزمنة البعيدة، ثم عاشتها في هيمنة بريطانيا و فرنسا في الأزمنة الحديثة، و أخير عاشت نفس الظاهرة في هيمنة أمريكا و روسيا منذ 1945م.

فكل نوع من الإستعمار قد ترك بصمته على الشعوب التي إستعمروها و الدليل على ذلك، ما نشاهده و نعيشه اليوم مع ما يسمى بـــــ(النخب) التي أنشأت و تخرجت من المدارس التي أشرف عليها المستعمرون، فرغم إهتمام الإنجليز بالمصالح الاقتصادية و العسكرية، فإنهم تركوا تأثيرهم عل الهند و مصر و دول الخليج و إفريقيا، فرغم شح الثقافة الهولندية فقد تركت أثرها على النخبة الإندونيسية التي تولت حكم إندونيسيا بعد 1945، أما الإستعمار الفرنسي فمعروف عنه أنه من النوع الذي يفرض تأثيره (و لاسيما الثقافي) على البلدان التي تقع تحت نيره، و خذ مثلا الجزائر التي حاول الإستعمار طمس معالم الشخصية و

---

[1]- عبد الخالق عبد الله، "جذور العولمة والتعامل معها"، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد 28، 1999م.

[2]- أبو القاسم سعد الله، خارج السرب، المصدر السابق، ص30.

[3]- - أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق، ص242.

الثقافة الجزائرية، و يمكن أن نقيس على ذلك الاستعمار البرتغالي و الإسباني و الإيطالي و الألماني و الروماني، فهي جميعا قد أثرت على مستعمراتها بمختلف الوسائل و الدرجات[1].

ولكي يغرس أي إستعمار ثقافته (عولمته) يلجأ بداية إلى الطعن في القيم الثقافية السائدة في البلد الضحية، أو ما يسمى بالثقافة الأهلية التي تتصدى له، و في المقابل يعمد إلى تمجيد ثقافته و لغته و إنجازاته، مستعلمين في ذلك بعض النخب الأهلية، التي كونها على أيديهم، ثم يلتحق بهؤلاء باحثون و أكاديميون كانوا يشكلون إطارات فاعلة، في الجامعات و المعاهد المتخصصة، وبالتالي تظافر جهود هؤلاء جميعا لخدمة ثقافة العولمة و الإساءة إلى حضارة الشعوب المغلوبة على أمرها .

و الظاهر أن أمريكا في هذا الإطار لم تختلف عن عولمة الإستعمار الذي إنطوى ببساطة و إنتهى أمره، فبدل دور فرنسا و بريطانيا...جاء دور أمريكا، و بدل إدارة معروفة و مباشرة لشؤون المستعمرات أصبحت هناك دوائر عالمية غامضة تصدر التعليمات و الأوامر لتطبيق العولمة بالطريقة التي تريدها واشنطن، و إذا كانت هذه التعليمات صريحة و مباشرة بخصوص ما يسمى بالإصلاحات التعليمية و السياسية، و حقوق الإنسان و حقوق المرأة، فإنها ما تزال غامضة بخصوص الثقافة و التراث.

و الثقافة العربية أمام هذا التحدي غير قادرة على الدفاع عن وجودها الثقافي في نظر أبو القاسم سعد الله " إن الثقافة العربية، كالسياسة العربية، كلاهما تحت مطارق المهاجمين و حوافر المغيرين، و كما أن السياسة العربية غير قادرة على التصدي بوسائلها العسكرية و الإقتصادية لهذه الجحافل فكذلك هي غير قادرة على الدفاع عن وجودها الثقافي بوسائلها الثقافية"[2].

فسعد الله يرى أن الضربات الواقعة اليوم على رأس الثقافة العربية اليوم أقوى من الضربات الواقعة على رأس السياسية، يقول عن ذلك " فنحن نشاهد نوعاً من التسامح و تراخي القبضة الحديدية إذا تعلق الأمر بنظام الحكم و الحكام و تصرفات الدول العربية، بينما نشاهد هجوما كاسحاً على نظام التعليم و على تعاليم الإسلام و على نبيه (صلى الله عليه و سلم) و على القيم الإجتماعية، المتوارثة و أخلاق المجتمع العربي الإسلامي، و نظام الأسرة و على التقاليد التي تخص المرأة و الطفل و الإنسان".[3]، .

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، خارج السرب، المصدر السابق، ص 32.

[2]- أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق، ص 248.

[3]- نفسه، ص249.

و هذا الهجوم المنسق قد تجندت له نخبة من المجتمع العربي ذاته، بتواطأ جيوش من وسائل الإعلام، سيما الذين يحسُّون أنهم أقلية، و أنهم لن يخسروا شيئا بالإنضمام إلى صف الداعين إلى هدم ثقافة المجتمع، الذي يظنون أنه ظلمهم يقول عن ذلك: " و الأدهى من ذلك أن عددا من مواطنينا في البلاد العربية، أصبحوا مستغربين يعملون مع بعض المستشرقين و مع المراكز البحثية المنتشرة في الجامعات و المنتديات ليكشفوا عن نقائص مجتمعاتهم و عاداتهم للتغيير و التجديد، و يحرصون عليهم ويستعدون ضدهم المتربصين الطامعين في السيطرة على ثروات الثقافة العربية الإسلامية"[1].

وكـــي تواجه الثقافة العربية، هذه الحملات المنسقة فحسب سعد الله عليها أن تعمل في نفس الوقت على تطوير نفسها، و أن تسرع الخطى في ذلك ، و لأن التطور يقتضي معرفة ما عند الآخر و الإستفادة منه عند اللجوء للتغير ، و يعتقد سعد الله أن أول ما يتعرض للنقد و الطعن في هذا المجال هي اللغة بإعتبارها رمزاً من رموز وحدة الأمة و ثقافتها، و بإعتبارها لسان القرآن الكريم الذي هو وعاء الإسلام، يقول في هذا الشأن " كانت اللغة العربية، قد تعرضت في الماضي إلى النقد من بعض الأفراد سواء كانوا من ملتها أو غير ملتها، فقد وسموها بالصعوبة في القواعد و القصور في التعبير و الجمود في مسايرة العصر و عدم القدرة على نقل المعرفة، و إقترحوا لذلك بدائل مثل كتابتها بالحروف اللاتينية و تيسير نحوها و إملائها، أما الآن فهي تواجه النقد من دول و مؤسسات لها مصلحة في إحلال لغة أخرى محل العربية لبسط العولمة و توحيد الإتصال بين أجزاء العالم الواحد الذي تدعوا إليه".

و في مواجهة هذا الإمتحان العسير، على اللغة العربية، أن تثبت أنها قادرة على التحدي و أنها تملك من أسباب التطور ما تساير به روح العصر و يرى سعد الله أن المجامع اللغوية ذات العلاقة كالجامعات و الجمعيات الأدبية و إتحادات الكتاب و دو النشر و مراكز البحث و الترجمة، هي المعنية بالدرجة الأولى بأداء هذه الرسالة، فالمطلوب من هذه جميعاً تطوير اللغة العربية وتحديث أدواتها ومراجعة أدائها و برامجها في مواجهة عصر العولمة الجديدة، و كما أن الإصلاح مطلوب في السياسة و الإقتصاد فكذلك هو مطلوب في الثقافة و لاسيما اللغة.

كما يرى أن التطوير لا يجب أن يمس اللغة وحدها فحسب بل الواجب أن يشمل مختلف المؤسسات الثقافية و الإعلامية أيضا ذلك أن العولمة ستتجه بالدرجة الأولى إلى المواطن العربي لتؤثر و

[1]- أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق، ص ص (248-249).

تسحبه من محيطه و تجذبه إلى محيط ثقافي جديد بواسطة الإعلام الموجه القائم على مبادئ علم النفس و حاجة الإنسان إلى التكفل و التأقلم و المنفعة، فالمسرح و السينما و معاهد الموسيقى و فنون الرسم و النحت و الخطاطة...وغيرها، يجب أيضا أن يدخلها التغيير المدروس الصادق إلى حماية الذات و التراث و خدمة المبادئ العليا للمجتمع كالإعتزاز بالوطن و القيم الثقافية و الأخلاق و إحترام الإنسان ورفض الإستبداد .

و هذا لا يعني معاداة التجارب الأخرى في الحضارة التي قد تأتي بها العولمة فلدى الطرف الآخر ، مايقدمه أيضا، من علوم و آداب وفنون و تكنولوجيا، فكلها يمكن أن تقدم فائدة كبيرة للمواطن العربي مع الإلتزام بالمحافظة على ثوابته و عدم التخلي عنها، فالصراع بين الثقافة و العولمة في ظل ذلك سيكون صعبا و طويل المدى، سيستخدم كل منها سلاح الهجوم و الدفاع الذي يملكه[1].

وقد عاشت الثقافة العربية قديما صراعات من هذا النوع مع عولمات أخرى و انتصرت عليها بدفعها أحيانا و بإستيعابها أحيانا أخرى، و في هذا الخصوص يذكر سعد الله تجربة الجزائر في صراعها مع العولمة و الثقافة العربية يقول : "فقد مضى هذا البلد قرناً و ثلاثين سنة تحت مطارق العولمة التي دخل معها الجزائريون في صراع غير متكافئ في مختلف المجالات كاللغة و التعليم و القيم الاجتماعية و المؤسسات الدينية و الثقافية، و إتخذ الصراع معها شكل مقاومة شرسة، صحيح أن بعض الثوابت قد أنتهكت و أن بعض القيم قد ديست ، ولكن داعي النهضة حين دعا سنة 1954 ضرب ضربة لازب و إستعادت اللغة العربية شبابها و الإسلام حيويته و الثقافة العربية مكانتها و مع ذلك فالجزائريون غير غافلين عما يجري اليوم عندهم من تداخل العولمة الفرنسية و الأمريكية، ولكنهم يعملون على تفادي التصادم، بل يريدون أن يوظفوا العولمتين لصالح التطور و التقدم أي لفائدة الثقافة العربية الإسلامية[2] ".

و يؤكد سعد الله على ضرورة توحيد برامج الثقافة العربية في الوطن العربي كله، بل لابد من تظافر الجهود و العمل المشترك و المنسق و لتبقى الخصوصية داخل التعددية في الثقافة العربية الواحدة، أما المواجهة فيجب أن تكون موحدة. و لتحقيق ذلك فإن سعد الله يقترح عاملين أساسيين لمواجهة العولمة:

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق، ص 250.

[2]- نفسه ص ص (250-251).

العامل الأول: الصمود أمام أوامر و تعليمات العولمة بتقوية أجهزة المناعة في الأمة و بنشر الوعي في كيفية التعامل مع الأفكار الداخلية و تذكير الأمة بما تمتلكه من رصيد حضاري يضاهي و ربما يتفوق على ما تقدمه العولمة، أما التصدي للعولمة بتحصين الحدود في وجه رياحها العاتية، فهو إجراء لا نوافق عليه لأنه غير عملي ولن يجدي فتيلا.

العامل الثاني: تقوية عقيدة الأمة في ذاتها و في قوتها المعنوية و دعم إرادة الخلق و الإبداع فيها، لأن العقيدة القوية في الذات هي التي تصنع التاريخ و هي التي تمنح القدرة على الإبداع و التكيف، و هي في الأخير الملاذ الآمن لبقاء الأمة أمام تحديات العولمة التي نعتقد أن ريحها ستذهب كما ذهبت معظم رياح العولمات السابقة.

و في سياق متصل، فإن سعد الله يؤكد على أن العرب و المسلمين لهم تجربة غنية، في مجال العولمة يجب أن يستفيدوا منها الآن، و لا تؤثر فيهم الأوامر الصادرة من هذا الجانب أو ذاك، فهم قادرون إذا أرادوا أن يكيّفوا أنفسهم مع الواقع الجديد و أن يتثقفوا بثقافتهم و دينهم و تراثهم الغني، و أن يأخذوا عن عولمة غيرهم في الحاضر ما يفيدهم في جولتهم المقبلة، فقد فتح العرب و المسلمون بالإسلام عوامل شاسعة و نشروا فيها عولمة الإسلام بكل ما فيها من ثقافة روحية و أدبية و علمية و من نظام إقتصادي و اجتماعي وسياسي لا عهد لتلك العوالم به، و بالتالي فهو يرى أنه بدل التنادي بالتصدي للعولمة و لعن أدواتها علينا أن نشمر عن ساعد الجد و نجدد بناء أنفسنا كما تتجد الأمم التي تصنع العولمة و تصدرها الآخرين[1].

من خلال ما سبق يمكن القول أن تاريخ الأقطار العربية الإسلامية مشرقاً و مغرباً، قد تأثر بفعل عولمة الإستعمار قديما و حديثاً، فالعولمة ليست ظاهرة جديدة، فكل حضارة و كل دين أو سلطة تعمل جاهدة لفرض نفسها على الآخرين بشتى الوسائل، و كي تواجه الثقافة العربية و تستطيع الصمود أمام أوامر و تعليمات العولمة، فيجب إقامة حصون منيعة في الأمة بنشر الوعي في كيفية التعامل مع الأفكار الداخلية، و أن تفرض نفسها على الطرف الآخر لحماية ذاتها لأنها لو لم تتسلط لكانت هدفاً للهجوم و التدمير و الزوال تمامًا من الوجود.

[1]- أبو القاسم سعد الله، مجادلة الآخر، المصدر السابق، ص ص (245-246).

خاتمة

إن مكانة الأستاذ سعد الله كمؤرخ لا ينكرها إلا مجحف، و ما تلك المجموعة من المساهمات و الإصدارات التي أخرجها إلى الوجود في عالم الكتابة التاريخية إلا دليل قاطع على جلائل أعماله، التي أضافت الى المكتبة الوطنية و العربية عناوين جديدة تعرف بما كتبه الرجل، و تؤكد سبقة في هذا الميدان كأحد عمالقه الكتابة التاريخية في الجزائر المعاصرة، و بالتالي أرسى قواعد المدرسة التاريخية الجزائرية وساهم في بناء صرح التاريخ الوطني ومن خلال إطلاعنا و وقوفنا على مسيرة الرجل و رصد أهم إنجازاية و آثاره العلمية استطعنا الخروج بما يلي:

– إتسمت البيئة الصحراوية التي ولد وترعر فيها مؤرخنا بظروف سياسية و إجتماعية و إقتصادية صعبة، يشترك فيها مع باقي أفراد الشعب الجزائري الذي ظل يعاني ردحا من الزمن من ويلات الإستعمار و آثاره الوخيمة على الفرد و المجتمع في مختلف مناحي الحياة، و عائلة أبو القاسم سعد الله أيضا في هذا الخصوص لا تختلف عن بقية العائلات الجزائرية التي عاشت شظف العيش و الخصاصة في المرحلة الإستعمارية، و قد عايش مؤرخنا عن كثب معاناة أسرته، و جرب بنفسه حياة القفر و العوز، و هذه الوضعية كفيلة بأن تكشف لنا عن مجمل الخيارات الضيقة أمام المرء في حياته، إلا أن هذه الظروف نفسها قد صنعت شخصيته و جعلت منه الطفل القوي العزيمة الذي لا تثنه الشدائد و الصعاب .

– من خلال مميزات شخصيتة و خصاله و شمائله التي تحدثنا عنها نجد أن سعد الله من المؤرخين الجزائريين الذين تمتعوا بخصال نادرة قل ما نجدها مجتمعة في غيره، ساهمت في صقلها عدة عوامل ، فهو يبقى إبن بيئته على حد تعبير علماء الإجتماع .فقد عاش أوضاع مجتمعه، و أستوعبها، و تأثر بها، فكانت رافداً قويا و موجها لطبيعة كتاباته و إنتماءاته، و كانت لروافد الثقافية التي إستقاها من دراساته في بلدان مختلفة أيضا دور في توجيه، كما لا ننسى أحداث الثورة و التي جعلت كل جزائري يكتشف نفسه من جديد على حد تعبيره، كل هذه العوامل مجتمعة ساهمت في تكوين وصقل شخصية مؤرخنا.

–لعبت البيئة الصحراوية التي تربى فيها أبو القاسم سعد الله دورا في الحفاظ على تمايزه وصفاء سريرته، بتحصينه بتعليم ديني أولي، و كانت الروافد الثقافية التي إستقاها من دراساته في بلدان مختلفة أيضاً دور في توجيهه فتونس التي كانت هي أول عاصمة حل بها أدخلته إلى عالم الحواضر بما فيها من تناقضات وبما تعلم أصول الدين الإسلامي الحنيف وروافد الأدب العربي، و عاصمة الجزائر التي قضى فيها عاماً واحداً جعلته يكتشف غربته في وطنه الذي أغتصبه الأجنبي، و القاهرة التي كانت مركز إشعاع فكري و سياسي في وقته جعلته يؤمن بوحدة التاريخ و المصير العربي كما عرفته بشرائح أدبية، جديدة إختلط بها وناقش و نشر و

إكتشف ذاته بين الذوات الأخرى، أما رحلته إلى أمريكا فقد أعطته الحقيقة على الوجه الآخر للصورة الإنسانية، و الحياة و الحضارة، كما أقنعته بالتقدم الذي حققه الإنسان الأمريكي خلال قرون أن الإنسان قادر على صنع المعجزات.

– يعد أبو القاسم سعد الله وجها بارزاً من وجوه الحركة الطلابية و النضالية، بفضل إسهامه النضالي المعتبر، فقد عايش مرحلة النضال الوطني طالبا بجامع الزيتونة، إذ لم تقتصر مهمته على التحصيل العلمي فحسب، بل نشط في ميدان النضال الطلابي و تولى رئاسة أهم منظمة طلابية بتونس و قام بمجهود معتبر في التعريف بالقضية الجزائرية، و كانت تجربته في وطنه تحت وطأت الإستعمار حافلة بالأحداث المؤثرة على شخصه، حيث و اكب إندلاع الثورة بأشعاره، فكان ينظمها شعراً بليغاً يتساوى مع عظمة الأحداث، و سجل حضوره أيضا في القاهرة وأمريكا من خلال عضويته في التنظيمات الطلابية المؤمنة بالنضال الوطني تحت لواء جبهة التحرير الوطني، ضمن تنظيم الإتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين حيث برز دوره بشكل واضح في تأطير الجانب الثقافي لدعم الثورة، أين وجد في بعض الصحف و المجلات منبراً لعرض قضيته الوطنية و إسماع صوت الجزائر في المحافل الثقافية و الصحفية في البلدان العربية و الأجنبية، فدوره كان إعلامي ثقافي للكشف عن حقيقة الجزائر و مساهمتها في الحضارة العربية الإسلامية.

– كافح أبو القاسم سعد الله بروح نضالية عالية في سبيل الجامعة الجزائرية لتكوين إطارات وطنية تؤمن بالثقافة و الهوية العربية الإسلامية بعد أن وقف صامداً أمام خصوم الثقافة العربية، و خلال تدريسه بجامعة الجزائر أسهم في تكوين و تأطير و تخريج العديد من الباحثين و المؤرخين الذين شكلوا في حياتهم مدارس تاريخية رائدة و الذين أسهموا بتواليق في مجالات عدة في التاريخ الوطني، و بالتالي فقد أسهم سعد الله مساهمة كبيرة في إرساء قواعد مدرسة التاريخية الجزائرية.

– شغف أبو القاسم سعد الله بالأدب و هيمن على عقله لقدر مهم من الزمن، فهو قبل أن يصبح مؤرخا سار أشواطا مهمة في التجربة الأدبية، فكان في أواخر الأربعينات شاعراً مغرداً ينافح عن وطنه و حريته، حين منحه جامع الزيتونة فرصة للظهور و البروز، فتميز بين أقرائه بحس أدبي راق و قدرات لغوية هائلة جعلته يجد له مكانا بين مثقفي مصر و أدبائها حين ارتحل إلى دار العلوم، و هو في كل هذا كان يتقلب بين أجناس أدبية مختلفة، ونوع في القوالب كما نوع في موضوعاته الفنية و ساير الحركة النقدية و الأدبية، و بالرغم من قصر هاته التجربة و تحوله إلى دراسة التاريخ، إلا أنه استطاع أن يترك بصمة المتميزة في الشعر و الأدب الجزائري الحديث، و هو ما يؤكده المشتغلون بهذا الحفل.

– بالرغم من إنتقال أبي القاسم سعد الله من دراسة الأدب إلى التاريخ و التي ساهمت فيها عدة عوامل كما أسلفنا إلا أنه يؤكد على عدم إبتعاده كلية عن الخط الأدبي لأن الأدب كنصوص و مواقف و قيم و لغة يحتاجها المؤرخ أشد الحاجة، فالتاريخ يوسع أفق الأديب ويعطيه المعلومات التي يصوغ منها أفكاره و الحكمة التي يستنتج منها آراءه، في المقابل كذلك الأدب ضروري للمؤرخ فمنه يستمد تعبيراته و أساليبه، و منه يتلقى حرارة العمل و إنطلاقه المجال.

– إن المتمعن في الإنتاج الغزير الذي خلفه الأستاذ سعد الله نجده قد إتبع منهجا تاريخيا صارما في تحليل المادة التاريخية التي توفرت لديه، و مناقشة آراء الكتاب و المؤرخين من أجل الوصول للحقيقة التاريخية على نسبيتها، كما أتقن كذلك تفكيك النصوص و ممارسة النقد عليها، و تحليلها بطريقة موضوعية، و ما خلصنا له من خلال الإطلاع على المادة التاريخية التي كتبها، هو طغيان الصبغة الأدبية و الدينية و بدأ ذلك جليا للعيان في كتاباته مردها إلى لون الثقافة التي نشأ فيها و أغترف من معينها. و مساهمة الأستاذ سعد الله على بساطة أسلوبها و طبيعة مرجعيتها إلا أنها استطاعت بناء أسس مميزة لمدرسة تاريخية جزائرية.

– إهتم أبو القاسم سعد الله بالموضوعات الثقافية الفكرية في دراسته لتاريخ للجزائر مقارنة بالموضوعات السياسية ، مدفوعاً في ذلك إلى عدة أسباب منها أن خلود الجزائر في ذاكرة التاريخ يرتبط أساسا بإسهامها الثقافي و مشاركتها في المعرفة الإنسانية، كما أن الوجود الفرنسي كان ينفي في كتاباته وجود ثقافة جزائرية، و كان هدفهم من ذلك الطعن في شخصية الجزائر الوطنية، حتى يتأكد لهم إمكانية تذويب الجزائر في فرنسا لأن أكبر حاجز كان يحول دون عملية التذويب هو الشخصية الثقافية. و جاءت موسوعته الثقافية (تاريخ الجزائر الثقافي)، في هذا الإطار، لتغطية هذا الجانب، وقد وقف في ذلك إلى حد بعيد و بالتالي حقق توازناً في نظرنا و نظرة القارئ الجزائري لتاريخه.

– إن سعد الله من خلال نظرته للحقبة العثمانية لا يتخذ موقف جامدا يحاول أن يبرره في كتاباته و لكنه تعامل مع هذه المرحلة التاريخية، بموضوعية متوازنة حسب السياق التاريخي و الظرف الحضاري، و تبعا لما تجود به المصادر التاريخية المتعددة من مادة علمية متوقفا خلال ذلك على إيجابيات المرحلة و سلبياتها دون تشنج و لا تطرف، بحيث كانت قضيته الأساسية الكتابة التاريخية برؤي وطنية في هذه المرحلة التأسيسية، فجاءت كتاباته متميزة، ذات خصوصية بعيدة عن أطروحات المدرسة الاستعمارية لهذه الحقبة التاريخية.

– إن سعد الله و في إطار تبنيه للبحث التاريخي الموضوعي، جعله يؤجل الخوض في كتابة تاريخ الثورة، إلى أن تتهيأ الظروف بالشكل الذي يغرب فيه، و المنهج الذي يتوافق مع قناعاته، و جملة الأسباب التي سقناها، دفعته إلى جمع ما توفر من الوثائق في هذا الموضوع، و إنتظار المرحلة المناسبة للشروع في الكتابة التاريخية المبنية أساساً على البحث العلمي المجرد، و حرصه الشديد على الكتابة التاريخية، البعيدة عن الذاتية، بالرغم من معايشته للكثير من أحداثها إلا أن وفاءه لمبادئة و رفضه الكتابة، من أجل الكتابة أو القيام بعمل مبتور خصوصا في هذا الموضوع الحساس في نظره لم تحن بعد.

– يرى سعد الله أن المدرسة الإستعمارية صنعت إنحرافاً تاريخيا من خلال المئات من المؤلفات التاريخية التي تناولت تاريخ الجزائر أثناء فترة الاحتلال، و في أغلبها كتبت بخلفية استعمارية، و بمضامين بعيدة في أغلبها عن الحقيقة، و من هذا المنطلق فإن الأعمال التاريخية التي أنجزها لصالح تاريخ الجزائر جاءت في هذا الإطار لسد الفراغ الرهيب الذي تركناه لغيرنا ليكتب تاريخنا، فقد هاله واقع الكتابة التاريخية بأقلام جزائرية في هذا المجال، و على الرغم من أن سعد الله كانت له مساهمة كبيرة في تقديم أعمال و دراسات في تاريخ الجزائر لسد هذا الفراغ و إطلاعه حول ما كتب في تاريخ الجزائر بأقلام جزائرية، و لكنه ظل يؤمن أن هذا العمل كله في طريق تراكم المعرفة التاريخية، و المحاولات التي لا ترقى لتأسيس مدرسة تاريخية جزائرية واضحة الأهداف و المعالم و المنهج، و إعتبر ما أنجز في هذا المجال هي أعمال ضمن مرحلة من ردود الأفعال على المدرسة التاريخية الفرنسية التي طالما إستأثرت بالكتابة في تاريخ الجزائر، و بالتالي فالمرحلة الحالية هي مرحلة جدل و حوار تاريخي وردود أفعال على الكتاب الفرنسيين بالدرجة الأولى.

– إستطاع أبو القاسم سعد الله من خلال عمله التحقيقي لمجموعة من المخطوطات من التقيد بقواعد التحقيق و إتباع الضوابط العلمية في منهجيته، و هذا المنهج الذي إتبعه نجده لا يختلف عن المناهج المتبعة من طرف محققي التراث المخطوط سواء تعلق الأمر بالمستشرفين أو بالمؤرخين العرب، و هذا ما خلصنا له من خلال تقديمنا للمنهج العلمي الذي اتبعه في التحقيق. وهذا الانجاز العلمي المتعلق بتحقيق التراث التاريخي الوطني يدخل في إطار الكشف عن الذات الجزائرية و إبراز مساهمتها في الحضارة العربية الإسلامية، و في ظل الجهود التي بذلها الأستاذ سعد الله قد مكن جمهوراً واسعاً من الباحثين و المهتمين بالتاريخ الوطني من الإطلاع عن هذه المؤلفات العلمية، و لولا مبادراته لظلت الكثير من تلك المخطوطات حبيسة الخزائن متوارية عن أنظار الباحثين، فكان جهداً جباراً أسدى خدمة جليلة لتراث التاريخي الوطني.

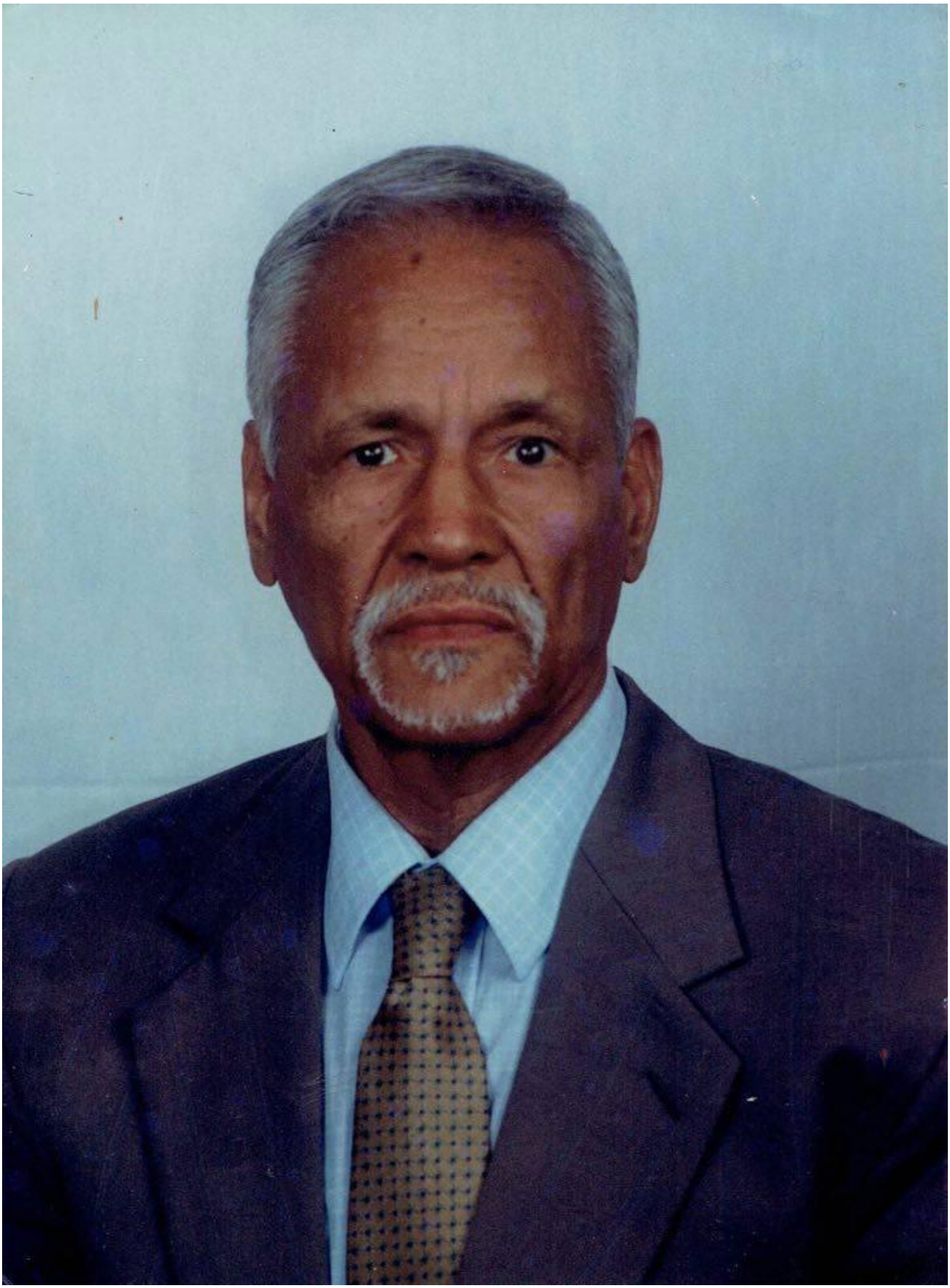
– إنّ الترجمة بإعتبارها حقلاً علميا قائماً بذاته قد خصص لها الأستاذ سعد الله حيزاً كبيراً من نشاطه، فإلى جانب إهتمامه بالدراسات التاريخية، ظهرت براعته في النقل من اللغات الأجنبية، ولعل السمة الغالبة على أعماله هي الترجمة إلى اللغة الانجليزية بالمقارنة مع الفرنسية، و هي قفزة نوعية لما تعوده المترجمون الجزائريون الذين ينقلون في العادة من اللغة الفرنسية، فترجمتها من اللغة الانجليزية مكسباً بالنظر إلى قيمة ما ترجم و أهميته في دراسة تاريخ الجزائر، و شخصية سعد الله كمترجم بارع تبدو واضحة جليلة في نصوصه المترجمة، سواء بتعليقاته المتنوعة أو بفصاحة أسلوبه، فيحس القارئ و كأنه مع نص إبداعي جديد و المتفحص لأعمال سعد الله الترجمية، يدرك لا محالة بأنه ينادي بتحقيق الجودة في الترجمة و الوصول بالمادة المترجمة إلى مصاف الأصلية و هو من خلال ذلك يبرز أهمية الإشتعال بهذا الحقل المعرفي لنهوض بالأمة و ترسيخ أركانها و لا يكون ذلك إلا إذا إهتمت بحركتي الترجمة من و إلى اللغة الوطنية.

– كانت قضايا الأمة حاضرة بقوة لدى المؤرخ سعد الله، على مدار أكثر من ثمانين سنة من حياته، عايش الكثير منها و واكب أحداثها و تفاعل معها بكل جوارحه، حيث كانت له مواقف عبر عنها بوضوح فهو لا يتردد في إبداء آرائه و مواقفه و تحديد رؤيتة لقضايا الساعة و خص القضية الفلسطينية و القضية العراقية بإهتمام خاص، فحلل طبيعة التحالف الصهيوني و الغربي عليهما، كما كتب عن حاضرها وواقعهما الحالي وقدم تصوراً لماضيهما و الطريقة الصحيحة لحلهم، كما حلل الوضع الوحدوي المغاربي، وفق رؤية حضارية وحدوية قومية من أجل بناء وحدة الأمة العربية، و إهتمام سعد الله بقضايا أمته أبانت على مدى دقة نظرته السياسية و عمق تحليله لمختلف قضايا.

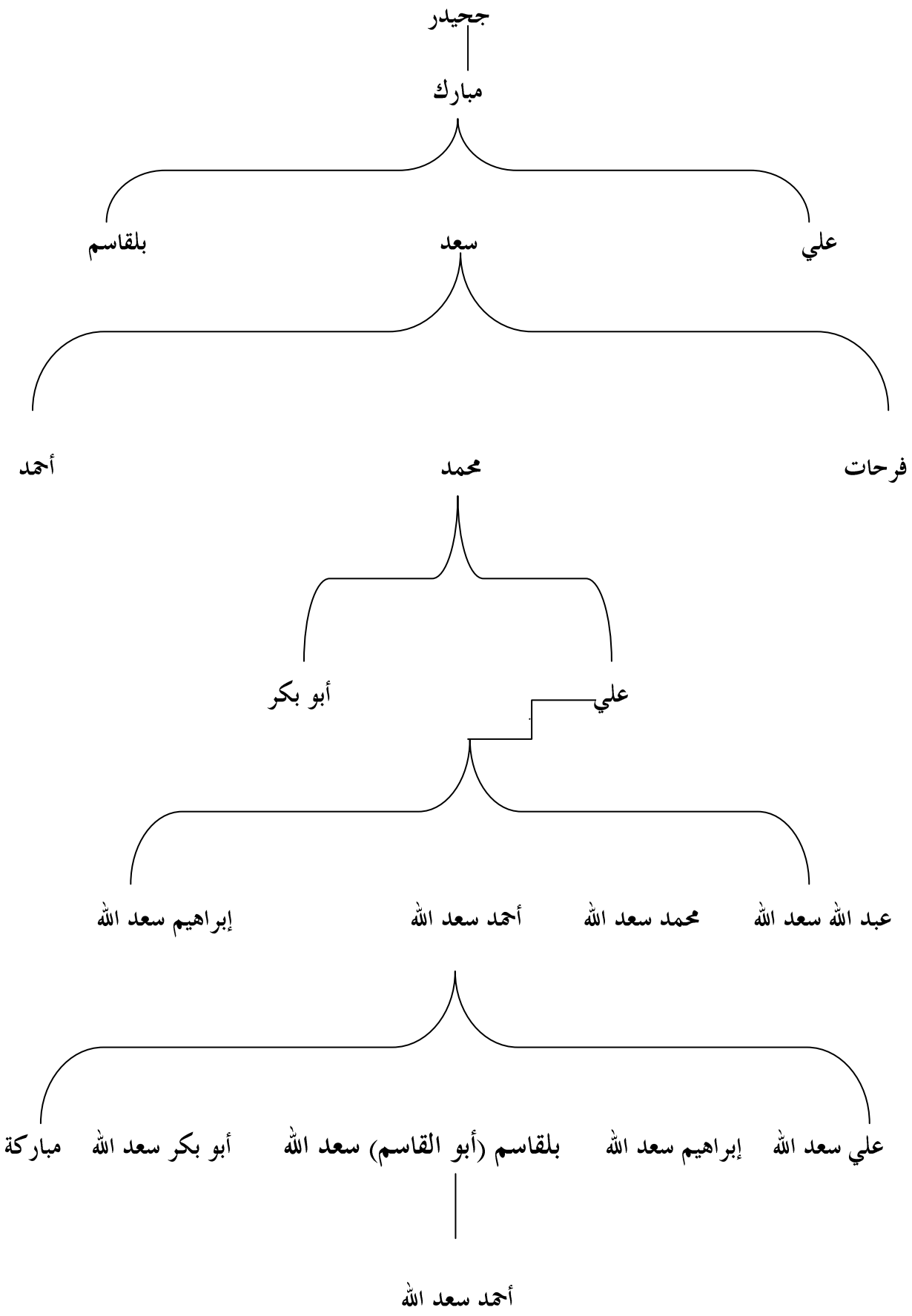
و في الأخير لا يسعنا إلا الإعتراف بالتقصير في حق هذا العالم، و التنبيه في الوقت نفسه إلى ضرورة الإلتفاف الى كتابات سعد الله بالدراسة النقدية، و دعوة الباحثين لمزيد من الدراسات و البحوث المعمقة في فكر الرجل وتراثه الغني الذي لا زال يحتاج إلى المزيد من الدراسات العلمية و الأكاديمية لإعطاء الرجل حقه.

ملاحق

الملحق رقم 1: أبو القاسم سعد الله



الملحق رقم 2: الشجرة العائلية لأبي القاسم سعد الله



الملحق رقم 3:



الشكل (1): منزل أبو القاسم سعد الله في البدوع



الشكل (2): جامع البدوع

المصدر: من وحي الذكرى، مجموع مداخلات أربعينة المرحوم أبو القاسم سعد الله، وادي سوف : مطبعة الرمال، 2014، ص(155-156).

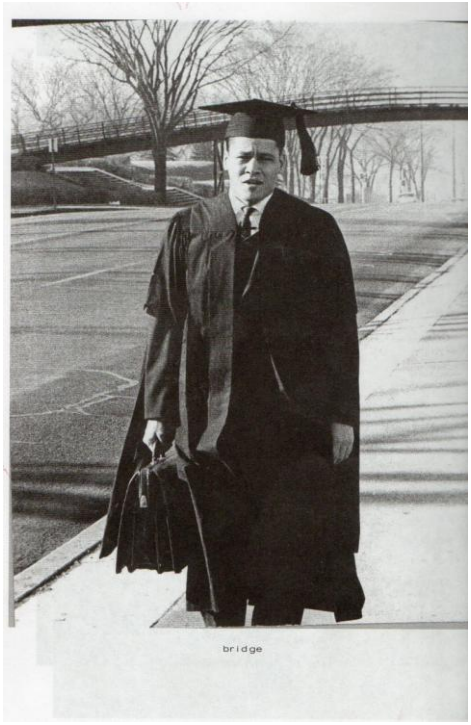
الملحق رقم 4: **أبو القاسم سعد الله الطالب**



صور لطّالب أبو القاسم في القاهرة



صور لطّالب أبو القاسم في الزيتونة







صورة لطالب أبو القاسم سعد الله في أمريكا

المصدر: أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص 434.

الملحق رقم 5: الإجازات العلمية لأبي القاسم سعد الله

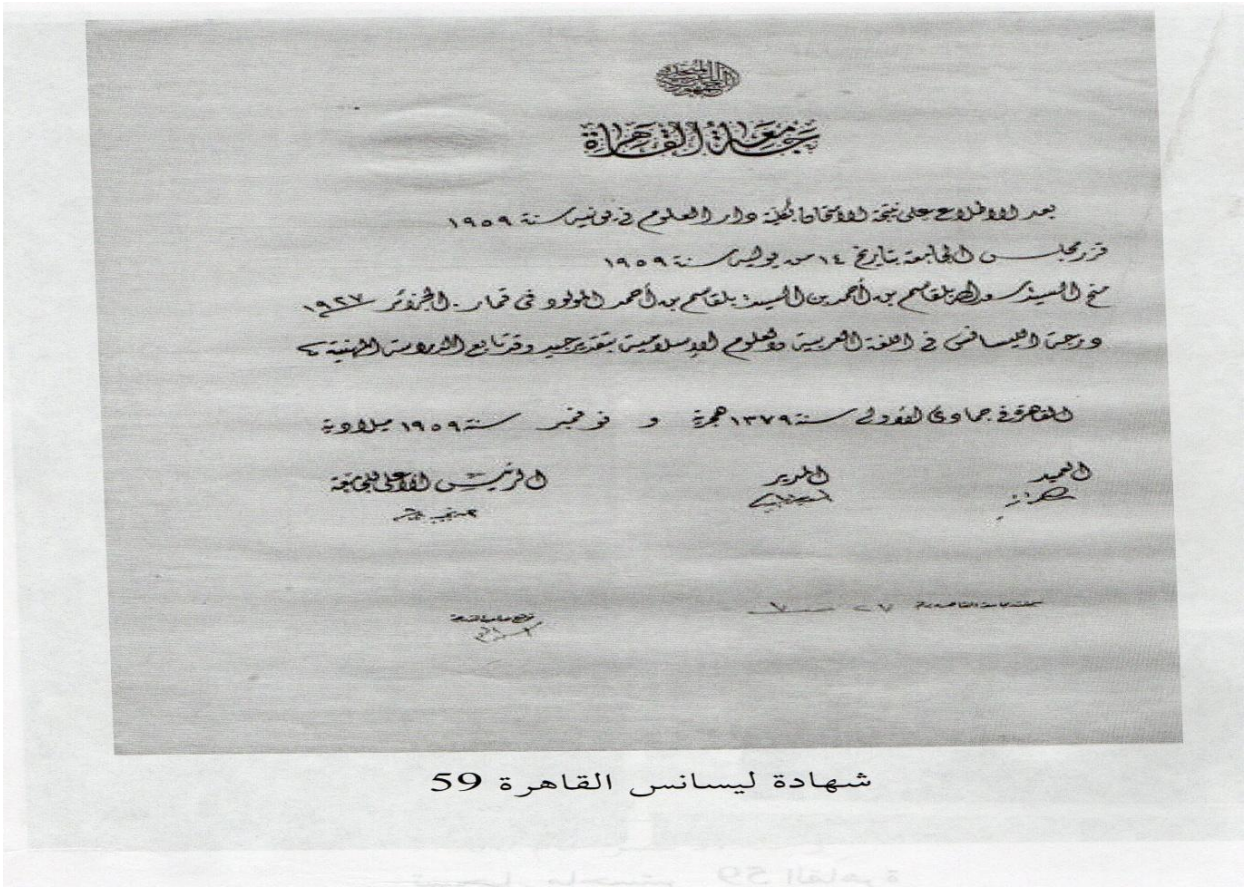


المملكة التونسية — الوزارة الكبرى

مشيخة الجامع الأعظم وفروعه

شهادة التحصيل في العلوم

شهادة تحصيل تونس 54



جامعة القاهرة

بعد الاطلاع على نتيجة الامتحان بكلية دار العلوم في تونس سنة ١٩٥٩

قرر مجلس الجامعة بتاريخ ١٤ سبتمبر سنة ١٩٥٩

منح السيد سعد الله أبو القاسم بن الحاج السيد بلقاسم بن أحمد المولود في قمار في أكتوبر سنة ١٩٢١

ودرجة الليسانس في اللغة العربية وعلوم الدراسات العربية بتقدير جيد وفي الآداب التاريخية

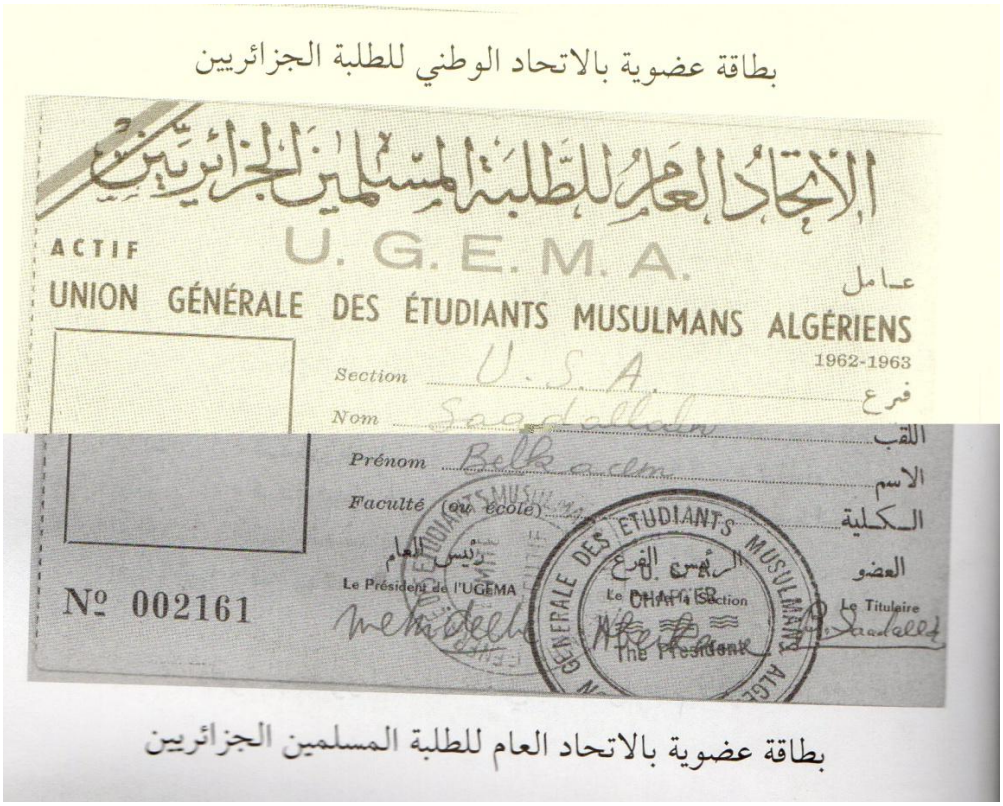
القاهرة في جمادى الأولى سنة ١٣٧٩ هجرية و نوفمبر سنة ١٩٥٩ ميلادية

العميد — المدير — الرئيس الأعلى للجامعة

شهادة ليسانس القاهرة 59

المصدر: أبو القاسم سعد الله، حياتي، المصدر السابق، ص ص (418-419)

الملحق رقم 6:


بطاقة عضوية بالاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين

الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين

ACTIF U. G. E. M. A. عامل

UNION GÉNÉRALE DES ÉTUDIANTS MUSULMANS ALGÉRIENS

1962-1963

Section U. S. A. فرع

Nom Saadallah اللقب

Prénom Belkacem الاسم

Faculté (ou école) الكلية

رئيس العام Le Président de l'UGEMA

Nº 002161

رئيس الفرع Le Président de la Section

Le Titulaire العضو

GENERALE DES ETUDIANTS MUSULMANS ALGERIENS

بطاقة عضوية بالاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين


IVe CONGRÈS NATIONAL

DE L'UNION GÉNÉRALE

DES ÉTUDIANTS MUSULMANS ALGÉRIENS

Tunis, 26 juillet - 1er août 1960

Carte de délégué

Nom : BEIKACEM

Prénom : SAADALLAH

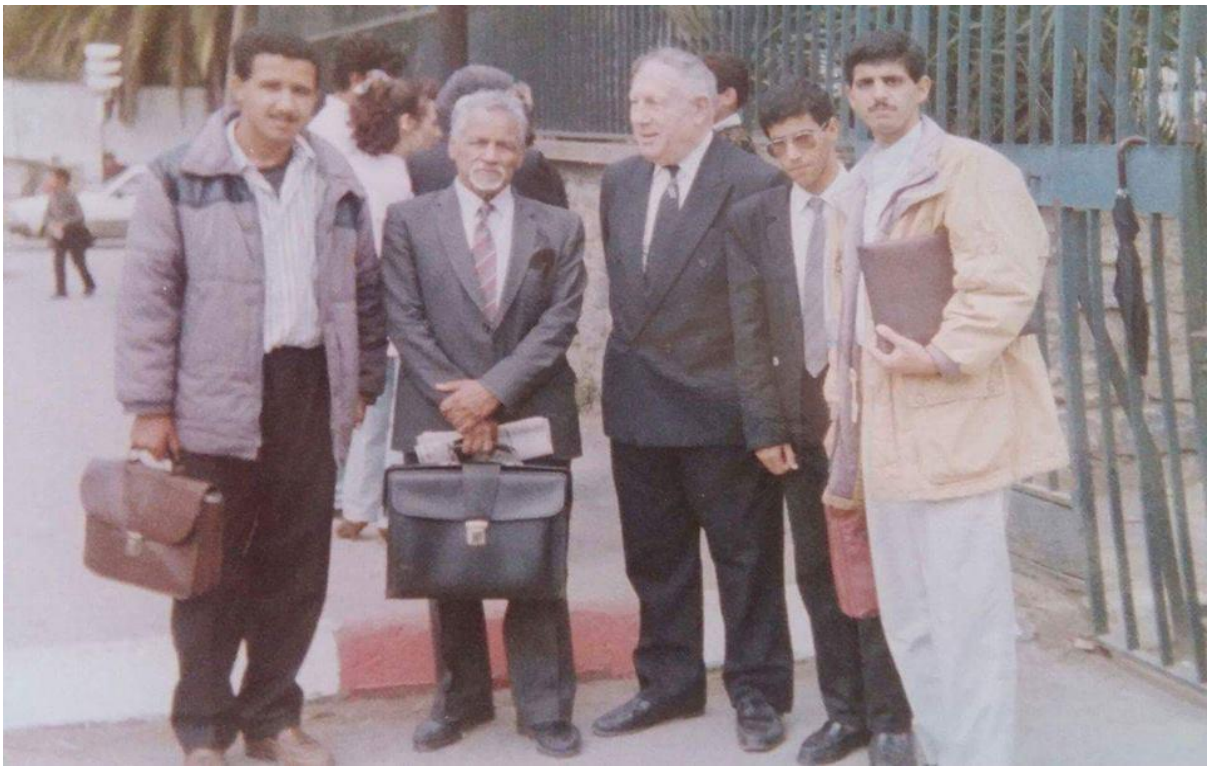
Section : CAIRE

بطاقة ممثل في المؤتمر الخامس لاتحاد العام للطلبة المسلمين الجز

المصدر: أبو القاسم سعد الله، حياتي،المصدر السابق، ص ص (408-409)

الملحق رقم 7: أبو القاسم سعد الله الأستاذ





صور مع طلبته بجامعة الجزائر

– الملحق رقم 8: قائمة المشاركات العلمية لأبي القاسم سعد الله[1] :

1- المقالات:

1. مع أديب الخلود، البصائر 29 ماي 1953م.

2. أرض الملاحم، مجلة الأداب، عدد 4، 1954م.

3. حول أرض الملاحم (باسم إبراهيم الحمداني)، البصائر، 264، 1954م.

4. حول النهضة الأدبية في الجزائر، البصائر، 275، 1954م.

5. عندما لبست العمامة، البصائر، 3 ديسمبر 1954م.

6. رسالة القاهرة، البصائر، بين خريف 1955م وشتاء 1956م.

7. حول أسطورة المروحة، مجلة الآداب، سبتمبر 1956م.

8. حول المروحة أيضا، مجلة الآداب، سبتمبر 1956م.

9. كلمة بإسم الطلبة الجائريين بالقاهرة في الذكرى الثالثة للثورة الجزائرية، 1957م، مجلة الثقافة، عدد 88، 1984م.

10. محمد العيد كبير شعراء الجزائر، مجلة الآداب ، ماي 1960م.

11. أزمة المثقف الثوري في الوطن العربي، مجلة الآداب 1966م.

12. الجزائر والقومية العربية، مجلة الآداب، 1967م.

13. انجليز و احتلال الجزائر، أرسلت سنة 1967م، م أمريكا الى جريدة الشعب.

14. الأدب الجزائري الحديث، المجاهد الثقافي، فصلية، 1968م.

---

[1]– القائمة سلمت لنا من طرف الاستاذ محمد العربي معريش وهي بقلم الأستاذ سعد الله نفسه، وسنقتصر على إدراج القائمة من سنة 1953م إلى غاية 2004، لعددها الكبير، وبقية المشاركات يمكن للقارئ أن يجادها موزعة عبر مؤلفات الأستاذ أبو القاسم سعد الله منها : خارج السرب ، هموم حضارية، مجادلة الآخر، حصاد الخريف وغيرها.

15. في التجربة التاريخية، المجاهد الثقافي، سبتمبر 1969م.

16. عن تدوين تاريخ الثورة وتنظيرها، مجلة الجيش، نوفمبر 1972، منشورة أيضا في الطبعة الفرنسية من نفس المجلة بعد الترجمة، جوان، 1973م.

17. رحلتي إلى المغرب، مجلة الثقافة، عدد 18، 1973.

18. مهمة موتيلانسكي في سوف سنة 1903م، الثقافة، مارس- أبريل، 1975م.

19. مراسلة غريبة بين ابن باديس و الطاهر العبيدي، الشعب، 1980م.

20. زيارة لحنقة سيدي ناجي، مجلة سيرتا، 3 ماي 1980م.

21. مساهمة الصحراء في الثقافة الوطنية، المنبر (قمار)، 31 أوت 1981م.

22. عن الكتابة التاريخية، الثقافة، عدد 66، 1981م.

23. حدثونا عن الوحدة، المجاهد الاسبوعي، 26 جوان 1981م.

24. أشباه الرجال، الشعب 11 جوان 1982م.

25. حول كتابة تاريخ الثورة، مجلة الجيش، جوان 1982م.

26. حول الجامعة الاسلامية، الشعب 15جويلية 1982م.

27. ذكرياتي عن أستاذنا عمر الدسوقي، مجلة الثقافة 70، جويلية- أغسطس، 1982م.

28. لعنة ميرانت، المجاهد الاسبوعي، 27 ماي، 1983م.

29. رحلتي إلى الجزيرة العربية، نشرت في كتاب تجارب في الأدب والرحلة، الجزائر، 1983م.

30. نحو جامعة وطنية، المجاهد الاسبوعي، 17 جوان 1983م

31. وحدة المغرب العربي، مقدمة لورقة ملتقى (وحدة المغرب العربي)، تونس حوالي 1984م، لم يشارك.

32. في ندوة المجلات الثقافية بالكويت، أضواء، 31، 30، جوان 1984م.

33. تكريم الأدب في جزيرة العرب، الشعب، (حلقات)، 9 ابريل، 1986م.

34. مؤتمر عربي- عثماني في تونس، الشعب 17جوان 1986م.

35. صوت الأوراس العربي، المساء، 5 مارس 1987م.

36. الثورة الجزائرية في الفكر العربي، مجلة اول نوفمبر، ع87، 1987م.

37. في ملتقى النجم بباريس، الشعب، 18 جوان1987، ترجمت الى الفرنسية و نشرت في مجلة أحداث الهجرة، عدد 98، 1987م، ومعها رد المركز الثقافي عليه.

38. حول صراحة المركز الثقافي، الشعب، 12 جانفي 1988م.

39. الخوف من التاريخ، الشعب، 19 جانفي 1988م.

40. الجريدة- الكتز، تصدير لمجموعة البصائر، بطلب من محمد الحسن فضلاء، كتب 12 فيفري، 1988م.

41. صديق العدو، الشعب، 22 مارس 1988م،

42. الحاج (ديكارت) الجزائري، الشعب، 24 ماي 1988م.

43. فلسطين في مصر، الشعب، 16 جانفي 1989م.

44. كتاب الشعر والتواصل، الشعب، 21 فيفري، 1989م.

45. تساؤلات عن المنظومة التربوية، الشعب 13ماي 1989م، (حلقتان).

46. عن فوضى اللغات، الشعب، 11 ماي 1989م.

47. في مجمع اللغة العربية ، الشعب، (حلقات)، 28 ماي 1989م.

48. أخبار الحاج ديكارت، الشعب، 8جوان 1989م.

49. الأفعول في الحميرية و البربرية، الشعب، 15 جوان، 1989م.

50. نظرات في وحدة المغرب العربي، مجلة المسار المغربي، (ملف خاص)، جوان، 1989م.

51. و الجدار العربي، الشعب، نوفمبر 1989م.

52. صيف في سوف، الشعب، 30- 31 اكتوبر 1989م

53. في أعماق الأوراس، الشعب، نوفمبر 1989م.

54. نكبة ثقافية، الشعب، 15 سبتمبر 1989م.

55. ضد الحضارة العنصرية، الشعب، اكتوبر 1989م.

56. الحوض، كتابة بالبربرية و الحروف العربية، 23 ديسمبر، 1989م.

57. تهويمات الأستاذ حسين آيت أحمد، الشعب، 19 فيفري 1990م.

58. مرض ابن خلدون و أثره على تأليفه، المجاهد الأسبوعي، 20ماي 1990.

59. إشكالية كتابة التاريخ، الشعب، 14 ماي 1990

60. من أجل أحفادنا، المساء، 18 جوان 1990م

61. إشكالية الكتابة التاريخية، الشعب، 31 مارس، 1991م.

62. جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والسياسية، جريدة المنقذ، 1991م.

63. اهتمامات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقضايا المغرب العربي، مجلة الإنسان(باريس)، 7 مارس/ ابريل، 1992م.

64. الأندلس: ذكرى و عبرة، مجلة الدراسات التاريخية، 8، 1993- 1994م.

65. تأملات في مسار الثورة، نشرت في كتابة الثورة الجزائرية: أحداث و تأملات، جمعية أول نوفمبر، باتنة، 1994م.

66. من الكرام، الشعب، 1995م.

67. ملاحظات حول التعريب في الجزائر، ورقة لدورة مجمع اللغة العربية في القاهرة، ج 85، ماي، 1999م.

68. خطر الدخيل على الفصحى والعامية معا، في وقائع ندوة مجمع اللغة العربية بالقاعرة دورة 1998م، وكذلك في المجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر). 2000.

69. المدرسة الوطنية، الشروق، 2001م.

70. ذكريات مغاربية من اليمن، مجلة البيان،جامعة آل البيت، 2001م.

71. اللغة العربية في الخطاب الرسمي، ضمن وقائع ندوة مجمع اللغة العربية لعام 2001م، نشرت أيضا في جريدة الشروق 9 ابريل 2001.

72. محمد بن يوسف اطفيش ودوره الثقافي، في وقائع ملتقى عمان الأول، منشورات جامعة آل البيت، 2002م.

72. قراءة في كتاب: الدعاية في سبيل المؤمن للشيخ ابراهيم إطفيش، في كتاب محاضرات ليالى رمضان، وارة الثقافة و الأوقاف، سلطنة عمان، 2003. الكتاب الأول.

73. بين القطبين: محمد بن يوسف إطفيش ونور الدين السالمي، في كتاب محاضرات ليالي رمضان، وزارة الثقافة و الأوقاف، سلطنة عمان الكتاب الأول 2003.

74. تيارات الإصلاح في المغرب العربي، مجلة التسامح، وزارة الثقافة و الأوقاف، سلطنة عمان، عدد 2، 2003م.

75. التواصل بين الشيخ محمد مرتضى الزريدي وعلماء المغرب العربي، مجلة التاريخ العربي، عدد 29، 2004.

76. التاريخ والعولمة، جريدة الشروق، 25 ماي 2004م.

77. الجهود اللغوية للشيخ محمد الطاهر التليلي، ورقة قدمتها لدورة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ربيع 2004م.

78. الجزائر وتحرير فرنسا سنة 1944م، الشوق اليومي، 30 أغسطس 2004م.

79. علمتنا الثورة، الشروق اليومي، 18 أكتوبر 2004م.

80. جزأرة الجزائر، الشروق اليومي، 27سبتمبر 2004م.

81.حول رحلة ابن طوير الجنة، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد 54، ج 3.

2- المؤتمرات والمحاضرات:

1. محاضرة عن الثورة الجزائرية في ذكراها الثالثة، في نادي طلبة المغرب العربي بالقاهرة، نوفمبر 1957م.

2.محاضرة عن الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو، بدعوة من اللجنة الثقافية لاتحاد طلبة المغرب العربي في القاهرة، في نادي طلبة المغرب العربي مارس 1960م

3.محاضرة عن الجزائر والقومية العربية جامعة الجزائر 1966م

4.مؤتمرات المستشرقين الأمريكيين في سان فرنسيسكو 1966، ميشيغان 1978م كارولينا الشمالية 1993م، أريزونا 1994م.

5.ندوة تنشيط ندوة الأساتذة الثقافية بجامعة الجزائر، 1967 – 1968م

6.ندوة عن الثورة في العالم الثالث، جامعة ويسكنسن، أوكلير، أمريكا، 1967

7.محاضرة في جامعة الجزائر عن النيقريتود أو الزنوجية 1968م

8.مؤتمر كتاب المغرب العربي طرابلس 1969

9.اتحاد الكتاب العرب دمشق 1971م

10.اتحاد الكتاب العرب تونس 1973م، 1990م.

11.أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته تونس 1974م

12.تاريخ وحضارة المغرب العربي، تونس 1974م.

13.الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض 1977م.

14.المؤتمر الأول لكتابة تاريخ الثورة الجزائرية الجزائر 1981م.

15.محاضرة في جامعة الجزائر، بمناسبة ذكرى الأمير عبد القادر، 04 مايو 1983م

16.محاضرة عن تاريخ العلوم في الجزائر خلال العهد العثماني، المدرسة الوطنية العليا للأساتذة ديسمبر 1986م.

17.الحياة الاجتماعية والثقافية للدولة العثمانية تونس 1986م.

18.محاضرة عن العنصرية عند افتتاح السنة الدراسية الجامعية بالجزائر بدعوة من رئاسة الجامعة في 1986/10/05.

19.محاضرة في جامعة الجزائر عن قيمة التاريخ، بدعوة من قسم الفلسفة 1987/12/29م

20. ملتقى نجم شمال إفريقيا، بدعوة من المركز الثقافي الجزائري بباريس فبراير 1987م.

21. محاضرة عن نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري، جامعة الجزائر ربيع 1987م.

22.محاضرة عن معنى التاريخ في جامعة الجزائر 1987/12/29م

23. ملتقى تاريخ الرياضيات العربية الجزائر 1988م.

24. التراث الفلسطيني القاهرة 1989م.

25. مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة 1989م.

26. محاضرة عن إشكالية الكتابة التاريخية بجامعة الجزائر في 1990/04/02م

27. الملتقى الثاني للثورة الجزائرية باتنة 11 – 14 نوفمبر 1990م

28. المؤتمر الثالث لتاريخ الرياضيات العربية الجزائر 1990م

29.محاضرة عن جمعية العلماء والسياسة، في المركز الثقافي الإسلامي بالعاصمة 24 يناير 1990م.

30.ندوة أسبوع المغرب العربي، تنظيم رابطة الطلاب الإسلاميين بفرنسا باريس 28 أكتوبر 1991م.

31.محاضرة عن الجزائر في منتدى جامعة هاملين مينيابولس (أمريكا) 1994م

31. ندوة خير الدين باشا التونسي تونس 1995م

32. محاضرة في سيمنار قسم التاريخ، جامعة آل البيت، نساء أوروبيات في مواجهة مجتمع عربي، خريف 1996م

33.محاضرة في جامعة اليرموك بدعوة من قسم التاريخ عن الاستعمار والاندماج في الجزائر شتاء 1996م.

34.محاضرة عن حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في سمنار معهد لوثر مينيابلوس (أمريكا) 1996م.

35. كيف تعلم الفرنسيون اللغة العربية في الجزائر، محاضرة في سيمنار قسم التاريخ، جامعة آل البيت (الأردن) خريف 1997م

36.ملتقى الدولة العثمانية، بدايات ونهايات، تنظيم جامعة آل البيت، سنة 1999.

37.الملتقى الثقافي الثاني عن أدب السيرة والمذكرات في الأردن جامعة آل البيت مايو 1998م.

38.الملتقى العماني الأول بإشراف جامعة آل البيت والسفارة العمانية في عمان سنة 2000م

39.الملتقى العلمي حول الحركة الثقافية والفنية والإبداعية في اليمن إشراف جامعة آل البيت والسفارة اليمنية في عمان ربيع 2000م.

40.محاضرتان في مسقط (عمان) خلال رمضان 1422هـ/2001م، بدعوة من وزارة الأوقاف العمانية.

41.ملتقى الحركة الثقافية والفنية والإبداعية في الجزائر، تنظيم جامعة آل البيت والسفارة الجزائرية بعمان مايو 2001م.

3- البحوث :

1.تصميم للشعر الجزائري الحديث، في مجلة الآداب، 12، 1957م.

2. الغزل في الأدب الجزائري، في مجلة الآداب، 5، 1958م.

3. شخصية البطل في الأدب الجزائري، في مجلة الآداب 5، 1959م.

4. محاولاتنا في النقد الأدبي، في مجلة الآداب، 9، 1960م.

5. رضا حوحو ونضال الكلمة، في مجلة الآداب 12، 1960م.

6.أول بيان فرنس الأدب الجزائري مؤثراته وتياراته، في مجلة الرسالة (العراق) 5 – 6 1960م.

ي إلى الجزائريين، في مجلة المعرفة 17 مارس 1960م

7.العلاقات الجزائرية الأمريكية 1776 – 1830، في مجلة المعرفة 15 ، نوفمبر 1964م.

8.الأستاذ جوليان Julien،Ch.A والتاريخ الجزائري، في مجلة المعرفة، 19، 1965م.

9. العلاقات الدبلوماسية بين أمريكا ودول المغرب العربي 1776 – 1816، في مجلة المجاهد الثقافي 9، 1969م ترجمها السيد كاوش إلى الفرنسية ونشرتها الجمهورية (وهران) 17 يناير 1970م.

10. الجزائر والحملة الفرنسية سنة 1830م، في مجلة الجيش أكتوبر، نوفمبر 1970م

11. الجزائر في مؤلف انجليزي قديم، 1731م، في مجلة الأصالة 8، 1972م. ونشر أيضا في 12.كتاب عبد الرحمان الجيلالي (تاريخ المدن الثلاث، الجزائر وملیانة، والمدية) الجزائر 1973م.
13.كتاب علاج السفينة في بحر قسنطينة تأليف الألبيري، في مجلة كلية الآداب (الجزائر) 2، 1972م.

14.مساهمة بعض الجزائريين في الحضارة الإسلامية، ورقة لمؤتمر الفكر الإسلامي، الجزائر، 1972م، وهي منشورة مع المناقشة في وقائع المؤتمر

15.منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر، في مجلة الأصالة، 14 – 15، 1973م.

16.قصيدة سياسية لابن ميمون، في الثقافة 51، 1973م
17. مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي، أبو راس الناصري، ورقة لندوة الجبرتي، القاهرة 1974 ونشرت في وقائع الندوة، القاهرة، 1976م، وفي مجلة تاريخ وحضارة المغرب، 12، 1974م.
18. وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب (1914 – 1924)، في المجلة التاريخية المغربية 1، 1974م.

19.عبد الرزاق بن حمادوش ورحلته، ورقة للمؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، تونس في 24 – 29 ديسمبر 1974م. نشرت في وقائع أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته، ومنشورات الجامعة التونسية ج2، تونس 1974م. منشور أيضا في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مجلد 5، أبريل 1975م.

20. الثورة الجزائرية، في مجلة الآداب، الآداب، ديسمبر 1977م
21. أربع رسائل بين باش أشعار ومقامات ابن حمادوش، في الثقافة 49، 1979م وات الجزائر وعلماء عنابة، الثقافة 51، 1979م.
22. إجازة أحمد بن عمارة لمحمد خليل المرادي، الثقافة 45، 1978م.
23. قصيدة في رثاء المفتي مصطفى الكبابطي، الثقافة 44، 1978م.

24. الرحلات الجزائرية الحجازية، نشرت بالعربية والإنجليزية في وقائع الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض 1978م.

25. مدارس الثقافة العربية في المغرب العربي (1830 – 1954م)، في مجلة الثقافة 79، فبراير 1984م، وفي مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، 09، 1978م، القاهرة.

26. الجزائر في القرن الحادي عشر الهجري حسب مخطوط (كعبة الطائفين) في المجلة التاريخية المغربية، 7 – 8 يناير 1978م.

27. بين ابن شنب ومحمد كرد علي، الثقافة 53، 1979م.

28. كتاب ري الغليل، مخطوط لرحالة ليبي، في مجلة البحوث التاريخية (ليبيا)، 2 1979م.

29. مقامة لأحمد البوني (إعلام الأحبار)، الثقافة 58، 1980م.

30.أزمة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سبتمبر 1954م، في مجلة التاريخ نصف السنة الثاني 1980م.

31. وثيقة تونسية لابن مرزوق التلمساني، في مجلة التاريخية المغربية، 17 – 18، 1980م.

32. وثيقة عن التجانية وبوعمامة والفرنسيين، في مجلة أول نوفمبر، 50، 1981م.

33. الشاعر المفتي ابن الشاهد واحتلال الجزائر، الثقافة 61، 1981م.

34. عريضة الامير خالد إلى الرئيس ويلسون W.Wilson سنة 1919م، في مجلة التاريخ نصف السنة الثاني 1981م.

35.الحملة الفرنسية على مصر والشام في رأي المؤرخ أبي راس الناصري، في المجلة التاريخية المغربية، 21 – 22، 1981م.

36. الاتجاهات الفكرية والثقافية للحركة الوطنية، في الشعب، أول نوفمبر، 1981م، ومجلة أول نوفمبر في نفس الشهر، وترجمتها المجاهد اليومية (النسخة الفرنسية) ونشرتها في حلقات أولها، 1981/11/10م.

37. مشروع كتاب تاريخ زواوة لأبي يعلى الزواوي، في المجلة التاريخية المغربية 27 – 28، 1982م.

38. رحلة في سورية منسوبة إلى الأمير عبد القادر سنة 1880، في مجلة التاريخ النصف الثاني 1983م.

39. مؤلفات أبي حامد المشرقي المعسكري، في مجلة الثقافة (عدد خاص بالأمير عبد القادر) 75، 1983م.

40. رسالة الثعالبي في الجهاد، نشرت ضمن كتاب بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية، بمناسبة ذكرى وفاة الأستاذ الدكتور أحمد فكري، الإسكندرية، 1976م، نشرت في وقائع الندوة سنة 1983م.

41. دراسة اجتماعية من دفتر محكمة المدية أواخر العهد العثماني 1821، 1839م، في الثقافة، 81، 1984م.

42. العثور على النسخة المسروقة من مخطوط تحفة الزائر، في مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق 1984م.

43. في النشاط العسكري والسياسي والتجاري للجزائر خلال القرن الثامن عشر، في المجلة التاريخية المغربية، 33 –34،1984م.

44. قضية تقافية بين الجزائر وفرنسا سنة 1843م، في مجلة عالم الفكر (الكويت)، 16، 1985م.

45. أثر الجزائر في الأدب الأمريكي، في مجلة الثقافة، 86، مارس – إبريل 1985م.

46. رسالة من الشيخ العنتري القسنطيني إلى المترجم الفرنسي شارل فيرو Ch. Feraud، في مجلة الدراسات التاريخية، 1، 1986م.

47. قصيدة عربية منسية عن الثورة الجزائرية (للشاعر الحوماني) في الشعب 1986/02/23م.

48. من أخبار شعبان باشا داي الجزائر، سنة 1695م، من كتاب الشهب المحرقة لمصطفى برناز، نشر؟.

49. العامل الديني في الحركة الوطنية الجزائرية خلال العشرينيات، في وقائع ندوة نجم شمال أفريقيا، باريس 1987، وأيضا في مجلة الفيصل (السعودية) 28 ذي الحجة، 1408هـ.

50. الشيخ البشير الإبراهيمي في تلمسان من خلال الوثائق الإدارية الفرنسية، 1933 – 1940م، في ندوة الذكرى الخمسين لتأسيس دار الحديث، سبتمبر 1987م، في مجلة الثقافة؟.

51. صورة الملك محمد الخامس في بعض الصحف الوطنية الجزائرية، 1951 – 1956.

ورقة لندوة محمد الخامس، الرباط، نوفمبر 1987م، لم يتم السفر ولكن الورقة أرسلت وقرئت في الندوة، ونشرت في وقائعها.

52. معركة غوط شيكة بوادي سوف، شهر أوت 1955م، في مجلة أول نوفمبر، 84، 1987م.

53. نظرة الأمريكيين للتاريخ الجزائري، في الشعب، 22 مارس 1987م.

54. بعض الممارسات العلمية في الجزائر في عصر التخلف العلمي (القرن 15 – 18)، ورقة للملتقى الدولي لتاريخ الرياضيات عند العرب، تنظيم المدرسة الوطنية العليا للأساتذة، ديسمبر 1986م، في وقائع الملتقى مع ترجمة فرنسية.

55. الجديد عن كتاب (كعبة الطائفين) أو الجزائر في القرن 17م، ورقة لملتقى الحضارة الإسلامية تلمسان جوان 1987م.

56. بين ابن خميس وابن هدية من مخطوط العلق النفيس، ورقة للمساهمة بها في ملتقى لبن رشيق، تنظيم اتحاد كتاب تونس والجزائر في القيروان، إبريل 1987م.

57. من رسائل علماء الجزائر في القرن الماضي، (التاسع عشر) في مجلة الرسالة (حلقات) 1987م.

58. بين علماء الجزائر وعلماء اسطانبول، ورقة لملتقى حقيقة الوجود العثماني بجامعة قسنطينة (الجزائر) إبريل 1988م.

59. وثائق عن الجزائر في مكتبة جامعة مينيسوتا، في مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ جامعة الجزائر، 4، 1988م.

60.المستشرقون الفرنسيون وتعلم اللغة العربية للأوروبيين، في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 64 مايو 1989 ونشرتها الشعب في حلقات أولها 32 مايو 1989م.

61. صدى دعوة خير الدين باشا التونسي في الجزائر، ورقة لندوة خير الدين باشا التونسي تونس خريف 1990م

62. رسالة في الكرة الفلكية لابن حمادوش (القرن 18م)، ورقة للمؤتمر الثالث لتاريخ الرياضيات العربية، الجزائر ديسمبر 1990م نشرت في وقائع المؤتمر.

63. رحلة البجائي إلى الحجاز في القرن 15/9، في مجلة العرب (السعودية) أكتوبر – نوفمبر 1990م.

64. الأمير شكيب أرسلان والقضية الجزائرية، في كتاب أوراق في التاريخ والأدب، المهدى إلى الدكتور نقولا زيادة لندن 1992م.

65. مولود قاسم، ظاهرة فذة، في كتاب رمز كفاح أمة دار الأمة الجزائر 1993م.

66. الأديب المصلح، محمد المولود الزريبي، 1887- 1925م، أرسل إلى أمريكا إلى مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، 1994م.

67. سليمان الباروني أضواء وملاحظات، في مجلة الثقافة، 110 – 111، 1995م.

68. مجاهد من نوع آخر، حياة الشيخ عبد القادر الياجوري، الثقافة، نوفمبر – فبراير 1995م.

69. المترجمون الجزائريون وأفريقيا، بحث نشر في الثقافة 113، 1996م

70. الاستيطان والاندماج في الجزائر، في مجلة الندوة 2، 1997م

71. آخر الأعيان أو نهاية الارستقراطية العربية في الجزائر، في مجلة المنارة 2، 1997م.

72. أدب الرحلة عند المغاربة، ضمن كتاب تاريخ العرب الحديث، منشورات جامعة آل البيت 1997م.

73. التعامل مع اللغة العربية بالجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، مجلة مجمع اللغة العربية القاهرة ج83، نوفمبر 1998م.

74. مظاهر الحضارة الغربية في مذكرات مالك بن نبي، ضمن كتاب أدب السيرة والمذكرات في الأردن، منشورات جامعة آل البيت 1999م.

75. قضايا القدس في مجلة العالم الإسلامي الفرنسية Revue du monde Musulman، في مجلة البيان، جامعة آل البيت سنة 1998م.

76. ثلاث نساء أوروبيات في مواجهات مجتمع عربي (حالة الجزائر): في مجلة البيان، 4 جامعة آل البيت 1998م.

77. تأثير دعوة مجلة المنارة والشيخ رشيد رضا في المغرب العربي، ورقة للدورة ذكرى الشيخ رشيد رضا، عقدت في جامعة آل البيت بالتنسيق مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ضيف 1999م، قرئت في غيابي نشرت في وقائع الندوة.

78. فرنسيان في الحجاز في القرن التاسع عشر (ليون روش وجيرفي كورتيلمون)، في مجلة المنهل (السعودية)، أغسطس 1996م، أعادت نشرها البصائر (الجزائر) في عدة حلقات ديسمبر 2001م.

79. نصوص تاريخية عن الثورة العربية في الحجاز، مترجمة ومحققة من مجلة العالم الإسلامي الفرنسية Revue du Monde Musulman في مجلة الندوة (الأردن) 2000م.

80. مع الرحالة العياشي في رحلته إلى القدس، في مجلة التاريخ (أبو ظبي) 2000م.
79. التصريحات الفرنسية المؤيدة للصهيونية خلال الحرب العالمية الأولى، في مجلة التاريخ (أبو ظبي) 2000م.

81. بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني 1518 – 1830م، في بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة في العالم العثماني، إسطانبول، 2000 وفي جريدة البصائر أعداد يناير 2002م.

82. وسائل الاتصال والتواصل بين المسلمين، فصل في كتاب المدخل إلى التاريخ الإسلامي، منشورات جامعة آل البيت الأردن 2001م.

83. صورة مدينة الجزائر في القرن السادس عشر، في وقائع ملتقى الدولة العثمانية، بدايات ونهايات، منشورات جامعة آل البيت 2001م.

84.الشرق والغرب في ثقافة الجزائر الحديثة، في وقائع ملتقى الحركة الثقافية والفنية والإبداعية في الجزائر، منشورات جامعة آل البيت، الأردن 2002م.

85.تقريظ للمفتي أحمد بن عمار، في مجلة مجمع اللغة العربية الأردن، العدد 65، ديسمبر2003.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

1- : المصادر

أ- المصادر المطبوعة :

1- أحمد بن أبي عصيدة البجائي، رسالة الغريب إلى الحبيب،تح:أبو القاسم سعد الله،الجزائر:عالم المعرفة،2011.

2- أحمد بن عمار، مختارات من الشعر العربي، تحقيق ابوالقاسم سعد الله، الجزائر: عالم المعرفة ،2011.

3- إبن حمادوش عبد الرزاق ، رحلة ابن حمادوش الجزائري،تح: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، عالم المعرفة، 2011

4- بيربروجير أدريان، مع الأمير عبد القادر، رحلة وفد فرنسي لمقابلة الأمير في البويرة (1837-1838م)، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: عالم المعرفة، 2014.

5- تشرشل شارلز هنري ، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعدالله،الجزائر: عالم المعرفة، 2011.

6- أبو الجاحظ عثمان، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، ج1، بيروت، دار الجبل، 1999.

7- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،ج1، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011.

8 - سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،ج2، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011.

9- سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،ج3، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011.

10- سعد الله أبو القاسم ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،ج4، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011.

11- سعد الله أبو القاسم ، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر،ج5، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011.

12 - سعد الله أبو القاسم ، أفكار جامحة، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011.

13- سعد الله أبو القاسم ،بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011.

14- سعد الله أبو القاسم ،تاريخ الجزائر الثقافي، ج1 ، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011.

15- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2 ، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011.

16- سعد الله أبو القاسم ،تاريخ الجزائر الثقافي، ج5 ، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011.

17- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6 ، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011.

18- سعد الله أبو القاسم ،تاريخ الجزائر الثقافي، ج7 ، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011.

19- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج9 ، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011.

20- سعد الله أبو القاسم، تجارب في الأدب والرحلة، الجزائر: دار عالم المعرفة ،2011.

21- سعد الله أبو القاسم ،حاطب ورق، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011.

22- سعد الله أبو القاسم، حبر على ورق الجزائر: دار عالم المعرفة ، الجزائر، 2011 .

23- سعد الله أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية،ج3، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011.

24- سعد الله أبو القاسم الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011.

25- سعد الله أبو القاسم ،الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011.

26- سعد الله أبو القاسم، حصاد الخريف الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011

27- سعد الله أبو القاسم ،خارج السرب، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011

28- سعد الله أبو القاسم ،دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011.

29- سعد الله أبو القاسم، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011

30- سعد الله أبو القاسم، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي، الجزائر، دار عالم المعرفة، 2011،

31- سعد الله أبو القاسم، الزمن الأخضر، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011.

32- سعد الله أبو القاسم ،سعفة خضراء، دار عالم المعرفة ،الجزائر، 2011.

33- سعد الله أبو القاسم، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011

34- سعد الله أبو القاسم ،شعوب وقوميات، الجزائر، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011.

35- سعد الله أبو القاسم، شيخ الإسلام عبد الكريم الفكون، داعية السلفية، الجزائر: عالم المعرفة، 2011م.

36- سعد الله أبو القاسم، في الجدل الثقافي، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011.

37- سعد الله أبو القاسم ،قضايا شائكة، الجزائر: دار عالم المعرفة ، 2011.

38- سعد الله أبو القاسم، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011م.

39- سعد الله أبو القاسم، حياتي، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2015م.

40- سعد الله أبو القاسم ،مسار قلم، اجزاء،ج1، الجزائر: دار عالم المعرفة، الجزائر، 2011.

41- سعد الله أبو القاسم، مسار قلم، اجزاء،ج2، الجزائر: دار عالم المعرفة، الجزائر، 2011.

42- سعد الله أبو القاسم، مسار قلم، اجزاء،ج3، الجزائر: دار عالم المعرفة، الجزائر، 2011.

43- سعد الله أبو القاسم، مسار قلم، اجزاء،ج4، الجزائر: دار عالم المعرفة، الجزائر، 2011.

44- سعد الله أبو القاسم، مسار قلم، اجزاء،ج5، الجزائر: دار عالم المعرفة، الجزائر، 2011.

45- سعد الله أبو القاسم، مسار قلم، اجزاء،ج6، الجزائر: دار عالم المعرفة، الجزائر، 2011.

46- سعد الله أبو القاسم، مسار قلم،ج7، الجزائر: دار عالم المعرفة، الجزائر، 2011.

47- سعد الله أبو القاسم، النصر للجزائر،ط 2، الجزائر: المؤسسة الوطنية لنشر، 1986م.

48- سعد الله أبو القاسم، هموم حضارية، الجزائر: دار عالم المعرفة ، الجزائر، 2011.

49- عبد الحميد بك، اعيان من المشارقة والمغاربة تاريخ عبد الحميد بك، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، دار عالم المعرفة ، 2011

50- عدواني محمد بن عمر، تاريخ العدواني، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011.

51- فكون عبد الكريم ، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق: أبو القاسم سعد الله ، دار عالم المعرفة ، 2011.

52- مصطفى بن إبراهيم باشا،حكاية العشاق في الحب والاشتياق،تح:أبوالقاسم سعد الله،الجزائر،عالم المعرفة،2011 .

53- وزناجي مراد، حديث صريح مع أ.د أبو القاسم سعد الله في الفكر واللغة والتاريخ، تونس: منشورات الحبر،2008.

54- وولف جون بابتست ، الجزائر وأوروبا، ترجمة: أبو القاسم سعدالله، الجزائر: دار عالم المعرفة، 2011.

ب- الجرائد والمجلات:

1- سعد الله أبو القاسم،" الحاج ديكارت" ، جريدة الشعب، بتاريخ 25 /1988/5م.

2- سعد الله أبو القاسم، " حول (صراحة) المركز الثقافي"،جريدة الشعب، بتاريخ 12 /2/ 1988م.

3-سعد الله أبو القاسم، " شارل أندري، جوليان و التاريخ الجزائر"، مجلة المعرفة الجزائرية، الجزائر: العدد 19، ماي – جوان 1965.

4- سعد الله أبو القاسم، " الصديق الدكتور عبد الله ركيبي"، الشروق اليومي، ليوم 2011/6/6م.

5- سعد الله أبو القاسم،" في طريق إلياذة جزائرية أرض الملاحم "، مجلة الآداب البيروتية، العدد 4، 1954م،

6- سعد الله أبو القاسم،" في ملتقى النجم بباريس"، جريدة الشعب، بتاريخ 18 /6/ 1987م.

7- سعد الله أبو القاسم،" الغائب الحاضر الأستاذ مهري" ، الشروق اليومي، ليوم 2012/04/10 .

8- سعد الله أبو القاسم، " المروحة ، مجلة الآداب البيروتية، العدد 5، بيروت، لبنان: ماي 1956م.

9- سعد الله أبو القاسم، " مع الشعب الليبي"، جريد الشعب 1990/4/7.

10- سعد الله أبو القاسم، " منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر"، مجلة الأصالة، الجزائر، العدد 14-15، 1973.

11- سعد الله أبو القاسم، " وثائق جديدة عن ثورة الأمير عبد المالك الجزائري بالمغرب، " المجلة التاريخية المغربية، العدد1، جانفي1974م.

12- سعد الله أبو القاسم، "نكبة ثقافية" ، جريدة الشعب، 1988/12/15م.

13- سعد الله أبو القاسم، " الكتابة التاريخية" ، مجلة الثقافة، العدد 66،ديسمبر 1981م.

2 – المراجع باللغة الأجنبية:

1-Aboul-kassem Saadallah,La montee du nationalisme en algerie, Traduit:Nevine Fawzy-Hemiry,n 2, alger: (عالم المعرفة), 2015.

2 - Colonel Churchill ,The life of Abdel Kader, ex-sultan of the Arabs of Algeria; written from his own dictation, and compiled. from other authentic sources. Chapman and Hall 193 Piccadilly .London 1867 .

3 - Alfred Bel, "René Basse, Revue Africaine ", vol n°65,année 1924, Alger 1986.

4 - E.Albertini, " Stéphane Gsell (1864-1932)", Revue Africaine, vol n°73,année 1932, Alger 1986.

5 -Alfred Bel, "René Basse ", Revue Africaine, vol n°65,année 1924, Alger 1986.

6 -L.Paysant, "Un Président de la Société Historique Algérienne. Laurent-Charles Féraud ", Revue Africaine, vol n°55,année 1911, Alger 1986.

3- : المراجع باللغة العربية

1- البريني حافظ ، مقاييس الجودة في الترجمة، تونس، مركز النشر الجامعي، سنة 2010.

2- بن خيرة نجيب ، أبو القاسم سعد الله بعيون مختلفة، الجزائر: دار عالم المعرفة،2014.

3- بن نعمان أحمد ، أبو القاسم سعد الله حياة و آثار، شهدات ومواقف، الجزائر: دار النعمان، 2017.

4- بوضرساية بوعزة ، المدرسة التاريخية الجزائرية، الجزائر: دار الحكمة، 2007.

5- الجابري محمد الصالح ،النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1990-1962م، الدار العربية للكتاب، الشركة الوطنية لنشر، 1983.

6- جويبة عبد الكامل ، قضايا الثورة في مجلة الآداب البيروتية (1954-1962)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، 2011م

7- حسن فتح الباب: شاعر وثورة، دار المعارف للطباعة والنشر ،تونس 1991.

8 - حلاق حسان ، مناهج الفكر و البحث التاريخي، بيروت، لبنان: دار النهضة العربية، 2004

9- حمادي عبد الله ،الحركة الطلابية الجزائرية 1871-1962م، ط2،الجزائر منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1995.

10- خليل فؤاد محمد ، المخطوطات العربية، فهرستها علميا و عمليا،عمان: دار جرير للنشر و التوزيع،2006

11- راجح محمد: جمال عبد الناصر، مصر: دار الصفا لتوزيع والنشر، (د،س).

12- ركيبي عبد الله، الفرانكفونية مشرقا و مغربا، الجزائر: دار الكتاب العربي، 2009 .

13- سعد فهمي، طلال مجذوب، تحقيق المخطوطات بين النظرية و التطبيق، بيروت: عالم الكتب، 1993.

14- سعيدوني ناصر الدين ، أبو القاسم سعد الله كلمة وفاء، الجزائر: البصائر الجديدة، 2014.

15- سعيدوني ناصر الدين ، ورقات جزائرية، ط2، الجزائر: البصائر للنشر و التوزيع، 2012.

16- سعيدوني ناصر الدين، دراسات وشهادات مهدآة إلى الدكتور أبو القاسم سعد الله ،ط1، بيروت دار الغرب الإسلامي ،2000م.

17- شترة خير الدين ، الطلبة الجزائرين بجامع الزيتونة (1900-1956م)، ج2، الجزائر: دار البصائر،2008.

18- شترة خير الدين، الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900- 1956م، ج3الجائر: البصائر ،2008 .

19- علجية بن حسن، مراسلات في التاريخ والتراث الجزائري، الجزائر: دار قرطبة لنشر والتوزيع، 2015

20- فهمي سعد، طلال مجذوب، تحقيق المخطوطات بين النظرية و التطبيق، بيروت: عالم الكتب، 1993

21- فؤاد محمد خليل ، المخطوطات العربية، فهرستها علميا و عمليا، عمان: دار جرير للنشر و التوزيع، 2006

22- قسوم عبد الرزاق ، أعلام ومواقف في ذاكرة الامة وانطباعات جزائرية، الجزائر، الدار العثمانية، 2014.

23- غرياني الصادق بن عبد الرحمن ، تحقيق نصوص التراث في القديم والحديث، بيروت: منشورات مجمع الفاتح،1989.

24- مشلب ر، موسوعة الترجمان المحترف: صناعة الترجمة و أصولها، بيروت: دار الراتب الجامعية (د،س)،

25- معروف بشار ، في تحقيق النص، لبنان: دار الغرب الإسلامي، 2004.

26- نجيب عز الدين محمد ، أسس الترجمة، ط5، القاهرة: مكتبة ابن سينا لطباعة والنشر، 2005م، .

27- النشار السيد السيد ، في المخطوطات العربية، الإسكندرية: دار الثقافة، 1997م.

28- نيكسون ريتشارد، أمريكا والفرصة التاريخية، ترجمة: محمد زكريا إسماعيل، بيروت: مكتبة بيسان، 1992.

29- هلال عمار ، نشاط الطلبة الجزائريين ابان حرب التحرير 1954م، الجزائر: دار هومة، 2004

30- وزناجي مراد ، مفهوم التاريخ عند أبي القاسم سعد الله، الجزائر: عالم المعرفة، 2015م.

31- وغليسي يوسف،النقد الجزائري المعاصر من اللأنسونية إلى الألسنية، الجزائر: رابطة إبداع الثقافة، 2002.

4- المقابلات الشخصية:

1- مقابلة شخصية مع الأستاذ ابراهيم لونيسي بجامعة سيدي بلعباس، لقاءات متعددة.

2- مقابلة شخصية مع أحمد سعد الله بالأبيار، يوم الاثنين 2017/1/30م.

3- مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد بلقاسم بجامعة الجزائر، يوم الاثنين 2017/1/23م.

4- مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد الأمين بلغيث بجامعة الجزائر، يوم الأحد 2017/1/22م.

5- مقابلة شخصية مع الأستاذ محمد العربي معريش بجامعة الجزائر، يوم الثلاثاء 2017/1/24م.

6- مقابلة شخصية مع الأستاذ مراد وزناجي بالأبيار، يوم الأربعاء 2017/1/25م.

7- مقابلة شخصية مع الأستاذ مولود عويمر بجامعة الجزائر، يوم الثلاثاء 2017/1/24م.

8- مقابلة شخصية مع الأستاذ ناصر الدين سعيدوني بمنزله بالعاصمة يوم الثلاثاء 2017/1/24م.

5- : الجرائد والمجلات

1- الأخضر بن عبد الله ، "إشكالية ترجمة العنوان ، قراءة في عناوين" جريدة المؤتمر، العدد 2983 ليوم حزيران 2014م.

2- بعطيش يحي، "خصائص الفعل الترجمي عند أبي القاسم سعد الله"، المجلة العالمية للترجمة، منشورات مختبر اللغات و الترجمة، العدد 4، سنة 2010.

3- بن موسى زين الدين "شخصية المترجم كيف يجب أن تكون من خلال بعض أعمال أبي القاسم سعد الله، المجلة 4العالمية، للترجمة، قسنطينة"، العدد4 ، 2010.

4- بوقاعدة البشير ، المخطوط الجزائري و دوره في الكتابة التاريخية، مجلة رفوف، العدد3، 2013.

5-بوعزيز يحي ، "حروب المقاومة بالجزائر كما صورتها الكتابات الفرنسية"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، العدد 5، 1988.

6- حمادي بشير، "جيل الثورة سلم الراية لمن لا يستحقها "، مجلة الحقائق، العدد 19،ماي 2007.

7- خلوفي بغداد ، "نشاط الطلبة الجزائريين بالشرق العربي اثناء الثورة التحريرية رابطة الطلبة الجزائرين بالمشرق 8انوذجا"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، 8 ديسمبر 2013.

8- سالم محي الدين ، الدكتور أبي القاسم سعد الله حول خصائص أسلوبه و أفكاره الأدبية و اللغوية، المجلة العالمية للترجمة، قسنطينة، العدد50، 2010 .

9- شرشال عبد القادر، أبو القاسم سعد الله محققاً و ناقداً، مجلة النور اللندنية.

10- صاري أمينة ، شهادة من الجيل الأخير من الطّلبة في حق الدكتور أبو القاسم سعد الله رحمه الله، الشروق اليومي، 2014/01/04م.

11- عبيد مصطفى ، " النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله "، مجلة عصور الجديدة، العدد13، أبريل 2014
12- عثماني عبد الحميد ، ابو القاسم سعد الله... عالم رفض الاضواء، الشروق اليومي، 2013/12/14.

13 - عزي عبد الرحمن ، أبو القاسم سعد الله يتحدث عن تجربته في الصحافة، مركز الأصالة للدراسات، 25 /2012/2م.

14- فراد ارزقي ، المؤرخ الذي طلق الراحة من اجل الوطن، الشروق اليومي،2014/1/22 .

15- قدور عبد المجيد ، "أبو القاسم سعد الله و تاريخ الجزائر المنقول عن الانجليزية"، المجلة العالمية للترجمة، منشورات مخبر اللغات و الترجمة، قسنطينة، العدد 5، 2010م.

16- لونيسي ابرهيم، "أبو القاسم سعد الله ونصف قرن في صحبة الامير عبد القادر"، المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية المتوسطية، عدد 1، جوان 2015

17- مجوري التهامي ، " الدكتور سعد الله علاّمة الجزائر وعلامتها "، الشروق اليومي ، 2014/01/22م

18- مناصرية يوسف، " أرشيف تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، حوليات المؤرخ"، إتحاد المؤرخين الجزائريين، العدد 3- 4، 2005.

19- مياسي ابراهيم، "ذكريات مع مؤرخ الاجيال أبو القاسم سعد الله"،الجزائر: دارالبصائر العدد603، جوان 2012

20- هلايلي حنيفي ،"أبو القاسم سعد الله بين إزدواجية التأليف والترجمة"، مجلة عصور الجديدة، العدد 13، أفريل 2014م.

21- وغليسي يوسف ، "رائد الشعر الحر في الجزائر.. الدكتور أبو القاسم سعد الله يستعيد ذاكرته الشعرية ويفتح قلبه للنصر"، المجلة العالمية لترجمة الحديثة، جامعة قسنطينة: منشورات مخبر اللغات والترجمة، العدد 5، 2010م.

6- : الملتقيات والندوات

1- بلقاسم محمد، تجربتنا مع....الدكتور سعد الله، بحوث الملتقى الوطني الأول حول المدرسة التريخية الجزائرية، الجزائر: دار الصحافة، 1998.

2- بن قبي عيسى،" أبو القاسم سعد الله و اشكالية الكتابة في تاريخ الثورة" ،أعمال الملتقى الدولي ابو القاسم سعد الله

3- بوصفصاف عبد الكريم، الأعمال التاريخية والأدبية والفكرية لدكتور أبي القاسم سعد الله في ميزان الباحثين الجامعين، أعمال الندوة التكريمية العلمية في مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، قسنطينة: مطبعة بغيجة، 2008.

4- جعفري مبارك، التراث الوطني المخطوط وأهميته في الكتابة التاريخية عند الدكتور أبو القاسم سعد الله، اعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية، جامعة حمة لخضر الوادي، 13-14 ديسمبر 2015.

5- حاج سليم سعد، التجارب الشخصية لدكتور أبو القاسم سعد الله من خلال كتابه افكار جامحة، اعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا، كلية العلوم الاجتماعية و الانسانية، جامعة حمة لخضر الوادي، 13- 14 ديسمبر 2015.

6- شافو رضوان، ومضات من شخصية الاستاذ أبو القاسم سعد الله كما عرفته و أنا طالب لديه، أعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية، جامعة حمة لخضر الوادي، 13-14 ديسمبر 2015.

7- غنابزية علي، أبو القاسم سعد الله الإبن البار لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين (1940-2014م)، اعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية، جامعة حمة لخضر الوادي، 13-14 ديسمبر 2015.

8- غنابزية علي، نشاطات الدكتور أبو القاسم سعد الله وأهم كتاباته حول الثورة الجزائرية، ملتقى المثقف والثورة: الواقع والرهانات، مخبر التاريخ للأبحاث والدراسات المغاربية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قالمة، يومي 29 و30 أفريل 2014م.

9- قمعون عاشور، العلامة الموسوعي الشهير أبو القاسم سعد الله، أعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا، كلية العلوم الاجتماعية و الانسانية، جامعة حمة لخضر الوادي، 13-14 ديسمبر 2015.

10- مصباحي مصباح، أبو القاسم سعد الله الوطني و الاديب الثائر (شهاد حية اعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية، جامعة حمة لخضر الوادي، 13-14 ديسمبر 2015.

11- مناصرية يوسف، سعد الله ومحنة الوطن، أعمال الملتقى الدولي حول أبو القاسم سعد الله مؤرخا ومفكرا، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية، جامعة حمة لخضر الوادي، 13- 14 ديسمبر 2015.

7-: المعاجم والموسوعات

1- البستاني بطرس ، محيط المحيط، ج10، بيروت: مكتبة لبنان، 1870

2- بصري مير ، معجم أعلام الوطنية و القومية العربية، لندن: دار الحكمة، 1999،

3- بنين شوقي و طوبي مصطفى، معجم مصطلحات المخطوط العربي، الرباط: الخزانة الحسنية.

4- الجوهري اسماعيل، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار، ج 4، ط4، بيروت لبنان: دار العلم للملايين، 1990م.

5- الشامي أحمد محمد، سيد حسب الله، المعجم الموسوعي لمصطلحات المكتبات و المعلومات، الرياض: دار المريخ، 1988 .

6- شترة خير الدين ، معجم أعلام الجزائر، الجزائر: منشورات وزارة الأوقاف، 2015.

7- الفيروز أبادي، قاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، لبنان: الرسالة للطباعة والنشر، 2005.

8- نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، لبنان: مؤسسة نويهض الثقافية، 1980م.

9- المنجد في اللغة العربية المعاصرة، ط2، لبنان: دار المشرق، 2001.

8- :الرسائل الجامعية

1- أحمد مريوش، الحركة الطلابية الجزائرية ودورها في القضية الوطنية وثورة التحرير 1954م، اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الجزائر: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، 2005-2006م.

2- زين حفيضة، النقد الأدبي في آثار أبي القاسم سعد الله، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب واللغات، 2014-2015م.

3- ضيف عبد السلام، الكتابة الأدبية عند أبي القاسم سعد الله، ، جامعة باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 2004-2005م.

4- لطيفة بن سعيد، أبو القاسم سعد الله أديبا، رسالة ماجستير، جامعة تلمسان: كلية الادآب واللغات، 2012/2011م.

9- : الحصص الإذاعية والتلفزية

1- سعد الله أبو القاسم ، حوار، القناة الأرضية الجزائرية، 21:00 مساء، 1991/12/07م.

2- خلف بشير ، حصة ضفاف، القناة الاولى، 2014/12/14، 21:00 مساء.

3- بحاز ابراهيم، إذاعة القرآن الكريم، الإثنين 2014/12/15م.

الفهارس

فهرس الأعلام

– نستثني إسم ' أبو القاسم سعد الله' لكثرة وروده في البحث

= أ=	
– إبراهيم الحمداني: 170	احمد سحنون: 77
– إبراهيم الكتاني: 237	أحمد سعد الله : 5– 10– 15– 16– 20– 127– 357
– إبراهيم أنيس: 36	أحمد عبد المعطي حجازي: 77
– إبراهيم باشا: 101	أحمد فرنسيس: 92
– إبراهيم بحاز: 61	أحمد هيكل: 36
– إبراهيم سعد الله: 357	أحمد بوعروج: 70– 71
– إبراهيم عويس: 114	أدريان بيربروجير: 271– 297
– إبراهيم مزهودي: 32	إدريس شابو: 149
– ابن العنابي: 153–196–242– 243– 244– 250	أرزقي فراد: 11– 333– 335
– ابن حمادوش: 248– 253– 255– 262– 263– 374–	استرهازي: 219
– ابن خلدون: 50– 177– 327– 366–	استيفان غزال: 221– 227
– ابن رشد: 177	الأفغاني:196–303–304
– أبو العيد دودو 74	ألبير كامو: 273
– أبو بكر سعد الله: 357	إليا أبو ماضي: 53– 166
– أبي راس الناصري: 136– 185– 227– 245– 371– 372–	الأمير خالد: 47– 206– 273– 372
أحمد أبو عصيدة البجائي: 249– 374–	الأمير عبد القادر: 65– 94– 225– 226–238– 241– 277– 280– 287– 290– 304– 372
أحمد توفيق المدني: 46– 54– 77– 98– 100– 105.	أمين دباغين: 92
	أنيتا روزيتانو: 42
	أوعمران: 98
	أوغسطين: 191
	إيفير جورج: 226
	ايميل قوتيه: 213–231
=ب=	
البشير الإبراهيمي: 8–32– 33– 34– 38– 54– 55– 68– 70– 75– 93– 102– 155– 186–	بلقاسم محمد الزبيري: 20– 21– 53
	بلقاسم الجباني: 34

193– 373–	بن ناصر بن شهرة: 225
بشير خلف: 63	بن يوسف بن خدة: 92– 95
بوعلام الصديق: 93	
بول أزان: 225– 226	
بيليسي: 225– 232	
=ت=	
تشارلز مكلافلن: 45– 47	
تمام حسان: 36	
التهامي مجوري: 125	
=ث=	
ثيوفاني ستافرو: 45– 47– 125	
=ج=	
الجاحظ: 263–417– 293	جيم منهالند: 45
جبران خليل جبران: 53– 81– 166– 167	جوزيف ديبارمي: 228
جمال عبد الناصر: 89– 97	جون بابتيست وولف: 268– 269– 276– 280– 288–
جمال يحياوي: 162	
الجنيدي خليفة:81	
=ح=	
الحسن الأول: 145	
الحفناوي هالي: 19– 22– 49– 50– 53– 75– 84	
الحكيم بن الشيخ الحسين: 100	
=د=	
دوماس: 219	ديفيد كوبرمان: 47
دونوفو: 231	ديلامار: 219
دي غرامون: 227	
=ر=	
رابح بونار: 70– 170	رشيد الخوري: 170
راندون: 230	رضا حوحو: 94– 170– 370
رانيو: 232	روبان: 219
الربيع بوشامة: 83	روني باسي: 219

رجاء النقاش: 168 رشيد بن عومر: 108	رؤوف بوجقجي: 112
-س-	
سامي الدهان: 38 سلمان البدور: 162 سليمان باش : 101	سهيل إدريس: 38 سيمون دي بوفار: 102 سيد ابراهيم: 36
-ش-	
شاتولي: 225 الشاذلي زوكار: 81- 95 شارلز هنري تشرشال: 266- 276- 280- 292- 297- شافو رضوان: 49	شال أندري جوليان:202- 213- 220- 222- 223-226- 275- 370 الشرفي التارزي: 24 الشريف بوشوشة: 225 شعبان باشا: 287- 373
-ص-	
الصادق بسيس: 25 الصادق قطايم الملاك: 242 صالح النيفر: 26	صالح خرفي: 94 صلاح عبد الصبور: 168
-ط-	
الطاهر التليلي: 22- 53- 75	
-ع-	
عاشور بن موسى القسنطيني: 240 عباس الجراري: 250 عبد الرحمن أيوب: 63 عبد الرحمن خليف: 27 عبد العزيز برهام: 36 عبد اللطيف دراز: 94 عبد الله الركيبي: 16-17- 61-72- 131- 147- 157 عبد الله عثمانية: 17 عبد الحفيظ بوصوف: 40-92 عبد الحميد الثاني: 314 عبد الحميد بك: 249-250	عبد الحميد عثماني: 64- 65 عبد الرحمن الثعالبي: 238-240-250 عبد العزيز فيلالي: 146 عبد القادر نور: 107 عبد الكريم كريم: 237 عبد كريم الفكون: 243- 246- 247 العبيدية هالي: 15- 16- 130 عثمان سعدي: 107 العدواني: 107- 251-252- 255- 256- 257 العربي التبسي: 32- 54- 71- 72 العربي خيروني: 131- 157 العروسي المطوي: 27-72

عبد الحميد ابن باديس: 23– 65– 74– 154– 186– 194– 303– 304– 313– 330– 364–	على الأصرم: 26–28– 53– 167
عبد الرزاق قسوم: 18– 63	عمار بن الأزعر: 14
عبد السلام الفاسي: 237	عمر الدسوقي: 33– 36– 37– 63– 174
عبد السلام حمودة: 34	عبد الرحمن الخبثاني: 24
عبد السلام ضيف: 5–166	عمر شكري: 102
	عيسى بوضياف: 99
-غ-	
غالي شكري: 168	
غبريال كولان: 247	
غوستاف ادولف: 282	
- ف-	
فاروق شوشة: 169	فرحات عباس: 69– 92– 186– 330
فانجر: 56	فرويد: 56
	فيرو: 219– 373–
-ق-	
قاسم الفكون: 243	
قرامون: 213	
- ك-	
كات: 227– 231	كمال جعيط: 27
كامي روسي: 232	كنيدي: 211
كروتشي: 56	كير كقارد: 56
كريم بلقاسم: 92	كيم مانهالند: 47
-ل-	
لاباسي: 225	لمنور مروش: 89
لخضر بن طوبال: 101	لوتورنو: 220
-م-	
مازن مطبقاني: 163	محمد الغسيري: 92
مالك بن نبي: 93– 132– 375	محمد فارح: 24
المتنبي:53 –166– 176– 187	محمد قفرولو: 27
محفوظ قداش: 149	محمد هويسة: 25

محمد أبركان: 109	محمود أمين العالم: 54– 168
محمد الأمين بلغيث: 10– 64	محمود شرشور: 25
محمد المسدي: 25	مدين الشافعي: 94
محمد المليحي: 111	مراد وزناجي: 9– 14– 18– 62
محمد الميلي: 131– 157	مصالي الحاج: 69– 72– 186– 303– 330
محمد الياجوري: 29	مصطفى المؤدب: 27–28
محمد بالعيد: 34	مصطفى باشا: 288
محمد حسن الفضلاء: 84	منور صمادح: 81
محمد خيضر: 92– 95	المهدي البوعبدلي: 247– 254– 259
محمد شاطو: 136– 140– 154	مولاي بلحميسي: 150–154
محمد صالح دمبري: 127	مولود شرحبيل: 74
محمد عدنان البخيت:61– 157– 161– 162–163	مولود عويمر: 10– 137–141
محمد العربي معريش: 10– 138– 142– 143– 144– 145– 156	مولود معمري: 107–334
=ن=	
ناصر الدين سعيدوني: 9–10– 57–59–129–150 –185–194–220– 234– 259	نور الدين بن محمود: 31
=هـ=	
هارولد دويتش: 49– 116– 117–	هيربيون: 225
الهاشمي قدوري: 131	
=ي=	
ياسر عرفات: 89	يوسف باشا: 282
ياكونو: 220	يوسف بن خدة: 92– 95
يحي بوعزيز: 91– 94– 150	يوسف مناصرية: 129
يوبا الثاني: 191	يوغرطة: 334– 335

فهرس الأماكن والبلدان

– نستثني بلد ' الجزائر' لكثرة ورودها في البحث

=أ=	
الإتحاد السوفياتي: 45– 316	أمريكا: 46– 48– 56– 60– 108– 109– 110– 111– 112– 113– 123– 126– 127– 128– 129– 132– 161–174– 176– 190– 193– 194– 238– 273– 274– 315– 319– 321– 322– 327– 344– 345– 351– 363– 370– 374
أدرار: 53– 140	أناضوليا: 200
الأردن:131– 132– 157– 162– 370–376	أنطاكية: 258
إسبانيا: 41	أوروبا: 45– 53– 137– 158– 177– 190– 191– 194–202– 206– 280– 286–302– 326
أستراليا: 131	
إسطنبول: 160– 244–251	
الإسكندرية: 244– 53–97	
آسيا: 73– 138– 139– 194	
الأغواط: 53	
أفريقيا: 58–73–77– 110– 113– 114– 221– 268– 274– 284– 296– 312– 316– 328	
ألماظة: 32	
ألمانيا: 45– 239– 282–302	
=ب=	
باريس:124– 274–317– 369– 373	بريطانيا: 268– 273– 314– 315– 344
البدوع: 15– 20– 49– 166– 358	بودواو: 271
البرتغال: 201	البويرة: 271
=ت=	

تركيا: 46– 53–270– 288– 314 تطوان: 200– 248 تلمسان:110– 240– 373 تندوف: 53	تونس– 14– 21– 22– 23– 24– 26– 27– 29– 30– 31– 32– 39– 40– 41– 51– 52– 54– 55– 56– 62– 68– 70– 71– 74– 75– 76– 80– 81– 82– 85– 93– 99– 100– 110– 143– 153– 154– 166– 167– 168– 175– 188– 239– 240– 242– 246– 249– 250– 252– 271– 296– 303– 327– 328– 329– 330– 364– 365– 368– 369– 371– 374– 381– 382– 383– 409
-ج-	
جاكرتا: 200	
-ر-	
الرباط: 248– 250– 373 روسيا: 45–182– 302– 344	
-س-	
سانت بول: 112 سردينيا: 44– 176 سطيف: 271 السعودية: 122– 131– 239– 373– 374– 375	السودان: 274 سوريا: 95– 148– 157 سويسرا: 36– 37– 40– 41
-ش-	
الشلف: 286	
-ص-	
صقلية: 44–191 الصين:45– 194– 271– 273	
-ص-	
طرابلس: 240– 252– 305– 328– 368	

= ع=	
العراق: 32– 74– 95– 148– 315– 320– 321– 322– 323– 324– 325– 334 عمان: 367– 370 العوينة: 41– 74	عين الباردة: 83 عين النعجة: 17 غرداية: 53
= ف=	
فاس: 237 فرنسا : 39– 42– 45– 47– 53– 57– 83– 89– 92– 96– 101– 112– 124– 134– 175– 191– 195– 198– 199– 209– 219– 220– 221– 222– 223– 225– 226– 229– 238– 268– 273– 274– 289– 300– 304– 306– 307– 309– 310– 315– 321– 328– 344– 345– 352– 367– 411– 413	فلسطين: 114– 311– 312– 314– 315– 316–318– 365
= ق=	
القالة: 224 القاهرة :33- 32- 30- 18- 16- 11- 8- 6- 34- 35- 36- 38- 39- 42- 52- 53- 55- 58- 59- 63- 11- 71- 82- 84- 89- 91- 92- 93- 94- 98- 100- 101- 102- 103- 105- 108- 135- 168- 193- 212- 224- 234- 258- 265- 330- 350- 351- 359- 363- 366- 367- 368- 369- 371- 375-	القدس:317-321-334- 375 قسنطينة: 5- 30- 31- 63- 65-188- 225- 229- 243- 259- 271- 307- 371- 374 قمار: 13- 17- 18- 19- 23- 24- 31-50- 63 – 75
= ك=	
الكدية: 259 كندا: 70– 79	
= ل=	

لبنان: 167– 334 لندن: 41– 71	ليبيا: 252–327– 328
= م=	
مدريد: 242– 242– 318 مصر: 32– 39– 56– 90– 99– 101– 114– 100– 115– 168– 175–238– 244–249– 260– 303– 304– 334–344– 351– 372 معسكر: 282– 283 المغرب: 46–95–97– 105– 112– 237– 240–241– 245–246– 247– 250–268– 284– 327– 328– 329– 332–336– 371	المفرق: 109 مكة: 240– 258 مينابوليس: 44– 74– 84– مينيسوتا: 84– 109– 190– 238– 267– 268– 270– 274– 317– 374
= ن=	
نيوهمشير: 109 نيويورك: 41– 111– 112– 317	
= هـ=	
الهند: 45– 46– 91– 270– 344 هولندا: 268– 274	
= و=	
وادي سوف: 10– 13– 31– 51– 75– 166 الولايات المتحدة الأمريكية: 52– 57– 249– 323– 325– 344	وهران: 95– 245– 281

فهرس الأحزاب والجمعيات و المنظمات والمؤسسات

- أ -	
الإتحاد العام للمسلمين الجزائرين: 90- 99- 108- 212- 351	الإليسكو: 161
- ج -	
الجامع الأعظم: 27- 68	جامعة عين شمس: 163
الجامع الحفصي: 25	جامعة كنساس: 43
جامع الزيتونة: 26- 27- 29-30- 35- 39- 50- 52- 53- 68- 70- 71-75 – 82- 166- 167- 173- 188- 330- 351	جامعة كونيتكت: 168
جامع صاحب الطابع: 24- 26	جامعة ليدن: 249
جامع القصر: 29	جامعة محمد الخامس: 250
الجامع المرادي: 26	جامعة الملك عبد العزيز: 163
جامع اليوسفي: 26	جامعة مينيسوتا: 6- 43-59- 109- 112- 113- 117- 123- 125- 126- 127- 130- 131- 157- 190- 238- 267- 270- 274- 317- 374
جامعة الإفريقية: 140	جامعة ميشغان: 123
جامعة آل البيت: 157- 160- 161-163- 370- 375	جبهة التحرير الوطني:6-33-37- 59- 92-93- 94- 98- 100- 108- 111- 112- 351
جامعة الدول العربية: 33- 38-371	جمعية الطلبة الجزائريين: 58-61-69-70- 71
جامعة الأمير عبد القادر: 65	جمعية الطلبة الزيتونين: 69
جامعة أوكلير: 116- 118- 119-120- 123- 132- 133- 191	جمعية البعثة الزيتونية: 8- 61- 69- 70- 71- 73- 76- 82
جامعة جزائر: 8-48- 60-123- 126- 127- 133 134- 142- 147- 154- 162- 163- 219- 238- 330- 351-368- 369	جمعية العلماء المسلمين: 2- 8-14- 18- 29-30- 31- 32-54-55- 63- 69- 70- 75- 76- 102- 153- 154- 170- 187- 194- 366- 369- 372
جامعة دمشق: 163	
- ح -	

حركة إنتصار الحريات الديقراطية: 69 الحزب حر الدستوري الجديد: 26– 27– 330 حزب الشعب: 14– 47– 69– 70– 72– 188– 303	الحكومة المؤقتة: 39– 40– 92– 99– 100– 101 حزب نجم شمال أفريقيا: 46– 369– 373–
=ر=	
رابطة الطلبة الجزائريين بالمشرق:39–89– 90– 100 رابطة الطلبة الفلسطين: 96	رابطة القلم الجديد: 80– 81–82 الربطة الطلابية المغربية: 95
=ج=	
كلية دار العلوم: 33– 35– 36– 37– 39– 43– 57– 106– 168– 173– 174–	كلية سانت كاترين: 112
=م=	
معهد بحوث و الدراسات العربية: 38 معهد عبد الحميد ابن باديس: 30– 74	منظمة الطلبة الأفارقة:122– 113
=ن=	
نادي الشبان المسلمين: 94– 101 النادي العربي الأمريكي: 114	نادي المعلمين: 101 نادي المغرب العربي: 92– 93– 100– 106

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

مقدمة..... 1

الفصل الأول: أبو القاسم سعد الله النشأة والتكوين.....12

أولا: مولده ونشأته..... 13

1- إسمه ونسبه.....13

2- عائلته 15

3- وفاته 17

ثانيا: تعليمه 19

1- الكتاتيب القرآنية 19

2- أبو القاسم سعد الله في الزيتونة.....21

3- أبو القاسم سعد الله في القاهرة 30

4- أبو القاسم سعد الله في أمريكا..... 39

ثالثا: شخصيته 48

1- العوامل المؤثرة في شخصيته. 48

2 - خصاله و مناقبه من خلال شهادة معاصريه.....59

الفصل الثاني: أبو القاسم سعد الله الطالب

أولا: نشاطه الطلابي في الزيتونة.....68

1- رئاسة جمعية البعثة الزيتونية.....70

2- الكتابة في الصحف و المجلات.....75

3- تأسيس رابطة القلم الجديد.....80

ثانيا: نشاطه الطلابي في الجزائر.....82

1- تدريسه بالمدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء المسلمين.....82

2- المساهمة في الثورة بالشعر والكتابة الأدبية.....85

ثالثا: نشاطه الطلابي في القاهرة.....89

1- نشاطه في رابطة الطلبة الجزائريين ثم الاتحاد العام للمسلمين الجزائريين.....90

2- التطوع في جيش التحرير المصري لرد العدوان الثلاثي على مصر.....101

3- النشاط الصحفي.....102
4- المساهمة في الثور بالكتابة و التأليف والنشر.....105
رابعا: نشاطه الطلابي في أمريكا.....108
1- نشاطه في الاتحاد العام للمسلمين الجزائريين.....108
2- النشاط الصحفي والإعلامي.....110
4- نشاطه في منظمة الطلبة الأفارقة 113
الفصل الثالث: أبو القاسم سعد الله الأستاذ.....115
أولا: تدريسه بجامعات أمريكا.....116
1- جامعة أوكلير.....116
2- جامعة ميشغان.....123
3- جامعة مينيسوتا 125
ثانيا- تدريسه بجامعة الجزائر.....132
1- منهج أبو القاسم سعد الله في التدريس..... 135
2- منهجه في التعامل مع طلبته.....140
3- طريقته في تأطير طلابه.....142
4- نشاطه الإداري والأكاديمي.....147
ثالثا: تدريسه بجامعة الأردن.....157
1- منهجه في التدريس بجامعة آل البيت 157
2- نشاطه الأكاديمي.....160
الفصل الرابع: أبو القاسم سعد الله مؤرخا.....164
أولا: رحلة أبي القاسم سعد الله من الأدب إلى التاريخ.....165
1- نظرة عامه حول تجربته الأدبية.....165
2- أسباب إنتقاله من الأدب إلى التاريخ.....173
ثانيا: منهج سعد الله في الكتابة التاريخية.....177
1- الكتابة التاريخية.....178
2- خصوصية منهج سعد الله في الكتابة التاريخية.....183
3- البعد الثقافي في كتاباته التاريخية.....189

ثالثا: موقف سعد الله من بعض القضايا التاريخية.....197
1- موقفه من الحقبة العثمانية.....197
2- مفهوم الحركة الوطنية وإشكالية البداية.....204
3- موقفه من كتابة تاريخ الثورة.....208
4- موقفه من كتابات المدرسة الإستعمارية.....217
الفصل الخامس: أبو القاسم سعد الله محققا ومترجما.....233
أولا: أبو القاسم سعد الله محققا.....234
1- تحقيق المخطوط المصطلح والمفهوم.....234
2- جهوده في الكشف والتعريف بالتراث المخطوط.....237
4- جهوده في تحقيق وإخراج التراث المخطوط.....246
3- منهجيته في تحقيق التراث المخطوط.....253
ثانيا: أبو القاسم سعد الله مترجما.....264
1- الترجمة المصطلح والمفهوم.....,,.....264
2- جهود أبي القاسم سعد الله في حقل الترجمة.....266
3- منهجية وخصائص الترجمة عند أبي القاسم سعد الله 276
الفصل السادس: قضايا ومواقف و آراء.....299
أولا: القضايا السياسية.....300
1- قضايا وطنية.....300
2- قضايا عربية.....310
ثانيا: القضايا الثقافية 333
الخاتمة.....349
قائمة المصادر والمراجع.....377
الفهارس.....388
أولا: فهرس الأعلام.....389
ثانيا: فرس الأماكن.....394
ثالثا: فهرس الأحزاب و الجمعيات و المنظمات و المؤسسات.....398

الملخص بالعربية

يعتبر أبو القاسم سعد الله من رواد المؤرخين و المفكرين الذين عرفتهم الساحة الثقافية في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد كان سعد الله من الجيل المخضرم الذي عاش قبل الاستقلال و عايش المرحلة الاستعمارية، مقدِّما في هذا الخصوص إسهاما نضاليا معتبرا في صفوف الحركة الطلابية إبان الثورة لصالح التعريف بالقضية الوطنية، فقد عايش مرحلة النضال الوطني طالبا بجامع الزيتونة ثم القاهرة ثم أمريكا، و بعد الاستقلال لم يبخل بجهده التعليمي و التدريسي في الجامعة الجزائرية من تخريج الكثير من الإطارات و الكوادر المثقفة.

بدأ أبو القاسم سعد الله مشواره العلمي و الثقافي أديبا و شاعرا لينتهي به المطاف مؤرخا و مفكر و محققا و مترجما للعديد من الدراسات، التي شكلت مرجعا مهاما لكل باحث في تاريخ الجزائر، بحيث لا يمكن لأي باحث أن يستغني عن مؤلفات الأستاذ أبو القاسم سعد الله و الاستفادة من محتواها، فرصيد هذا المؤرخ جعله من المثقفين الجزائريين الأوائل الذين استطاعوا إثبات وجودهم في الساحة الثقافية الجزائرية. و بالتالي ساهم في التأسيس لبناء مدرسة تاريخية جزائرية ، من خلال تدريسه و إشرافه على العديد من الرسائل الجامعية، و كذلك بكتاباته و أبحاثه و آراءه حول مختلف القضايا الوطنية، مما جعله يترك ملامح و بصمات واضحة على هذه المدرسة. فسعد الله يعتبر بحق أحد لبنات التاريخ الوطني الجزائري و أحد مرجعياته العلمية، من خلال الرصيد الفكري و الثقافي الذي تركه.

Résumé

Abou Al Kacem SAAD-ALLAH est l'un des historiens et penseurs qui ont connu l'arène culturelle dans la deuxième moitié du XX eme siècle, il était parmi la génération la plus expérimentée qu'a vécue avant et après la période coloniale en présentant une contribution patriotique au sein du mouvement des étudiants durant la révolution Algérienne pour faire reconnaitre la cause Algérienne à l'opinion public, il a continué sa lutte nationale où il été un étudiant à djamaa Al Zaitouna puis au Caire puis en Amérique, et après l'Independence, il a continué ses efforts scientifiques et pédagogiques à l'université Algérienne d'où il était à la contribution de beaucoup de cadres et des intellectuelles à l'obtention des diplômes universitaires.

Il a commencé sa carrière scientifique et culturelle comme écrivain et poète puis est devenu historien et penseur et par le temps est devenu également une référence à tout penseur où historien chercheur dans l'histoire de l'Algérie par les richesses de ses œuvres, et tout cela lui a permis d'être parmi les premiers qui ont pu s'imposer dans scène culturelle algérienne par ses écrits et son encadrement universitaire et par ses recherches et ses idées dans divers domaines et cela aussi lui a permis de laissé une trace dans l'histoire de l'Algérie. Saadallah est l'un des icones et références scientifiques en laissant derrière lui une bibliothèque très riches par l'héritage culturel qui l'a laissé

Abstract

Abu al-Qasim Saadallah is considered one of the pioneer historians and thinkers that the cultural scene has witnessed in the second half of the twentieth century. He was one of the generations who lived before independence and through the colonial period. In this respect, he contributed a lot with his struggle through the student's movement in favor of introducing the national issue, he lived the period of the national struggle as a student at the University of Zaytouna, Cairo then America, and after independence he also did much efforts that contributed to the training and the teaching of many educated and elite persons at the Algerian University.

He began his scientific and cultural career as a writer, a poet then he ended up as a historian, thinker, researcher and interpreter of many studies, which are regarded as an important reference for every researcher for the Algeria history. Indeed, no researcher can do a research without referring back to his writings and get benefit from its content. His works have made him one of the first Algerian intellectuals who were able to prove their prominence in the Algerian cultural scene. He also contributed to the establishment of an Algerian historical school, through teaching and supervising many university dissertations, as well as his writings, researches and opinions on various national issues, which let him leave a very clear personal. As a matter of fact, he is truly one of the great pillars of the Algerian nation history and one of its scientific references with regard to the intellectual and cultural heritage that he left behind.